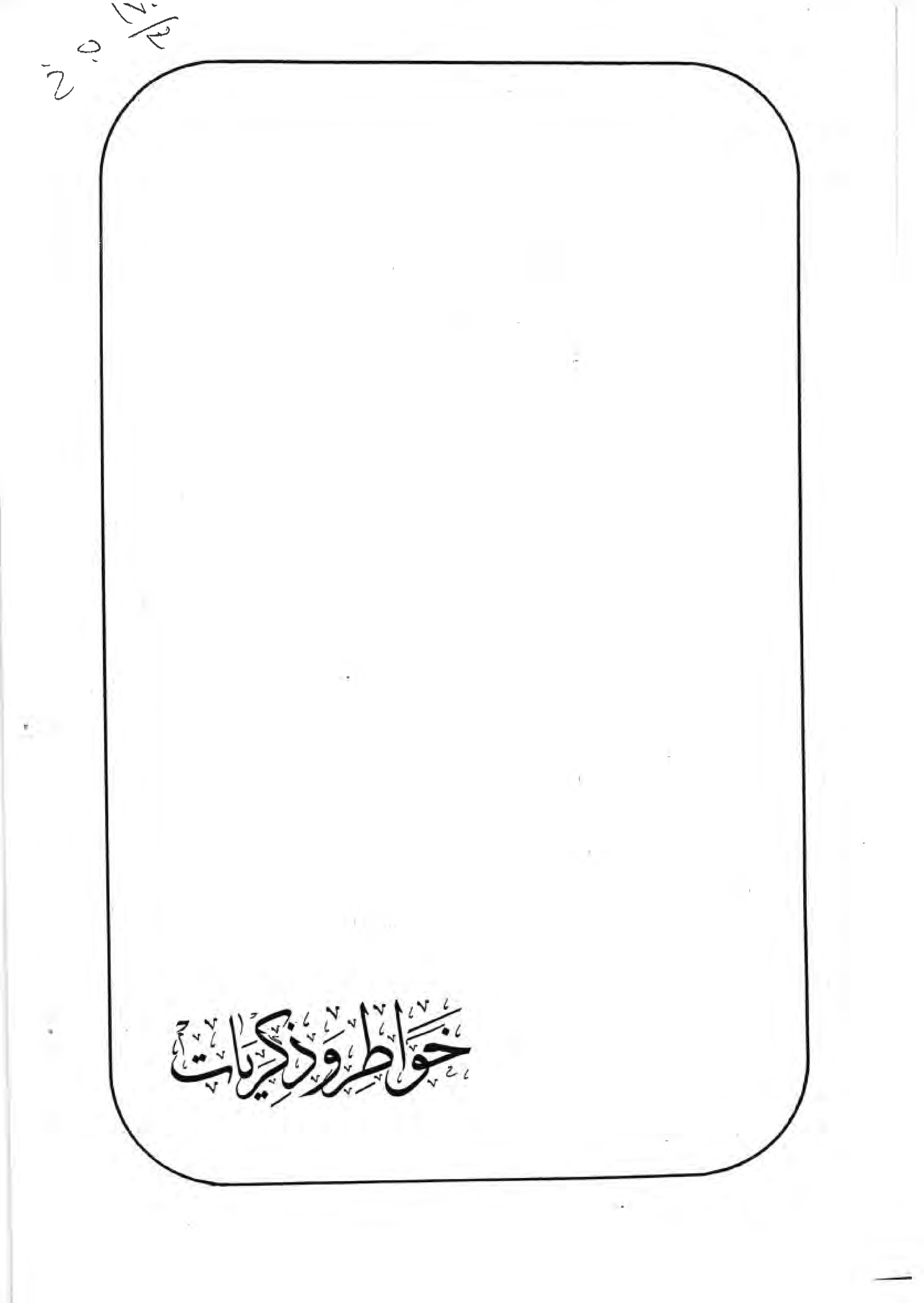
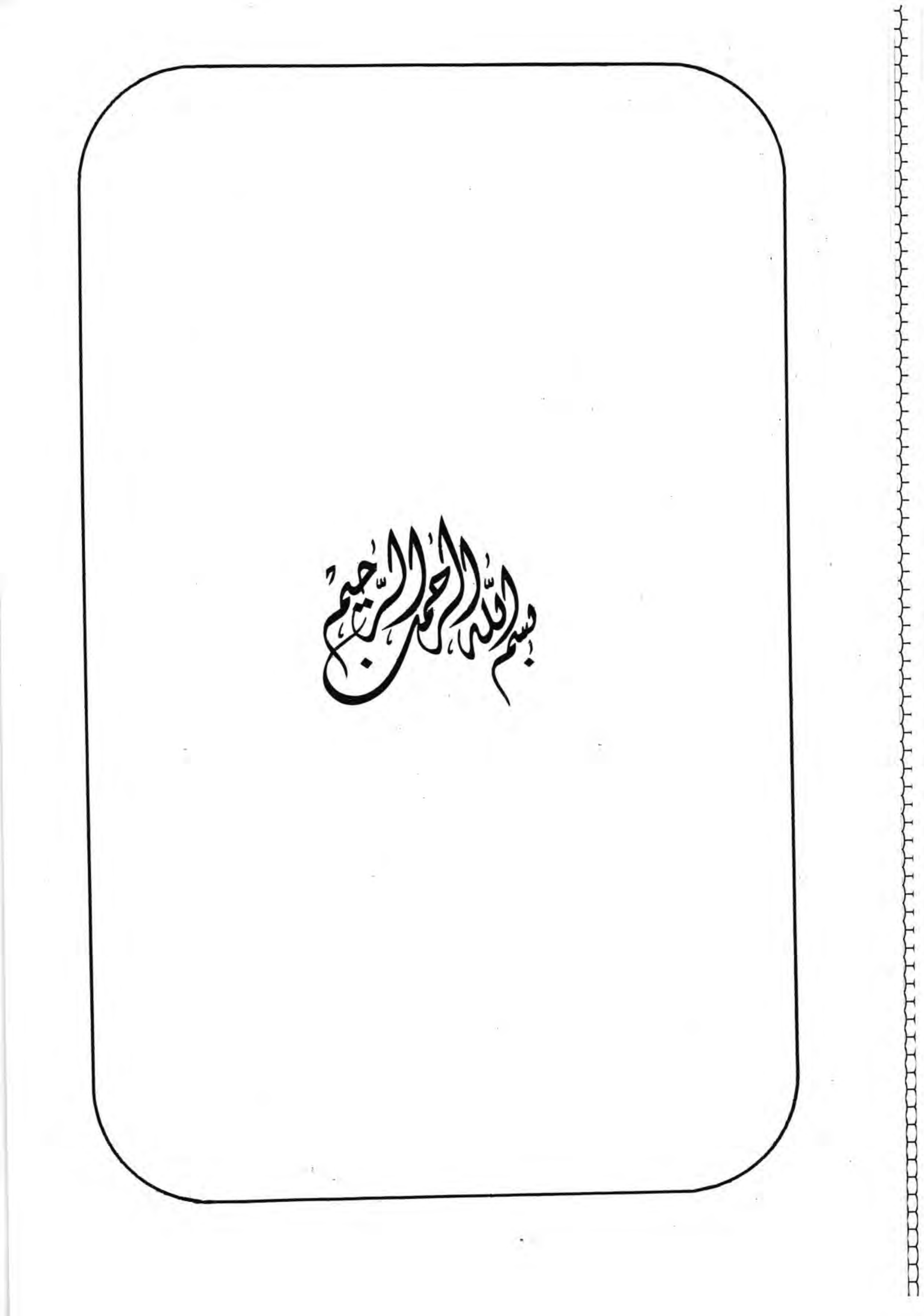

خواطر وذكريات


بسم الله الرحمن الرحيم



إبراهيم محمّد الحسّون

المجلّد الثالث

توزيع
المكتبة المكيّة

ⓒ المكتبة المكية، ١٤٢٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحسون، إبراهيم محمد

خواطر وذكريات / إبراهيم محمد الحسون - مكة المكرمة، ١٤٢٤هـ

٣مج

ردمك: ٥-٥٤١-١٠-٩٩٦٠ (مجموعة)

9960-10-544-X (ج٣)

١ - الحسون، إبراهيم محمد - ذكريات أ. العنوان

ديوي ٨١٣,٠٣٩٥٣١ ١٤٢٤/٣٧١٦

رقم الإيداع: ١٤٢٤/٣٧١٦

ردمك: ٥-٥٤١-١٠-٩٩٦٠ (مجموعة)

9960-10-544-X (ج٣)

جدة، ص ب: ٢٣١٦١ الرمز البريدي: ٢١٤٢٦

هاتف فاكس: ٦٦٥٠٤٩٠

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م



المكتبة المكية

طباعة-نشر-توزيع

مصاحف

كتب

مرئيات

صوتيات

هدايا

هدفنا خدمة الكتاب الإسلامي

فرع العزيزية: ٥٥٠٠٨١٢ / ٥٥٩٣٤٥٩ فرع باب المروة: ٥٧٥٥٦٧٧ / ٥٧٥٥٦١٨

فرع باب العمرة: ٥٧٢٤٨٤٢ الإدارة: تليفكس: ٥٣٦٦٢٩٩ ص.ب ٣٨٩٣

السعودية - مكة المكرمة - البريد الإلكتروني: almakkiah@hotmail.com



هذا المجلد الثالث من سِفْر الذكريات الذي أسجِّل فيه أهمَّ الأحداث التي مرَّت في حياتي، راجياً أن يكون فيه العبرة والفائدة لأبناء جيلي ولمن يأتي بعدهم في مستقبل الأيام.

وكنت انتهيت في المجلد السابق إلى الحديث عن أمنية غالية على نفسي طالما تمنيتها، ألا وهي زيارة مصر التي تمتلىء مخيِّلتي بما لا يُحصى من الصور والذكريات عنها.. ومعالمها الخالدة.. ممَّا كنت أتمنى رؤيتها على أرض الواقع، وقد سنحت الفرصة لزيارة القاهرة في ٢٥ من شهر جمادى الأولى عام ١٣٧٠.

وسأحدِّث القارىء في هذا المجلد من الذكريات عن سفري إلى القاهرة، وعن بعض معالمها التي رأيتها؛ عن شارع فؤاد، ومقهى الشرق، ومطعم الشُّوربجي، وحديقة الأزبكيَّة، ودور السينما، ومتحف قصر النيل، ومساجد القاهرة.. ثم انتقل بالقارىء إلى التاريخ، مُلمّاً بلمحة تاريخيّة عن مدينة القاهرة، وجامع عمرو، ومدينة الفسطاط، والقطائع، وتلاشي الدولة العبيديّة، والحملات الصليبيَّة على مصر، وحديث عن نور الدين الشهيد، والناصر صلاح الدين.

وأعود بعد هذه اللمحة التاريخية إلى معالم مصر، وذكرياتي فيها، والأمسيات التي حضرتها في شُعب الإخوان المسلمين الذين كانوا في أوْج نشاطهم وعنفوان دعوتهم.

ثم حديث عن عودتي إلى الوطن بعد ذلك، وتحقيق رغبة أخي في الاستقالة من عملي الرسميِّ، وبقائي بجواره في جُدة، وانتقالي إلى العمل في جمرك جدة..

ويعود شريط الذكريات إلى أكثر من خمسين عاماً في ١٣٧١/١/٢ عندما باشرت عملي في جمرك جدة، وذكرت للقارىء صوراً عن المديرية العامة للجمارك، ومستودعاتها، وجهاز التفتيش فيها، والمبصَّرين، والفكَّاكين، والمقرِّبين، والمخلِّصين.. وكيفية معاينة البضائع، وكيف تم إجراء مفاجىء في تحويلي إلى مستودع جديد؟!

ثم عدت للحديث عن أسرة أخي عبدالله، معرِّفاً بأبنائه وأصدقائه، وقيامي بالإشراف على أعماله، وإدارة أملاكه.. ثم عن مرضي ودخولي المستشفى اللبناني بجدة، ونجاتي من الموت.. وظهور أعراض مرض السل، وسفري إلى بيروت للعلاج..

وقصة علاجي في بيروت من أهم الأحداث التي مرَّت في حياتي، والتي تصلح أن تكون رواية أدبية سينمائية مؤثِّرة.. ذكرت للقارىء وصولي إلى بيروت، وانتقالي إلى مصح بحنِّس، ووصفت له المصح، ومسكن المرضى، ووجبات الطعام، ومبنى العمليات، وحدثته عن النزلاء السعوديين، والمسؤول عنهم الشيخ سليمان الغنيم، وقصة الممرضتين: ماري وروز، والمجتمع المتآلف الذي عشناه مع أصدقائنا المرضى في المصح.

وذكرت أسباب انتكاس صحتي، وتدهور حالتي، وإجراء العملية، وفشلها، ونصيحة تركت أثراً عظيماً في حياتي من الصديق صباح محمود الموصلي من العراق.

ثم ذكرت مشاهد رائعة من قصة الممرضة (روز)، وحقيقتها التي تخفيها، فهي مسلمة سنيَّة، اضطرت لإخفاء هويتها لتأمين لقمة العيش لأهلها، وكيف تمت إصابتها بمرض السل، وكيف تمَّ زواجها بأحد النزلاء السعوديين، وهو عطية بن راشد الغامدي، وكيف استطعت إدخال فاطمة

(روز) إلى المصح على الرغم من محاولة منع علاجها من إدارة المستشفى.. وكيف ظهرت البشريات لي ولفاطمة ولعطية الغامدي، وكيف تحقّق الفرج، وانتقلت من هاوية الموت إلى رحابة الحياة..

ثم بعد ذلك ذكريات مع القاضي الفاضل أحمد بن علي العَمْري، وتأكده بنفسه من قصة الزوجين: فاطمة وعطية الغامدي، ولقائي الحار بالغامدي وفاطمة في منطقة الباحة..

ثم أتابع الذكريات في لبنان بعد الخروج من المصح، وحضوري محاضرات دار التربية الوطنية، ورحلتي إلى مدينة بعلبك وتعرُّفي على آثارها القديمة، وزيارة قلعتها، ومتابعتي لصحف بيروت اليومية، ثم حديث عن مَصَحَّيْ (العزُونية) و(ظهر الباشق).. وقصة وفاة الأخ عبدالعزيز الخاطر نتيجة حادث بدراجة نارية.. وقصة حوار ساخن مع ماروني متعصِّب، وردي على شبهاته وتُرَّهاته وإفحامه.. وانتقالي للحديث عن الفردوس المفقود (الأندلس)، ومتابعة للنقاش مع الماروني المتعصب حول بعض معتقدات النصرانية..

ثم حديثٌ عن زيارة الملك سعود للبنان، ومرافقتي لموكب سموِّه، وزيارته لجمعية المقاصد الخيرية، ومكرمته السخية، والاحتفال الضخم الذي أقيم له، واعتلائي صهوة المنبر، وإلقائي كلمة هادرة أمامه..

وفي حديث السنين ومسيرة الحياة أقف مع القارىء عند محطة هامة، وهي: نبأ وفاة الملك عبدالعزيز في شهر ربيع الأول عام ١٣٧٣، وكيف تلقَّيت نبأ وفاته.. وشريط الذكريات الذي ارتسم أمام مخيِّلتي منذ دخوله الرياض إلى تأسس الدولة.. ثم ذكرياتي عن لقائي الأول والثاني بالملك عبدالعزيز..

وأتابع مع القارىء مسيرة قافلة العمر، وأحداث الحياة.. في سفري إلى القاهرة عام ١٣٧٣، وحديث طويل عن قصة أرض الخضار..

ثم عودتي إلى لبنان، ولقائي مع عبدالله القصيمي، والحوار الذي دار بيني وبينه..

ثم تصميمي على إجراء عملية جراحية في بيروت في مستشفى الجامعة الأمريكيَّة، والعودة إلى المملكة عن طريق البر، وعودة أخرى للحديث عن أرض الخضار.

ومتابعة لمسير أعمالي الوظيفية حديث عن تكليفي بالعمل في مكتب التفتيش بطريف.. وسفري إليها مباشرة للعمل هناك، وحديث مفصَّل مُسْهب عن جهاز موظَّفي المكتب، وطبيعة العمل، وقيامي بجولات تفتيشية مُتتالية، وحديث مفصَّل عن قصة السجاد المهرَّب، ثم مغادرة جمرك (طريف) إلى جمرك (حفر الباطن).. وسفري إلى الكويت، ونزولي في دار ابن العم إبراهيم العبدالعزيز الحسُّون، وحضور جلسات البرلمان، ولمحة عن الكويت، والحركة الثقافية والتجارية فيها، وعودتي إلى جدة، ولقائي مع وزير المالية الشيخ ابن عدوان.

وتعييني رئيس مال وأمين جمارك الحدود الشمالية، وأول لقاء بيني وبين أمير عرعر.. ووصف لمدينة عرعر وحركة التجارة فيها، وقيامي بالتنقيب في آثارها، ومسؤوليتي المباشرة عن عمل الموظفين، وتمرينهم على تحمُّل المسؤولية، والاجتماع بهم، ومناقشتهم..

ثم طفت بالقارىء مع قصص الأخ أبي صالح الدغيثر، والشلة الرباعية المكونة مني، ومن عبدالعزيز البعيجاني، وفهد الشامخ، ومحمد الدغيثر..

وحديث عن تفاقم مشكلة التهريب، والمؤتمر الذي عقدته وزارة المالية في جدة، ونتائج هذا المؤتمر..

ومن أهم ذكريات هذه الفترة الزمانية ذكرياتي عن إغاثة بادية الشمال في منتصف عام ١٣٨٠، وعن خطة الإغاثة، وعملية الإحصاء، وطريقة الصرف، وجسامة المهمة التي وكلت بها وحساسيتها وخطورتها، وشروعي بتنفيذ المهمة، وتشكيلي أربعة لجان، وعملية الإحصاء، والتوقف عن مواصلة الإحصاء.. وترقيم بيوت الشَّعر، ومواصلة عملية الإحصاء، واختصار الهيئات إلى ثلاث، ومباشرة الهيئات الثلاث لعملها، وإلغاء عملية الإحصاء المفاجىء، وسفري الاضطراري إلى الرياض، ودخولي مكتب الأمير نوَّاف،

وإلغاء برقية الأمير الأولى، والعودة إلى عرعر، ومواصلة التحدِّي، وحصيلة العمل، وإكمال المهمة، وبماذا كوفئنا على إتمام المهمة بنجاح؟!

ثم أعود بالقارىء إلى قصة السجاد المهرَّب الوارد عن طريق جمرك طريف، وقرار اللجنة الجمركية، ولجنة الاستئناف، وتسوية المعاملات وَفْق ملاحظاتي..

وذكريات عن سلاح الحدود الذي أنشأته الحكومة سنة ١٣٨٤، والقبض على عدد من المهرِّبين، وإجراء التحقيق معهم، ونظام عقوبتهم..

وذكريات عن قصة جريمة قتل وقعت خلال عملي في رئاسة مالية وجمارك الحدود في (عرعر)، وكيف تمَّت إجراءات التحقيق، وكيف اعترف القاتل..

وذكريات عن إجازة ممتعة في لبنان، وكيف وقعت في مصيدة محتال كذاب، وبرنامجي اليومي في بيروت، وتعرُّفي على المكتبات ودور النشر فيها.

وعودة من جديد إلى مسيرتي الوظيفيَّة، وجوْلاتي على الإدارات التفتيشية، وسفري إلى الطائف، ومقابلة وزير المالية، وتأييد صحّة إجراءاتي.. وصدمة الزميلين: حماد سليم، وأحمد العيسى.

ويمرُّ القارىء في حديث السنين عن ذكرياتي في (عرعر) والجو الأخوي الذي كان يسود بيننا، وعن طريقة منع الهروب من الوجبة؟! والمقْلب الذي تجرَّعه حسن قنذل، ووقوعه بالفخ.

وذكريات عن مشروع بيع أرض لوزارة المعارف من حائط الشعيبي، وقيامي بزيارة عنيزة بعد أربعين عاماً من مغادرتها.. وعدم نجاح المشروع بعد الاتِّفاق على قيمة الأرض، لاشتراط الهيئة أن تكون الأرض محرَّرة من الصَّبْرة (أي: الحكر)، وضياع صفقة مربحة..

وبمناسبة الحديث عن حائط الشعيبي، عدت بالقارىء لأقدم له لمحة موجزة عن موضوعه، وعن مدة التصبير التي كانت شائعة.. وعن ذكريات الطفولة ومدارج الصبا.

ثم أتابع المسير عندما عزمت على الحج سنة ١٣٨٦ منطلقاً من (عرعر) بسيارتي الخاصَّة، وحدثت القارىء عن خط السير، وعن قصة تحطم زجاج السيارة، والسعي في إخراج السائق من السجن، وفشل المساعي، حتى تم إطلاق سراح السائق..

وختمت ذكريات بقصتي مع بلدية عنيزة، وصدمتي البالغة وخيبة أملي في نسبة تحقيق المشاريع، وجدالي الحاد مع مدير البلدية، ولقائي بأمير عنيزة.. وقصة العرض المفاجىء والمحرج في اختياري من أهالي عنيزة لي، لأكون رئيساً لبلديتها، ودراستي للموضوع بتأنٍّ، ثم اعتذاري عن قبول المنصب. وعودة للحديث عن أسرتي، عن أبنائي الأربعة، ولم يبق لي منهم سوى ابني يوسف وابنتي هدى..

وكيف أرسلت يوسف إلى مدرسة دار المقاصد الخيرية في بيروت، ثم ابتعاثهُ للدراسة في لندن، ثم تزويجه على كريمة الصديق محمد إبراهيم الصغيِّر.

وفي آخر هذا المجلد حادثة منع تصدير السكر، ودقة الملك فيصل وحكمته في معالجة الأمور، وحادثة مركز الأمغر عام ١٣٩٢ بين المركز السعودي والمركز العراقي، ووضع معالم الحدود وترسيمها..

وختمت هذا المجلد باستراحة المحارب عند تحلُّلي من قيود الوظيفة عام ١٣٩٨، وإمضاء أجمل الأوقات في رحاب المكتبة، ثم اختيار الانتقال من (عرعر) إلى (جدة) وأسباب هذا القرار..

وأترك القارىء ليجوب هذه المحطات، ويقف عندها، ويلتمس منها العبرة والذكرىٰ.

ولي بعد ذلك ـ بعون الله وتوفيقه ـ عودة معه في حديث السنين وسير قافلة الحياة التي نتابع خطاها إلى الأجل الذي قدَّره الله لنا، راجياً أن يجد القارىء الفائدة والمتعة فيما كتبت، وأن يلتمس المعذرة فيما قصَّرت أو أخطأت، فكل ما أمليته إنما هو مما تختزنه الذاكرة..

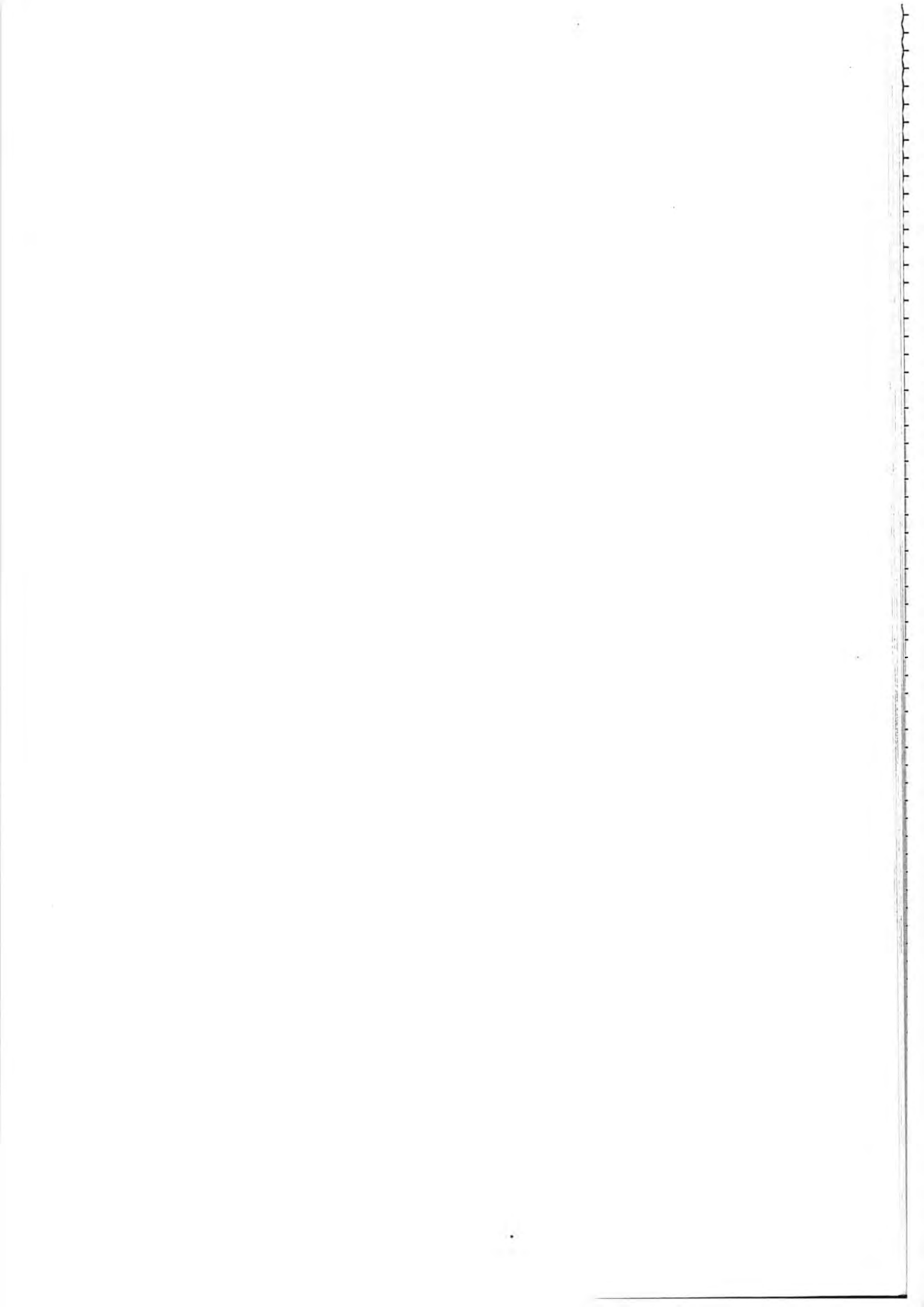
وأنا في التسعين من العمر، أسأل الله سبحانه أن يحسن ختامي، ويحقّق آمالي، ويمنحني عفوه ورحمته ورضوانه. وآخر دعائي أن الحمد لله ربِّ العالمين.

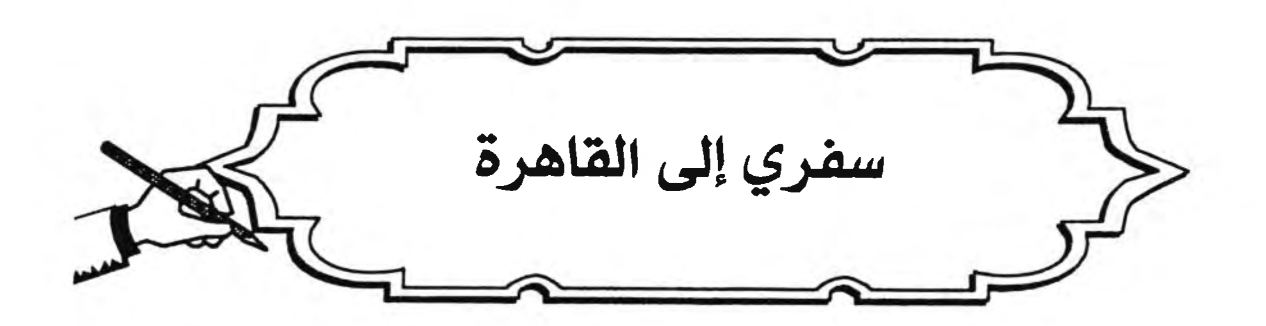
إبراهيم محمد الحسون

جدة في يوم الاثنين

٢٨ ـ جمادى الأولى ـ ١٤٢٤هـ







في الخامس والعشرين من شهر جمادى الأولى عام ١٣٧٠هـ غادرت مطار جدة متوجِّهاً إلى القاهرة، على طائرة سعودية نوع (إسكاي ماسترر)، على ما أذكر. قطعت المسافة بين مطار جدة ومطار القاهرة في حدود ثلاث ساعات تقريباً.

إجراءات الجمرك والجوازات المعقدة:

غادرت مطار القاهرة بعد أن أكملت الإجراءات المعتادة كالجوازات والجمرك، وقد لاحظت أنَّ في هذا المطار حرص شديد على معرفة ما يحمله القادم الجديد من نقود، كما أنَّ هناك بعض الصعوبات الماثلة في إجراءات الجمرك والجوازات، وهي على العموم ليست بذات بال، وإنما هي بدون شك تضايق القادم، وتترك في نفسه انطباعاً سيئاً.

شارع فؤاد:

سألني سائق التاكسي أثناء السير: أين تريد؟ قلت: شارع فؤاد، دون أن أحدد له فندقاً معيناً لعدم معرفتي بالفنادق الموجودة بهذا الشارع أو غيره، ولحسن الحظ فقد عقَّب السائق على قولي بقوله: تريد فندق جراند أوتيل قلت: نعم، وقد شكرته في نفسي، لأنه عيَّن لي فندقاً في ذلك الشارع، حملت شنطة ملابسي إلى الأوتيل - أعني جراند أوتيل - استلم مني الجواز موظف الاستقبال، وأرسل معي خادماً يحمل مفتاح الغرفة التي عُيِّنت لي، صعدنا معاً إلى الغرفة وأخالها بالطابق الثالث.

مقهى الشرق:

خلعت ملابسي، وأخذت قسطاً من الراحة على السرير بعض الوقت، ثم نزلت إلى أسفل، وكنت لاحظتُ عند دخولي الفندق أن أمام مدخله عدة كراسي بينها موائد صغيرة، وعليها مجموعة من الرجال، وبعضهم أمامه زجاجة كولا، والآخر أمامه إبريق من الشاي مما يعني أن هذا المكان مقهى شعبي، ولذلك اتجهت إليه، وهو لا يبعد عن مدخل الفندق بأكثر من ٤ أمتار تقريباً، ويدعى مقهى الشرق.

طلبت زجاجةَ كولا، ثم (شيشة حُمِّي)، وكنت آنذاك أدخن النارجيلة في جدة، وهو ما يعرف بالجراك، كنت أتفرَّس في وجوه الجالسين أمامي، وهم أناس بسطاء يتبادلون الضحكات والنكت، وأنا بينهم أشبه بالطائر، الذي رفع عن عينيه البرقع، بحيث يجيل طرفه يَمْنة ويَسْرة ليتعرَّف على كل شيء ويستوعب كل شيء إنْ أمكن.

حادث ساءني:

كان مدخل الفندق أمامي، وأمام الفندق نافورة ماء، ويجلس على جدار هذه النافورة مجموعة من الأشخاص، ولست أعرف إذا كان هؤلاء الأشخاص تابعين للفندق أم لا، كان من ضمنهم شاب أنيق يبدو أنه لم يتخط العقد الثالث من عمره، كان وسيم الطلعة، أنيق الملبس، يرتدي بدلة بمنتهى الأناقة والشياكة، وما هي إلا دقائق حتى رأيت هذا الشاب يتجه إليَّ فيصافحني بحرارة قائلاً: كيف حالك يا عم إبراهيم، والحمد لله على سلامة الوصول، وقد شرَّفتم مصر.

في قرارة نفسي دُهشت لمعرفته باسمي، ولكن يبدو أنه تحصَّل على ذلك من موظف الاستقبال بالفندق، وأعتقد أنها طريقة يستعملها معي ومع غيري، أي أنَّ هناك اتفاقاً بين موظف الاستقبال بالفندق وبين هذا الشخص وأمثاله يقضي بتزويدهم بأسماء الوافدين الجُدُد للفندق.

أخذ يتحدَّث معي بلباقة وأدب وأسلوب مهذَّب، جعلني أصغي إلى

حديثه، كان حديثه إليَّ حديث من يعرفني منذ سنوات لا من هذه اللحظة فقط، وإن كنت في قرارة نفسي لم أرتح إلى هذا الوافد الجديد، بَيْد أني رأيت من الأنسب مجاملته ومبادلته الحديث، بعد أن سألته عمّا إذا كان يرغب شاي أو زجاجة كولا، وقد اختار الأخيرة، مرت دقائق كان الحديث منه وكان مني الاستماع، وإذا به يفاجئني بقوله: أين تريد أن تسكن؟

إن الفندق غالي وأنت بحاجة إلى سكن مريح تأخذ فيه راحتك الكاملة، وبتكاليف قد لا تزيد عن نصف تكاليف الفندق.

أجبته بموافقتي على رأيه، وأن من الأوفق لمثلي أن يترك الأوتيل إذا كان هناك سكناً يريحه وتتوفر به وسائل الراحة.

ما كاد يسمع مني هذه الكلمات، حتى أردف قائلاً: أنه يوجد لديه سكن مريح، وهو عبارة عن شقة مفروشة ومزوَّدة بكلِّ وسائل الراحة، وتقع على مقربة من حديقة الأزبكية، وبينما كنتُ أفكر بما يقوله: إذا به يردف قائلاً: إنني أقوم بتأمين السكن لكثير من السعوديين وغيرهم، وإن هذه الشقق بالإضافة بتجهيزها بكل ما يلزم فهي بالإضافة إلى ذلك تمتاز بتوفر المتع فيها، هنا سألته: أي متع تعني؟ أجاب: من النوعين، وهنا أدركت ما يرمي إليه، فصرفته بلطف قائلاً له: إن بقائي في الأوتيل هو مؤقت، لأن أحد أقاربي يقيم في القاهرة، وسيحضر لاصطحابي معه بعد ساعة أو ساعتين.

انصرف الشاب، وكم آلمني ذلك، ولكن هكذا الحياة وهكذا الناس. قررتُ في نفسي أن أبتعد عن أيِّ فندق يتواجد فيه عربي من أيِّ بلد كان، وبالدرجة الأولى الابتعاد عن فندق جراند أوتيل هذا.

مطعم الشوربجي:

كان على مقربة من الأوتيل مطعم يعرف بمطعم الشوربجي، دلَّني عليه صاحب المقهى، فتناولت طعام الغداء فيه، وهو نظيف ومتميز بأطباقه التي يقدمها، بالإضافة إلى رخص أسعاره بالنسبة لموقعه ولما يقدمه من أطعمة.

تركت المطعم، ثم عدت إلى الفندق بعد صلاة الظهر، ثم استرحت قليلاً، ولكن كانت اللهفة والشوق إلى معرفة شارع فؤاد تدفعني بإلحاح أن أبادر السير فيه، وفعلاً سرت متَّجهاً إلى الشرق على ما يبدو لي، إذ إن الشارع هذا ينتهي بحديقة الأزبكية، الذي يفصل بينه وبين شارع أظن أنه شارع إبراهيم باشا.

(خبيبي) اليوناني:

وصلت إلى نهاية الشارع أسير متئداً، أنظر يَمْنة ويَسْرة، وأتفرَّس بالمعارض والمحال التجارية، وكان متجر شيكوريل من أبرز معالم هذا الشارع.

فندق سكس هاوس:

أثناء عودتي إلى الأوتيل، وقبل أن أصل بـ ١٠ أمتار تقريباً لاحظت عن يميني شارعاً مقفلاً به عدة محلات، ومن ضمنها لوحة كتب عليها أوتيل سكس هاوس فعرفت أنه فندق، دخلت الفندق. فإذا بصاحبه على مقربة من المدخل، وإذا به يوناني يتكلم العربية بصعوبة، حيث يضع الخاء بدل الحاء.

سألته: أيوجد لديك في هذا الفندق نزلاء من العرب؟ أجاب: لا (يا خبيبي)، هذا الفندق كلهم أجانب ـ سألته: أيوجد لديك غرفة؟ قال: نعم. ثم أصعدَ معي أحد المباشرين بالفندق، وأطلعني على غرفة بالدور الثاني، كان فيها حمام مستقل، وكان أثاثها نظيفاً لا بأس به، وكان لها برندة تطل على الشارع، كانت أجرة الغرفة يومياً نصف جنيه، لم أهتم بأجرة الغرفة قليلاً أو كثيراً، وإنما يهمني بالدرجة الأولى أن لا يوجد بهذا الفندق عربي واحد، وكان الجنيه آنذاك يساوي ١٠ ريالات سعودية تقريباً.

قد تكون هذه مني أنانية ممقوتة وترفُّع لا مبرر له، ولكن عذري في ذلك أنني أريد أن أخلو بنفسي، لأتفرَّغ لإرواء ظمئي بالتجوُّل على كل ما أرغب مشاهدته من معالم القاهرة وأحيائها، مضافاً إلى ذلك أنَّ وجودي مع

إخواني العرب بشأنه أن يحرمني من ذلك، لأنني بطبيعة الحال سأضطر لمجاملتهم في تنقلاتهم، وقد تكون تلك التنقلات لأماكن لا أرغبها.

ذهبت إلى الفندق (جراند أوتيل) وحاسبته، ثم غادرته مصاحباً شنطة ملابسي متَّجهاً إلى فندق سكس هاوس (عند خبيبي اليوناني) كان الوقت آنذاك بعيد صلاة العصر، وكنت حملت معي من كشك الجرائد مجموعة من صحف ذلك اليوم. صعدت بها إلى غرفتي، وأمضيت معها بقية يومي.

دليل معالم القاهرة:

زارني صاحب الفندق بغرفتي، فسألته ما إذا كان لديه دليل يوضح معالم القاهرة وأحيائها؟ فقال: نعم. سأرسله لك الآن، وفعلاً أرسله إليّ مع المباشر.

كان الدليل الذي أرسله مهترئاً من القدم وممزقاً في الكثير من أوراقه، ولا يوجد فيه الكثير مما كان مسجَّلاً فيه، لذا فقد نزلت إلى صاحب الفندق وشرحت له أن هذا الدليل ممزق، ولا يفي بالغرض، وعما إذا كان يوجد لديه دليل جديد بدلاً عنه فأجاب بقوله: يوجد دليل جديد (يا خبيبي)، ولكن قيمته جنيهان، فدفعت له المبلغ الذي طلبه ورجوته أن يسرع في إحضار الدليل، ثم صعدت إلى غرفتي، وما هي إلا ساعة تقريباً حتى وافاني خادم الأوتيل بالدليل الجديد المطلوب.

برنامج سياحتي في القاهرة:

أخذت أفكِّر في الكيفية التي تمكنني من أن أقضي سحابة يومي صباحاً ومساءً، في التصرُّف ومشاهدة كل ما أرغب مشاهدته، ولذلك فقد رسمت خطةً يومية، أنفذُها كلَّ يوم من الصباح حتى المساء، وهذه الخطة تتلخص فيما يلي:

أ ـ في الصباح من الساعة السابعة حتى الثامنة أصطحب صحف ذلك اليوم إلى حديقة الأزبكية، وكانت في ذلك الوقت لا يوجد لها سوى مدخل

واحد، باتجاه شارع فؤاد، ودخولها يستلزم أخذ تذكرة من موظف عند بابها، لا أذكر قيمة تلك التذكرة الآن، ولكن هذه التذكرة هي وسيلة دخولك للحديقة.

حديقة الأزبكية:

كانت الحديقة واسعة، وكان فيها مجموعة من المطاعم والمقاهي النظيفة، وكان الجو فيها هادئاً ومريحاً، كانت زقزقة الطيور، وشدو البلابل تضفي عليها جواً من المتعة.

كنت أمضي الساعتين السابعة والثامنة في أحد مقاهي هذه الحديقة أتناول خلالها طعام الإفطار، ثم أتجه في تمام الساعة الثامنة إلى العتبة الخضراء وهي تقع على مقربة من الحديقة، على ما أذكر.

العتبة الخضراء:

كانت العتبة الخضراء هي نقطة الانطلاق لوسائل المواصلات آنذاك في القاهرة، وكانت تلك الوسائل ممثلةً في عربات الترام، لأنه لم يكن للسيارات آنذاك أي وجود.

عربات الترام:

كانت عربات الترام تجوب جميع أنحاء القاهرة، انطلاقاً من العتبة الخضراء، ثم تعود إليها مرة أخرى بعد جولة تطول أو تكثر، لتنطلق من جديد إلى حيث جاءت.

كانت عربات الترام تحمل أرقاماً متسلسلة في لوحات مثبتة في مقدمة العربة وفي مؤخرتها، مضافاً إليها أسماء الأماكن التي ستمر بها هذه العربات، مثلاً كوبرى أبو العلا ـ مصر القديمة ـ جامع عمرو بن العاص، وهكذا.

زيارة المواقع وتدوين الذكريات:

كنت أتجه إلى العتبة، فأقرأ رقم اللوحة، وأقرأ أسماء الأماكن التي ستمر بها هذه العربة، وأحدِّد منها المكان الذي أرغب الوصول إليه، ثم

أصعد إلى العربة طالباً من الكمساري أن يشعرني بالمحطة التي حددت له اسمها إذا وصلت العربة إليها، وهكذا أحدِّد اليوم زيارة مصر القديمة مثلاً، أذهب إليها، وأمكث فيها حتى الساعة الحادية عشر والنصف تقريباً. أتجول فيها مشياً على الأقدام، فاحصاً مدقِّقاً مدوَّناً في مذكرتي بعض الملاحظات التي أرى ضرورة تسجيلها، بحيث تمكنني هذه الفترة من تكوين فكرة واقعية ومفصَّلة عن هذه المنطقة عن نوع البناء، هندسة المساكن، المتاجر إن وجدت، نوع الجمهور الذي يسكن فيها، معالم الحضارة إن وجدت، وبالجملة أكون قد كوَّنت فكرة عامة ومفصلة، ومن ثَمَّ أتجه إلى محطات الترام، فأصعد إليه عائداً إلى الفندق، وتكون الساعة عادة آنذاك ما بين الحادية عشرة والثانية عشرة، ثم أشرع في غرفتي بتدوين جميع ملاحظاتي عن هذه المنطقة، محدِّداً اليوم والساعة والتاريخ ثم أؤدي صلاة الظهر، وبعدها أتجه إلى المطعم، ثم أعود إلى الفندق، لآخذَ قسطاً من الراحة، حتى تأتي الساعة الثالثة.

زيارة دور السينما:

وهنا أختار داراً معينةً من بين دور السينما أتخيَّر موقعها من الدليل، فإذا كان موقعها قريباً من الفندق ذهبت إليها سَيْراً على الأقدام، أما إذا كان بعيداً فأستقل إليها عربات الترام، وأوصي السائق بإنزالي عندما أصل إلى المكان، كما فعلت في الصباح، فما أكاد أصل إلى دار السينما حتى يوشك العرض فيها أن يبدأ، فأقطع التذكرة وأسرع إلى الصالة، عادة يستمر العرض نحو ٣ ساعات ويكون الانتهاء عادة عند الساعة السادسة.

أذهب بعد ذلك إلى الفندق، فأدوِّن في أوراقي اسم السينما أو المسرح، مكان موقعها، نوع البناية التي تحتلها، اسم الفيلم المعروض، مضمونه، ملاحظاتي على الفيلم والممثلين، من حيث الجدية والهزل، وعن جمهور الحضور، ومن أي طبقة هم، وسلوكهم أثناء العرض، وبالجملة فإني أسجل وصفاً تفصيلاً دقيقاً عن كل النواحي لهذا المسرح أو تلك السينما.

كنت أؤشر في الدليل على المنطقة التي زرتُها في الصباح أو عن السينما، أو المسرح الذي زرته في المساء، كي أشرع في زيارة أماكن أخرى في الصباح من المناطق والأحياء والمعالم التاريخية، وفي المساء دور السينما والمسارح، ظللت شهرين كاملين على هذا البرنامج يومياً دون انقطاع حتى لم يبق في القاهرة دار عرض أو مسرح أو حي أو معلم تاريخي أو معلم حضاري إلا وقد وصلتُه، ودوَّنت عنه الملاحظات الدقيقة الواقعية.

كنت أذهب في الصباح إلى الأحياء الشعبية، أو إلى منطقة الهرم والأماكن المحيطة بها - منها: مساكن تحت الأرض على هيئة غرف من عهد الفراعنة، بناة الهرم: أنزل إليها بنحو ٥ درجات.

متحف قصر النيل:

في متحف قصر النيل وحده، ظللت خمسة عشر يوماً أغاديه كلَّ صباح، أصله في الثامنة صباحاً وأغادره الساعة الثانية عشر ظهراً، حتى أكاد أزعم أنه قلَّ أن توجد قطعة من محتويات هذا المتحف دون أن أكون دوَّنت عنها في مفكرتي، وأذكر أنَّ هذا المتحف، وما يحتويه من آثار فرعونية، وهو أكثر من طابق، على ما أعتقد، ثروة تاريخية لا يمكن أن تقوَّم بثمن كما لا أعتقد أن بلداً من بلدان العالم يحتوي على مثل هذه الآثار الرائعة، أقولها بدون تحفظ: تمثِّل الكثير والكثير من حياة الترف والنعيم والمستوى الحضاري الذي ينعم به أبناء مصر في عهد الفراعنة الأول وخلال قرون موغلة في القدم، فترى فيه أنواع الزينة والحُلي التي كانت ترتديها نساء تلك العصور، وسائر الحضارة الأخرى كالأواني ومستلزمات الترف، ونماذج من مراكب السفن وخيول مجسمة بمستوى خيول الوقت الحاضر، تشاهد التمثال من الخيل، وكأنه واقف الآن أمامك لتمتطي صهوته.

فراعنة مصر المحنَّطين:

كان من ضمن ما شهدته لحُسن حظي اثنا عشر فرعوناً من فراعنة مصر المحنطين ضمن توابيتهم، كانوا قد أخرجوا من تلك التوابيت

وعرضوا مكتوفين بعضهم بجوار بعض، ووُضعوا في داخل غرفة بالطابق الأعلى من المتحف، وسمح للسياح بمشاهدة هذه المومياءات، وقفت أمام هؤلاء الحكام الاثني عشر من فراعنة مصر، وأذكر أنَّ أحدهم كانت توجد على حافة جفنه الأعلى للعين اليمنى بقعة صغيرة من الدم، وكأنه ثُجَّ به الآن.

كانت صورهم، وما هي عليه حالة أجسامهم، شيء أكبر من أن يوصف، وقد يظن من يراهم لأول مرة، ولم يعرف عن خبرهم شيئاً، أنَّ هؤلاء لم يمضِ عليهم قرن أو قرنين فقط، قبل أن يغادروا هذه الحياة في حين أن مغادرتهم لهذه الحياة قد لا تقل عن سبعة آلاف من السنين.

الألف مئذنة:

كنت أحرص أشدَّ الحرص على المعالم الإسلامية، التي تمثلها بالدرجة الأولى، مساجد العبادة، التي تنتشر بكثافة على امتداد مساحة القاهرة الشاسعة، مما جعل القاهرة تعرف بأنها ذات الألف مئذنة، وهو قول صحيح لا مبالغة فيه، فكان ملوك مصر سواء في العهد العباسي أو الأموي أو الفاطمي أو الأيوبي، قد أكثروا من تشييد المعالم الحضارية، وكان ملوك مصر من المماليك يتنافسون فيما بينهم في تشييد مساجد العبادة، وكثيراً ما كان الواحد منهم يشيد قبره داخل المسجد الذي يشيده، موصياً بأن يُدفن فيه، وكان الشارع الممتد من العتبة الخضراء ومبنى الأزهر قد حفَّت جوانبه من الجانبين بمساجدُ رائعة البناء باهرة الهندسة، مسرفة في التزويق والنقش.

مساجد القاهرة:

فهذا مسجد الحاكم بأمر الله، حكم مصر ما بين **٣٩٤** إلى **٤١١**، وهذا جامع السلطان حسن، وهذا جامع برقوق، وآخر جامع قانصُوه، وهكذا بقية حكام مصر من دول المماليك الثلاث، التي حكمت مصر،

ذهبت إلى هذه المساجد مسجداً مسجداً، ومكثت عدة أيام أتجوَّل في الأزهر، وفي مرافقه والساحات العامة، والأحياء المحيطة به، وكنت أدوِّن كل ما يقع نظري عليه.

زرت جامع أحمد بن طولون، وزرت جامع القلعة الذي شاده محمد علي، والقلعة التي شادها صلاح الدين الأيوبي، وكذا مسجد الرفاعي، ومسجد الحسين، ومسجد السيدة زينب، والأحياء المحيطة بها، ومنطقة الدَّراسة، وحديقة الحيوان بالجيزة، وأحياء القلعة، وباب الفتوح، ومسجد الإمام الشافعي، والمقطَّم، ولعلَّ من المفيد أن أذكر حادثةً طريفة حدثت لي بمناسبة صلاة الجمعة في مسجد الإمام الشافعي، أرى من المناسب ذكرها للتاريخ.

التجول في الجبانة:

على مقربة من مسجد الإمام الشافعي يوجد مدخل يفضي إلى مساحات هائلة، محاطة بسور، يوجد فيها أبنية من الطين ملاصق بعضها بعضاً، كما يوجد فيها قبور مكشوفة للعراء تعلوها ألواح رخامية بطول أكثر من متر تقريباً منصوبة على القبر، أحدها عند رأس الميت، والآخر عند رجليه، وتحمل هذه اللوحات الرخامية نقوشاً محفورة توضح اسم الميت وتاريخ وفاته، ونبذةً موجزة عنه، وتطلب من الزائر الدعاء له، كما يتضمن بعضها أبياتاً من الشعر أو آيات قرآنية.

أما الحُجَر الموجودة في هذا المكان، فكل حجرة منها بطول مترين تقريباً أو أقل، في عرض متر أو متر ونصف، وهي مسقوفة، ويوجد فيها قبر مثبت، وتفضي إلى غرفة صغيرة بجوارها، مكشوفة السقف، ينزل الميت عن طريقها، وقد فهمت أنَّ هذه الغرفة المكشوفة كانت مخصصة للقارىء الذي يأتي يومياً أو أسبوعياً لتلاوة القرآن الكريم في هذا المكان، كما علمت أنَّ صاحب القبر داخل هذه الحجرة هو من الوجهاء والأعيان وأصحاب الثراء.

صلاة الجمعة في مسجد الإمام الشافعي:

وصلت المسجد لأول مرة لأؤدي صلاة الجمعة، وقد جئت مبكراً في ذلك اليوم، أي قبل ميعاد الصلاة بنحو ساعتين، وعندما وصلت إلى المسجد كان مغلقاً لم يفتح بعد، فأحببت أن أقضي الفترة متجولاً في هذه المقبرة، وتُعرَف عند أهل مصر بالجبانة.

كان من ضمن ما قرأته على إحدى اللوحات الرخامية كتابة تحدد تاريخ الدفن بـ ٧٣٥هـ ولم أستطع تمييز الاسم المسجل، نتيجة لتآكل الحروف لتقادم الزمن، بيد أن هذه اللوحة تحمل في أسفلها بيتين من الشعر نصهما كما يلي:

تذكر جميلي مذ خلُقتك نطفةً ... ولا تنس تصويري لشخصك في الحشا

ففوِّض إليَّ الأمر واعلم بأنني ... أنفِّذ أحكامي وأفعل ما أشا

تجوَّلت بين هذه القبور، متنقلاً من قبر إلى آخر، أقف أمام اللوحات، وأقرأ ما أستطيع قراءته مما كتب عليه، ومن الواضح أنَّ جولة بين القبور هذه، وقراءة لما كُتِب على نصائلها (لوحاتها الرخامية)، ومشاهدة تواريخها المتفاوتة، وما تحويه بين أحضانها من مختلف طبقات الشعب: الأمير مع الخفير، الملك مع السوقة، الغني مع الفقير، الجميع تساووا تحت التراب، وهو موقف يثير في النفس الكثير الكثير من العبر والشجون.

أمير القراء عبدالباسط عبدالصمد:

كنت سارحاً بين هذه القبور، أجد متعة ولذة فيما أشاهد، وفيما أقرأ، وإذا بي أسمع آيات الذكر الحكيم، منطلقةً بصوت رخيم شجي من حنجرة أمير القراء المرحوم عبدالباسط عبدالصمد، وكان في تلك الأيام في أوائل بروز شهرته.

خطبة رائعة:

أسرعت عائداً إلى المسجد، لأنَّ الصوت كان منطلقاً منه، وفعلاً وجدت المسجد قد اكتظَّ بجمهور المصلين، ولم يبق على الآذان والخطبة

إلا بضع دقائق، كنت أرتدي بنطلوناً طويلاً مكشوف الرأس، ألبس نظارتين سوداوتين، وكان منظري يوحي بأنني هندي أو باكستاني.

أعلن الآذان، ثم أقيمت الخطبة، وبعدها أُديت الصلاة. كان المسجد غاصّاً بالمصلين، وقد ضاقت مساحته عن استيعابهم، فملؤوا الساحة المجاورة للمسجد يفترشون الأرض.

كان الخطيب رائعاً بكل ما تعنيه هذه الكلمة. كان متدفقاً في إلقائه محسناً في عباراته، متميزاً في نبرات صوته، كان يهزُّ المشاعر، ويلعب بالعواطف مما جعل الغالبية العظمى من جمهور المصلين ينصت في خشوع وورع ظاهر، يكاد يجهش بالبكاء، وكنت واحداً من هؤلاء، ولذا فإنها ما كادت تنتهي شعائر الصلاة حتى اتجهت مسرعاً إلى حيث يوجد الخطيب في المحراب، فهبَّ واقفاً حينما رآني متَّجهاً إليه، ثم تعانقنا، وتبادلنا القبل والدعوات دون أن يعرف اسمي أو أعرف اسمه، ولكن يبدو لي أنه ثمرة من ثمرات الصَّرح الخالد الذي حفظ للإسلام مكانته بعد الله، وأعني به الأزهر الشريف. فهو أحد خريجيه أو طلابه، فكنت أثناء خطبته أتخيل أنني أستمع إلى قِسِّ بن ساعدة، أو زياد بن أبيه، أو أكثم بن صيفي، وغيرهم من مشاهير الخطباء.

لصوص المقابر:

عند خروجي من المسجد اتَّجهت إلى المقبرة مرة أخرى، بيد أنَّ أحد المصلين أمسك بطرف ثوبي قبل أن أدخل وسألني قائلاً: هل لك فقيد تزوره هنا؟ قلت: لا، فلاحظ أنني غريب عن المنطقة، وأشفق عليَّ، ولذلك سألني سؤاله هذا.

عندما أجبته بالنفي أجابني: إذن ما الذي يحملك على دخول الجبانة؟ فأوضحت له رغبتي في قراءة ما هو مكتوب على اللوحات المنصوبة على قبور الأموات لما فيها من عبر وعظات، وهنا قال لي: إنك تضع نفسك بتصرفك هذا في فوهة الأسد، فالغرف المبنية التي تراها هي أوكاراً

لعصابات المجرمين، وللخارجين عن القانون، والذين لا يحملون في صدورهم أي شفقة أو رحمة، وما أسهل وأيسر أن يقتنصوك ويقضوا على حياتك لكي يسلبوا ما معك ولو ملابسك، ثم يضعوك بإحدى الغرف، ولن يعرف أحد عن مصيرك.

شكرته من أعماق نفسي، وصافحته بحرارة مثنياً على مرؤوته وشهامته ونبله، ثم عرَّفته بنفسي وزوَّدته ببطاقتي الشخصية متمنياً أن أراه في جدة قادماً للحج بعد أن زودته بعنواني الكامل في جدة.

لمحة تاريخية عن مدينة القاهرة:

ظللت مواصلاً لبرنامجي هذا أكثر من شهرين، أذهب في الصباح إلى الأحياء الشعبية والمعالم التاريخية وما يماثلها، وفي المساء إلى دور السينما والمسارح في مختلف أنحاء القاهرة، وَفْق ما هو مسجَّل في الدليل، الحكومي، ولذا كانت متعتي متناهية وأنا أتجوَّل في جامع أحمد بن طولون وأستعيد التاريخ بذاكرتي، فأرى على شاشة ذهني أمجاد مصر في تلك الأيام، كما أقف الموقف نفسه في ساحة الأزهر الشريف، وأستحضر في ذهني صورة الواقع عندما وطأت سنابك خيل الفرنسيين أرضه عندما قدمت خيولهم بقيادة نابليون بونابرت، فهبَّ الشعب بأكمله كالإعصار، دفاعاً عن دينه وعن كرامته وعن تربة وطنه الغالية.

عمائم علماء الأزهر:

كانت عمائم علماء الأزهر في طليعة الجموع الغاضبة، التي اتَّجهت لمقاومة الفرنسيين، ضاربين (أي علماء الأزهر الشريف) أروع مثل في التضحية والفداء والنموذج العالي للعالم المسلم، وكأنهم يعيدون عصر سلطان العلماء العز بن عبدالسلام في موقفه لصدِّ تيار جحافل التتار، التي كادت أن تقضي على مصر وشعب مصر، وكابن تيمية زعيم العلماء وأمير المجاهدين عندما كان يحمل الراية في مقدمة جيوش دمشق لمواجهة التتار دفاعاً عن دينه وعقيدته.

مماليك مصر ومحمد علي باشا:

تذكرت، وأنا أَلِجُ باب القلعة، قادة المماليك حكام مصر آنذاك، حينما غدر بهم حاكم مصر محمد علي باشا، فقبض عليهم بحيلة ماكرة، مما حمل بعضهم على أن يقفز وهو فوق صهوة جواده من على الأسوار حتى يصل إلى الأرض، وكيف استتب الأمر لهذا الحاكم الألباني بعد أن تمكّن من القضاء على خصومه المماليك، في هذه المكيدة الغادرة الخسيسة.

في ضيافة قسيس:

خلال تجوالي في منطقةٍ على مقربة من حصن بابليون في مصر القديمة، وهي على ما أذكر مقابر للأقباط، كنت أتجوّل خلال هذه المنطقة، وهي مساحة تتناثر فيها القبور وبعض بقايا البناء المتهدِّم، وكنت أسير في هذا المكان وهبطت درجات قد تبلغ العشر، تفضي بي إلى جوف الأرض، وتؤدي إلى مكان ذي غرف متعددة، وبناء سليم، ويقابلني أحد الأشخاص مرتدياً بدلة سوداء، ويعتمر قبعةً سوداء أيضاً، ويعلق على صدره صليباً ذهبياً. الأمر الذي فهمت منه أنه قسيس مسيحي، وما كاد يراني هابطاً من الدرج أتجه إليه حتى استقبلني ببشاشة وترحاب، سائلاً: عما إذا كنت أرغب في زيارة العذراء، وقلت: هذا كان هدفي، فانفتحت أساريره بالبشر وتقدَّم أمامي خطوات، ثم انعطف بي إلى غرفة مليئة بالصور ومليئة بالشموع الموقدة، ويقع في أقصاها صورة للعذراء تحتضن ابنها الوليد الطفل سيدنا عيسى عليه السلام.

تبرُّع سخي:

وقفت أشاهد المنظر، وأجيل طرفي في هذه الغرفة ومحتوياتها، فلحظت على مقربة من تمثال العذراء إناءً مستديراً أشبه بالصحن، متوسط الحجم وعليه مجموعة من أوراق النقود ما بين فضية وورقية من مختلف العملات، رأيت من الأنسب أن أساهم فأضع في هذا الإناء شيئاً يبرر على

الأقل حفاوته بي، فوضعت بهذا الإناء جنيهين مصريين، فما كان منه إلا أن شدَّ على يدي بحرارة مُبْدياً ابتهاجه لهذا التبرع، الذي اعتبره سخياً بنظره، إذ قال لي: إنَّ العرب فعلاً هم كرماء، ثم أسرع إلى إناء بجوار العذراء له عنق أشبه بالمرش، الذي يستعمل في الأفراح، فيوضع بداخله نوع من العطور ثم يُرَش على الحاضرين، أحضر هذا الإناء فرشَّ منه على صدري وعلى رأسي، ثم أخذ يجاذبني أطراف الحديث بلسان عربي فصيح، يطرب السمع ويشنِّف الأذان.

صورة من سماحة الإسلام:

ودعته بعد أن فهمت منه الشرح الموجز المركّز بأنَّ هذا الدير أو الكنيسة على الأصح الذي يقع بباطن الأرض لا على سطحها إنما يرجع تاريخه إلى قرابة الفتح الإسلامي الأول، عندما قدم عمرو بن العاص في عام ٢٠هـ، وحاصر حصن بابليون هذا حتى اقتحمه، وسلم الحصن بمن فيه من جنود الرومان، كما سلمت بقية حصون مصر وجنودها من الرومان والمصريين للفاتح المسلم الجديد عمرو بن العاص، على يد حاكم مصر آنذاك المقوقس، وقد اغتنمت الفرصة، فقلت له تعقيباً على حديثه: إن احتفاظ هذا الدير بمكانه وموقعه كما ذكرتَ إنما هو المثل الساطع على سماحة الإسلام ورحابته، غامزاً له بقولي: هذا فعل الإسلام مع كنائس المسيحية، ولكَ أن تقارن بمحاكم التفتيش في إسبانيا، فهزَّ رأسه موافقاً، وقال بنبرة من الخجل: إن ذلك فعلاً أمر مؤسف، وهو في الواقع تصرُّف أحمق، لا يتفق وسماحة المسيحية.

سار معي حتى صعدت إلى أعلى، ثم عانقني بحرارة قائلاً: لترعاك رعاية الله.

جامع عمرو بن العاص:

خلال تجوالي في جامع عمرو بن العاص، الذي بني في مدينة الفسطاط (أي المخيم)، هذا الجامع الذي كان أول مسجد بُنِيَ على أرض

مصر، لذلك يعتبر أقدم جوامع مصر إذ تمَّ تشييده في عام ٢٠ من الهجرة.

كان هذا المسجد يقع وسط مساحة من الأرض تناثرت عليها مساكن المجاهدين الوافدين إلى مصر بقيادة عمرو، وكانوا في حدود أربعة آلاف في بادىء الأمر.

مدينة الفِسطاط:

كانت هذه البيوت تتكوَّن من الخيم البدائية، ثم تلاها البنيان، ثم تطورت شيئاً فشيئاً حتى أصبحت مدينة متكاملة البناء، مشتملةً على جميع العناصر التي يستلزمها وجود المدن، وثم أصبحت عاصمة للدولة الإسلامية في مصر، فنما البناء فيها وازدهر، واتسعت رقعة البناء فيها إلى مسافات شاسعة، يدل عليها ما هو موجود الآن على هذه الأرض، من بقايا البيوت، وأسس البناء، ومرافق المدن، ومجاري المياه وغيرها من المرافق.

تطور العمران في هذه المدينة إلى أن أصبح عدد المساجد فيها لا يقل عن أربعمائة مسجد، ولكن مع تقادم الدهر وانهيار البناء واختيار أماكن أخرى لتكون عوضاً عن هذه المدينة اندثرت هذه المساجد، ولكن بما أنَّ جامع عمرو هذا هو أول مسجد، وهو فوق ذلك واسع البناء عظيم العمارة فقد حرص المسلمون على العناية به على توالي العصور، احتفاظاً بقيمته التاريخية وبما يمثِّله في نفس المسلم الصادق من ذكريات حبيبة إلى نفسه، تمثل فجر الإسلام ببهائه وروائه وطهره ونقائه.

مدينة القطائع:

أُنشئت على مقربة من مدينة الفسطاط ـ التي سبق ذكرها ـ مدينة أخرى سميت بالقطائع على ما أذكر.

وأخالها تمت في عهد أحمد بن طولون الذي حكم مصر ابتداءً من أواخر القرن الثالث الهجري، واستمر في الحكم ومن بعده خلفاؤه، وكان آخرهم كافور الإخشيدي الذي على يديه تمَّ تسليم مصر إلى الدولة العبيدية

القادمة من إفريقيا (تونس)، الدولة التي عُرفت فيما بعد بالفاطمية، حيث قدمت جيوشها إلى مصر، واحتلت القاهرة في أواخر العقد السادس من القرن الرابع الهجري.

مدينة العسكر:

ظلت مدينة القطائع مدينةً عامرة، اتسع نطاق عمرانها إلى مسافات شاسعة أيضاً، وكانت مكتظة بالسكان وبالحركة التجارية، إذ كانت تمثِّل العاصمة في ذلك الوقت، وما هي إلا مدة قد لا تزيد عن قرنين حتى أُنشىء بجوارها مدينة أخرى سميت بالعسكر، وقد أخذت هذه المدينة نصيباً وافراً من التقدُّم والحضارة، فكانت مصر في تلك الأيام قد بلغت شأواً من الرقي والازدهار واستقرار الأمن، وبطبيعة الحال فإن وجود مدينة العسكر هذه قد أضعف من مدينة القطائع، وهذه نتيجة طبعية وهي سنة التطوُّر في الحياة.

مدينة القاهرة:

عندما وصل القائد العبيدي جوهر الصقلي، واحتل مصر، شرع من فوره بإنشاء مدينة أخرى لتكون عاصمة للدولة الجديدة سُمِّيت بالقاهرة وهي التي ظلت عاصمة لمصر حتى تاريخه.

تشييد الأزهر:

كانت الدولة العبيدية على جانب من الثراء والقوة، وحرصت أشد الحرص على أن تكون هذه العاصمة التي أنشأتها، على يد قائدها جوهر الصقلي، نموذجاً للمدن الكبرى، وعاصمة تليق بدولة شابة قوية، فكان من أوائل ما عُنيت به الدولة من إنشاء معالم حضارية تُشيد بمجدها وتحفظ تاريخها: أن شيدت الأزهر الشريف وهذا المعلم الديني الحضاري هو تاج أو درة عصماء في تاريخ تلك الدولة، هذا المَعْلَم ـ الأزهر الشريف ـ قد ظلَّ ولا يزال منذ أكثر من ١٠٠٠ عام مناراً مشعاً، ينتشر منه نور الإسلام،

فيعم العالم الإسلامي على امتداد رقعة وجوده على هذا الكوكب، ومن الإنصاف أن نوضح أنه لولا الله سبحانه وتعالى أولاً، ثم وجود هذا المعهد لما بقي الإسلام ينمو ويزدهر.

الأزهر وحده، بعد عناية الله، وعلى أكتاف علمائه ورجاله الأحرار بعد أن تمكن الأيوبيون من الإطاحة بالفاطميين سنة ٥٦٤هـ، هو الذي حفظ للشريعة مكانتها، وغذاها بالعقل والتفكير بما صدر وما يصدر عنه من مئات بل ألوف الكتب التي يصدرها في مختلف علوم الشريعة والقرآن. وإنك لن تجد بلداً دون أن تلحظ أيادي الأزهر وفضله عليها.

عاشت الدولة الفاطمية في أرض مصر قرابة مائتين وعشرين عاماً أي من عام ٣٥٩هـ حتى عام ٥٦٤هـ.

تلاشي الدولة العبيدية:

بلغت هذه الدولة في عهدها الأول شأواً رفيعاً، سيطرت على جميع المنطقة المحيطة بها بما فيها سوريا، ثم ابتدأت بالانحدار.

شاءت سنة الله في حياة الدول والشعوب أن تبدأ بدور الطفولة، ثم يشتد عضدها، ثم تبلغ دور القوة والفتوة، الذي يعقبه عهد الشيخوخة فالانحدار فالتلاشي.

ظلت مصر خلال تلك المدة تدين بالمذهب الشيعي، وكان حكامها يبعثون بالدعاة للترغيب بهذا المذهب، والحضّ على اعتناقه بدعم من حكام مصر، كان دعاة هذا المذهب ينتشرون في مختلف بلاد العالم الإسلامي، وفي عاصمة الخلافة العباسية السنية بالدرجة الأولى، وكانوا يجدون أنصاراً ومؤيدين.

نشوء المذهب الدرزي:

في إبان حكم هذه الدولة نشأ المذهب الدرزي الذي ابتدأ ظهوره في عهد الحاكم بأمر الله الذي حكم ما بين ٣٩٤هـ حتى اختفى فجأةً على أرض المقطَّم في عام ٤١١هـ ولم يُعرف مصير هذا الحاكم حتى الآن.

كان حكام هذه الدولة يتَّخذون شخصاً يعرف بالوزير يفوِّضون إليه التصرُّف المطلق في شؤون الشعب، يتصرَّف كيف شاء، بينما ينصرف هؤلاء الحكام إلى ملذاتهم بين جدران القصور والغانيات.

الحملات الصليبية على مصر:

وشاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن تنقذ مصر من هذا الهوان وهذا الشقاء، الذي تعانيه من حكامها ووزرائهم، فقد تمَّ ذلك على أيدي جحافل الصليبيين الذين فشلت محاولاتهم في تثبيت أقدامهم في منطقة الشرق الأوسط ـ أعني سوريا وفلسطين ولبنان وبقية بلدان العالم الإسلامي في شمال العراق كمدينة الرُها وآمُد وميافارقين وغيرها من المدن الإسلامية ـ فقد رأى الصليبيون أن مصر ما دامت طليقة اليد، فدعاة الصليبية لن يتمكنوا من تثبيت أقدامهم في أرض الإسلام رغم أنهم قد أنشؤوا ممالك صليبية في كلٍ من فلسطين والأردن ولبنان، وكثير من البلاد الإسلامية.

ظلت هذه الدول تحكم تلك المناطق أكثر من مائة عام، لذا فقد أقبلت جحافل الصليبيين في هذه المدة لتغزو مصر مركزة عليها وحاشدة لها كل إمكانياتها من عتاد وفرسان ومقاتلين، كان ذلك في حوالي العقد السادس من القرن السادس الهجري.

الصراع بين الوزيرين: شاور ودرغام:

وإذ كان الوزير في الدولة الفاطمية كما ألمحنا هو الحاكم المتصرِّف في حكم مصر، فإن مقاليد الأمور كلها بيده، وقد يحدث أن يكون للحاكم الذي كان يسمونه خليفة أكثر من وزير كما حدث في عهد آخر خلفاء هذه الدولة وهو المستنصر بالله الفاطمي، كان له وزيران: أحدهما يدعى شاور، والآخر درغام، ولكل من هذين الوزيرين قوة وشوكة وأنصار وجنود مدربون، وكان الصراع كثيراً ما يحتدم بينهما على السلطة، فيلتحمان في معارك بهدف قضاء أحدهما على الآخر، وكان الخليفة ـ أي الحاكم ـ لا يملك من الأمر شيئاً.

الجحافل الصليبية:

كانت نتيجة الصراع بين هذين الوزيرين أن استعان أحدهما بالصليبيين في أوروبا شارحاً لهم عن أوضاع مصر آنذاك، وأنها مفككة، ولا قدرة لها على المقاومة، وبمعنى آخر فهو يغريهم بغزوها، وفعلاً أقبلت الجحافل الصليبية تحملها مئات السفن حتى وصلت الإسكندرية، وشرعت في إنزال قواتها.

استنصار الخليفة الفاطمي بالشهيد نور الدين محمود:

وكان الخليفة الفاطمي المستنصر قد استنجد بحاكم الشام الشهيد محمود نور الدين زُنكي طالباً منه العون والمدد لمقاومة الصليبيين، فأسرع هذا الحاكم، الذي كان وطَّد حكمه في ديار الشام كلها، وجعل منها قوة تقارع الصليبيين الموجودين بجواره، فأنفذ نور الدين زنكي على الفور حملة من الجيش الإسلامي يقودها أحد قادتها المشهورين بالبسالة وهو ـ على ما أذكر ـ يُدعى أسد الدين شيركوه، ومعه الشاب يوسف صلاح الدين الأيوبي.

وصل الجيش الشامي إلى مصر، وقد ضمَّ إليه الجيش المصري، وبذلك تكوَّن من الجيشين قوةً هائلة، استطاعت أن تكسر شوكة الصليبيين، وأن تلحق بهم هزيمةً منكرة وأن تردَّهم على أعقابهم من حيث أتوا.

بعد مفاوضات مطورة تمَّت بين الفريقين خلاصتها أن يرحل الصليبيون من حيث أتوا.

إشعال النيران في مدينتي القطائع والعسكر:

خلال تلك الفترة، أي عندما حلَّ الجيش الصليبي على أرض الإسكندرية أيقن الوزير شاور أنهم لن يقف أمامهم من يوقف زحفهم إلى القاهرة، وعلى ذلك أصدر أمره لزبانيته وجنوده بأن يُشعلوا النار في مدينة العسكر والقطائع بزعمه خوفاً من استيلاء الصليبيين عليها، إذ لم تكن محاطة

بأسوار تمكن من الدفاع عنها، كما هو شأن مدينة القاهرة

ظلت النيران مشتعلة في تلك المدينة أسابيع وأسابيع، حتى لم يبق من أهلها أحد، فتهدَّمت دورها ومبانيها، وتذكر كتب التاريخ أن الذي قام بهذا العمل الشنيع وهو من أكبر جرائم التاريخ، هو الوزير شاور، فقد أُحرِقت مِدينة من كبريات المدن بهذه السهولة والبساطة بزعم ساذج سخيف.

بُعيد عودة الصليبيين إلى ديارهم لم يبق لوجود الجيش الشامي المنقذ في أرض مصر أي مبرِّر، ولذلك عاد إلى دمشق، وما هي إلا شهور حتى تواترت الأنباء بأن الصليبيين باتِّجاهم إلى مصر بقوة أكثر عدداً وعدة، وهنا كان موقف الخليفة الفاطمي المستنصر بمنتهى الغرابة لأنَّ وزيريه لن يجدا أي غضاضة في التواطىء مع الصليبيين، وتمكينهم من احتلال البلاد، دونما اعتبار لوازع ديني، أو شعور وطني. ولكي يطلب النجدة مرة أخرى من جيش الشام مستثيراً حمية الحاكم نور الدين محمود، وغيرته على الإسلام وأرض الإسلام، وخشيةً من المستنصر أن لا يجاب طلبه بالنجدة فقد عمد إلى قص خصلاتٍ من شعور نساء قصره، وأرسلها مع رسول خاص إلى نور الدين، موضحاً له بأن هؤلاء الحرائر المسلمات سيكنَّ إماءً عند الصليبيين إذا لم تصل النجدة سريعة إلى مصر.

نور الدين الشهيد:

كان الحاكم نور الدين ـ رحمة الله عليه ـ رجلاً يتَّقد حماساً وغَيْرةً على الإسلام والمسلمين، كانت أيامه كلها في ميادين القتال وساحات الحروب مع أعدائه الصليبيين الذين يحيطون به من كل الجهات، ومع ذلك فقد أنشأ في أرض الشام دولةً قويةً شامخة البناء، اضطر خصومها من الصليبيين إلى مهادنتها، وإبرام اتفاقيات السلم معها.

الناصر صلاح الدين الأيوبي:

لم يكد رسول الخليفة الفاطمي المستنصر يصل أرض دمشق، ويدفع بالرسالة إلى نور الدين حتى بادر على الفور بتجهيز قوة فعالة من خيرة

جنوده، واكتفى هذه المرة بأن يتولى هذه القوة الفتى صلاح الدين الأيوبي.

وصلت القوة الشامية أرض مصر، واستطاعت أن تحبط مؤامرة الوزيرين مع الصليبيين، وأن تردَّ الصليبيين على أعقابهم مرة أخرى. بيد أن هذه القوة لم تنهج نهج سابقتها الأولى بالعودة إلى الشام، وإنما بقيت في مصر مستفيدة من التفاف الجيش المصري آنذاك حولها، إذ أنقذته من الفوضى ومن تطاحن الوزيرين المشؤومين درغام وشاور.

سيطرة صلاح الدين على مصر:

كان الفتى الشاب صلاح الدين قد صقلته تجارب المعارك التي خاضها وأكسبته حنكة وذكاءً وخبرةً بفنون الإدارة، فأخذ بتؤدةٍ وهدوء يُحكِم سيطرته على مصر رويداً رويداً مُمْسكاً بأمور زمام السلطة بادئاً بالوزيرين ومنهياً لأيِّ نفوذٍ لهما، وأخال أنه قتلهما، ثم قضى على شوكة أنصارهما، واستطاع أن يصهر قواتهما في بوتقة قتالية فعّالة ضمن الجيش المصري، وما هي إلا شهور حتى أصبح صلاح الدين هو الحاكم الوحيد بمصر، ولأنه كان بعيد النظر حكيماً في تصرفاته متَّصفاً بالحلم وتفقُّد مصالح الشعب، والضرب بيد من حديد على كل يد عابث أو منحرف، مفرغاً جهده في تنمية موارد مصر، وتوفير حياة كريمة لشعبها، فقد التفَّ حوله الشعب المصري مبدياً له كل محبة وولاء وانقياد.

وفاة الخليفة المستنصر:

كان الخليفة المستنصر آنذاك يعاني من المرض الذي أدى في النهاية إلى وفاته، وهنا وقبل أن يلفظ أنفاسه بأسابيع عهد صلاح الدين إلى إلغاء خطبة الجمعة من منابر مصر باسم الخليفة الفاطمي، وإعادتها باسم الخليفة العباسي في بغداد، ثم عَقِب ذلك ضمَّ مصر إلى الشام، وقد تلى ذلك أحداثاً كثيرة.

اجتثاث الجيوش الصليبية من جذورها:

استطاع صلاح الدين بعد توحيد الجيشين، جيش مصر وجيش الشام، أن يقارع الممالك الصليبية الموجودة على أرض الإسلام حتى استطاع في النهاية أن يجتثها من جذورها.

معركة حطين الخالدة:

وكانت حصيلة هذا التوحد، وتجمع القوى الإسلامية أن أدت إلى معركة حطين الخالدة التي تمَّت على مقربة من أرض طبرية من أرض فلسطين، ثم أعقب ذلك استرجاع القدس بعد أن ظلت بيد الصليبيين أكثر من ٩٠ عاماً.

وإذا كان تتبع أحداث التاريخ على يد البطل المسلم السلطان صلاح الدين الأيوبي ـ الذي امتدت دولته في شمال سوريا حتى سواحل البحر العربي جنوباً، إذ إنَّ الدولة الإسلامية في عهده كانت تشمل مصر والشام واليمن والحجاز ـ فإن ذلك يحتاج إلى جهد وطاقة، وإلى شرح وتفصيل أتركها للمحققين من رجال التاريخ الإسلامي، ولأعود حيث كنت من ذكرياتي وخواطري.



ملهى شارع عماد الدين:

كما ذكرت سابقاً لم أترك في مدينة القاهرة من مَعْلَم تاريخي أو مَعْلَم حضاري، سواء كان ذلك المنشآت الحضارية، كالمساجد والقصور والقِلاع والحصون، ولم أترك ملهى أو دار سينما أو مسرحاً إلا وزرته ودوَّنت عنه ملاحظاتي، وقد بقي موضع واحد كنت تركته عن قصد تجنُّباً لسمعته السيئة: ملهى شارع عماد الدين، كنت أقول لنفسي: إنه لا يليق بمثلي أن يدخل هذا الملهى، وكنت مصمِّماً على ذلك، طيلة

وجودي بالقاهرة، بيد أني عندما أخذت أتهيأ للعودة إلى بلدي، كنت أحاور نفسي لماذا لا أزور هذا الملهى؟ وما علي من بأس إذ لم أرتكب في محيطه أي خطيئة أو دنس؟ وناقل الكفر ليس بكافر، ولذا تغلَّبَت هذه الفكرة في النهاية، وقررت في اليوم الأخير لوجودي بالقاهرة أن أزور هذا الملهى، وقد تمَّ ذلك في الساعة السادسة مساءً من ذلك اليوم، إذ وصلته مرتدياً بنطلوناً ونظارة سوداء، وكأني أحد أبناء بومباي أو كراتشي أو دكا، دخلت الملهى ملغياً حاسة النطق لديَّ مكتفياً بأن تكون الإشارة اليدوية وسيلة التعامل بيني وبين جرسونات هذا الملهى.

جلست على إحدى الطاولات الفارغة، فأسرع إليّ الجرسون قائلاً: كنياك أو ويسكي يا أفندي؟ فأشرت بإصبعي بما يفيد كلمة «لا»، فعاد عليَّ الكرة قائلاً: بيبسي - كولا؟ فهززت رأسي إشارة بالموافقة، وقد استقرَّ في رأي الجرسون أنني أبكم، أخرس؛ أحضر زجاجة وأظنها كوكا كولا ثم نقدته على ما أظن نصف جنيه، ولست أعلم كم قيمة تلك الزجاجة، المهم أنَّ الجرسون أخذ المبلغ ووضع يده على طربوشه علامة الشكر، ثم انصرف عني.

مكثت أُجيل الطرف في الملهى، وهو عبارة عن مساحة ممتدة فسيحة تعلوها ترابيزات متناثرة تحيط بكل منها مجموعة من الكراسي.

كان الجمهور الجالس على كثير من تلك الترابيزات مجموعة من السكارى ذكوراً وإناثاً، قد بلغ السكر ببعضهم حدَّ الثمالة، حتى أصبح يهذي بكلمات سخيفة، ويتمايل يَمْنة ويَسْرة على ما يليه من النساء الموجودات، وكنت ألاحظُ أنَّ الواحدة منهن لا يقل ما تحمله على خديها من الأصباغ والمساحيق عن سنتيمتر تقريباً.

مجموعة من العجائز المُتصابيات، ومنهنَّ بعض النسوة اللاتي قد تجاوزن عهد الشباب، لم تطل إقامتي بهذا المكان أكثر من ربع ساعة، ثم عدت إلى الفندق خاتماً ملاحظاتي بما شاهدته في هذا الملهى.

شعب (الإخوان المسلمون):

طيلة وجودي في القاهرة كنت أقضي أمسياتي كل يوم ما بين السادسة حتى التاسعة متنقلاً ما بين شُعَب (الإخوان المسلمون) الذين كانوا آنذاك في أوْجَ نشاطهم وعنفوان دعوتهم، كانت تلك المراكز أو الشعب عبارة عن خلية نحل تعجُ بالمئات من شباب مصر ومن رجال الفكر فيها تستمر ندواتهم في الاستماع إلى خطب ومحاضرات، كان يلقيها فحول الرجال من قادة الفكر الإسلامي في مصر وفي غيرها وعلى رأس الجميع مؤسس الدعوة المرحوم الإمام الشهيد حسن البنا، كان هذا الرجل قلَّ أن تمضي ليلة دون أن يكون له فيها خطاب أو محاضرة أو وعظ وتوجيه.

الإمام الشهيد حسن البنا:

كان هذا الرجل موهوباً بكلِّ ما تعنيه هذه الكلمة من معنى، كان حديثه العَذْب، وطلاقة لسانه، وتأثيره السِّحري، يمتلك على السامعين مشاعرهم.

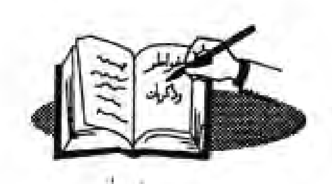
كانت الكلمات تنطلق من فيه فتهزُّ مشاعر السامعين، وتفعل فيهم فعل السحر وتشدُّهم شداً إلى الاستماع والإنصات.

كان هذا الرجل فلتةً من فلتات الزمن، تُبصر وجهه عن بعد، فتشاهد النور يعلوه ويجلله.

كنا ننصت إليه، ونتمنى أن يستمرَّ في الوعظ والتوجيه، بَيْد أنه يترك المجال للآخرين.

كان يرتاد شُعَب الإخوان نخبةٌ ميَّزها الله بصدق القول، وعمق اليقين، خطباء من الدرجة الأولى وأذكر منهم: علاّل الفاسي، الزعيم المغربي الذي رأس حزب الاستقلال في بلاده، وأذكر منهم الشهيد عبدالقادر عودة، والشهيد سيد قطب، والشهيد يوسف طلعت، والشهيد الشيخ فرغلي، وغيرهم الكثير الكثير من أناس أنعم الله عليهم بأن يكونوا هداةً ومرشدين

يحملون مشاعل الإسلام وسماحته فيبيدون به جحافل الجهل والظلام، ولن أنسى أيضاً المرحوم أحمد حسن الباقوري، والشيخ صالح عشماوي، ومحمد قطب، وسعيد رمضان، وغيرهم كثير.





العودة إلى الوطن

بعد أن أمضيتُ على أرض الكنانة، مصر الحبيبة، بضعة أشهر متنقلاً بين أحيائها ومعالمها وآثارها، استطعت أن أَروِي ظمئي، وأشفي غُلّتي، مُطبّقاً جميع ما كانت تختزنه ذاكرتي لقراءاتي المكثفة منذ استطعت كتابة الحرف حتى وصولي أرض مصر، مُطَبِّقاً كل ذلك على أرض الواقع.

كنت أحسُّ خلال هذه الفترة بمتعة روحية قلَّ من يدرك قيمتها إلا من تذوّق لذة المعرفة، وحبَّ الاستطلاع والسياحة في بحار التاريخ، عبر المعالم التاريخية الخالدة، التي حفلت بها، ولا زالت، أرض مصر الخالدة.

الوصول إلى مطار جدة:

عدتُ إلى الوطن على إحدى الطائرات السعودية، وأخالها من نوع (اسكاي ماستر) التي قطعت المسافة بين القاهرة ومطار جدة في حدود ٣ ساعات تقريباً ـ إن لم تخنّي الذاكرة ـ كان في استقبالي أخي الشقيق المرحوم عبدالله، وعدنا جميعاً بسيارة العائلة إلى عمارته في باب مكة.

رغبة أخي بتقديم استقالتي:

خلال الأيام التي تَلَتْ عودتي من مصر كان ـ رحمه الله ـ شديد الحرص على حملي على الاستقالة من عملي الرسمي، رئيس مال وأمن جمارك للحدود في مدينة (قرية) الواقعة بين الكويت والرياض.

مراجعة وكيل الوزارة المالية عبدالله السعد القبلان:

كانت رغبته الملحة في بقائي بجواره وعدم الابتعاد عنه مرةً أخرى، وتحقيقاً لرغبته هذه شرعت بمراجعة المسؤولين في وزارة المالية في جدة، وكان على رأسهم الشهم النبيل الشيخ عبدالله السعد القبلان تغمّده الله بواسع رحمته.

كان رحمة الله عليه يحاول إقناعي بالعودة إلى عملي السابق، وأنَّ في وسعي أن أتقدَّم بأيِّ طلبات تتعلَّق بالراتب أو بمميزات أخرى موضحاً في الوقت نفسه أنه بوسعي أن أُمَدّدْ إجازاتي لعدة شهور أخرى، بَيْد أني أصررت على عدم الرغبة في العودة إلى قرية مرةً أخرى، مبدياً له أنَّ رغبتي هي العمل في جدة أو قبول استقالتي إذا تعذَّر ذلك، مضيفاً إلى ذلك أنني مستعدٌ للتنازل عن بعض الراتب الذي كنت أتقاضاه في (قرية) مقابل أن أعمل في جدة.

وبعد مناقشات مطوّلة امتدت نحو أكثر من أسبوع وافق رحمة الله عليه على نقل عملي إلى جمرك جدة، تحت مسمى مفتش أول، موضحاً أنَّ هذه الوظيفة يقل راتبها عن راتب وظيفتي السابقة بمئتي ريال، وقد وافقت على ذلك.

تحقيق أمنية أخي:

حققت لأخي ـ رحمة الله عليه ـ أمنيته في بقائي بجواره في جده وزَفَفْتُ إليه بشرى تعييني في جمرك جدة، وقد سُرَّ ـ رحمه الله ـ أيَّما سرور بهذه البشرى.

أمنية غالية في نفسي:

وإذ كنت أنقل إليه هذا النبأ السار بالنسبة له، فقد طلبت منه أن يحقق لي مطلباً هو أمنية غالية على نفسي، وفي الوقت نفسه هو لمصلحة أبنائه فقط، وهُنا أجابني بشيء من الدهشة: وما تلك الأمنية التي تطلب تحقيقها؟

أجبْت بأنها أمنية متواضعة في مظهرها، ولكنها عميقة الأثر في دلالتها ومضمونها.

المستوى العلمي في مدارس مصر:

إذ كانت المدارس آنذاك في جدة، وغيرها من مدن المملكة، لا زالت في خطواتها الأولى لم تبلغ بعد المستوى العلمي الذي أنشده وأتطلّع إليه، وكانت رحلتي إلى مصر، قد مكنتني من الاطلاع على المستوى العلمي الذي وصلت إليه مدارس مصر ومعاهدها وجامعاتها، وهو المستوى الذي أتطلّع إليه، وأرنو لتحقيقه، لتمكين أبناء أخي من الارتواء من مناهله، فقد طلبت من أخي بأن يصطحب أبناءَهُ بنين وبنات معه إلى مصر وإلحاقهم بمدارسها هناك، وكذا إقامة الأسرة كلها في مصر، لتكون الأسرة على مقربة من أخي، وليشرف على سير دراستهم وسلوكهم.

لم تلق أمنيتي هذه إجابة سريعة من أخي، بل طلب مني إمهالَهُ عدة أيام، لكي يفكِّر في الموضوع جيداً، خاصةً وأنه لم يسبق له قط أن غادر المملكة إلى مصر أو غيرها.

لم يسعني إلا الاستجابة لطلبه، غير أنني واصلت إثارة هذا الموضوع معه ما بين فينة وأخرى، موضِّحاً له أنني ما دمت قرَّرت البقاء في جدة، وأصبحت مرتبطاً بها بحكم عملي فيها، فإني مستعد بأن أتكفل بالقيام بجميع الأعمال التي كان هو يقوم بها.

اختمار الفكرة في عقل أخي:

وشيئاً فشيئاً ابتدأت الفكرة تختمر في عقله، كنت ألاحظ ذلك من حديثه الذي كان يبدو عليه المَيْل إلى الأخذ بالفكرة، ثم أعقب ذلك بقوله: إنه قبل أن يرحل بالأسرة بأكملها إلى مصر، فإنه يرى أن يذهب بنفسه أولاً إلى القاهرة، ويستأجر سكناً هناك، ويطَّلع على مدارس القاهرة عن كثب، فإذا طاب له المقام، ورأى صحة وجهة نظري فيما ذكرت، طلب مني أن أحضر إليه إلى القاهرة مُصْطحباً معي كامل الأسرة، بعد أن يكون قد أمّن

السكن المناسب، الذي يستوعب كامل أفراد الأسرة، تقرر هذا الأمر فسافر ـ رحمة الله عليه ـ إلى القاهرة مصطحباً معه آخر زوجاته (آمنة عبدالكريم رشيدي).

سفر أخي إلى القاهرة:

كان سفره إلى القاهرة في أواخر شهر شوال لعام ١٣٧٠هـ. بقيتُ في جدة مع الأسرة في عمارة باب مكة حتى أوائل شهر ذي الحجة من ذلك العام، ثم تلقيتُ منه رحمة الله عليه برقيةً مستعجلةً يطلب مني الحضور إليه مصطحباً كامل أفراد الأسرة.

سفري إلى القاهرة مع أبناء أخي:

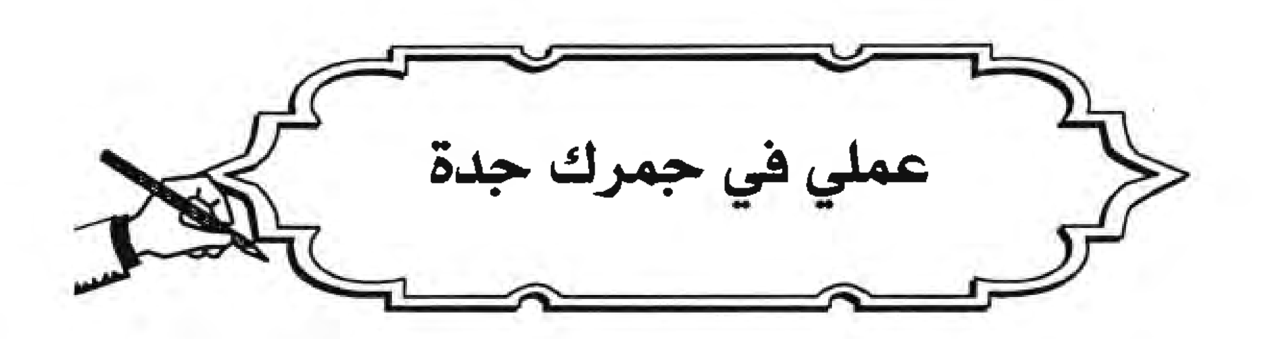
وقد تمَّ ذلك فعلاً حيث غادرنا جدة في ٢ ذي الحجة من ذلك العام على متن إحدى طائرات الخطوط السعودية (كون فير).

وصلنا القاهرة وكان ـ رحمة الله عليه ـ في استقبالنا، ونزلنا جميعاً في العمارة التي استأجرها، وتقع على شارع إبراهيم باشا مواجهة لمسجد الكخيا، وهو مسجد معروف غير بعيد من تمثال إبراهيم باشا.

عودتي إلى جدة:

مكثتُ في القاهرة مع الأسرة عند أخي حتى نهاية ذي الحجة عام ١٣٧٠هـ، وفي مستهل محرَّم عدت ومعي أهلي إلى جدة على إحدى طائرات الخطوط السعودية، فنزلنا في عمارة أخي في باب مكة.





في اليوم الثاني لوصولي جدة وهو يوم ٢/١/ ١٣٧١هـ باشرت عملي الرسمي في جمرك جدة، كان جهاز الجمرك قد انتقل إلى مبانيه الجديدة التي يشغلها حالياً.

المديرية العامة للجمرك:

تتألف إدارة الجمرك من جهازين: الأول قمة الهرم في جهاز الجمارك في عموم المملكة، وأعني به المديرية العامة للجمارك، وكان يرأسها آنذاك الشيخ الوقور محمد نور رحيمي ـ أمد الله في حياته ـ، يعاونه المرحوم عثمان ناظر، والشيخ الوقور طه ظليمي ـ أمدَّ الله في حياته ـ.

وتتكون المديرية العامة، وهي تشمل المبنى الأعلى من عمارة الجمرك، من عدة أجهزة تابعة لها، منها جهاز قسم الإحصاء، وجهاز التفتيش، وجهاز شؤون الموظفين، وجهاز اللجنة الجمركية، وجهاز التحرير.

إدارة جمرك جدة:

أما الطابق الأرضي من المبنى، فكانت تشغله إدارة جمرك جدة، وكان يرأسها آنذاك المرحوم عبدالرحمن باعيسى، وكانت تتبعه عدة أجهزة، منها جهاز التحرير، وجهاز التثمين، وأمانة الصندوق، وعدة أجهزة أخرى تضم ضمن ما تضم موظفي المعاينة، وكانوا يعرفون آنذاك باسم

المبصِّرين، وكذا مراقبي المعاينة، وهم المفتشون الذين تنحصر مهمتهم في مراقبة البضائع التي يقوم المبصِّر (أي المعاين) بمعاينتها وتسجيلها في دفتر المبصر، موضحاً أوزانها وأمتارها وأنواعها، وكل ما يتعلق بها من مواصفات.

مستودعات الجمرك:

كانت مستودعات الجمرك آنذاك تتألف من ستة مستودعات ضخمة كلها مسقوفة، كانت هذه المستودعات قد خُصِّص خمسة منها لاستقبال البضائع يومياً ومعاينتها.

أما المستودع السادس وكان يحمل رقم (أ) بالنسبة لتسلسل هذه المستودعات الستة، وكان مخصَّصاً لحفظ البضائع التي تتخلف في المستودعات الخمسة، ويمضي على وجودها في المستودع عام كامل دون أن يراجع أصحابها للتخليص عليها، وهذه البضائع يطلق عليها اسم (متروكات).

جهاز التفتيش:

أما كيفية العمل في الجمرك فكان يتمُّ على النحو الآتي: هناك فريقان من الموظفين هم موظفو المعاينة، يرافقهم موظفون آخرون، يطلق على الواحد منهم اسم مراقب أو مفتش، هؤلاء المفتشون هم جهاز مستقل يرتبطون بموظف يطلق عليه اسم رئيس المفتشين، وهذا الرئيس في اليوم الأول من كل أسبوع يوجِّه كل واحد من هؤلاء المفتشين إلى مستودع معيَّن من المستودعات الخمسة، يعمل فيه طيلة أيام الأسبوع، كان يرأس هذا الجهاز آنذاك المرحوم علي عيد الذي يحتفظ على مكتبه بدفتر خاص لتسجيل الدوام، ولتسجيل عمل كل مفتش في المستودع الذي يعمل فيه، وكان جهاز التفتيش آنذاك يتكوَّن من الزملاء: مكي حكيم، وأخيه عبدالرزاق، وإبراهيم الحسون، وزملاء آخرين لا أذكرهم الآن، منهم أحد الإخوان الفلسطينيين ويدعى سليمان عزُّوني.

جهاز المبصِّرين:

أما جهاز المبصِّرين، فكان يرأسُه المرحوم حسن الوسية، ويتألف من مجموعة من الشباب، أذكر منهم الآن الشيخ المرحوم أحمد زهيري، والشيخ المرحوم أحمد باجنيد، وحمزة عطية، ومحمد سالم خميس، ويوسف كيال، وآخرين لا تحضرني أسماؤهم الآن.

كان العمل يتم داخل المستودعات في مستهل صباح كل يوم بدءاً من الساعة الثامنة صباحاً حتى الثانية بعد الظهر، وكانت العملية تتم على النحو التالي: توجد داخل كل مستودع عدة مجموعات من صناديق وطرود البضائع المختلفة، تحمل ماركة معينة، أي حروف إنكليزية هي أوائل حروف اسم مالك هذه الطرود.

الفكاكين والمقربين:

كان هناك أيضاً في كل مستودع مجموعة من الأشخاص لديها عربات صغيرة، وتحمل أدوات لفك الطرود والصناديق وإغلاقها، يطلق على هذه الفئة اسم الفكاكين والمقربين، مهمة هذه الفئة هي نقل عدد من الصناديق أو الطرود يحدد مقدارها المبصِّر: نقلها أولاً إلى حيث يوجد الميزان، وهو موجود في كل مستودع في الساحة التي تكون مقر الموظف المعاين. يحضِرُها هذا الموظف للميزان الذي يقوم موظفه (أي موظف الميزان) بتسجيل أوزان هذه الطرود أو الصناديق، التي تمَّ وزنها (على السِّتْمِي) وهو الإشعار الذي تُعطيه شركة البواخر للتاجر صاحب البضاعة.

بعد الوزن تنقل هذه الصناديق في الساحة أمام مكتب المبصِّر في مقدمة المستودع، وعندئذ يقوم هؤلاء المفككون بفتح هذه الصناديق، ووضع ما بداخلها على الأرض حتى يتمكّن المعاين من فحصها وعدِّها، وتمييز نوعها وماركاتها، تمهيداً لتسجيلها على دفتر مبصِّر، وخلال هذه العملية يكون المراقب أو المفتش المتواجد في هذا المستودع حاضراً فتح هذه الصناديق ومشتركاً مع المبصِّر في معاينتها وفحصها ومطابقة محتوياتها على

بيانات التعبئة التي توجد عادةً مع فواتير البضاعة التي يقدمها المخلِّص إلى المعاين. يتمُّ إغلاق الصناديق والطرود بعد إعادة مردوداتها، ومن ثَمَّ يتمُّ التوقيع على دفتر مبصِّر من قبل المبصِّر نفسه، ثم يوقِّع أيضاً من قبل المفتش على دفتر المبصر نفسه بجوار توقيع المعاين، إثباتاً لمشاركته في المعاينة والتسجيل، وهكذا العمل في جميع المستودعات الخمسة، علماً بأنَّ موظفي المعاينة لا يقل عددهم في مستودع عن اثنين، فأكثر طبقاً لكمية البضائع في هذا المستودع قلةً أو كثرةً، أمّا المراقبون فلكلِّ مستودعٍ مراقب واحد.

اليوم الأول و (الحلبة والحمر):

في اليوم الأول لمباشرتي العمل كان اسمي مسجلاً ضمن توزيع المراقبين على المستودع رقم ٦، وكنت غير غريب عن العمل الجمركي وكنت ـ كما أسلفت في هذه الذكريات أميناً للجمارك في قرية، فإني كنت مُلِمّاً بالعمل الجمركي ومستوعباً إجراءاته، إلا أنَّ العمل بجمرك جدة كان يختلف من حيث الإجراءات الشكلية فقط.

أُحضِرت البضائع المراد الكشف عليها، وتسجيلها أمام المعاين، وكان المرحوم أحمد زهيري، فُتحت الصناديق ووضعت البضائع على الأرض، وتمَّت معاينتها وتسجيلها من قبل المعاين المذكور، وكنتُ واقفاً بجواره أشاهد ما يعمل. أتمَّ تسجيل البضاعة في دفتر المبصر ثم وقَّعها، وكان مندوب التاجر صاحب البضاعة (وهو المخلِّص)، يقوم بإتمام إجراءات ترسيم البضاعة لدى الجمرك نيابةً عن التاجر. قَدَّم إليَّ المبصر بدفتره لتوقيعه إثباتاً لحضوري ومشاهدتي المعاينة.

فأخذت دفتر المبصر لتوقيعه إذا بالمخلص يضع في يدي قطعة نقود ورقية فئة خمسة ريالات، سألته باستغراب: ما هذه؟ أجاب بقوله: (هذه عن الحلبة والحمر)، وهي جملة لم أفهم مدلولها حتى الآن، فزجرته قاذفاً بها في وجهه بأن لا حاجة لي للحلبة والحمر، وهنا انكمش المخلِّص، وبدت عليه علامات الخوف والارتباك.

عادة جميع المخلِّصين:

وهنا تدخَّل المرحوم أحمد زهيري موجِّهاً كلامه إليَّ: يا عمي خذها هذه عادة مع جميع المخلِّصين، وهي متَّبعة في جميع المعاملات يدفعها المخلِّصون للمعاين والمراقب تشجيعاً له على سرعة إنجاز معاملاته، مضيفاً: أن لا محظور في ذلك، ولا موجب للامتناع عن أخذها، لأنك شاهدت أنَّ إجراءات المعاينة كانت سليمة وصحيحة ودقيقة، وأنه لم يحدث فيها أي غش أو تزوير، أجبته بأنَّ ذلك كله صحيح إلا أنه بالنسبة لي لا حاجة لي للحلبة والحمر.

رفض ما يقدِّمه المخلِّصون:

انتهى الموقف عند هذا الحد، وقد تمَّ ما حدث في تسجيل هذه البضاعة بالنسبة للبضائع العشر التي تمَّت معاينتُها في ذلك اليوم، وكنت أرفض ما يقدِّمه المخلِّص بعد تسجيل كلِ معاملة، وكان المرحوم أحمد زهيري يقول: إذا كان المراقب لا يريدها فأعطني إياها.

انتهى الدوام في ذلك اليوم وكانت الإجراءات التي تمَّت في المعاينة كلها سليمة وصحيحة، ومتفقة مع الأنظمة والتعليمات.

من جانبي أنا لم يكن هناك أي شيء غير طبعي، فقد كانت هذه عادة متَّبعة بين المخلِّصين والمعاينين والمراقبية، فلا ضَيْر من ذلك طالما أن إجراءات المعاينة تتمُّ بصورة دقيقة وسليمة، ولم يترك ذلك أي أثر في نفسي بَيْد أني لاحظت أنَّ المخلِّص أصبح غير مرتاح من رفضي لأخذ ضريبة (الحلبة والحمر)، وظهر ذلك جلياً في تأففه وتكراره لكلمة (يا عمي، ما في هذا شيء لأننا شرفاء ونظيفين)، وكنت أؤمن على قوله، مضيفاً أنني فقط لم أعتد على الحلبة والحمر، حيث المعاملات التي تمَّت معاينتها في ذلك اليوم، على ما أذكر، هي إحدى عشر معاملة، وكل معاملة تولاها مخلِّص مختص، فقد بدت علامات عدم الارتياح واضحة على وجوه هؤلاء المخلِّصين.

إجراء مفاجيء:

في اليوم الثاني وجدت عند توقيعي الدوام في الصباح أن اسمي قد سُجل على مستودع آخر غير المستودع الذي عملت فيه بالأمس، وهذا خلاف المتَّبع، إذ أنَّ المفروض أن أظلَّ في هذا المستودع مدة أسبوع كامل، ثم أنتقل إلى غيره بيد أنَّ هذا الإجراء كان مفاجئاً ومُلفتاً للنظر، غير أني لم أجد مبرراً لمناقشة رئيس مكتب التفتيش المرحوم علي عيد على سلوكه هذا المسلك بالنسبة لي، واضعاً في اعتباري أنَّ العمل هو العمل في أيِّ مستودع كان.

المستودع الجديد الذي حوِّلت إليه:

أمضيت اليوم الثاني في المستودع الذي سُجِّلتُ عليه، وقد تكرر الموضوع نفسه الذي تمَّ في المستودع الأول بين المخلِّص وبيني وبين المعاين، وكنت أرفض كل ما ينتمي إلى الحلبة والحمر بصلة.

أحسست أنَّ هناك عدم ارتياح لدى المعاينين والمخلِّصين من عملي معهم، بيد أني لم أُعِر ذلك أيَّ اهتمام.

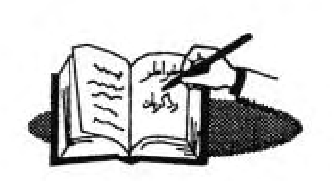
كيفية معاينة البضائع:

وهنا لا بد من شرح نقطة معينة تتعلق بكيفية معاينة البضائع وتقريبها من أماكن تواجدها في المستودع إلى حيث يوجد مكتب المعاين والمراقب، هذه النقطة هي: أنَّ كل بضاعة لا بد أن تُصحب بفواتير رسمية مصدقة صادرة من الشركة المنتجة والمصدِّرة، تتضمن أسماء هذه البضائع وأنواعها وأعدادها وأوزانها، وأقيامها، وما يضاف إليها من أجور شحن، أو تأمين وما شابه ذلك، وترفق هذه الفواتير ببيان يُعرف ببيان التعبئة يتضمَّن عدد الطرود أو الصناديق، ويوضِّح مفردات ما يحتويه كل طرد وأنواعه وكل صندوق من البضائع، ومعنى ذلك أنَّ الطرود أو الصناديق تحمل أرقاماً مسلسلةً من قِبل الجهة المصدِّرة طبقاً لبيان التعبئة.

هذه الفواتير مع بيان التعبئة تُحال من قِبل موظف مختص، بإحالة المعاملات، على المبصِّرين في كل مستودع، وكان القائم بهذا العمل آنذاك هو المرحوم يوسف تركي، وهو إنسان خلوق ومستقيم، عندما يقوم هذا الموظف بإحالة تلك الفواتير مع بيانات التعبئة يضع إشارةً على عدد محدود من تلك الطرود أو الصناديق التي يقتضي الأمر فتحها ومعاينتها، ومن غير الممكن أن تفتح وتُجرد كامل طرود صناديق البضاعة، لأنَّ ذلك يحتاج من الوقت إلى أكثر من يوم، لذا فإن يوسف تركي، عندما يُحِيْلُ بيان التعبئة يؤشِّر على عدة صناديق تحمل أرقاماً مختلفة، فإذا اتضح مطابقة ما بداخل هذه الطرود لِما هو مدوَّن في بيان التعبئة فمعنى ذلك أنَّ التعبئة صحيحة لا تزوير فيها، لذا فإنَّ المساعدة التي قد يقوم بها المعاين هو أن يطلب من المقربين إحضار خمسة صناديق مثلاً بدلاً من إحضار عشرة صناديق التي أشير على أرقامها بوجوب الفتح والمعاينة من قِبل يوسف تركي، يكتفي المعاين بفتح بعض الصناديق دون أن يحضر الصناديق كلها، وهذا فيه مساعدة للمخلص باختصار وقت المعاينة.

عدم ارتياح المعاينين والمخلِّصين مني:

بطبيعة الحال فإني لم اقبل إلا أن تفتح جميع الصناديق التي أُشِّر على فتحها، بل وقد أطلب ـ وهو من حقي كمفتش ومراقب ـ إحضار صناديق أخرى لم يطلب فتحها لكي تفتح وتعاين وتطبّق على بيان التعبئة، وهذا في نظري هو السبب الذي أحدث شعوراً بعدم الارتياح بالنسبة للمعاينين والمخلّصين الذي يبدو أنهم نقلوه إلى رئيس مكتب التفتيش المرحوم علي عيد، وكان يتولى توزيع المفتشين على المستودعات، بدليل أنه عمد إلى نقل عملي إلى مستودع المتروكات بصورة دائمة، وعدم عملي في المستودعات الأخرى، وقد تمَّ ذلك بالفعل، لأني لم أعمل في المستودعات سوى أسبوع واحد فقط.





أسرة أخي عبدالله

ذكرت انتقال عملي من المستودعات التي يتم فيها ترسيم البضائع، وحكايتي مع الحلبة والحمر، وما أنتج ذلك من امتعاض بين موظفي المعاينة والمخلِّصين، وما أدى إليه ذلك من نقل عملي إلى مستودع المتروكات، واستمر عملي فيه إلى أن غادرتُ جدة في ٨/٧/ ١٣٧١هـ مريضاً إلى لبنان، إذاً فلنترك الحديث عن مستودع المتروكات هذا، وما حصل فيه أثناء عملي إلى بعد عودتي من لبنان في أواخر عام ١٣٧٤هـ.

أسرة أخي في مستهل عام ١٣٧٠هـ:

وهنا أرى أنَّ من المناسب أن أعود قليلاً إلى الوراء لأتكلَّم قليلاً عن أسرة أخي حينما وصلتُ جدة في مستهل محرم عام ١٣٧٠هـ.

بعد مغادرتي جدة في ٨/٧/ ١٣٥٧هـ كانت أسرة أخي آنذاك تتألف من زوجته المرحومة مُنِيرَة محمد العبدالرحمن الزامل، وبناته الثلاث: لولوة وفوزية ولُطْفِيَة، يضاف إلى ذلك مجموعة من الرقيق لا يقل عددهم عن خمسة عشر فرداً ما بين ذكرٍ وأنثى وشاب وشابة.

ابن أخي إبراهيم:

وكان يوجد في بيت أخي عند قدومي إلى جدة من الرياض ابنه إبراهيم، وكان آنذاك طفلاً في حدود التاسعة أو العاشرة من عمره، وهذا الابن أعني به إبراهيم وُلِد لأخي من زوجةٍ أخرى تزوجها مدة غيابي عن

جدة. وقد فهمت من عبدالله النقيداني، وبعض الإخوان المتَّصلين بأخي عن ظروف وملابسة هذا الزواج.

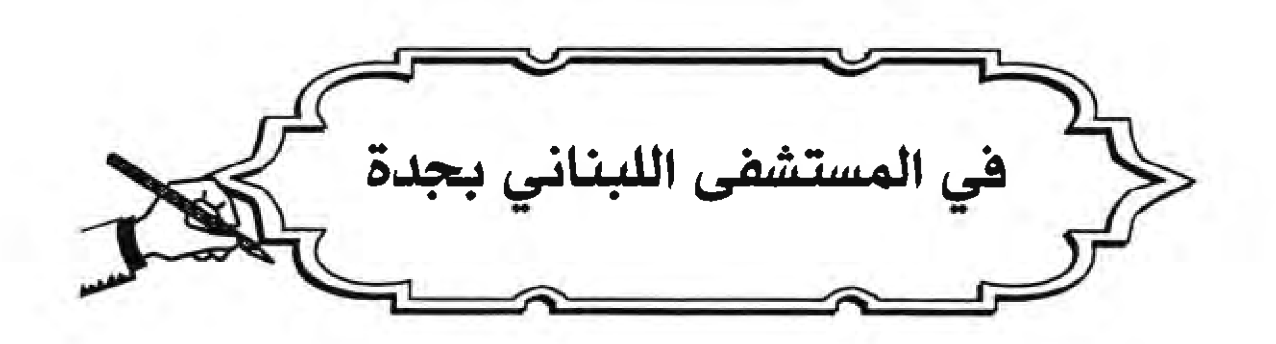
زواج أخي الجديد:

وكانت القصة التي نقلت إليَّ عن هذا الزواج تمت كالآتي: كان هناك شخص يُدعى أبو مازن، كان يسكن في عُشه على مقربة من ساحل البحر شمال الرويس، وكان ذا صلةٍ بأخي يعوده بين وقت وآخر، وكنت أعرف ذلك عندما كنت في جدة قبل سفري منها، وكثيراً ما تناول هذا الشخص ـ أعني أبا مازن ـ طعام الغذاء أو العشاء، كنت ألاحظ أنَّ أخي يرتاح لوجوده، وكنت أخاله يساعده بدليل اهتمامه به، إلا أنني لم أطلع أو أعلم عن نوع هذه المساعدة.

كان أبو مازن كما نُقِل إليَّ كان كثير الاتصال بأخي في أثناء غيابي خاصةً في أوقات الصيف عندما يبقى أخي وحيداً في المنزل، وتكون أسرته آنذاك «مُصَيْفة» في الطائف، وأنه ذكر لأخي أنَّ هناك بنت يتيمة أصيلة النسب من قبيلة حرب، وأنه يحب لأخي أن يتزوَّجها، وأنَّ هذه الفكرة لاقت استحساناً وقبولاً لدى أخي، فأوعز إلى أبي مازن هذا أن يستأجر له سكناً، وأن يقوم بترتيب هذا السكن، ويتخذ ما يلزم لإجراء الزواج من هذه الفتاة.

طلاق أخي زوجته الجديدة:

وفعلاً تمَّ ذلك، واقترن بها، وأسكنها في هذا المسكن، وظلَّ يتردد عليها بين آونةٍ وأخرى، وقد حملت منه من ليلة دخوله بها، وظلت في عصمته حتى ولدت طفلها إبراهيم، وهناك عمِد أخي إلى طلاقها، آخذاً في الوقت نفسه ابنه إبراهيم هذا، وهو رضيع لم يتجاوز عمره الشهر، وأمَّن له مرضعة تأتي إلى البيت يومياً لتقوم بإرضاعه، وهكذا تربَّى ابن أخي إبراهيم في بيت العائلة الكبير مع أخيه محمد الذي يكبره بأربعة أشهر، ولقي كلَّ العناية من والدة أخيه وبناتها الكبار.



الإشراف على أعمال أخي وإدارة أملاكه:

بعد عودتي من مصر بعد أن نقلتُ أسرة أخي إليها، وعدت أنا وزوجتي وحدنا إلى جدة، أخذت أمارس عملي الرسمي في الجمرك في أول النهار، وفي المساء أنزل إلى المقعد الذي كان مجلساً لأخي، أقوم فيه بالإشراف على أعمال أخي وإدارة أملاكه، وكل ما كان يقوم به.

الأصدقاء الذين اجتمع بهم في مجلس أخي:

بعد مضي شهرين، وكنت أظلُّ في المقعد من بعد صلاة العصر حتى الرابعة ليلاً بالتوقيت العربي، في ذلك الوقت الذي يقابل الساعة العاشرة تقريباً بالتوقيت الغروبي. كان يحضر عندي يومياً كلٌّ من الأصدقاء إبراهيم السليمان التركي، وعبدالرحمن الهويش، وصالح الهطلاني - رحمهم الله تعالى -، وأبو عائشة، وعبدالكريم رشيدي، وكثير من الأصدقاء كانوا يتواجدون عندي في المقعد من بعض صلاة المغرب مباشرةً حتى بعد صلاة العشاء بساعة أو ساعتين على الأكثر، ثم ينصرفون، وهنا أصعد إلى البيت للنوم.

كانت العمارة لم يكتمل بناؤها بعد، وكنت أثناء وجود هؤلاء الأصدقاء نجلس على السطح المجاور للمقعد.

قشعريرة شديدة:

وبينما كنت في أحد الأيام، وكنا في مطلع موسم الشتاء في ذلك العام، أقوم بالوضوء على السطح بقشعريرة شديدة أخذت تنتابني وتهزُّني هزاً عنيفاً، وكأنها تيار كهرباء، فلم أستطع مواصلة الوضوء.

أسرعت إلى الصعود إلى البيت وطلبت من البّواب عبده اليماني أن يذهب فوراً إلى المستشفى اللبناني، الذي كان مقرُّه آنذاك في الرويس شمال جدة ليحضر لي أحد الدكاترة منه، وكان يرأس هذا المستشفى آنذاك الدكتور عبدالله سعادة، وهو معروف بانتمائه إلى الحزب القومي السوري.

حضور الدكتور عبدالله سعادة:

بعد مدة حضر الدكتور وكانت الأغطية كثيفة عليَّ، وكانت درجة الحرارة مرتفعة، جسَّ نبضي، وهوَّن عليَّ الأمر قائلاً بأنك لن تلبث أكثر من ساعة حتى تعود إلى وضعك الطبعي، وأنَّ ما معك هو أمر سهل سيزول بمجرد أن تأخذ الإبرة التي أحضرتها معي، فضربني الإبرة وأعطاني بعض الحبوب، ثم انصرف قائلاً لي: أنه في حالة احتياجي إليه عليَّ أن أتصل به تليفونياً ليحضر.

كان مصطحباً معه إحدى ممرضات المستشفى، وهي التي تولت إعطائي الإبرة، بعد انصرافه بنحو ساعة بدأ الارتعاش الذي كان مشتداً عليَّ يخفُّ ويتلاشى، كما أنَّ الحرارة قد هبطت، وعادت إلى ما يقرب من وضعها السابق.

❋ ❋ ❋

زوال القشعريرة وانخفاض الحرارة:

زال عني ما كنت أشعر به من قُشَعْرِيرَة، وارتفاع في الحرارة، وقد أصبحت في وضع طبعي لا أحسُّ فيه بأيِّ ألم أو حرارة، نمتُ تلك الليلة مستريحاً، وأخذت قسطاً عميقاً من النوم لم أفق منه إلا على آذان الفجر.

فقد النشاط:

بعد تأديتي صلاة الفجر اضطجعت على فراشي كالعادة، لكني فقدتُ النشاط الذي كنتُ أحسُّ به صباحَ كلِّ يوم، وصِرْتُ أميلُ إلى الخمول، وَفَقْدِ النشاط، والرغبة في عدم مغادرة الفراش.

واصلت عملي في الجمرك كالمعتاد لا أحسُّ بأي شيء، إلا أنني حين أُحْضِرَتْ لي وجبة الغذاء، وجدت أنَّ لا رغبة لي فيها، فلم أتناول منها إلا لُقيمات يسيرة، وذلك خلاف المعتاد.

مَرَّ ذلك اليوم، واليوم الذي يليه، وكنت أطمع أن يعود إليَّ النشاط، وأن يتلاشى عني ما أحسُّه من انحطاط وخمول وفقدان للشهية، ثم أَحْسَسْتُ بأنَّ موضع الإبرة لا زال يشعرني ببعض الألم، فاتصلت بالدكتور تليفونياً وشرحتُ له حالتي، فطمأنني بأنَّ ذلك كله سيزول لا محالة، وبالنسبة لموضع الإبرة فإنَّ عليَّ أن أستعمل قربة ماء صحية، وهي التي تباع في الصيدليات وتُملأ بماءٍ حار، ثم يضمد بها موضع الألم، وفعلاً نفَّذتُ ذلك.

غيبوبة مفاجئة:

في اليوم الرابع أحسستُ بأن لا قدرة لي على الذهاب إلى الجمرك للخمول وانحطاط الجهد الذي أشعر به، ففضَّلت البقاء على السرير في غرفتي، وظللت ثلاثة أيام وأنا طريح الفراش، رغم أنني لا أحسُّ بأيِّ ألم، كما أني كنت أستعمل القربة على موضع الإبرة باستمرار، ولكن بدون أي جدوى، لأنَّ موضع الإبرة أصبح يمثل نتوءاً في الموضع يساوي حجم بيضة الدجاجة.

أصدقائي الملازمون لي في فترة المرض:

كان أصدقائي خلال فترة ملازمتي الفراش كالصديق المرحوم عبدالوهاب باناجة، وشحاته قنديل، وصدقة أبو زيد، وغيرهم من زملائي في الدارسة كانوا يزورونني كلَّ يوم.

وفي اليوم السادس، وكان الوقت حوالي العاشرة صباحاً، وكان عندي كلٌّ من الصديق المرحوم عبدالوهاب باناجة، وصدقة أبو زيد، كنت أتحدَّث معهم، وإذا بي فجأة أغيب عن الوعي، لا أعلم مدة الغيبوبة ولكن الذي أعلمه الآن إنني عندما أفقتُ شاهدت الارتباك والوجوم والذعر باديةً على وجوههم، وكنت أسمع من الحُجرة المجاورة ما يشبه الصياح، وهي الحُجرة التي كانت تسكنها زوجتي، سألتُ الإخوان بدهشة: ما هذا الذي أراه على وجوهكم من الذعر والارتباك؟ أجابوا: لا شيء، وكأنَّهم أرادوا بهذه الإجابة أن لا يثيروا فزعي، ولكن صوت الصياح الذي سمعته جعلني أُلحّ بالسؤال عمّا حدث، عندئذٍ قالوا: إنك كنت تتحدَّث معنا، ثم فجأةً غبتَ عن وعيك بضع دقائق نكلّمك فلا تردّ. عند ذلك اتصلت بالدكتور تلفونياً في المستشفى اللبناني طالباً حضوره على الفَور.

دخولي المستشفى لإجراء العملية:

بعد نحو نصف ساعة حضر الدكتور ومعه الممرضة، ووجدني على السرير، وقربة الماء على موضع الإبرة، والأخوين عبدالوهاب وصدقة بجواري، سألني الدكتور: ما الذي حدث؟ وهل تشكو من شيء؟ قلت: لا، لا أشكو من أيّ ألم سِوى الخمول، وَفَقْد الشهية، بَيْدَ أنه منذ دقائق كان الأخوان يتحدثان معي، وفجأةً غبتُ عن الوعي بضع دقائق. هنا كرّر الدكتور عباراته مطمئناً، وقال: إنه لا شيء يُوجب الخوف؛ وبالنسبة لموضع الإبرة بعد أن وضع يده على مكانها فأحسَّ أنه متحجراً كالبيضة، وهنا أَحب زيادة في تطميني أن يوضح لي بالدليل بأن موضع الإبرة لا خطر منه، وأنَّ هذا يتلاشى ويزول، ثم أخرجَ من شنطته إبرة غمس رأسها في موضع الإبرة، وإذا بعمود يرتفع إلى أعلى من القيح المتعفن بحيث اضطر الأخوان وأنا منهم أن نضع على أنوفنا ما يمنع عنا وصول هذه الرائحة الكريهة، وفي تلك اللحظة أحسَّ الدكتور بخطورة الوضع إلا أنّه كرّر التطمين مرةً أخرى، وطلب مني أَن ألحقَ به على الفَور إلى المستشفى، ثم هروَلَ مسرعاً.

كلّفتُ البَواب عبده بأن يُحضر في الحال سيارة أجرة عند الباب، في

الوقت الذي نزلتُ من السرير معتمداً على الأخوين عبدالوهاب وصدقة، ثم نزلنا إلى أسفل البيت، وما هي إلا لحظات حتى حضرت السيارة فركبتُ وهما معي متجّهين إلى المستشفى اللبناني.

إلى غرفة العمليات:

ما كدتُ أنزل من السيارة عند باب المستشفى حتى وجدتُ سريراً نقّالاً مع أربعة من الممرضين حملوني عليه واتَّجهوا بي رأساً إلى غرفة العمليات؛ أَضجعوني على سرير العملية مستلقياً على ظهري، وهنا أتوا بقطعة من القطن مثلجة، ووضعوها على أنفي، وطلب مني الجرَّاح أن أَعدَّ واحداً اثنين ثلاثة فما بعد، وما كدتُ أجتاز الرقم الثالث حتى غبتُ عن الوعي.

لم أشعر بعد ذلك إلا وأنا متمدِّد على سرير في إحدى غرف المستشفى بعد أن ابتدأ البنج يخفّ عني مفعوله وتأثيره شيئاً فشيئاً، ولستُ أعرف المدة الزمنية التي قضيتها تحت العملية، ولكن يبدو لي أنّها في حدود الساعتين.

النجاة من الموت:

بعد أن عاد إليَّ وَعْييَّ، وزال أثر البنج نهائياً، حضر إليَّ الدكتور الجرَّاح الذي أجرى العملية، وكان أول عبارة وجَهها إليَّ هي قوله: لقد نجوتَ من الموت بأعجوبة، وكان يحمل بيده إناءاً من الزجاج يستوعب نحو أكثر من لترين من الماء تقريباً. سألت: وكيف ذلك يا دكتور؟

أجاب بأنَّ العملية لو تأخرت عن موعدها ساعات معدودة، لكنتَ أنت الآن على شفير القبر لِتُوارى التراب، ثم أوضح ذلك بأنَّ الإبرة قد أحدثت في الجسم تعفناً مخيفاً نتج عنه اضمحلال الغشاء الذي يحجب مفعول الإبرة عن الدم، بحيث أصبح هذا الغشاء مهترئاً يوشكُ في أي لحظة أن يتمزق، فيتسرب العفن هذا إلى الدم، فيتسمم الدم في لحظات تعقبه الوفاة مباشرة،

ثم رفع أمامي القنينة الزجاجية التي أحضرها معه والمُحكم إغلاقها، وبداخلها اللتر والنصف تقريباً من المواد المتقيحة العفِنة التي سحبوها في موضع الإبرة واستطاعوا تنظيف الموضع وتطهيره من آثارها.

رفعتُ أكفّ ضراعتي وشكري إلى مولاي الذي لا زلت منذ قدومي إلى هذا الوجود أنعم بآلائه وأنعامه وفضله عليَّ.

العافية تدبُّ في جسمي:

كان الوقت في تلك اللحظة يقربُ من وقت الظهر، وقد أحسست بجوع نهِمْ يكاد يمزق أحشائي، وما هي إلا فترة وجيزة حتى جِيءَ لي بوجبةِ الغذاء، فالتهمتُها بكلِّ شره، ولولا الحياء لطلبت مثلها أخرى. كنت أحسُّ بالنشاط يدبّ في جسمي ويزيد وينتشر.

مخالفتي أمر الطبيب:

أمضيتُ اليوم الأول والثاني والثالث في غرفة المستشفى، وكنت أطلب من المستشفى أن يُضاعِفَ لي الوجبات، كان الدكتور المُعالج قد أفهمني بأنَّ عليَّ البقاء في المستشفى لمدة لا تقلّ عن أسبوع على الأقل، إلا أني، نتيجةً لِما أحسُّه من نشاط وحيوية، رأيتُ أن لا مُبرر لبقائي في المستشفى، ضارباً بأمر الدكتور عرض الحائط.

مغادرة المستشفى:

في مساء اليوم الثالث للعملية، في وقت العصر، وقبل أن يجيء الدكتور في المستشفى، غادرتُ المستشفى متجهاً إلى البيت في باب مكة، وبدلاً من أن أذهب في تاكسي، حمَلَني الغرور وما أشعرُ به من نشاط وقوة على أن أذهب سيراً على أقدامي، وكانت المسافة ما بين المستشفى وبين دارنا في باب مكة قريباً من الكيلومترين.

اندفعت من المستشفى مملوءاً بالحيوية والنشاط، لكن ما كدتُ أقطع نصف المسافة أي في المكان المقابل لوزارة الخارجية، الذي يشغله الآن

مسجد الجفالي، حتى خارت قواي، وأحسستُ بأني غير قادر على مواصلة السير، فجلستُ على الأرض منهكاً تعباً لمدة قد تقربُ من الساعة، وخلال ذلك أَحْسَسْتُ بأني أستعيد مرة أخرى قوتي ونشاطي فواصلتُ السير حتى وصلت إلى مكان عمارة باخشب الآن.

ومرة أخرى أَحْسَسْتُ بالتعب فجلستُ، ثم واصلت السَّير حتى وصلت البيت بشقِّ الأنفس منهوكاً متعَباً بحيث جلست بأسفل البيت عند الباب أكثر من ساعة ثم صعدت إلى غرفتي.

العودة إلى العمل:

بعد فترة من الراحة بغرفتي استعدتُ نشاطي وحيويتي، ونمتُ نوماً عميقاً في تلك الليلة، وفي الصباح واصلتُ عملي في الجمرك كالمعتاد. وكانت إدارة الجمرك تبعد عن باب مكة بنحو كيلومترين تقريباً، وكانت واسطة انتقالي إلى الجمرك صباحاً وعودتي إلى البيت بعد الثانية ظهراً تتم على أتوبيس مخصَّص من قِبل إدارة الجمارك لِنقل الموظفين صباحاً وإعادتهم مساءً، ومعنى ذلك أنني لم أكن أبذل أي جهد كالمشي طويلاً مثلاً يؤدي إلى التعب.

تعب مفاجىء ونوبات من السعال:

غير أنني أخذتُ أشعر رُوَيْداً رويداً أنني لا زلت أُعاني في صحتي وضعاً مستجدّاً لم يكن مألوفاً لديَّ. يتمثل ذلك في شعوري بالتعب المفاجىء حين صعودي الدرج وصولاً إلى غرفتي، فكنت أُحِسُّ بأنَّ نَفَسِي ينقطع، وأنَّ جهدي يَضْعُفْ، كما لاحظت أن هناك نوبات متكررة من السُّعال الحادّ تعاودني بين ساعةٍ وأخرى، كما أنَّ الشهية للطعام تَدَنَّتْ إلى ما يَقربُ من ٦٠٪ عمّا كانت عليه سابقاً، ومع ذلك فهذه الظواهر لم تمنعني من مواصلة عملي في الجمرك كالمعتاد، ونظراً لتضاعف نوبات السُّعال الحادّ، فقد أشار عَلَيَّ بعض الإخوة الذين كانوا يتجمعون عندي في المقعد مساءَ كلِّ يوم، ومنهم مدير صيدلية الرويحي التي كانت في مواجهة

عمارة الملكة الحالي، بوجوب أخذ صور إشعاعية لصدري، وبالفعل ذهبت في صباح اليوم التالي إلى المستشفى العام الحكومي، والذي لا يوجد في جدة آنذاك من المستشفيات الحكومية سواه.

في المستشفى العام الحكومي:

كان هذا المستشفى يقع في الزاوية الجنوبية الشرقية من جدة القديمة داخل السور. أُخِذَتْ لي الأشعة، ثم أفادني الطبيب بأنَّ عليَّ أن أرسل إليه في مساء ذلك اليوم رسولاً يأخذ منه الصور الإشعاعية مصحوبةً بنتائج فحص الصور.

واصلتُ عملي في الجمرك في ذلك اليوم كالمعتاد، وبعد عصر ذلك اليوم أرسلتُ البَوَّاب عبده يماني إلى الدكتور في المستشفى لإحضار صور الأشعة.

نتائج الصور الإشعاعية:

عندما أحضر إليَّ تلك الصور كان معها نتيجة الفحص ومُرفقة (بروشتة) تحتوي على أدوية أشار الدكتور إلى شرائها واستعمالها، ولمّا كانت النتيجة و(الروشتة) مكتوبة بالإنجليزية، وأنا لم أكن أعرف هذه اللغة فقد أرسلت (الروشتة) إلى صيدلية الرويحي مع البوَّاب ليحضر الأدوية المطلوبة. بَيْدَ أنَّ الصديق الرويحي والذي غاب عني اسمه الآن، والذي كان غالباً ما يحضر عندي في المساء بعد صلاة المغرب مع مجموعة من الأصدقاء في طليعتهم الصديق المرحوم عبدالوهاب باناجة، نقضي وقتاً في حدود الساعة والساعتين في لعب (البلوت).

عندما قرأ الصديق الرويحي روشتة الدواء دُهِشَ، وسأل البواب عبده: لمن هذه الأدوية؟ فأجابه بقوله: إنها لِعمّي إبراهيم، وهنا أبدى الصديق الرويحي تشكّكه في الأمر، وأبقى الروشتة لديه، قائلاً للبواب عبده: ارجع إلى عمّك، وأخبره أنني سأحضر الأدوية معي الليلة.

عندما علمت بأني مصاب بالسُّل:

بعد مغرب ذلك اليوم حضر صديقي الرويحي ومعه قنينة صغيرة داخلها حبوب مستديرة الشكل وفوقها كتابة بالإنجليزية وثلاث خطوط حمراء عليها علامة إكس، فاجأني الأخ الرويحي بقوله: أعتقد أنَّ هذه الوصفة جاءتك بطريق الخطأ، وأنّها لغيرك وليست لك، أجبتُ قائلاً: بالعكس إنها صادرة من دكتور المستشفى العام مرفقة بنتيجة الفحص، وهنا أحضرت إليه ظرف الصور والورقة التي تحمل نتائج فحص الأشعة، وحينما قرأ ذلك بدا عليه الذهول والوجوم، وظلَّ صامتاً لحظات فعجبتُ لأمره، وقلت له: أفصح ما الخبر؟ أجاب: سأخبرك بعدما ننتهي من اللعب.

أكملنا لعب البلوت وبقي هو حتى انصرف الإخوان الآخرون، وهنا قال لي: إن الحبوب هذه تستعمل لعلاج (داء السّل)، وإنَّ الورقة التي تحمل نتائج الفحص تنصُّ على أنَّه يوجد لديك مبادىء لمرض السّل.

صدمة عنيفة:

وقع عليَّ النبأ وقوع الصاعقة وأحسستُ بصدمة عنيفة تجتاحني وتهزّ مشاعري لأنني لم أكن متصوِّراً ما حدث، وكنت أظن تلك الأعراض التي شرحتها آنفاً إنما هي أعراض معتادة تزول مع الزمن.

حاول الصديق أن يُهَوِّنَ عليَّ وقع الصدمة مشيراً في الوقت نفسه إلى وجوب الإسراع في اتخاذ إجراءات السفر للعلاج في الخارج في مصر أو لبنان.

مرض السل:

كان الطِّبُ في تلك الأيام، وخاصةً فيما يتعلّق بعلاج مرض (السّل)، لازال في دور الطفولة. وكانت الفكرة الشائعة آنذاك، بل والواقعية أنَّ مرض السّل هو مرض ميؤوس من علاجه، قلَّ من ينجو منه أحد، وكان ذلك فعلاً واقعاً محسوساً.

مع الصديق حمد الناصر الهطلاني:

كان الصديق حمد الناصر الهطلاني ـ أمدَّ الله في حياته ـ قد وصل جدة قادماً من بيروت منذ بضعة أيام، وكان وجوده في بيروت لمعالجة مرض السّل، ولذلك فقد أسرعتُ في اليوم الثاني باستدعائه، والاستفسار منه عن الخطوات التي اتَّخذها في علاج نفسه، والاستفسار عن كل الإجراءات التي يتوجَّب عليَّ اتخاذها.

بعد أن أفهمته بنتيجة الفحص عندي، أخذ يخفِّف عني الشعور بالخوف، ويطمأنني بأنَّ هذا الأمر أصبح علاجه في طور متقدِّم أفضل كثيراً من الماضي، متخذاً من نفسه دليلاً على أنَّه كان يعاني من هذا المرض، وأنه الآن في دور الشفاء، ثم نصحني بأن أتجه إلى لبنان بدلاً من مصر وأن ألتحق بمستشفى (بحنّس) في لبنان الذي يقع على أعلى قمم لبنان، وبه المرضى الذين أُصيبوا بهذا المرض من مختلف أنحاء العالم العربي، بما فيهم كثيرون جداً من المواطنين السعوديين ذكوراً وإناثاً.

إرسال برقية لأخي في مصر:

وجَّهتُ لأخي برقيةً من مصر نصُّها على ما أذكر: (اقتضت حالتي الصحيَّة ضرورة السفر العاجل إلى لبنان، أرجو حضورك).

في اليوم التالي وصل أخي من مصر، وكنت أثناء ذلك قد اتخذت الخطوات الآتية:

طلب إجازة رسمية لمدة ثلاثة أشهر:

وجَّهتُ كتاباً إلى وكيل وزارة المالية آنذاك الشَّهم النبيل المرحوم عبدالله السعد القبلان أطلب منه إجازة رسمية لمدة ثلاثة شهور مع صرف رواتبها، وقد تحدَّثت معه شفهياً أيضاً فوضعته في الصورة بالنسبة لوضعي الصحي، ورجوته أن تكون الإجراءات سريعة ما أمكن. فطلب مني أن أنتظر عنده في مكتبه بينما أصدر أمره بإعداد الكتاب الرسمي بالموافقة على طلبي، وأن يُطبع ويُحضر لي في الحال.

خطاب إلى مدير مالية جدة:

لم تمضِ ساعة حتى سلَّمني الكتاب بعد توقيعه، وكان موجَّهاً إلى مالية جدة التي كان يرأسها في ذلك الوقت المرحوم محمد السليمان التركي يطلب فيه صرف رواتب إجازتي عن الثلاثة أشهر، وكانت تبلغ أربعة آلاف وخمسمائة ريال، إذ كان الراتب الشهري ١٥٠٠ ريال تقريباً، وصورة من هذا الكتاب لمدير عام الجمارك للسماح لي بالسفر، وصورة منه أيضاً لمدير جوازات جدة بإعطائي جواز سفر مع تأشيرة خروج إلى لبنان.

الذهاب إلى مالية جدة لاستلام الرواتب:

في صباح اليوم التالي ذهبت إلى المالية لاستلام الرواتب، وكان أمين صندوقها في ذلك الوقت هو المدعو (حسن مكّي) وكنت على معرفة به من السابق إلا أنها كانت معرفة عادية، وكنت واثقاً كل الثقة أن يبادر في الحال لصرف المبلغ بعد أن شرحت له عن وضعي الصحي، ووجوب سرعة سفري.

خيبة أمل:

غير أنّه أجابني بشيء من البرود خيّب أملي فيه، إذ قال لي: إنّه حريص على مساعدتي، إلا أنه لسوء الحظ لا يوجد اليوم في صندوق المالية ما يؤمِّن هذا الطلب، حاولت استثارة نخوته ومروءته، بَيْدَ أنه ظلَّ مُصراً على رأيه، وهنا تركته مسرعاً إلى غرفة المدير الذي يرأسه، وهو المرحوم محمد السليمان التركي، وشرحتُ له الموضوع، ورجوته تكليفه بصرف المبلغ، وهنا رفع سماعة التليفون وسأله على مسمع مني بقوله: الأخ إبراهيم الحسون عزيز علينا، ووضعه يستحق المساعدة، وعليك أن تلبّي طلبه، ثم ظلَّ دقائق ممسكاً بسماعة التليفون على أذنه، وختم ذلك بقوله: ما دُمت متأكداً بأن لا يوجد ما يُؤَمِّن طلب الأخ إبراهيم فعليك أن تبذل كل جهد ممكن في صرف هذه الرواتب له في أسرع وقت ممكن،

وهنا وضع سماعة التليفون، ووجّه إليَّ الخطاب قائلاً: من المؤسف يا أخ إبراهيم أنَّ صندوق المالية اليوم خالي، وأنَّ عليك أن تراجعنا غداً إن شاء الله.

صندوق المالية فارغ:

كان شعوري وأنا أسمع هذا الكلام منه شعور الامتعاض والاشمئزاز لعلمي أنَّ ما قاله أمين الصندوق، وما قاله هو ـ أي المدير ـ غير صحيح، لأنّه لا يُعقل أن يكون صندوق الدولة فارغاً لا يوجد فيه مبلغ زهيد كهذا، وخرجت من مكتب المدير أتميَّز من الغيظ والحنق على المدير بالدرجة الأولى، لأنه صديق وتربطني به كما تربطه بأخي أوثق الصِلات.

اقتراض المبلغ من أحد الصيارفة:

عند خروجي لحقني أحد الفَرَّاشين وقال لي: أمين الصندوق يدعوك، ففرحت لذلك، ورجوتُ أن يكون قدَّر الموقف عند دخولي مكتبه، وجّه إليَّ خطابه قائلاً: أنت عزيز على عمّي محمد، وقد حرَّضني على مساعدتك، وحيث إنَّ صندوق المالية ـ كما سبق أن شرحت لك ـ خالياً فإنّه في الإمكان مساعدتك بأن أقترض لك المبلغ من أحد الصيارفة، أحمد بامعوضة، أو سكلوع، أو العمودي، أو السبيعي، ولكن يا أخ إبراهيم هؤلاء الصيارفة اعتادوا أن يأخذوا مقابل هذا الإقراض نسبة معيّنة قد لا تقل عن اثنين في المائة فما رأيك، هل توافق على ذلك؟ أجبت على الفور وبدون تردد: نعم. فطلب مني أن أعود إليه بعد ساعتين، وفعلاً تمّ ذلك، واستلمت المبلغ بعد أن خَصم منه اثنين في المائة، وقد بلغني (والعهدة على الراوي) بأنَّ هذه طريقة متّبعة يتخذها أمين الصندوق هذا مع مديره، ولست أعلم صحة ذلك ولكن هذا ما يتناقله الناس عنه.

إجراءات السفر:

كنت أثناء فترة ملاحقتي لإجراءات السفر بين الجوازات وإدارة الخطوط قد أتممت الحجز على طائرة الشرق الأوسط إلى لبنان.

غادرتُ جدة في اليوم التالي لاستلامي الرواتب بعد أن ودَّعت زوجتي وأخي، وكانت زوجتي في شهور حملها الأخيرة، أي أنَّها على وشك الوضع، وكان أخي قد أحضر معه من مصر إحدى بناته لتساعده في خدمة شؤونه في البيت، ولتكون مع زوجتي.

موقف محرج:

وكان الموقف بالنسبة لي حرجاً جداً، وبالغ الحساسية بالنسبة لزوجتي، إذ إنها في جدة تعيش غريبة، لأنها لا تعرف أحداً أبداً، وهي قادمة معي من قرية، ولم يسبق لها أن حضرت إلى جدة قبل حضورها معي، ولذلك فإنَّ بقاءها وحيدةً في مثل وضعها، وهي على وشك الولادة كان مزعجاً ومثيراً للأعصاب، خاصةً وأنَّ أخي شديد الحساسية، وشديد التجهّم بحيث يتعذر توصيته على زوجتي، أو الطلب منه بأن يهتم بوضعها؛ لأنني لو فعلت ذلك معه لعَدَّهُ مني تشكيكاً في حرصه على العناية بي وبأهلي، بمعنى أنّه سيحوطها برعايته مقدِّراً وضعها وظروفها بكل ما يستطيع.

اهتمام زوجة المرحوم عبدالعزيز العبدلي بزوجتي:

كان هناك المرحوم عبدالعزيز الحمد العبدلي، وكان يسكن بجوار مدرسة الفلاح في بيت (حمدي الشيخ)، الواقع في محاذاة المدرسة من الناحية الجنوبية الغربية. كانت أسرته مكوّنة من زوجته فقط، وزوجته مثله من أبناء عنيزة (أي من بلدياتي كما يقول المثل).

كانت زوجة عبدالعزيز العبدلي رحمة الله عليه تزور زوجتي مرةً في الأسبوع مدة وجودي، وكانت هذه الزيارة منها تخفِّف عن زوجتي الشعور

بمرارة الوحدة، لذا فقد أوصيتُ الصديق عبدالعزيز العبدلي رحمة الله عليه بأن يوعز إلى زوجته بتكرار الزيارة لزوجتي، مشعراً له أنها على وشك الوضع، وطالباً منه أن يعمِّد زوجته بأن تسأل زوجتي عن أيِّ شيء تحتاجه، وعليه أن يؤمِّنه لها.





وصلت بيروت قُبيل غروب ذلك اليوم، ولأنني لأول مرة أصل فيها إلى بيروت، فقد طلبت من السائق الذي نقلني من المطار أن يتَّجه بي إلى أحد الفنادق الواقعة في وسط البلد وتكون من الفنادق الكبيرة.

شارع فوش:

أنزلني في شارع علمت فيما بعد أن اسمه شارع (فوش)، وفوش هذا كما أعلم هو أحد قادة الفرنسيين البارزين الذين كسبوا الحرب الأولى، منتصرين على الألمان وحلفائهم.

فندق متواضع:

دكان الفندق الذي دلّني عليه يقع في هذا الشارع، وكان هذا الفندق أشبه (ببنسيون) فيه غرف متعددة متواضعة، فرشها متواضع، وخدمتها كذلك أقلّ. وهي في عمارة ذات طوابق متعددة، إضاءتها ضعيفة، وخدماتها كما قُلت دون المتوسط، المهم لم يكن لي مندوحة من الرضا بالواقع والاستسلام للوضع.

أمضيتُ تلك الليلة في إحدى غرف هذا الفندق، وإن كنت أرقتُ أكثر ساعات تلك الليلة، وقُبيل الصبح أخذتني سِنة من النوم قد تكون امتدت ثلاث أو أربع ساعات، أفقتُ بعدها وإذا بي أحسُّ بأن ثوبي مبللاً بالعرق المتصبّب من ظهري الأيمن بشكل غير طبعي، وغير مألوف، وهذا ضاعف انزعاجي وشعوري بالألم.

الدكتور إلياس الخوري:

تناولت طعام الفطور، ولست أعرف ماذا كانت أنواعه، وعند ذلك طلبتُ من صاحب الفندق أن يرشدني إذا كان يعرف عيادة الدكتور إلياس الخوري، وهذا الدكتور للمعلومية هو أبرز دكاترة لبنان في ذلك الوقت وكان يرأس مَصح بحنّس، وقد تولّى بعد ذلك وزارة الصحة في الحكومة اللبنانية في وزارة المرحوم سامي الصلح.

دفعت لصاحب الفندق ما طلبه مني، وأظنها إن لم تخني الذاكرة في حدود عشرين ليرة لبنانية وهي تمثل قيمة أجرة الغرفة مع الفطور.

في عيادة الدكتور:

ذهبتُ إلى الدكتور الخوري فقام بفحصي فحصاً أوليًا ووجّه إليّ أسئلةً محددةً عما أحسُّه وأشعرُ به، ثم أوقفني أمام آلة أشعة أخذ لي عدة صور للصدر، ثم أفهمني بأنَّ عليَّ أن أذهب إلى (بحنّس) في أسرع وقت ممكن، فأجبت بأن هذا هو ما قدِمتُ من أجله، وقد وجّه إليَّ عبارات تشجيع مطمئنة، وأخاله قد استنتج من مظهري الذي يتّسم بالضمور والذبول معاً ما يُوحي بقلقي.

إلى مصح (بحنِّس):

بعد ذلك زوّدني بكتابٍ منه إلى إدارة مصحة بحنّس، وطلب مني إذا كنت لا أعرف مكان هذا المَصح أن أذهب إلى ساحة البرج، وهناك سأجد شخصاً ينادي بقوله: (بكفيّا، بحنّس). فعلاً ذهبت إلى الساحة فوجدت رجلاً ينادي كما قال الدكتور، وسألته: إلى أين تتجه هذه السيارة؟ فقال لي: مَصح بحنّس، وكانت السيارة في تلك اللحظة ينقصها شخصٌ واحد فقط وكنتُ أنا هذا الشخص.

إجراءات الدخول:

بوصولي إلى إدارة هذا المَصح، وعند بوابته الخارجية على يمين

الداخل من الباب غرفة متواضعة، فيها شخص أحدب منحني الظهر، يُدعى إدوارد وهو مسيحي متعصِّب، ومهمته استقبال المرضى القادمين للمَصحّ، وتسجيل أسمائهم وإتمام إجراءات إيوائهم إلى المستشفى، وإرشادهم إلى الغرف التي سيقيمون بها، سلَّمته كتاب الدكتور الخوري وكانت النقود التي حملتها معي من جدة في حدود أربع آلاف ليرة لبناني كما أذكر، فقد سلَّمتها لإدوارد هذا أمانةً تبقى تحت الحساب.





في مَصَح بحَنّس

أخذت إيصالاً منه بالمبلغ، ثم مشى أمامي بنحو مائتي متر تقريباً فصعدنا إلى مبنى فخم ذي أربع طوابق، قادني إلى غرفة في الطابق الرابع كانت الغرفة نظيفة وواسعة أيضاً، فهي في حدود ثلاثة في أربعة أمتار بها سريران، أحدهما مقابل الآخر، يعلو كل واحد منهما فرش نظيف، ويوجد في هذه الغرفة بابان أحدهما يفضي إلى الصالون العام، والآخر يفضي إلى السطح، وهو سطح واسع تبلغ مساحته نحو عشرة أمتار في ستة أمتار تقريباً.

كانت الغرفة التي طُلب مني أن أسكنها هي كما شرحت، أحد سريريها خالٍ، وعلى الآخر أحد المواطنين السعوديين من سكان حفر الباطن الواقع في الشمال الشرقي من المملكة، وكنت أعرف هذا الشخص معرفةً تامةً فكثيراً ما رأيته في دكانه في حفر الباطن، عندما كنت أميناً للجمارك، ورئيساً لمالية قرية، خلال فترة الستينات من الهجرة.

كان فرحي بوجوده غامراً، كما أنّه نفسه شعر بمثل ما شعرتُ به من غِبطة وفرح، خاصةً وأنّه بالإضافة لمعرفتي السابقة به فإنه ينتمي إلى مدينة البكيرية على ما أذكر، وهي بلدة تعتبر من البلدان التابعة لبلدتي عنيزة في القصيم.

لقد أحسست بفرحة غامرة، وشعور مريح، أزال من نفسي كثيراً من التخوف والتصورات، وخاصةً بعد أن أخذ يشرح لي عن وضع المَصَح،

وعن طريقة العلاج فيه، وأنه يضمُّ العشرات من المرضى السعوديين والسعوديات، وأن نسبة الشفاء فيه تكاد تبلغ التسعين في المائة، وهنا لا بد لي أن أُعطي صورةً مصغرةً عن هذا المَصَح لكي يكون القارىء على معرفةٍ به:

وصف مَصَح بحنِّس:

يقع مَصَح بحنِّس على قمة جبل من أعلى جبال لبنان في الجهة الشمالية الشرقية من بيروت، ويشمل مساحة شاسعة من الأرض لا تقلّ مساحتها عن خمسة كيلومترات طولاً ومثلها عرضاً، كان مدينة مستقلة، تؤمِّن حاجاتها الغذائية من خضار ولحوم من داخل المَصَح، ففيه أماكن لتربية المواشي من الضأن والعجول، وحظائر الدجاج، لتأمين البيض ولحوم الدجاج، كان وصف المصح كالآتي:

يقع بابه الرئيس على الشارع العام، باتجاه الشرق، الذي يمر عبر قمة هذا الجبل من الشمال إلى الجنوب بحيث يبدأ الشارع في النزول إلى أن يصل إلى باب المصح.

من الجانب الآخر، على يمين الداخل من هذا الباب مباشرةً تقع غرفة متواضعة، فيها موظف مسؤول يُدعى إدوارد، وقد سبق أن تكلمت عنه، عندما تتجاوز هذه الغرفة بأربعة أمتار تقريباً، تتجه إلى الشمال لتقطع نحو مائتي متر تقريباً، لتصل إلى عمارة فخمة ذات أربع طوابق، وهي مخصَّصة للمرضى الرجال.

سكن المرضى:

وترتيب سكن المرضى في هذه العمارة، الآتي:

الدور الرابع، ويعدُّ الدرجة الأولى، وبه المرضى السعوديون، وهو متميِّز في سعة غُرفه، وفي تأثيثه وفي نظافته، وفي نوع الأطعمة التي تقدَّم فيه للمرضى، وكذلك كثرة دورات المياه فيه. وتختص كل غرفة بدورة مياه

خاصة، كما أنّ هذا الجناح قد وفُر فيه الكثير من الألعاب المُسليّة كورق الكتشينة، وأحجار الدومينو والكيرم، وغيرها من الألعاب، بالإضافة إلى ذلك فسكان هذا الجناح يتميَّزون برعاية خاصة، ولا غرابة في ذلك، فإنّ السرير الواحد يدفع عنه المريض خمسمائة ليرة لبنانية شهرياً، وكان الدولار الأمريكي آنذاك يساوي ثلاث ليرات لبنانية، هذا المبلغ الشهري هو مقابل السرير والغذاء فقط، أما الأدوية والأشعة والعمليات فهذه تُدفع مستقلة بموجب فواتير خاصة.

يلي هذا الجناح من أسفل، جناح مماثل له من حيث عدد الغرف والمنافع، إلا أنه أقلّ بكثير مما يتوافر في الطابق الرابع، من حيث الخدمة والنظافة، وأنواع الأغذية التي تقدَّم للمريض، كما لا يوجد فيه أي نوع من المُسليات، وكان هذا الطابق مخصَّصٌ لإخواننا المرضى العراقيين، كانت أجرة السرير فيه مع الغذاء ثلاثمائة ليرة شهرياً.

وأسفل منه الجناح المماثل له وهو مخصَّصٌ لإخواننا السوريين، وقيمة السرير والغذاء مائتي ليرة، وبطبيعة الحال فإنه يقل عن مستوى جناح العراقيين. ثم يأتي الجناح الأخير، وهو الأسفل، ويختصَّ بإخواننا اللبنانيين، وقيمة السرير مع الغذاء فيه على ما أذكر في حدود المائة والخمسين ليرة شهرياً.

وجبات الطعام:

كانت وجبات الطعام التي تُقدَّم لمرضى الجناح السعودي فيها أكثر من نوع من الخضار والأرز واللحم، مضافاً إلى ذلك الفواكه ما بين يوم وآخر تقريباً.

أفلام السينما:

ويعلو الطابق الرابع جناح لدار عرض (سينما) رُصَّت فيها الكراسي في حدو مائة وخمسين كرسي تقريباً، وأثبتت في واجهته شاشة عرض كبيرة، كانت إدارة المستشفى تقوم بعرض ما لا يقلُّ عن فلمين في الأسبوع

يشاهدها المرضى مجاناً، ويشترك الذكور والإناث في مشاهدة العرض، وكانت الأفلام التي تُعرض في الغالب أفلاماً اجتماعية.

المبنى المخصَّص للنساء:

أما المبنى الآخر وهو مماثل لهذا المبنى من حيث البناء الهندسي، والمَرافِق ودورات المياه، مخصَّص للنساء، ويقع على بعد أربعمائة متر تقريباً عن حجرة إدوارد، بجوار الباب من الداخل، من جهة جنوب مدخل المستشفى. وترتيب المرضى في هذا الجناح هو ترتيب جناح الرجال نفسه، فالطابق الأعلى للسعوديات، ثم أسفل منه للعراقيات، ثم أسفل منه للسوريات، ثم الطابق الأخير للبنانيات. وهذا لا يمنع أن يكون في كل طابق من الطوابق الأربعة في مبنى الرجال ومبنى النساء مرضى آخرون من جنسيات أخرى يسكنون في الطوابق الأربعة كُلٌّ حسب مقدرته المالية، ولكنهم قِلّة؛ لأنَّ تكاليف المستشفى باهظة، وعلاج هذا المرض يحتاج لطول وقت قد يبلغ السنتين أو أكثر بحيث لا يحتمله غير الأثرياء القادرين على الدفع.

مبنى العمليات الجراحية:

وفي الوسط، ما بين جناح النساء ومدخل المصَح، يقع مبنى خُصص للعمليات الجراحية، ويتكوَّن من غرفتين: إحداهما مزوّدة بالأجهزة الخاصة بالعمليات، وفيها تُجرى العمليات الجراحية سواء كانت للذكور أو الإناث، وبجوار هذه الغرفة مباشرةً غرفة مزوّدة بسريرين اثنين فقط، ومساحتها في حدود أربعة في ثلاثة متر تقريباً (ومثلها للنساء)، وهاتان الغرفتان مُخصّصتان للنقاهة لِمَن تُجرى له عملية للبقاء فيها بضعة أيام، ثم يُنقل إلى غرفته في المبنى المُخصص، سواءً كان للرجال أو النساء.

وأمام مدخل المَصح في الشمال الغربي، على بعد نحو مائة متر تقريباً تقع مطابخ المَصح، وعلى مقربة منها مساكن موظفي المصح والقائمين على إدارته من طبّاخين وممرضين وممرضات.

مكتب رئيسة المصح (الماير):

كما يوجد فيه أيضاً جناح خاص للسكن، ومكتب رئيسة المَصح، وهي راهبة تُدعى (الماير)، وهي امرأة في السبعينيات على ما أظن، وتعلو وجهها شعيرات على الشارب، كأنها فتى في بدء بلوغه، وهي وحدها المسؤولة عن المَصح وإدارته، بجميع مرافقه، سواء من ناحية الأطباء أو الممرضين والممرضات أو الخدم، أو احتياجات المصح من أغذية ومستلزمات، وهي امرأة حازمة بلا شك وجديرة بعملها. وكما فهمت فإنَّ هذا المصح مرتبط بهيئة رئيسة خيرية تديرها جمعيات من راهبات ومقرّها باريس.

نُزلاء المصح السعوديون:

ما هي إلا أيام قلائل بعد دخولي هذا المَصح حتى تأقلمت فيه، وتعرفت على نُزلائه من المرضى السعوديين، كلّهم ينتمون إلى مدن وقرى أعرفها جيداً، الأمر الذي أدخل السرور على نفسي، حيث وجدتني أعيش في وسطٍ وكأنني لم أغادر بلدي. فضلاً عمّا أحاطني به هؤلاء الإخوة الكرام من ترحيب وحفاوة ضاعف سروري، مزيلاً كل ما كنت أحسّه من جزع وخوف يوم وصولي إلى المستشفى، وقد فهمتُ منه الكثير مما يتعلق بهذا المرض ومراحل علاجه، وأنّه يكاد يكون أشبه بعلاج الأمراض الأخرى، فلا خوف منه وإنما فقط يحتاج إلى الصبر والإيمان، وفي الغالب إلى طول الوقت، وإنَّ من أهم وسائل علاج هذا المرض هي الراحة التامة والغذاء الجيد، والجو البارد النقي وهذا كله متوفِّر في هذا المَصح.

المسؤول عن المرضى السعوديين:

كان المسؤول عن المرضى السعوديين في هذا المَصح هو الشخص الذي يتولى مراقبة دخولهم وخروجهم وملاحظة سلوكهم ومقابلة المَصح بدفع ما يستحق له أو عليه، وهو الشيخ المحترم سليمان العبدالله الغنيم من أهالي الرياض، وكان مقيماً في بيروت منذ سنوات، إذ قدِم بيروت لأوّل

مرة لعلاج زوجته في أحد مستشفيات بيروت، وقد انتقلت إلى جوار ربّها بعد مدة ليست طويلة لوصولها إلى بيروت.

الشيخ سليمان العبدالله الغنيم:

وقد استطاب الشيخ سليمان المقام في بيروت، وهو على جانب لا بأس به من الثروة، وفتح مكتباً تجارياً يزوال فيه التجارة مع المملكة، بمشاركة الثري الصديق محمد إبراهيم السبيعي وعبدالله، وهما يقيمان آنذاك في جدة يزاولان عمل الصرافة، كان مكتبهما في الجهة الجنوبية المقابلة لمسجد عكاش في جدة، وهما من أبناء مدينة عنيزة.

السفير السعودي عبدالعزيز بن زيد:

كان السفير السعودي آنذاك في بيروت هو الشيخ المرحوم عبدالعزيز بن زيد أحد أبناء مدينة حائل، من ألمع الشخصيات السعودية في عالم الدبلوماسية ورجاحة العقل اللتين أهلتاه لثقة الملك عبدالعزيز، فاختاره له سفيراً في لبنان، وكان عبدالعزيز بن زيد، يعمل سفيراً أيضاً في سوريا بجانب عمله في لبنان. وكان رجلاً حصيف الرأي، ذا رؤية عقلية مُتبصِّرة، يحمل بين جَنْبيه روحاً إنسانية محبةً للخير، حريصاً على مدِّ يد العون والمساعدة لكل مَن في حاجةٍ إليها.

توافد المرضى السعوديين إلى لبنان:

كان لبنان بالنسبة للمرضى السعوديين في تلك الأيام، في أواخر الستينات من القرن الرابع عشر الهجري، لم يكن معروفاً بعد، وكان اتجاه المرضى السعوديين منحصراً في مصر، وفي مستهلّ السبيعنيات من ذلك القرن ابتدأ الاتّصال بين مستشفيات لبنان وبعض المرضى السعوديين، ثم أخذ المرضى السعوديون بعد ذلك يتجهون كثيراً إلى لبنان، وخاصةً مرضى السلّ، لِما وجدوا في لبنان من مميزات غير متوفرة في مصر سواء كان من حيث الجو والمناخ، أو من حيث الكفاءة الطبية والعناية والخبرة.

تكفُّل الدولة السعودية بعلاج رعاياها:

كان السعوديون في بادئ الأمر يفِدون إلى لبنان وقد وصلوا إلى الدرجة الثانية أو الثالثة من مراحل المرض، وكان علاجهم على نفقاتهم الخاصة، وواضح أن نفقات المصح باهظة بالنسبة لما يماثلها في مصر مما يجعل الأمر صعباً على المريض أن يواصل العلاج في مستشفيات لبنان أكثر من سنة مما يضطرون معه في النهاية إلى العودة إلى بلادهم بعد أن يشعروا بالتحسُّن في صحتهم، مما يبعث في نفوسهم الأمل على أنّ هذا التحسُّن سيستمر إذا التزموا بتوجيهات أطبائهم المعالجين. وواضح أنَّ هذا التحسُّن في صحة هؤلاء المرضى لا يعني شفاءهم، إذ لا يلبث الواحد منهم بعد عودته إلى بلده من العودة إلى لبنان مرة أخرى نظراً لانتكاس صحته.

التماس خطي إلى السفير:

وقد حدث أن وجد مجموعة من الإخوان في حدود عام ١٣٦٩ - ١٣٧٩هـ في لبنان في مَصح (بحنَّس) للعلاج من هذا المرض الخبيث، وفي مقدمتهم الصديقين الكريمين عبدالمحسن الحمد المنقور، وحَمَد الناصر الهطلاني أمدَّ الله في حياتهما، وبضعة أفراد آخرين لا أذكر أسماءَهم، وقد رأوا فيما بينهم أن يتقدموا بالتماس خطّي إلى سمو وليّ العهد آنذاك الأمير سعود بن عبدالعزيز يُرفع لِسموِّه بواسطة السفير عبدالعزيز بن زيد، يتضمَّن هذا الالتماس أن يكون علاج المرضى السعوديين على نفقة الحكومة، وذلك بعد مفاهمة مُسبقة مع سعادة السفير عبدالعزيز بن زيد.

قُدِّم الالتماس الخطّي إلى السفير موقَّعاً من عبدالمحسن المنقور وحمد الناصر الهطلاني، وقد علّق سعادة السفير على هذا الالتماس بما يؤيِّد أحقيتَّهم في هذا الطلب، وأنّهم فقراء لا تُمكنهم أحوالهم المادية من تحمُّل مصاريف هذا المرض.

إجابة الأمير على سعود على طلب السفير:

ولما كان السفير عبدالعزيز بن زيد ذا حظوة لدى جلالة الملك

عبدالعزيز ووليّ عهده الأمير سعود، ولِثقتهم به وبنباهته وإخلاصه، فقد أُجيب الطلب في برقية جوابية موجَّهة للسفير عبدالعزيز بن زيد بتوقيع الأمير سعود، وهي جواب على برقية السفير، وتتضمَّن موافقة الدولة أن يكون علاج مرضى السل السعوديين ذكوراً وإناثاً على نفقة الحكومة السعودية، ومن الواضح أنَّ هذه المكرمة كانت عميقة الأثر، وكانت لغتها إنسانية جاءت في موضعها الصحيح، ولا غرابة أن أصبح كل من يُكتَب عليه دخول هذا المصح يلهج بالدعاء والشكر لسمو الأمير سعود.

مكتب سليمان الغنيم:

وبما أنَّ الشيخ سليمان العبدالله الغنيم كان على صلة مستمرة يومياً مع السفير عبدالعزيز بن زيد، فقد كان سليمان العبدالله هذا يستقبل آنذاك في مكتبه المرضى السعوديين، ويتولّى إدخالهم المَصَح بعد أن يُودع لديه ما حملوه من النقود للعلاج كأماناتٍ عنده.

ما كادت برقية الأمير سعود، ولي العهد، تصل للسفير حتى بادر بالكتابة رسمياً إلى سليمان العبدالله الغنيم بأن يتولّى مكتب سليمان الغنيم هذا، وكان يُديره وقتذاك نسيبه إبراهيم آغا، وهو شاب فلسطيني اقترن سليمان العبدالله الغنيم بأخته بعد وفاة زوجته، يتولّى المكتب هذا استقبال المرضى السعوديين وإدخالهم المستشفيات المختصة بمرضى السِل كمصح بحنّس ومصح ظهر الباشق ومصح العزونية، كما يتولى استلام فواتير العلاج وأجور العمليات والأدوية والأطباء، ويقوم بتسديدها لهذه المستشفيات، وفي الوقت نفسه يبعث ببيانات شهرية إلى الديوان في الرياض تمثّل أسماء المرضى ونفقات علاجهم، وهناك يقوم الديوان بتعميد الجهات المعنية بتحويل هذه المبالغ شهرياً إلى مكتب سليمان الغنيم.

فرحتي الغامرة بولادة ابني يوسف:

في الأسبوع الأول لدخولي المَصَح، وصلتني رسالة خطية من جدة، بتوقيع الصديق المرحوم عبدالله النقيداني، وهي تزفُّ إليَّ بُشرى سعيدة هي

أنني قد رُزقت بولدٍ تمّت ولادته بتاريخ ١٣٧١/٨/٧هـ وقد سمّاه أخي باسم يوسف. كان هذا النبأ السار فألاً حسناً بالنسبة لي، إذ سيكون بمشيئة الله امتداداً لوجودي، فيما لو قُدِّر أن أقضي نحبي في هذا المصح.

رفعتُ أكفَّ الضراعة إلى سيدي ومولاي وخالقي ومُسْبغ نعمه عليَّ بأن يحفظ هذا الطفل بعين عنايته، وأن ينشِئه نشأةً صالحة على النحو الذي يرضيه.

أبنائي الذين رحلوا إلى الدار الآخرة:

كان شعوري غامراً بالفرح لهذا النبأ، إذ إنه يأتي بعد أن رُزقت قبله ثلاثة أبناء كلهم ذكور، كان ترتيب قدومهم إلى هذا الوجود ورحيلهم عنه كالآتي:

الأول: محمد، وهو البكر قدم في مَغْرب يوم السابع والعشرين لشهر رمضان المبارك من عام ١٣٦٢هـ في مركز أم رضمة على الحدود العراقية السعودية، وغادر هذه الحياة بعد ثلاث ساعات من قدومه، وبصحبته أمّه التي ولدته (سلمى الغريقان) زوجتي الأولى طيَّب الله ثراها.

أما الثاني: وهو محمد أيضاً، وقد رُزقته من زوجتي الحالية (حصة عبدالله الخليف) حيث وُلد في حفر الباطن عام ١٣٦٦هـ، ثم غادر هذه الحياة بعد خمسة شهور من ولادته على أثر حبة سوداء نبتت على إليته اليمنى، ولم تمهله أكثر من ثلاثة أيام ثم غادر هذه الحياة.

أما الثالث: واسمه عبدالله، فقد رُزقته في مدينة قرية في أواخر عام ١٣٦٩هـ واصطحبته معي ووالدته حين انتقلنا من قرية إلى جدة في مستهل عام ١٣٧٠هـ كما سبق شرحه في هذه الذكريات، وظلَّ معنا قرابة الشهرين حيث مرض بُعيد وصولنا جدة مباشرةً. وكانت تتولى علاجه امرأة ألمانية قيل لنا أنّها دكتورة أطفال، وأسندنا إليها علاجه، وكانت تأتي إلينا يومياً في باب مكة لهذا الغرض. ولكن هذا الطفل لم يلبث أكثر من أسبوعين حتى تدهورت صحته إلى الأسوأ وفاضت روحه بين يديّ، وإني لأحتسبهم جميعاً عند ربي مؤملاً أن أجدهم حين ألقاه، ويكونوا شفعاء لي ـ إن شاء الله ـ.

مجتمع صغير متجانس:

لم تمضِ أكثر من بضعة أيام حتى أصبحنا نحن المرضى السعوديين الذكور، وعددنا أربعة وثمانون شخصاً، نكوِّن مجتمعاً صغيراً متجانساً متناغماً تسوده الألفة والمحبة وصفاء القلوب، وطهارة النفس، وحب الإيثار، كيف لا ونحن جميعاً ننتمي إلى بلد واحد، وتظلنا راية واحدة، تحمل بين تضاعيفها كلمة التوحيد: (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، ورغم أنَّ هناك تبايناً في المستوى الثقافي، والحضاري، والاجتماعي، فإننا جميعاً قد انصهرنا في بوتقة واحدة، فأصبحنا نمثِّل أسرة واحدة متعددة الأفراد.

أيامنا في المصح:

كنا نقضي أوقاتنا في مرح ولهو وسعادة، يجمعنا صالون فخم واسع الأرجاء، تبلغ مساحته ٢٠ في ١٥ متراً تقريباً، وُفِّرت فيه جميع المسلِّيات، وكنا جميعاً نتمتع بصحة نُحِسُّ فيها أنَّ شفاءنا يتقدم يوماً بعد يوم.

الممرضتان: ماري وروز:

كان جناحُنا قد خُصص له ممرضتان، إحداهما راهبة تُدعى (ماري)، والأخرى تُدعى (روز)، وهي فتاة شابة جميلة الملامح في أواخر العقد الثاني من عمرها، تتميز بالأدب ولطف الحديث، بَيْدَ أنّه كان يلاحظ على ملامحها الهزال والذبول. كانت هذه الممرضة تتولى مهمة التجوُّل كلَّ صباح على غرف المرضى لتعطيَ الإبر المقررة لكل مريض.

أما الثانية وأعني بها الراهبة، فمهمتها مراقبة المرضى لتعليمات المَصح في مراعاة المواعيد المحدَّدة، فالمريض يأوي إلى فراشه ليلاً ويغادره صباحاً، وكذا مراقبة عدم مغادرة المريض للمصح مهما كانت الأسباب إلا بإذنٍ خطي تأتي به هذه الراهبة من رئيسة المَصح (ماير).

خدم المستشفى:

أما الخدم وهم من الذكور، فيتولّون مهمة تغيير الفرش كل صباح، وتنظيف الغرف، والاعتناء بنظافة الصالون والممرات، كما يتولّون مهمة إحضار وجبات الطعام من المطبخ العام في الأوقات الثلاثة: صباحاً وظهراً ومساءً. وكان من هؤلاء شخصان أرمنيان، أحدهما يدعى (بوغوس)، والآخر يدعى (إليان) يعاونهما شخص آخر لبناني يُدعى (إلياس).

برنامج حياتنا اليومي:

كانت تمرّ علينا الأيام والساعات دون أن نحس أو نشعر بها، لأننا نقضي جميع أوقاتنا في مرح ولهو، وتبادل للطُرف والنكات، ولا أبالغ إذا قلتُ أنني شخصياً أحسستُ بسعادة في هذا المجتمع المتآخي، المتوفرة فيه جميع الأسباب، لم أحس بها طيلة أيام حياتي السابقة. كان برنامج حياتنا اليومي يتمّ على النحو الآتي:

صلاة الفجر:

في الصباح نغادر فراشنا في الساعة السادسة، ونتوضأ ونؤدي صلاة الفجر في سطح المَصح الذي مرَّ ذكره، كنا نتخذ منه مُصلّى.

الصديق سالم الحناكي:

كان يؤمّنا في الصلاة الأخ الصديق (سالم الحناكي)، وهو من مواليد مدينة الرس بالقصيم، في منتصف العقد الثالث عمره، على جانب من الثقافة الدينية؛ لأنه ينتمي إلى عائلة الحناكي، وهي عائلة بيت علم معروفة في تلك المدينة. أما مهمة الآذان فلم تكن محددة بشخص واحد، بل يتولاها أول من يصل إلى المُصلّى.

طعام الإفطار:

بعدها نأوي إلى غرفنا، نستريح على الأَسِرّة لمدة نحو ساعة ونصف تقريباً، ثم يُؤتى إلينا بطعام الإفطار، وهو يتألف عادةً من جبن وعسل

وبيض وكوب حليب مع قرص من الخبز، مضافاً إلى ذلك كوب شاي لِمَن يطلبه.

في حدود الساعة الثامنة يكون لنا مُطلق الحرية في المكوث في الصالون العام، أو التزاور فيما بيننا داخل غرفنا، أو التكتُّل جماعات جماعات، ولكن السمة البارزة والمميزة التي يتَّصف بها الجميع، هي البشاشة والألفة والإخاء بين الجميع.

طعام الغداء:

حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر يُؤتى بالغداء، ويتكون عادةً من خضار ومن أرز ومن قطع من اللحم، أو فخذين من الدجاج أو نحو ذلك، مضافاً إليه تفاحة وأخرى برتقالة أو إصبع موز.

وجبة العشاء:

أما وجبة العشاء فتتمّ حوالي الساعة الثامنة مساءً، وتتألف من بعض أنواع الحلوى، وبعض أنواع الجبن، مع رغيف من الخبز، وبيضة مسلوقة.

وزن المريض:

كان المُتّبع لدى إدارة المَصَح أنَّ أول عمل تقوم به للمريض الوافد قبل أن يدخل غرفته المخصَّصة له، هي أن تقوم الإدارة بوزن هذا المريض، وتسجِّل وزنه في التاريخ الذي تمَّ فيه الوزن، وتسجِّل هذا الوزن على اللوح الخشبي الصغير (الطبلية) التي تعلَّق على مؤخرة سرير المريض. كان وزني آنذاك أربعة وأربعين كيلو، أي أنني كنت نحيفاً هزيلاً أشبه بالشَّبح.

تقدُّم صحتي واستعادتي العافية:

ما كدتُ أستقر على سريري، وأُمضي بضعة أيام مع زملائي الجُدد حتى أحسستُ بدبيب الصحة والعافية ينمو في جسمي كما ينمو البرعم من فرع الشجرة. كنت أحسُّ بشهية منفتحة، وبنشاط يتجدَّد، وبحيوية تملأ النفس بهجةً ونشاطاً.

إجراء الفحوصات الأوليَّة:

كان النهج المُتَّبع لدى إدارة المَصح لكلِّ وافد جديد أن تُجرى عليه الفحوصات الأولية، يقرر الطبيب نوع العلاج المناسب له، وفي الغالب ٧٠٪ تقريباً من هؤلاء المرضى يُترَكون بدون علاج لفترة قد تبلغ الشهرين أو أكثر، وذلك خاص بالمرضى الذين تكون درجة المرض لديهم في مراحلها الأولى، وذلك على أمل أن هذا المريض يشفى طبعياً بدون علاج، طالما توفرت له الراحة والغذاء الجيد والمناخ البارد.

أما أولئك المرضى الذين تمكّن منهم المرض قبل وصولهم، ووصل إلى الدرجة الثانية والثالثة من مراحله، فهؤلاء تُخصَّص لهم حبوب معيّنة خاصة بهذا المرض تُحدَّد لها أوقات لتناولها خلال كل يوم، مضافاً إليها تخصيص إبر لمساعدتهم على تقوية الجسم لمقاومة المرض. وهؤلاء يُلزمون بملازمة الفراش وعدم مغادرته إلا للضرورة كدورة المياه، أما ما عدا ذلك فعليهم أن يلزموا الفراش كل الوقت.

الطبيب إدوارد باروكي:

وكان من إجراءات المَصَح أيضاً أن يتجوّل الطبيب المعالج، وكان يُدعى (إدوارد باروكي)، وهو إنسان نبيل على مستوى عالٍ من دماثة الخُلق وبشاشة الوجه، ولطف المعاملة، كان يتجوّل كل صباح على غُرف المرضى غرفةً غرفةً، ليطَّلع على درجة حرارة المريض، في ذلك الصباح التي تكون الممرضة المختصَّة قد أخذتها وسجلتها على اللوحة قبل حضوره.

غرفة الأشعة:

أما في نهاية كل شهر فكان مطلوب منهم آخر يوم من الشهر أن يحضروا إلى غرفة خاصة بالأشعة تقع على مقربة من مبنى إدارة المَصح، يجتمعون هناك في الساحة، ويُنادى عليهم فرداً فرداً، وتؤخذ لكل منهم صور إشعاعية لصدورهم.

معاينة الصور الشعاعية:

وفي اليوم الثاني تكون هذه الصور قد رتبت فيحضرُ أطباء المَصَح، سواءً المعالجون أو الجراحون، يرأسهم رئيس المَصَح إلياس الخوري. يجتمع هؤلاء الأطباء في صالون مخصص بجواره ماكينة تصوير أشعة للصدر، وتكون صور المرضى التي أُخذت بالأمس قد وُضعت بترتيب على المكتب الرئيس، وهناك يتجمَّع المرضى الذين أُخذت صورهم بالأمس، بينما يقوم الأطباء مشتركين بمعاينة الصور الشعاعية لمعرفة سير المرض بالنسبة للمريض، وعلى ضوئه يتقرَّر ما إذا كان يحتاج الأمر لإيقاف الدواء أو تبديله بنوع آخر، أو إجراء عملية للمريض، وترفق نتائج الفحص في ملف كل مريض، ويقوم المختصّون بتنفيذ ما كتب عليها من تعليمات.

تشخيص المرض:

كان تواجُد المرضى على مقربة من غرفة اجتماع الأطباء الهدف منه أن يُدعى أي مريض قد يشتبه الأطباء في صورته الأشعاعية التي أُخذت له بالأمس، فينادون عليه ليحضر أمامهم، ثم يقومون بأخذ صور إشعاعية لصدره مرةً أخرى، ليقارنوها بصورته بالأمس ويتأكدوا من صحة التشخيص.

كان المرضى الذين يتقرر إجراء عمليات جرّاحية لهم يُشعَرون بواسطة الطبيب المعالج إدوارد باروكي، فيُعلِمهم بموعد العملية وبنوعها، وبما قد يستلزم من إجراءات، كأخذ تعهُّد خطي على المريض أو وليّه، يتعهّد فيه بموافقته باختياره على إجراء هذه العملية، وهذا عادةً يكون خاصاً بالعمليات الجراحية الخطرة.

ارتفاع وزني:

كان دخولي في مصح بحنّس على ما أذكر في ١٣٧١/٨/٨هـ. كان وزني عند الدخول هو ٤٤ كيلو. وفي الشهر الأول لدخولي، وبعد أخذ

الأشعة المعتادة في كل شهر والتي عادةً يصحبها أخذ وزن كلٍّ مريض، يسجَّل هذا الوزن على اللوحة المثبتة على مؤخرة سريره، ما كدت أكمل الشهر حتى قفز وزني إلى ٤٩ كيلو، أي بزيادة كيلو في الشهر. وكنت أحسُّ ذلك في نفسي قوةً ونشاطاً وحيويةً ملفتةً للنظر، كنت ألتهم وجبات الطعام بطريقة شَرِهَة ونهمة في آن واحد.





كنا كما سبق أن ذكرت: في طابقنا أو جناحنا على الأصح، وفي الجناح الأعلى من العمارة نمثل مجتمعاً متجانساً تحوطه كلُّ مظاهر البهجة والفرح، وكنا نمثل بصورة تكاد تكون كاملة جميع مدن المملكة.

محمد أحمد من الجُبيل:

هذا المواطن محمد أحمد من مدينة الجبيل على الساحل الشرقي للخليج العربي، جيءَ به منذ أربع سنوات ملفوفاً ببطانية كما يقول، وهو عبارة عن هيكل عظمي قد تمكَّن منه المرض وعاث في جسمه حتى أوشك على النهاية، ها هو الآن قد استعاد نشاطه وقوته، مفتول العضلات، ضخم الجثة، وزنه **٨٤** كيلوجراماً، بينما كان وزنه عند الدخول **٣٧** كيلوجراماً، وهو في أوائل العقد الخامس من العمر.

ناصر زعقان من جيزان:

وهذا المواطن ناصر زعقان قدم من جيزان جنوب المملكة، وهو في حالة إعياء قد تمكَّن منه المرض، وهو الآن ممتلىء صحةً وعافيةً، ويقتصر علاجه وزميله السابق محمد على إبر يومية وأخالها إبر فيتامينات.

سالم الجِناكي من الرس:

وذاك المواطن سالم الجِناكي وهو شاب في منتصف العقد الثالث من العمر، من مدينة الرس في القصيم، جيء به أيضاً وقد تمكَّن منه المرض

فتعذَّر عليه المشيء فجيءَ به محمولاً، وهو الآن في صحة جيدة متورِّد الخدين، ويبلغ وزنه كما يقول **٥٥** كيلوجراماً، بينما كان وزنه عند الدخول **٣٥** كليو جراماً.

دليم العسيري من أبها:

وهذا دليم العسيري، أحد ضباط الأمن العام في جدة، ومن مواليد أبها، وقد وفد إلى المستشفى كما فهمت قبل وصولي بخمسة شهور، أُجريت له عملية ناجحة فلم تمضِ بضعة أشهر حتى أصبح قادراً على مزاولة أي نشاط، وتلاشى تقريباً كل ما كان يحسُّ به من آثار المرض، وهو شاب في حدود الثلاثين من العمر، يَلِذُّ له كثيراً أن يرتدي بزّته العسكرية، وهي بزّة ضابط تعلو كتفيه نجمتان لامعتان، كان يجد متعةً في ارتدائها في الأوقات التي يُسمح لنا فيها بفسحة خارج المَصَح.

القائد العام للمرضى:

وكنا نطلق عليه عبارة لاذعة ملؤها السخرية، فننعته باسم القائد العام للمرضى الموجودين، وكان يتقبَّل منا هذا اللقب، ولست أعلم ما إذا كان يدرك أنّه لقب تهكمي، أو أنه يأخذ اللفظ على عِلاّته تمشياً مع طموحاته.

عبدالرحمن الجمعي من عنيزة:

وهذا عبدالرحمن بن عبدالعزيز الجمعي، وهو من مدينة عنيزة (بلدتي)، وتجمعني به صلة القربى، لأنَّ والدته هي نورة الحمد الحسون، أي ابنة عمي، كان قدِمَ إلى المصح مع والده عبدالعزيز الجمعي بعد دخولي بنحو شهر، وكان عند دخوله بادي الهزال والنحول، ولكن لم يقعده المرض بعد، وهو شاب في أواخر العقد الثاني من عمره.

بقية أصدقائنا المرضى:

وذاك عبدالله الغامدي، وقائد اليماني، ومظفَّر البخاري، هؤلاء الثلاثة من جدة، وقد مضى عليهم في المَصح عامان تقريباً كما فهمت.

وذاك جارالله الرديعان من مدينة حائل، وقد مضى عليه في المصح ثلاثة أعوام، وقد وصل المصح كما فهمت منه، وقد بلغ منه المرض حافة الاحتضار، وقد ظلَّ ملازماً لسريره أكثر من عام، وكانت الراهبة التي سبق أن مرَّ ذكرها قد عطفت عليه بشكل يثير الإعجاب، إذ كان القرب منه خطراً لتكاثر الميكروب الذي ينبعث من نَفَسه، وبالتالي أصبح مَن يقترب منه معرض للإصابة، وهو الآن بحالة صحية ممتازة وقد شُفِي على الطبيعة، أي بدون علاج.

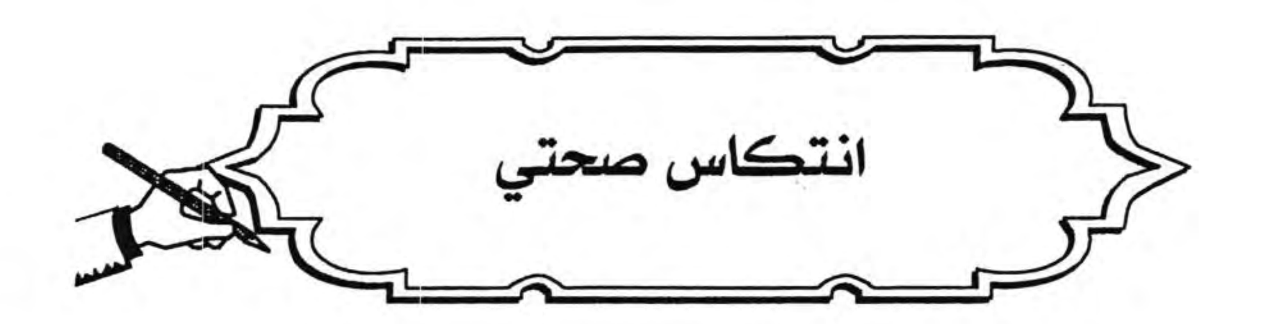
وهذا عمر سيبيه أحد أبناء مدينة ينبع، شاب في أواخر العقد الثاني من عمره قد استعاد صحته ونشاطه، وذاك عبدالله بن حسين من مواليد مدينة (إرغبه) ومن سكان الرياض، وذاك عبدالله صالح الصرامي من مدينة الدمام الجميع يتمتعون بصحة كاملة، وكلّهم يتجهون إلى الشفاء الكامل بخطوات منتظمة. ولست بسبيل تعدادهم جميعاً، لأنَّ ذلك يطول، ولكن ذكرت البعض من أسمائهم، والأماكن التي قدموا منها من داخل المملكة لأعطي مصداقية لِما قلته من أنَّ هؤلاء المرضى البالغ عددهم ٨٤ مريضاً يمثلون المملكة العربية السعودية من جميع مدنها وقراها.

نتيجة فحصي الطبي:

وعندما اطَّلع الدكتور المعالج إدوارد باروكي على نتيجة فحص الصور الإشعاعية التي أُخِذت لي لأوّل مرة واطّلع على النمو في وزني الذي سُجِّلَ على اللوحة، أفهمني بأنّه لا حاجة لي لأن أتناول أي علاج، وأنّه يكاد يكون مؤكداً أن شفائي التام سيكون قريباً بإذن الله تعالى.

كان محقّاً في ذلك فقد كنت أحسُّ بمنتهى القوة والنشاط والحيوية، وقد مضت ثلاثة أشهر قفز وزني من ٤٩ كيلوجراماً إلى ٥٩ كيلوجراماً.





انتكاس صحتي

في تلك الأيام، في أيام الشتاء، في شهر آذار (مارس) وعادةً في مثل هذا الشهر تتساقط الثلوج على لبنان بغزارة، وخاصةً على قمم الجبال، وبما أنَّ مصح بحنّس يقع على قمة جبل عالٍ فقد كان مصدر تساقط الثلج منظراً مُغرياً، وهو ينزل من السحاب إلى الأرض بصورة متواصلة، وكأنه قطنٌ مندوف، كان هذا المنظر مُغرِياً وجذاباً.

معركة ثلجية:

وكما قلت سابقاً كنا نلهو أو نعبث ضمن جناحنا الخاص، وفي سطحه الواسع، وكان من ضمن ذلك العبث أن كَوَّنّا فريقين أحدهما مقابل للآخر، كل فريق يقوم بأخذ كمية من هذا الثلج يدحرجها، ويجعل منها كرةً يقذف بها خصمه المقابل، وكأنها معركة حامية بين الخصمين يتفوق فيها الفريق الأكثر حركة.

كنت أرتدي روباً، وقد امتلأت جيوبه ومنافذه العليا إلى جسمي الداخلي نتيجةً لما كنت أُقذَف به من كتل الثلج.

لم أحسّ أثناء المعركة بأيِّ برودة أو شعور بأي مضاعفة، وأعقب ذلك أننا كنا يمسك بعضنا البعض الآخر، نمسك واحداً منا، ونطرحه أرضاً وندفنه بالثلج، وهو يتقبّل ذلك ضاحكاً ونحن معه، لأنَّ ذلك كله نتيجةً للمرح والعبث.

في ليلة ذلك المساء، حوالي الساعة التاسعة، عندما أويت إلى السرير، وكان من تعليمات المَصَح أن يلازم كل مريض سريره في تمام الساعة التاسعة في كل مساء، وأنَّ عليه أيضاً أن يُغلق جهاز الراديو إذا كان لديه جهاز، ثم يُطفىء نور الغرفة، وفي تمام الساعة التاسعة والخمس دقائق تقوم الراهبة المسؤولة عن الجناح بدورةٍ على جميع الغرف للتأكد من أنَّ الجميع قد نفَّذ التعليمات.

برودة وقشعريرة:

عندما وصلت الراهبة إلى غرفتي، وكنت قد أغلقت جهاز الراديو وأطفأت النور، أحسست فجأةً ببرودةٍ وقشعريرةٍ تعلو جسمي من الأعلى إلى الأسفل، وكنت أرتعش كريشة في مهب الريح، أخذت أُلفلفُ نفسي بالبطانيات الموجودة في السرير أملاً في أن تعطيني الدفء، ولكنها لم تُفِد شيئاً.

دُهِشت الراهبة من حركتي على السرير فسألتني: لماذا لم تنم؟ أجبتها بأني غير قادر لأنني أحسُّ ببرد شديد وقشعريرة تهزّ جسمي، وطلبت منها إسعافي ببطانيات أخرى. وعلى الفور أحضرت مجموعة من البطانيات لا أعرف عددها، ولكنها قالت لي أنّ هذا هو الموجود لديها، ووضعتْ عليَّ البطانيات، واتَّصلت بالدكتور المناوب الذي حضر على الفور، وكان أول شيء عمله أن أخذ درجة الحرارة التي اتضح أنّها جاوزت الأربعين، وهنا ضربني إبرة، ثم طمأنني بأنَّ هذا سوف يزول بعد ساعة أو أقل.

ظللتُ على الفراش، وإن كنت أحسُّ تحسُّناً بعض الشيء، إلا أنني لا زلت أحسُّ بالبرودة والرعشة ولكن بدرجة أخف، وظلَّ هذا الوضع حتى الساعة الثامنة صباحاً حيث توقفت القشعريرة، وهبطت الحرارة، وأحسستُ بالدفء، وبالعرق طيلة نهار ذلك اليوم، كانت حالتي طبعية إلا أنَّ شهيتي للغذاء والفطور والعشاء، كانت أقل مما كان معتاداً، وعلى العموم أمضيت نهار اليوم كالأيام السابقة وكأنَّ شيئاً لم يحدث لي.

معاودة البرودة والقشعريرة:

في تلك الليلة وقد تصورت أنَّ تلك الإبرة التي أخذتها من الدكتور في تلك الليلة، ومعها، بعض الحبوب المسكنة، على ما أذكر، هي حالة عابرة لن تتكرر، غير أنني ما كدتُ أمتطي سريري في الساعة التاسعة من الليلة التي تلتها، حتى عاودتني الحالة التي ألمَّت بي في الليلة السابقة وبدرجة إن لم تكن أعنف فهي على الأقل لم تكن أخف. وهكذا مرت الليلة الثانية وبالحالة نفسها توقفت البرودة والارتعاش في حدود الساعة الثامنة كيوم أمس.

كان من عادة الدكتور الباروكي وهو الدكتور المعالج أن يتجوَّل بين غرف المرضى من الساعة التاسعة من صباح كل يوم، يشاهد درجات الحرارة المسجلة على اللوحات المثبتة في مؤخرة كل سرير، وقد انزعج غاية الانزعاج عندما رأى أنَّ درجة الحرارة التي سُجِّلت على سريري الليلتين الماضيتين أكثر من أربعين، سألني: ماذا حدث وما الذي فعلته في نفسك؟ فشرحت له الوضع وبالطريقة المفصَّلة، عندئذٍ هزَّ رأسه وقال: ما كان ينبغي أن تفعلوا ما فعلتموه، بعبثكم في الثلج. وهنا كتب للمرضة روشتة تحتوي على إبرتين في اليوم: واحدة في الصباح وواحدة عند النوم، وكذا مجموعة من الحبوب.

مرت عليَّ عشرة أيام تقريباً، لياليها كلها أشبه بالليلة الأولى، ترتفع درجة الحرارة حتى فوق الأربعين، بدءاً من الساعة التاسعة تقريباً حتى قرب الثامنة صباحاً ثم تهبط الحرارة وتعود لطبيعتها، وتنتهي البرودة والارتعاش.

فقدان شهية الطعام:

كانت شَهِيّتي للطعام قد أخذت تخفّ شيئاً فشيئاً، بدأ وزني ينخفض أيضاً بصورة سريعة حتى فقدتُ في حدود شهر واحد أكثر من أربعة كيلوجرامات.

في نهاية الشهر أُخِذت لي الصور الشعاعية كالمعتاد، وكانت درجة

الحرارة التي كانت تواصلني ليلياً كما شرحت قد خفّت كثيراً، وكادت تعود لطبيعتها، بَيْدَ أن شَهِيَّة الأكل لم تتحسَّن.

الإبر الهوائية في الصدر:

وفي اليوم التالي لنتيجة فحص الصور الصَّدْرِيَّة، أفهمني الدكتور المعالج إدوارد باروكي بأنه أصبح من الضروري أن أستعمل علاجاً للمرض، وهذا العلاج ينحصر في وجوب أخذي لإبرة هوائية أسبوعياً في الصدر، عن الحُمَّى التي مررت بها، وأنَّ الهدف من هذه الإبر منع المرض من أن ينمو، أو ينتشر في الجسم، فمهمة هذه الإبرة هي أن يقوم الهواء الذي يُرسل إلى داخل الصدر بواسطة أنبوبة معيّنة. هذا الهواء يدفع الغلاف الشفاف الذي يحيط بالرئة بعيداً عن الصدر، فترتاح الرئة من العمل، وهذه الطريقة هي من ضمن الطرق المُتخذة للعلاج لِمَن هم في مثل حالتي.

والإبرة هذه هي عمود يبلغ طوله أكثر من متر، وأظنه من الألمونيوم وعليه رُسمت شرطات صغيرة أشبه بالشرطات التي توضع على الميزان، لتحديد مقدار الوزن، وهذا العمود مثبت في أعلاه إناء أشبه بالزجاجة، التي تبلغ عدة سنتمترات ارتفاعاً، مملوءة بالهواء، ينطلق منها أنبوب صغير ينتهي بإبرة تدخل في صدر المريض بينما يكون مضطجعاً، وتفرغ في صدره كميةً من الهواء المنبعث من هذه الأنبوبة يحددها الطبيب، وتستغرق هذه العملية من الزمن نحو ربع ساعة، والمريض لا يشعر بأيِّ ألم لهذا الهواء، اللهمَّ إلا وخزة الإبرة الأولى عند إدخالها للصدر.

تدهور حالتي الصحيَّة:

ظللتُ آخذ هذه الإبرة أسبوعياً لمدة تقربُ من الشهرين، وكانت نتائج الفحص في كل شهر تشير أنَّ المرض لا ينمو ولا ينتشر في الجسم. وفجأةً وبعد أن أخذت الإبرة طيلة هذين الشهرين شعرت بعودة الحُمّى، التي سبق أن ذكرتها، وبالطريقة السابقة نفسها: يبدأ ارتفاع درجة الحرارة، مع قشعريرة وبرودة في الجسم من الساعة التاسعة ليلاً حتى الثامنة صباحاً.

حاول الدكتور المعالِج أن يوقف هذه الحالة بأن خصَّص لي ثلاث إبر في اليوم، أكثر من نوع من الحبوب أتعاطاها على امتداد الأربع والعشرين ساعة. ولكن ذلك لم يغيِّر من الوضع شيئاً ولم تتحسن الحالة، وإنما أخذ جسمي في النحول ووزني ينخفض باستمرار، ثم تدنت شهيتي للطعام إلى حدٍّ قد لا أبالغ إذا قلت أنّه ربع الكمية أو أقلّ مما كنت أتناوله خلال الأيام الأولى لدخولي المصح. وقد أعقب ذلك أن أوقَفَ الطبيب استعمال الإبرة الهوائية مُرجئاً استعمالها إلى حين تحسُّن وضعي الصحي.

مضت عليَّ أيام لعلها أكثر من أسبوعين، وفهمتُ من الدكتور أنه بالإمكان إجراء عملية جراحية فيما لو تحسَّن الوضع، وتوقفت الحُمّى. أثناء تجوّله ومروره على سريري، ومشاهدة وضعي الصحي، وما آلت إليه حالتي من ضمور وضعف، نتيجةً للحُمّى التي تنتابني ليلياً، ولانعدام شهية الطعام، كان الدكتور عندما يشاهد درجة الحرارة على اللوحة يتألم ويقول لي: إننا نبذل كل ما نستطيع من جهد لإيقاف هذه الحرارة ولكن مع الأسف لم تُجْدِ جهودنا نفعاً.

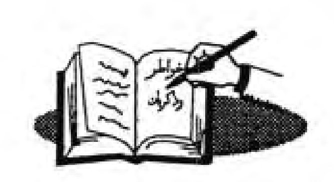
قراري بالمغامرة لإجراء العملية:

كانت حالتي النفسية وأنا أرى حالتي تنحدر إلى الأسوأ كلَّ يوم، حالةٌ لا أُحْسَدُ عليها، بل لا أبالغ إن قلت: إنني كنت أفضِّل راحة الموت على الوضع الذي كنت أعانيه، وكنت موقناً نتيجةً لما أعانيه وأحسُّه بأنَّ النهاية لن تتجاوز أياماً قليلة، لقد أصبحتُ لا أستطيع مغادرة السرير نتيجةً للهزال والضعف، حتى أصبحت أقضي الحاجة وأنا فوق السرير بواسطة الممرضة المختصة. ونتيجةً لهذا الوضع النفسي جَرُأْتُ على مفاجأة الطبيب بقولي: إنني أرغب أن تُجرى العملية الجراحية في أسرع وقت ممكن. كان جوابه: إنّ عملاً كهذا يعتبر جريمةً في حقِّك، فهو أشبه بالانتحار، فقلت له: إنني أُصِرُّ على هذا الطلب، أجابني بقوله: إذا كنت مُصرّاً على ذلك فلتعلم أنّه يتوجَّب أولاً أخذ تعهّد خطي من وَليّ أمرك، ومنك شخصياً، أنك أنت الذي طلبت هذا، وألححت بإجراء العملية، رغم علمك بخطورة نتائجها،

وإنَّ نسبة النجاح فيها لن تزيد عن ٥٪، كان جوابي له أن قلت: إنني أنا وليُّ نفسي وأنا عاقل مدرك لنتائج طلبي، وعارف بأنني أحفر قبري بيدي، ومستعد كل الاستعداد أن أكتب التعهّد الخطي، وأوقّعه وأضع فيه شرحاً مفصلاً عن أسباب إصراري وإلحاحي على إجراء العملية، عند ذاك قال: سأعرض الأمر على الأطباء حينما يجتمعون غداً بحضور الرئيس إلياس الخوري، وسأخبرك برأيهم في الموضوع، وعمّا إذا كانوا يوافقون على طلبك أم لا.

نزول الأطباء على رغبتي في إجراء العملية:

في اليوم التالي حضر إليَّ موضحاً بأنّ الأطباء قد نزلوا على رغبتك وإلحاحك، ووافقوا على إجراء العملية طالما أنك ستقدِّم الإقرار الخطي، الذي تعترف فيه بمسؤوليتك وحدك عمّا ينتج عنها من عواقب. وأضاف أنّه قد تقرر أن يكون موعد العملية غداً الساعة الثامنة صباحاً، وأنَّ الذي سيقوم بها هو الجرَّاح شهاب، وهذا الجرَّاح هو أحد جراحي المَصَح الإثنين وهما (شهاب) هذا والدكتور (صادر).





في غرفة العمليات

في اليوم الثاني، في الموعد المحدد، جِيءَ لي بنقالة إسعاف، نُقلتُ إليها من سريري وأوصلتني إلى غرفة العمليات محمولاً على النقالة التي هي أشبه بالنعش. هناك أُجْلِسْتُ على كرسي العمليات، ثم جيءَ بكمية من القطن المُبلل بالماء، وأُديرت على صدري، وجنبي الأيمن، وما هي إلا لحظات حتى أحسستُ بأن هذه المنطقة من جسمي هي عبارة عن لوح من الثلج. كان عن يميني الدكتور، وعن يساري إحدى ممرضات المَصَح، بجوارها ملف الصور الإشعاعية التي أُخذت لصدري منذ دخولي المصح قبل عدة شهور، وقد وَضَعَتْ هذه الممرضة على وجهي ستارة من القماش بحيث تحجب رؤيتي عما يفعل الدكتور في صدري.

ابتدأ الدكتور في عمله، ولم أحسّ أو أشعر به إطلاقاً، وكانت الممرضة قد أمسكت بالجزء الأعلى من ذراعي اليمنى تجسُّ نبضي، وتحدثني بأحاديث عابرة، وكنت مرتاحاً للوضع، لأني لا أحسُّ بأيِّ ألم، وبين آونة وأخرى كان الدكتور يخاطبها باللغة الفرنسية، فتخرج صوراً من الموجود لديها تناوله إياها.

انتهاء العملية:

ظللتُ جالساً على الكرسي من الساعة الثامنة والربع صباحاً حتى الواحدة والنصف ظهراً، أي خمس ساعات إلا ربعاً تقريباً، ثم رُفعت ستارة القماش عن وجهي إعلاماً بأنَّ العملية قد انتهت، وكان الدكتور واقفاً أمامي

يسحب قفازات العملية من يديه، وهنا قلت له: خيراً بَشِّرْ يا دكتور، إن شاء الله نجحت العملية؟ ثم صمتَ بُرهةً قبل أن يتكلم.

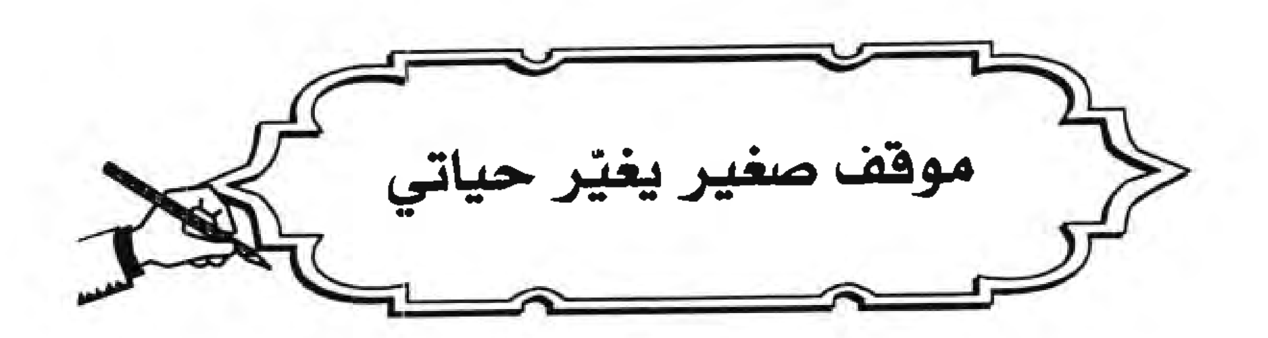
فشل العملية الجراحية:

وهنا أكَّدت عليه مرة أخرى في طلب معرفة النتيجة، فأجابني متثاقلاً، وكأن الكلمات تُسحب من فِيهِ سحباً، أجابني بقوله: مع الأسف يا إبراهيم فقد بذلت شتَّى المحاولات أملاً في إنجاح العملية، غير أنني فشلت لأنَّ الغشاء المحيط بالرئة ملتصق بعظام الصدر، وأي محاولة لزحزحته عن موضعه سيُحدث نزيفاً لا يمكن السيطرة عليه. ونظراً لِما سمعت مراراً من زملائي بالمَصَح عن الذين قُدِّرَ لهم أن يمرُّوا بعمليات جراحية، أنه في مثل هذه الحالة يمكن أن تُؤخذ الأضلاع الخلفية من حوض الصدر، أي أن تُقصِ هذه الأضلاع، لكي تبقى الرئة وحدها دون أن يكون خلفها أضلاع. على أساس هذا المفهوم طلبتُ منه أن يقوم بقص أضلاعي الخلفية مادام مفعول البنج لا زال قائماً، وهنا أجابني بقوله: لا جدوى من ذلك يا إبراهيم، ولو علمتُ أنّه مفيد لفعلت، لكنني أقول لك وأنت الرجل العاقل المدرك، الذي كتبت التعهُّد الشجاع على نفسك: إنّ حالتك بالنسبة للعلاج في الوقت الحاضر ميؤوس منها، وكان الله في عونك.

دعاء وضراعة:

ليتصور القارىء العزيز الحالة النفسية التي اعترتني في تلك اللحظات، وأذكر أنني رفعت يداي إلى السماء، وتفوهتُ بكلماتٍ أحسّها خرجت من قلبي قبل أن تخرج من فمي، ولستُ أذكر الآن حروفها أو كلماتها وإنما هي ضراعة صامتة إلى من يملك إنقاذي مما أنا فيه.

وقفت الممرضة بجواري، وأنزلتني من الكرسي، واضعاً جنبي الأيسر على كتفها، ثم أخذتْ تمشي بي خطوات مسافة نحو أربعة أمتار، فأدخلتني حجرة مجاورة فيها سريران، أحدهما فارغ والآخر عليه رجل وبجواره امرأة واقفة.



أضجعتني الممرضة على وسادة السريرالخالي، ثم غادرت الغرفة، وهنا سألني الشخص الجالس على السرير المقابل سألني قائلاً: بَشِّرْ، إن شاء الله العملية نجحت، فتلكأت قليلاً في الجواب، ثم أجبته: إنها إن شاء الله ناجحة، ولكن الطبيب يقول غير ذلك.

كان الشخص مُخاطِبي فتى في حدود منتصف العقد الثالث من عمره، مُحمَرَّ الوَجنتين تبدو عليه مظاهر الصحة والعنفوان، وكأنه أحد أبطال المصارعة، وكانت تقف بجواره فتاة في حوالي أول العقد الثالث من سِني عمرها، ممسكةً بكيس من البلاستيك تجمع فيه ملابس وأغراض وجرائد من الخزانة المجاورة لسرير الرجل، مما يدلّ على أنهما سيغادران الغرفة الآن.

صباح محمود الموصلي:

هنا وجَّه إليَّ الشخص كلامه قائلاً: اسمع يا أخي أنت لا تعرفني، وأنا لا أعرفك، ولكني أرى واجباً عليَّ أن أُبْدي لك نُصحي، ثم أضاف: أنا اسمي صباح محمود، من مواليد الموصل وسكانه في العراق، أُصبتُ بمرض السِل منذ خمس سنوات، وكانت عائلتي ميسورة الحال، تملك بعض الأراضي الزراعية في تلك المدينة، وقد فتك بي المرض وأنا في تلك المدينة ولضعف وسائل العلاج من جهة، وعدم وجود المستشفيات المتخصِّصة التي تشخِّص المرض، كانت حالتي الصحية أشبه بمختبر، أو

حقل تجارب للجهلاء ممن ينتسبون إلى الطب، أو إلى المشعوذين الذين يَخدَعون بالرُقى والتعاويذ، وهكذا أصبح السِل ينخر في جسمي حتى قضى على كلتا رئتيّ، وأصبحتُ على شفير النهاية. وقد نتج عن ذلك أن بذلنا الكثير الكثير مما نملك، حتى أصبحت حالتنا المادية هي أقرب إلى الصفر، ثم قيل لنا أنَّ هناك في لبنان مَصَح مختصّ لهذا المرض، فَبِعنا ما تَبَقّى لدينا من الأرض، وأحضرتني أسرتي إلى هنا منذ خمسة شهورٍ محمولاً على نقالة، تنتظر وفاتي بين يوم وآخر.

وصلتُ إلى بحنِّس ونتيجةَ الفحص أن لا أمل لي في الشفاء لأنَّ كلتا رِئتيَّ قد تآكلتا، ولم يبق فيهما شيء، وأن من الأفضل لي أن أرجع من حيث أتيت لكي أُدفن في بلدي.

طلبت من أسرتي أن يتركوني في المستشفى، وأن لا أرهقهم مرةً أخرى بنقلي إلى بلدي إذا حانت وفاتي، وهي وشيكة، فلأدفن هنا في لبنانٍ.

وُضِعْتُ على السرير في المَصَح، وطُلب مني عدم مغادرة السرير بأي شكل كان، وأنّ هناك ممرضين وممرضات سيتولّون قضاء حاجتي بالنسبة لدورة المياه وأنا فوق سريري.

منذ اليوم الأول لوصولي أَحسَّتْ الراهبة المُعالجة بأن وجبات الطعام التي تُرسَل إليَّ تعود كما كانت، وذلك لعدم وجود شهية لديّ للأكل.

طلبت مني الممرضة الراهبة أن عليَّ أن أحاول إدخال بعض لُقيمات إلى بطني، وإذا تعذَّر هضمها من استحالة مرورها من فمي فَعَلَيَّ أن أدفعها بالماء حتى تندفع إلى داخل البطن.

واصل حديثه قائلاً: لقد نفذت ذلك، فقاسيت صعوبةً بالغةً في إدخال قطعةٍ من الخبز إلى فمي، ولكنني اتَّبعت الفكرة التي أمرتني بها الممرضة. وهكذا استطعت أن أُدخِل إلى جوفي للمرة الأولى ما يساوي حجم البيضة من الخبز، دفعتها بالماء، وبأصبعي حتى اجتازت البلعوم، ووصلت إلى البطن، وقد لقيت مشقة كبيرة في هذه المحاولة، ولكنني صبرت وتجلَّدت.

وشيئاً فشيئاً في الوجبة التي تَلَتْ هذه الوجبة استطعت أن أُدخل إلى جوفي ضِعْفَ الكمية السابقة، وهكذا رُوَيْداً رُوَيْداً كل وجبة أكبر من السابقة، حتى لم تكد تمضي عليَّ ثلاثة أيام حتى أصبحت أهضم كامل الوجبة بيُسْر وسهولة، وأخذت أحسُّ بدبيب العافية ينمو في جسمي.

ملازمة الأخ الموصلي للفراش:

ظللت ملازماً الفراش أربعة أشهر كاملة، قَفَزَ وزني أكثر من أربعين كيلو جراماً عن وزني السابق عند دخولي المصح، وأحسست برغبة ملحَّة في أن أغادر السرير، وأنطلق، لأنني أشعر بقوةٍ وعنفوان، وقد ذهبت لأوَّل مرة منذ وصلت المصح إلى غرفة الأشعة حيث أُخِذَت لي صور للصدر، وقد دُهِشَ الأطباء، إذ وجدوا أنَّ كلتا رئتيَّ قد عادتا، إلى حالتهما الطبيعية السابقة، وقد هنَّؤوني على ذلك، وسمحوا لي بمغادرة السرير، والتجوُّل داخل المصح حيث شئت.

شفاء الأخ الموصلي التام:

ومنذ بضعة أيام أُخذت لي صور أخرى، وإذا بالطبيب يفاجئني بأنني قد شفيت تماماً من هذا المرض الخبيث، وأنه في وسعي مغادرة المصح، غير أني فضَّلت التأنّي، وعدم الاستعجال، مُبْرِقاً لأسرتي في مدينة الموصل العراقية بأن يحضرَ إليَّ واحدٌ منهم بأسرع وقت ممكن، وهذه الفتاة التي تراها أمامك هي أختي، وقد وصلت من الموصل هذا الصباح، وها هي كما ترى تأخذ أغراضي وأمتعتي معها، وهذا تقرير الطبيب الذي يثبت شفائي التام، ويؤكِّد عليَّ وجوب مغادرتي المصح.

وها نحن الآن خارجون من المصح في طريقنا إلى بلادنا، شاكرين الله فضله ونعمته.

ثم أردف قائلاً: لقد أردت من هذا الإسهاب عن حالتي أن تنفذ الطريقة نفسها عسى الله أن يتمَّ لك الشفاء، ثم نهض من سريره، وودَّعني كما ودَّعتني أخته، وغادرا الغرفة.

اتباع نصيحة الأخ صباح محمود الموصلي:

بعد نحو نصف ساعة من مغادرتهما حضرت الممرضة إليَّ تحمل وجبة الغذاء، تركت الطبلية أمامي، وخرجت، وقد اتَّبعت الطريقة نفسها التي اتبعها هذا الأخ صباح، فاستطعت بكلِّ جهد أن أولج إلى معدتي جزءاً صغيراً من الخبز قد لا يساوي البيضة دفعته بالماء ثم بإصبعي.

الإحساس بالعافية:

ما حدث للأخ صباح نفسه حدث لي إذ لم يمض عليَّ يومان، حتى أصبحت ألتهم الوجبات كاملة، وأخذ جسمي ينمو، وأحسست بالعافية تدبُّ في جميع أجزاء بدني، وحيث إنَّ العادة المتَّبعة أن تكون المدة التي يقضيها المريض في هذه الحجرة بعد انتهاء العملية لا تقل عن خمسة أيام، فقد أصبحت مضطراً لقضاء هذه الفترة رغم أنني كنت أحس بالعافية والنشاط، وأرغب بالذهاب سَيْراً على أقدامي إلى سريري في طابق السعوديين.





قصة الممرضة (روز)

التجوُّل في الساحة المحيطة بالمستشفى:

في اليوم الرابع سئمت من المكث داخل الغرفة، فخرجت أتمشى في الساحة المحيطة بغرفة العمليات من الخارج، وكانت الساحة واسعة جداً قد لا تقل عن نصف كيلو متر تنتشر عليها أشجارٌ ضخمة متقاربة، قد يبلغ ارتفاع الواحدة عن الأرض أكثر من مترين، وهي أشجار متقاربة لا تبعد إحداها عن الأخرى أكثر من بضعة أمتار، كانت هذه الأشجار وسيلة للفسحة تقوم بها المريضات السعوديات وغيرهن، والذي يبعد سكنهن عن غرفة العمليات بمسافة قد لا تقل عن ثلاثمائة متر.

بكاءٌ مكتوم:

كانت هذه الأشجار الضخمة يجلس تحت ظلِّ كلٍ منها مجموعات من النسوة قد يبلغ عددهن اثنتين أو ثلاثاً أو أكثر يتجاذَبْنَ أطراف الحديث، وكنت أمشي بضعة أمتار في هذا الموضع، ثم أعود ثانية إلى قرب غرفتي، أكرِّر ذلك عدة مرات بقصد مزاولة المشي فقط، نظراً لما أحسُّه من صحةٍ ونشاط، وخلال تجوالي هذا لاحظت أن إحدى تلك الأشجار لا يوجد تحتها سوى امرأة واحدة، وكنت أسمع صوت بكاءٍ ونشيجٍ.

التعرُّف على مصدر البكاء:

فأخذت أقترب من هذه المرأة قليلاً قليلاً رغبة في التعرُّف إليها،

ومعرفة سبب بكائها، وإذا بي أجدها الممرضة (روز) التي تقوم بإعطائنا الإبر في جناحنا في المصح، فتأكّدت من هويتها، وفي الوقت نفسه لا أستطيع الوقوف أمامها خشية أن تلحظني إحدى الممرضات أو مسؤولات المصح فيعتبر خطأ مني يستحق اللوم والتوبيخ.

حوار مع الممرضة (روز):

ولذا فقد أخذت أتباطؤ في سَيْري عند اقترابي منها قائلاً لها: لماذا البكاء يا روز؟ بصوت خافت، ثم ذهبت وعُدْت مرةً أُخرى لأسمع منها الجواب، وإذا بها تقول بصوت خافت: وهل يهمُّك أمري؟ قلت: نعم، ثم ابتعدت عنها وعدت مرةً أخرى بالطريقة نفسها أمشي خطوة خطوة، وإذا بها تقول همساً: سآتيك الساعة التاسعة من هذه الليلة لأشرح لك الموضوع، بعدها دَخلتُ غرفتي، وأنهيت التجوُّل.

حكاية (روز) المحزنة:

في الساعة التاسعة مساءً كنت مُتمدداً على السرير، ومُطْفِئاً لنور الغرفة، وإذا بها تتسلَّل إلى غرفتي، وكأنها مذعورة خوفاً من أن يراها أحد، كان بجواري كرسي خيزران، جلست على الكرسي بعد أن أغلقت الباب، جلست نحو ربع ساعة لم تتكلم وكأنها تريد التأكد أنه لم يرها أحد عند ذلك قلت لها: تكلَّمي أنني صاحٍ غير نائم، وإنما وضعت الشرشف على وجهي لإيهام الراهبة التي تمر في مثل هذا الوقت بأني نائم.

عندئذ انطلقت تحكي قصتها بصوت خافت، وتتكلم بصوت مهدج، تلمس عبارات الحزن والألم في كل حرف تنطق به، ومصحوباً بنشيج وبكاء ما بين فينة وأخرى، انطلقت تحكي قصتها كالآتي:

حقيقة الممرضة (روز):

أنا اسمي فاطمة محمد علي، مُسلمة سنيَّة أسكن مع أسرتي في بيت متواضع من الطين في قرية تقع في حضن الجبل قبل مدينة شتورا، وتعرف

هذه القرية بقرية جديثا، أنا رابعة ثلاث أخوات، لكنهن أصغر مني سناً، واثنتان منهنَّ مصابتان بمرض الربو، الذي يعيقهنَّ عن العمل، يَسْكُنَّ مع أبي وأمي، أبي شيخ طاعنٌ في السنِّ، مُقْعدٌ عن الحركة قد تجاوز السبعين من عمره وأمي عمياء، وهي قريبة من عمر أبي وشبه مقعدة، وهذه الأسرة لا معين لها بعد الله سواي.

في مدرسة التمريض:

كنت دخلت مدرسة التمريض التي أنشأها في بيروت المسلم المحسن الدكتور المصطفى الخالدي، الذي يملك مستشفى خاصاً باسمه في بيروت، وأنشأ على حسابه الخاص مدرسةً لتعليم الفتيات المسلمات الفقيرات فنَّ التمريض، وكنت أنا واحدة من تلك الطالبات.

عمل الأخت فاطمة في مستشفى الدكتور الخالدي:

كان الدكتور مصطفى الخالدي يدفع لنا نحن الطالبات أثناء الدراسة راتباً شهرياً قدره مائتي ليرة لبنانية، وبعد التخرُّج والحصول على الشهادات يزاد الراتب إلى ٤٠٠ ليرة لمن يرغبن العمل في مُسْتشفاه، كنت أنا بعد تخرجي أعمل بهذا المستشفى كممرضة، وكنت أنفق راتبي على أسرتي الذي ذكرت بحالة لا تكاد تؤمِّن لهم الحد الأدنى من ضروريات الحياة، ولكني كنت راضيةً ومبسوطةً وشاكرةً لله نعمته وفضله.

توافد المرضى من البلاد العربية:

في مستهل عام ١٣٧٠هـ ابتدأ توافد المرض من البلاد العربية سواء من السعودية أو من دول الخليج أو من الأقطار العربية الأخرى توافدهم على لبنان نظراً لما انتشر عن تواجد المستشفيات المتخصِّصة عن مرض السل فيه. ولأنَّ هؤلاء المرضى أكثريتهم الساحقة تصل لبنان لأول مرة، فإنهم يطلبون من السائق الذي ينقلهم من المطار إلى بيروت أن يوصلهم إلى أفضل مستشفى يعرفه هذا السائق، ونظراً لما اشتهر من الدكتور مصطفى

الخالدي من عطف على المساكين، ومساعدته للجمعيات الخيرية، واحتضان مستشفاه لعلاج الكثير من المرضى الفقراء الذين لا يملكون نفقات العلاج، فقد كان السائقون حسب ما يسمعون عن نُبْل هذا الشخص وسمعته الطيبة كانوا يأتون بالمرضى إلى هذا المستشفى، وكان المرضى يُسرُّون بدخولهم هذا المستشفى نظراً لما يجدونه فيه من عناية بالغة واهتمام بالمرضى، وحرصاً على تأدية الشعائر الدينية، إذ يوجد داخل المستشفى مسجدٌ خاص لموظفي المستشفى ومرضاه.

كان هؤلاء المرضى عندما يفدون من بلادهم يجهلون المرض الذي يعانونه وبنتيجة الفحوصات يتَّضح منها أن أكثريتهم يعانون من مرض السل، وفي الغالب يكون بعضهم لم يصل إلى هذا المستشفى إلا وقد تجاوز مرضه بالسل الدرجة الثالثة بحيث أصبح مكروب المرض ينبعث مع أنفاسه، وفي الآواني التي يستعملها.

كان الدكتور حالما يكتشف مرض السل ينصح المريض بأن يلتحق فوراً بأحد المستشفيات المتخصِّصة لمرض السل كمصح بحنِّس، ومصح ظهر الباشق، ومصح العزونية لأنَّ جوَّ بيروت لا يلائم مرض السل لأنَّ جوها حار، وهذا المرض يحتاج إلى جوٍّ باردٍ.

إصابة الأخت فاطمة بمرض السل:

كنت أقوم بعمل التمريض بهذا المستشفى، ونتيجةً لاحتكاكي مع المرضى الذين تقدَّم فيهم المرض فقد أخذتُ مرض السل عنهم بدون أن أشعر، فابتدأت أحسُّ بالسعال المستمر، ثم بفتور الجهد، وضعف الشهيَّة للأكل، وهنا أُخِذَت لي صورة إشعاعيَّة في الصَّدْر بواسطة الدكتور مصطفى هذا وعلى الفور أفهمني بحقيقة مرضي.

الالتحاق بمصح بحنِّس:

وبما أنَّ مرض السل أولى الواجبات التي يجب أن توفَّر للمصاب به هي برودة الجو والراحة التامَّة والغذاء الجيد. ألحَّ عليَّ الدكتور مصطفى

بوجوب الالتحاق السريع بواحد من هذه المصحّات مُقدّماً لي مساعدةً مالية في حدود خمسمائة ليرة جزاه الله خيراً، وببحثي عن الإجراءات التي يجب أن تتَّخذ لدخول مصح من هذه المصحات علمت بأنَّ مصح بحنّس أفضلها من حيث الإمكانيات والاستعداد بأحدث الأجهزة، غير أنَّ هذا المصح يحتاج إلى نفقات شهرية لا تقل عن أربعمائة ليرة شهرياً وأنا لا يوجد بيدي شيء من ذلك.

حيلة الأخت فاطمة للعمل في المصح:

وحيث علمت أنَّ هذا المصح ـ أعني مصح بحنس ـ هو تابع لجمعية خيرية من الراهبات المسيحيات في باريس، ولذا فكرت بالتحايل لدخوله ممرضةً لعمل التمريض فيه ولكن بما أنني اسمي فاطمة بمعنى أنني مسلمة فإنهم لن يقبلوني، ولذا فقد عمدت إلى الحيلة فسميت نفسي (روز) وهو اسم مسيحي، وقدمت طلباً خطياً مرفقاً بشهادة التخرُّج بمدرسة التمريض طالبةً قبولي ممرضة، وموضحة بأنني أقبل بأيِّ راتب يقرِّره لي المصح، اعتقاداً مني بأن وجودي بجوِّ المصح البارد سيساعدني على الشفاء، غير أنَّ الذي حدث أنني كنت أشتغل باستمرار، وأبذل مجهوداً مُضنياً لا يتيح لي مجالاً للراحة كما أنَّ وجبات الغذاء التي كنت أتلقاها هي من أدنى المستويات.

اكتشاف مرض السل:

بعد شهرين من دخولي المصح والعمل فيه حيث قُبلت ممرضةً وقرر لي راتب قدره مائتي ليرة، وقد لاحظ الأطباء الذين كنت أعمل معهم كثرة سعالي، وطلبوا مني أخذ صور أشعاعية لصدري حيث لم أذكر عند تقديمي للعمل بالمصح أي شيء عن مرضي عندما طلبت العمل فيه، إذ لو فعلت ذلك لما قَبلوني.

عندما فُحصت صور صدري الشعاعية ظهر للأطباء أنني مصابة بمرض السل في كلتا رئتيَّ، وأنَّ المرض قد تجاوز الثالثة أي أنه أوشك على أن يفتك بجميع الرئتين.

تخفيف مدة العمل:

عند ذلك قرر الأطباء تخفيف عملي لكي آخُذ بعض الراحة في وسط النهار، وأُعْفيَ من العمل ليلاً مع التوصية بأن يُعطى لي من المصح غذاءً مناسباً، تمَّ ذلك كله، وظللت أعمل ولكن بصورة مخففة، وكان الأمل أن يتوقف سريان المرض على الأقل، ولكن الذي حدث هو أنه عندما أُخِذَتْ لي الصور في الشهر الثاني اتضح بأنَّ المرض قضىٰ على الرئتين جميعاً، وأنه لا مجال للشفاء حتى ولو أُجْرِيَتْ لي عملية نزع الأضلاع، ومعنى ذلك أنه لا أمل في حياتي، وأنني الآن انتظر نهاية حياتي، وأنا حينما أبكي أعرف أنَّ هذا قدر الله ومشيئته، وهو مصير الجميع من حيث الموت والحياة، ولكن كنت أبكي على والديَّ وأخواتي الثلاث حينما أغادر هذه الحياة من سيُعيلهم.

حروف مصبوغة بالدم:

كانت تتكلم معي والكلمات تخرج من فِيها وكأنَّ حروفها تقتلع اقتلاعاً مصبوغة بالدم.

تأثري وحزني على الأخت فاطمة:

وكنت بدوري قد بلغ مني التأثُّر والأسى والحزن مَبْلغه لقصة هذه الفتاة التي لم تكمل عقدها الثاني بعد، صَمَتَتْ هي عن الحديث، وصَمَتُّ أنا تحت وطأة الانفعال العاطفي الذي بلغ مني حتى انهمار الدموع على خدي، وكنت أُحاول أن لا تلحظ عينيَّ ذلك.

ظللنا أنا وهي صامتين لبضع دقائق، كلاً منا لا يجد رغبةً في مواصلة الحديث، عند ذلك سألتها: ثم ماذا؟ قالت: لا شيء، هذه هي قصتي التي سمعت بكائي بسببها.

أجبتها: بأنها لا تيأس من رحمة الله، وما دامت مسلمة مؤمنة بالله، وبرأفته وعطفه فإنَّ الله سبحانه وتعالى لن يخذلها، وأنَّ عليها أن تدعوه بتضرُّع وابتهال بأن يأخذ بيدها ويكشف عنها هذه المحنة. لأنها تدعوه وهي

مضطرة وهو سبحانه عالم بحالها، وكان وعده الصادق في محكم كتابه أنه يجيب المضطر ويكشف السوء.

قلق وتفكير في مصير الأخت فاطمة:

غادرت غرفتي وكانت الساعة آنذاك حوالي الساعة الثانية عشر ليلاً. لم أنم تلك الليلة ولم يطرق جفني النُعاس، بل ظللت أتقلب على السرير من جَنْب إلى آخر مغموماً بمأساة هذه الفتاة المسكينة، وأفكِّر في الوقت نفسه ما هي الوسيلة التي يمكن أن أقدمها وإخواني المرضى السعوديين لهذه المسكينة.

العودة لأصدقاء المصح:

في مساء ذلك اليوم الذي زارتني فيه ليلاً سُمح لي بالذهاب إلى غرفتي في جناح المرضى السعوديين، ففرحت بذلك، وأسرعت مهرولاً أستبق الخطى، وكلي نشاط وحيوية، وما كدت أصل إلى مدخل الجناح حتى هرع إليَّ إخوتي المرضى السعوديين جميعهم يهنؤنني ويقبلونني فرحين بسلامتي لأنَّ الوضع الذي غادرتهم عليه، وهو نقلي على عربة الإسعاف التي هي أشبه بالنعش جعلتهم يظنون أنَّ مغادرتي لهم تلك هي الأخيرة، أي لا رجعة فيها.

عواطف متبادلة جيَّاشة:

كانت العواطف بيني وبينهم متبادلة جياشة، وكنتُ أحس في أعماقي بصدق شعورهم وعواطفهم نحوي.

اتجهت رأساً إلى سريري، فوجدت زميلي في الغرفة حمد الناصر جالساً بجواري على سريره تحدَّثنا كثيراً، وكان هو أيضاً قد أُشعر ذلك اليوم الذي كان هو يوم فحص الصور، من قِبل الأطباء بأن صحته متقدِّمة جداً وربما يسمح له بمغادرة المصح بعد شهر أو شهرين، إذا استمرت حالته الصحيَّة على الوضع الحاضر ولم يطرأ عليها أي شيء؛ لذلك فقد كان فرحاً

مسروراً للغاية، ثم تناولنا وجبة العشاء، وكما هي العادة أنَّ المرضى جميعهم بعد تناول هذه الوجبة يجتمعون في الصالون الفخم الكبير الذي أُعدت فيه كلُّ وسائل التسلية والترفيه.

كان الصالون يجمع إلى ذلك أيضاً الكثيرَ من الدفّايات التي تعمل على الديزل لتعطي الجوَّ حرارةً مناسبة، لأنَّ الوقت كان شتاءً بارداً أشد البرودة.

مأساة الفتاة البائسة:

كان شغلي الشاغل الذي مَلَكَ عليَّ حواسي وتفكيري هو مأساة هذه الفتاة البائسة وقد رأيت من المناسب أن أطرح مأساتها على إخواني المرضى هؤلاء، فكلهم الآن مجتمعون، لكي نتبادل الرأي فيما يمكننا أن نفعله لمدِّ يد العون والمساعدة فيما قد يخفف من مأساة هذه البائسة، ورجوتهم جميعاً أن يتخلوا عن اللعب، وأن يجتمعوا متحلقين في الصالون لأنَّ لدَيَّ موضوع مهم أُريد أن أحدثهم عنه.

عطية بن راشد الغامدي:

كان من ضمن المرضى رجلٌ يسمَّى عطية بن راشد الغامدي في حدود الأربعين من العمر ومن بلدة بني ضِبيان المجاورة لمدينة الباحة من الجهة الغربية، تبعدُ عنها نحو أربعة كيلومترات. كان هذا الشخص يعمل حارساً في مدرسةٍ في تلك البلدة، وكان محسوباً فيما سبق على الأمير محمد بن عبدالعزيز رحمة الله عليه، وكان في مُستهل حياته، يعمل خوياً عند الأمير محمد بن عبدالعزيز لمدة عشرين عاماً تقريباً، ثم ترك خدمته لإقامة الأمير محمد خارج المملكة بصورة تكاد تكون مستمرة، فقد كان يقضي أكثر أيامه في فرنسا.

إصابته بداء السل:

عند ذلك عاد عطية هذا إلى بلده بني ظبيان، وعمل حارساً في مدرستها. وخلال عمله في المدرسة أُصيبَ بداء السُل فلازمه السُعال ونحول

الجسمُ وفقدان الشهية، وكان يعالج نفسه بالأدوية البدائية التي يتعاطاها أهل بلدته تلك، وظلَّ يتحامل على نفسه أملاً في الشفاء ولكنه اضطرَّ في النهاية إلى ملازمة الفراش، فأصبح لا يقوى على المشي، ثم نقله أحد أقربائه إلى المستشفى العام في جدة فاتضَّح له بعد الفحص، وأخذ الصور الشعاعية أنه مصاب بداء السِّل، وأنَّ السِّل قد تمكن منه، وقضى على رئتيه. ونظراً لفقره، فقد أبرق لسمو الأمير محمد رحمة ـ الله عليه ـ وهو مقيم آنذاك في باريس، موضحاً له وضعه الصحي، وطالباً منه المساعدة.

إجابة الأمير محمد بن عبدالعزيز:

وهنا كانت إجابة الأمير محمد سريعة، ومتَّسمة بالشهامة والأريحية فقد أبرق لأحد وكلائه في جدة، معمِّداً إيَّاه بأن يذهب إلى المستشفى العام في جدة حيث يُعالج عطية بن راشد هذا، ويقوم بنقله ومرافقته بطريق الجو إلى لبنان وإدخاله مَصَح (بحنّس) على حسابه.

تمَّ ذلك فعلاً، وبوصوله إلى (بحنّس) الذي مضى عليه فيه الآن ثلاثة أعوام، تحسَّنت صحته بعض الشيء، وانخفضت الحرارة، وتوقف السُّعال، وعاد إليه بعض وزنه، إلا أنَّ رئتيه قد فُقد الأمل من عودتهما لأنَّ السِّل قد قضى عليهما.

اليأس من شفائه:

وقد أفهمه المَصَح بعد مُضي عام على وجوده فيه بأنه لا أمل في شفائه، إذ لا جدوى من إجراء أي عملية جراحية أو إعطائه حبوباً طالما أنَّ الرئتين غير موجودتين، وأنَّ من الأفضل له أن يعود إلى بلده ليدفن فيها بين أهله.

إيثاره البقاء في المصح:

بَيْدَ أنه رفض العودة مفضِّلاً البقاء في المَصَح، طالما أنَّ نفقات بقائه على حساب الأمير، مُفضِّلاً أن يكون دفنه هنا في لبنان إذا انتهى أجله، لأنَّ

أرض الله واحدة كما يقول، ولأنّه مقطوع من شجرة في بلده، كما فهمنا منه أكثر من مرة، فوالداه انتقلا إلى رحمة الله، وليس له قرابة من إخوة أو أقرباء، وبتكاثر المرضى السعوديين في مَصح بحنّس، فقد كان ذلك بالنسبة له حياةً باعثةً للأمل لأنَّ انغماسه معهم ليلَ نهار في المرح والضحك وتبادل النكت والطرائف قد أنسته حالته الصحيّة وجعلته باسم الثغر ضاحكاً، موجهاً للنكات والطُرف اللاذعة إلى زملائه المرضى.

رواية قصة الممرضة (روز):

بعد أن تكامل حضور الجميع، ولم يبقَ منهم أي واحد في غرفته، واجتمعوا جميعاً في هذا الصالون، بعضهم واقف وبعضهم جالس، عند ذلك وجَّهت خطابي إليهم قائلاً: هل تعرفون روز؟ فدهشوا جميعاً وقالوا: ومَن منا لا يعرف روز، وهي تحضر إلينا كل صباح لتعطينا الإبرة المقررة لنا!! وهنا ذكرت لهم حديثها معي بالأمس بكامله، وقد بدت علامات التأثر والانفعال والحزن على وجوه الجميع تأسفاً على هذه المسكينة ولأنها محبوبة لديهم جميعاً لدماثة خُلُقها ولطف حديثها وتواضعها الجمّ.

حماس وانفعال:

بعد أن أنهيتُ رواية القصة كما سمعتها منها ليلة البارحة، سألتهم موجهاً كلامي للجميع: ماذا ترون أن نفعله لمساعدتها؟ فأخذوا يتكلمون بحماس وانفعال، مستعدّين أن نفعل كل ما نستطيع لمساعدتها، مستعدّين أن ندفع لها شهرياً كل واحد منا خمسين ليرة وهو مبلغ ضخم يكفي لعلاجها. كان الجميع يتكلمون بأريحية وشهامة وحماس، يُثير الإعجاب والتقدير، وقد ناقشنا هذا الرأي عن مدى فعاليته، آخذين باعتبارنا أنَّ وضع علاجها يحتاج ما لا يقل عن خمس سنوات، وهذه مدة طويلة، ومن يضمن أن يبقى هذا الحماس من الزملاء على هذا المستوى، بالإضافة إلى ذلك مَن يضمن بقاءهم أو غيرهم من السعوديين في المَصح طيلة هذه المدة، ولذا يجب البحث عن وسيلة أخرى تكون أكثر جدوى من هذه الطريقة.

استعراض الآراء والاقتراحات:

وبعد استعراض كثيرٍ من الاقتراحات التي قُدِّمت من بعض هؤلاء الإخوة، استقرَّ الرأي على أن أفضل طريقة هي أن تعالج في هذا المَصَح ضمن مريضات الدرجة الأولى التي يتوفَّر فيها الراحة التامة، والغذاء الجيد، والعلاج المستمر، وهذا الاقتراح وجيه ما دام أنَّ الإخوان سيجمعون شهرياً لها أكثر من ثلاثة آلاف ليرة، ولكن العقبة هي أن لا ضمان لبقاء هؤلاء الإخوان هنا طيلة مدة علاجها، ومن الناحية الأخرى أنها تعمل حتى اللحظة في هذا المَصَح باعتبارها فتاة مسيحية اسمها (روز) ومن الواضح أنها لن تُقْبَل في المَصَح إذا اتضح أنها مسلمة؛ لأن إدارة المَصَح على الأقل ستطردها باعتبارها كذبت عليهم بادِّعائها أنها مسيحية.

فكرة زواجها من أحد المرضى السعوديين:

وهنا نشأت فكرة: طالما أنها مسلمة ألا يمكن أن تعالج ضمن المريضات السعوديات! ولكن هذا أيضاً مستحيل إذا كان علاجها سيكون على حساب أفراد، فضلاً عن عقبة التستُّر على دينها وهنا وبإلهام من الله سبحانه وتعالى لمعت في ذهني فكرة، هي أن يتزوَّج واحد منا هذه الفتاة طالما أنها مسلمة وسنيّة، يتزوجها حتى تصبح سعودية الجنسية.

كان الموضوع حسَّاساً ومُعقَّداً، لأنَّ فاطمة هذه هي إلى الموت أقرب منها إلى الحياة، وأيُّ زوج لا يرغب أن يتزوجها اليوم وينقلها إلى القبر بعد أسبوع، فضلاً عن أنَّ إجراءاً مثل هذا يحتاج إلى إجراءات معقّدة قد تصادفه عقبات من الصعب تذليلها. ومع ذلك كله فقد كان هذا الاقتراح هو قطب الدائرة التي كانت تدور حوله المناقشات عندما عُرِضَ الاقتراح، قلت: من منكم على استعداد أن يتزوج هذه الفتاة بوضعها الحاضر؟ وقد ساد صمت أظلَّ الجميع لحظات كلٌّ منهم يفكر في قرارة نفسه عمّا إذا كان في وِسعه أن يفعل ذلك. وهنا انْبَرَى عطية بن راشد الغامدي بصوتٍ عالٍ قائلاً: لماذا سَكتم؟ أريحوا أنفسكم! أنا أتزوجها وأردف قائلاً: أنا أحقّكم بها لأنها ميِّتة وأنا ميِّت كلانا ميؤوس من شفائه، ولذا فلنمتْ سوياً، أو يتداركنا الله بلطفه!

أريحية عطية وشهامته:

هنا شكرت له أريحيَّته وشهامته لأنّه فعلاً رفع عنا العبء، وحقق الهدف الذي هو مطمع الجميع، وهنا أصبح الوضع قد بُتَّ فيه من حيث الواقع،وإنما يتوقف على إجراءات التنفيذ كيف تكون، ومَن سيضطلع بها، وهنا اتجه إليَّ الجميع طالبين مني أن أقوم بها، طالما أنني أنا الذي تَبَنَيْتُ الفكرة من مبدئها.

انتهى الحديث عند هذا الحد، بعد أن كررتُ القول عليه عدة مرات أمام الجميع، بأنّ هذا القول منه نهائي لا رجعة فيه، لأنني سأتولى فوراً ومن صباح الغد بمشيئة الله تنفيذ المهمة، فأكدَّ لي ذلك، وفوَّضني أمام الجميع بأنه يقبل جميع الإجراءات التي أقوم بتنفيذها. وهنا طلبتُ منه جواز سفره، فذهب إلى غرفته في الحال وسلّمني إياه أمام الجميع.

زفُّ البُشرى لأختنا المسلمة فاطمة:

في صباح اليوم التالي، وكان يوجد في المَصَح بين جناح الرجال ومدخل المَصَح بقالة فيها أنواع معيّنة من المشروبات الغازية والبسكوت والسجائر وما إلى ذلك. كان يرتادها كل صباح مجموعات من الجنسين الذكور والإناث لأخذ ما يحتاجونه منها، وكانت فاطمة هذه من ضمن النساء اللائي كنَّ موجودات في ذلك الصباح في هذه البقالة، فدخلت إلى البقالة متظاهراً بأني أبحث عن شيء ضمن موجودات البقالة، حتى اقتربت منها وكاد كتفي يلامس كتفها، وهنا هَمَسْت لها بكلمة: اتبعيني الآن خارج المَصَح، وسأنتظرك عند الصخرة الكبيرة الموجودة في الشارع والمُطلة على الوادي. وكان مسموحاً للمرضى والمريضات أن يتجوَّلوا خارج المَصَح عبر مساحة قد تبلغ الكيلومتر، وكان المَصَح يقع على قمة جبل، وكان الوصول إليه يتمّ من جهة الشمال عن طريق بكفيا، ثم يستمر صعوداً حتى مدخل المَصَح، ويستمر جنوباً نحو نصف كيلومتر ثم يبدأ بالانحدار. تركتها واتجهتُ إلى المكان الذي حددته لها، وهي تعرفه كما تعرفه المريضات الأخريات، لأنهنَّ كثيراً ما كنَّ يأتين إلى هذا المكان أثناء الفسحة، يجلسنَ

فيه بجوار هذه الصخرة الكبيرة، ليتمتعنَ بمنظر الوادي العميق الذي يظلله الضباب والأشجار الكثيفة.

بعد نحو نصف ساعة وَصَلتْ إليَّ، وهنا انحدرتُ بها أيضاً نحو أربعة أمتار على سطح الوادي، بجوار صخرة كبيرة كالأولى، للابتعاد عن عيون المارّين بالشارع. كان أول سؤال وجّهته إليها هو سؤالي لها: ماذا أنت فاعلة بعدما أخبرك الطبيب بما أخبرك به؟ قالت: لا شيء، إنما أنتظر قضاء الله وقدَره، وأسرتي لن يضيّعها الله لأنه تعالى يقول: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: الآية ٦].

إعجاب وتقدير:

لقد أكْبَرْتُ بهذه الفتاة تَديُّنها واستشهادها أكثر من مرة بآيات قرآنية أثناء حديثها، وهذا ما زادني إعجاباً وتقديراً لها. سألتها قائلاً: سأطرح عليك سؤالاً أطلب منك الإجابة عليه إجابةً حاسمةً وفوريةً، قالت: تفضل، إنني واعيةٌ مُصْغِية. قلت: هل تقبلين الزواج فيما لو تقدَّم لكِ أحد المرضى السعوديين لخطبتك؟

نشيج وبكاء:

هنا أجهشت بالبكاء ومكثت لحظات لا تستطيع النطق نتيجةً للنشيج والبكاء، أخذتُ أخفف عنها بقولي: لا بأس عليك لأنَّ مَن يتقدَّم لخطبتك من إخواننا السعوديين، هو على علم تام بوضعك الصحي، وبظروفك وظروف عائلتك لأنني قد نقلت لإخوانك السعوديين القصة التي رويتها لي عندما كنت في غرفة النقاهة، أجابت: كيف يقبل أيُّ إنسان أن يتزوَّجني وأنا في طريقي إلى القبر لا محالة!!

أجبتها: هوِّني عليك إنّ مَن سيتقدم لخطبتك هو مريض مثلك، وبحالةٍ ميؤوس منها كحالتك، وهو عندما يتقدَّم لخطبتك، عارف أنّه لن يتزوَّج امرأة بما تعنيه كلمة امرأة، وإنما هدفه أن تصبحي بزواجك منه سعودية الجنسية، وبالتالي يمكن إدخالك ضمن المريضات السعوديات، وهذا

يوفِّر لك الراحة والغذاء الجيد والخدمة الممتازة والعلاج الجيد، وما يلزم الأمر.

موافقتها على الزواج من أحد المرضى السعوديين:

لم تكن تستطع أن تتحدث إليَّ بأكثر مما قالته في الإجابة الأولى. وهي تعتقد أنّه لا يقبلها أحد.

قلت لها: هذا ليس من شأنك، ستوافقين على الخطبة أم لا؟ أجابت: ومَن يرفض يداً تمتدُّ لإنقاذه من الغرق؟

عقّبتُ على ذلك بقولي: إذاً هذه موافقة على سؤالي؟ فهزَّت رأسها مطأطئةً إلى الأرض، وهي تبكي، عند ذلك سألتها: أين تقيم أسرتها؟ فقالت: هي في قرية جدِّيثا على مقربة من شتورا كما سبق أن قلتُ لك.

هنا طلبت منها، وكان ذلك اليوم الذي تمَّ فيه هذا اللقاء معها هو يوم السبت، واليوم الذي يليه هو يوم الأحد وإدارة المَصح تمنح المرضى ذكوراً وإناثاً إجازة في يوم الأحد؛ هذا لِمَن يرغب زيارة أهله إذا كان وضعه الصحي يسمح بذلك.

أخبرتها بأنني غداً الساعة الثامنة صباحاً سأنتظرها في هذا المكان، وأنَّ عليها أن تحضر في الموعد المحدَّد، وسيكون معي الشخص الذي تبرَّع بالتزوُّج بها، واثنان من المرضى السعوديين لكي نذهب جميعاً إلى والدها لنشاهد أسرتها، ونطلب موافقة والدها على تزويجها.

السَّعي في إتمام زواج الغامدي وفاطمة:

في صباح اليوم التالي كنت والصديقين صالح عبدالله الصرامي، وأحد أبناء منطقة الدمام، وأحد موظفي التفتيش في أمانة الجمارك في المنطقة الشرقية، وكذا الصديق عبدالله بن حسين أحد مواليد مدينة (أرْغَبَة) ومن سكان الرياض، وممن يحضرون مجالس دروس مفتي السعودية آنذاك الشيخ

محمد بن إبراهيم، وهذان الصديقان هما من جملة المرضى السعوديين، يضاف إليهما الصديق عطية بن راشد الغامدي المرشح للزواج من فاطمة.

كنا جميعاً ننتظرها تحت الصخرة الكبيرة المُشرفة على الوادي، التي تمَّ تحتها اجتماعي بفاطمة يوم أمس. وفي حوالي الساعة الثامنة وصلت إلينا فاطمة، ولِحسن الحظ صادف مرور إحدى سيارات التاكسي، فأشرنا إليه بالوقوف فوقف حالاً، وطلبتُ منها أن تركب بجوار السائق، وأن تتَّجه بها إلى دار ذويها، أمّا نحن الأربعة فقد ركبنا في المقعد الخلفي، وقبل وصولنا منحدرين من المديرج إلى قرية شتورة بنحو ثلاثمائة متر تقريباً، اتَّجهت بنا السيارة نحو الشمال الغربي، وعلى بُعد نحو أربعمائة متر تقريباً وقفت بنا السيارة، فنزلت فاطمة، ونزلنا معها بدورنا طالبين من السائق أن ينتظر.

في بيت فاطمة:

سارت أمامنا بنحو خمسين متراً تقريباً، وإذا بها تقف أمام بيت متواضع مبني بطين وبعض الحجارة، جداره الخارجي نحو مترين تقريباً، وكان باب البيت بضعة ألواح قديمة مؤلَّفة مع بعضها حتى كوِّن منها الباب الذي يظهر عليه القِدم.

وقفنا خارج الباب بينما اتجهتْ فاطمة إلى الداخل، بعد دقائق حضرت إلينا طالبةً دخولنا معها. كان هناك حوش صغير تقدَّر مساحته تقريباً بنحو أربعة في خمسة أمتار، يُفضي إلى ثلاث حجرات بينها صالة مسقوفة.

كان أثاث البيت، قِطع مهترئة من البُسط الهندية. كان والدها يجلس بجانب من هذه الصالة وأمامه حشية من الصوف متكىء عليها، وعلى مقربة منه امرأة عمياء مقعدة، وبجوارها ثلاث فتيات تعلو وجوههن الصُفْرة مما يدل على اعتلال صحتهنّ، ويؤيد ما ذكرته أختهنّ فاطمة من أنهنّ مريضات بمرض القلب.

كان والدها في حدود السبعين من العمر تقريباً، وهو عاجز عن

الحركة لأنه مُقْعَد نتيجةً لما يشكو منه من روماتزم كما يقول هو، ومن ضيق في الصدر والتنفس. لم نجد في البيت ما يشرح الصدر، وإنما ما يحزُّ في النفس سواء من موجودات البيت، وسواء من ساكنيه، وما هو عليه من مظاهر البؤس والفقر.

رحَّب بنا الرجل أجمل ترحيب معتذراً منا عن ضيق ذات اليد التي لا تمكنه من إكرامنا لتقديم مشروبات أو نحوه على الأقل، شكرناه ورجونا منه أن يساعدنا في مهمتنا.

فاطمة تشرح الموضوع لوالدها:

وهنا أخذت فاطمة تشرح لوالدها الموضوع الذي من أجله قدِمتْ وقدِمنا معها، وقبل أن تسترسل في الحديث مع والدها توليت أنا مبادرة الحديث معه، وأوضحتُ له الموضوع مُفصَّلاً، وأثناء سماعه لحديثي كانت دموعه تتساقط على لحيته البيضاء، كما كانت ابنته فاطمة تجهش بالبكاء.

موافقة الأب على زواج ابنته:

وافق الرجل بطبيعة الحال، ومنعه التأثر من أن يعبِّر عن شعوره، وإنما اكتفى بكلمة واحدة هي قوله: جزاكم الله خير الجزاء. عندئذٍ أفهمته بأنه باعتباره والدها، وأنه يتعذَّر إتمام عقد الزواج عليها إلا بحضوره وموافقته فإنه يلزمه أن يذهب معنا الآن، فوافق على ذلك. ومن ثمَّ أوقفَتْهُ ابنته فاطمة متكئاً على كتفها، بينما أخذ الصديق عبدالله الصرامي بكتفه الآخر شادًّا إياه على الوقوف، ثم اتَّجه إلى حيث يوجد التاكسي. وحيث أنَّ تاكسياً لا يستوعبنا جميعاً، لذلك فقد ذهب الأخ عبدالله بن حسين إلى الطريق العام وأحضر لنا تاكسياً آخر ركبنا فيه نحن الأربعة، وتوجهنا إلى زحلة لعلمي بأنَّ مدينة زحلة فيها محكمة شرعية، تقع في مدخلها تقريباً من جهة الشرق كنتُ لاحظت لوحتها مرفوعة على باب المحكمة أثناء مجيئي إلى زحلة أكثر من مرة.

إلى المحكمة في زحلة:

توجهنا إلى زحلة، وعند وصولنا إلى الباب الموضوع عليه اللوحة توقفنا هناك، وبسؤال أحد المارة الموجودين عما إذا كانت المحكمة مفتوحة، فقال لي: إنّه لا يوجد فيها سوى القاضي وحده، وإنّه لا بد أن يكون الآن موجوداً فيها، لأنَّ الساعة كانت حوالي الساعة ١١ صباحاً، وما عليكم إلا أن تطرقوا عليه الباب.

طرقتُ الباب عدة مرات، ففتح وبرز من خلفه رجل متوسط القامة أشيب الشعر، مكشوف الرأس، يرتدي روباً قطنياً.

سألني: خيراً، ماذا تريد؟ أجبته: أنني ومَن معي بالسيارات قادمين خصيصاً للالتقاء بفضيلتك لأنَّ لدينا موضوعاً يتعلق بشخصك، أجابني بقوله: اشرح ما عندك... تكلم!! أجبته: إنَّ ذلك غير مُسْتَحسن أن نتحدث في الشارع، ونحن في السيارات، ونطلب من فضيلتك أن تسمح لنا بالدخول لنشرح لك قضيتنا، ونحن مستعدون جميعاً أن نجلس على الأرض إذا ما لم يوجد ما نجلس عليه، وهنا اضطر بكثير من الامتعاض والتأفف أن يلبّي طلبنا، وهنا سار أمامنا ممتعضاً قائلاً: اتّبعوني.

وهنا طلبتُ من الإخوان أن يدخلوا ومعهم فاطمة وأبوها في ممر يبلغ طوله نحو عشرة أمتار، انتهى بغرفة واسعة رثّة الأثاث يتناثر عليها مجموعة من الكراسي الخيزران القديمة، وعلى جانب منها طاولة خشب عليها دفتر وبعض الأوراق، وأمامها كرسي خيزران، وفي الحائط لوحة كُتِبَ عليها المحكمة الشرعية في زحلة.

حوار مع قاضي زحلة:

عندما تكامل وصول الجميع توليتُ الحديث مع فضيلة القاضي، ورجوته في أول الأمر، أن يرشدني على القاضي، فقال لي: أنا هو... أنا القاضي. وهنا شرحتُ له الموضوع بكامله، موضحاً ومُركِّزاً على الجانب الإنساني فيه، راجياً منه أن يُتِمّ لنا عقد الزواج بين الزوج والزوجة

الموجودين معنا، وبحضور والدها وبموافقته الذي هو أمامك الآن. وبالجملة فقد حرصت،على الإسهاب في الموضوع، مُستعرضاً ظروفه وملابساته، وحالة الزوج والزوجة الصحيَّة، والهدف من عقد هذا الزواج في مثل مَن هو في وضعهما. فعلتُ ذلك أملاً في إثارة عطفه وإنسانيته ومشاركتنا في إتمام هذا الموضوع الإنساني المحض.

خيبة أمل:

كان فضيلته ينصتُ باهتمام واضح إلى حديثي حتى أكملته، مما وَقَر في نفسي أنه سيفعل كل ما في وسعه لمساعدتنا، غير أنَّ الذي حدث خلاف ذلك، كان صدمةً لمشاعرنا نحنِ الموجودين معه في هذه الصالة جميعاً، إذ قال: إنه قد فَهِمَ قضيتنا، إلاَّ أنه لا يستطيع أن يلبي طلبنا بعقد الزواج بحجة أنَّ عقد الزواج لا بد أن يُعلَن عنه قبل عقده بمدة لا تقل عن شهرٍ من الزمن، وحيث أننا لم نعلن، فإنه يتعذَّر عليه عقد هذا الزواج، موضحاً أنه إذا رغبنا في عقده فعلينا أن ننصرف الآن ونعلن في الصحف، وبعد مضي شهر نعود إليه، وهو مستعد آنذاك في عقد هذا الزواج، موضحاً أنه لكي يساعدنا فهو سيعطينا صورةً من صيغ الإعلان التي يجب نشرها في الصحف.

تبرير غير مقنع:

لم أقتنع منه بهذا التبرير، موضحاً له أنَّ هذه القضية هي قضية نادرة وشاذة في الوقت نفسه، وهي تتأثر بعامل الوقت سلباً وإيجاباً، وفي حالة تأخير العقد تترتَّب عليه نتائج حتمية بالقضاء على جميع ما بذلناه من جهد. وأخذت أُلاطفه، وأستعطفه، وأُثيرُ نخوته العربية، وأستفزُ شعوره الديني، ولكن بدون جدوى.

ظلَّ النقاش بيني وبينه طويلاً دون أن يتحلحل عن موقفه قِيدَ أنمُلة، ثم ختم ذلك بأن وقف بما يعني أنه عليكم الانصراف، لم يكن هناك بعد ذلك أي جدوى للمناقشة.

تغيُّر موقف القاضي:

وخلال سيرنا متجهين إلى الباب مدَّ أحدنا يده إلى جيبه مخرجاً منها ورقة ذات مائة ليرة لبنانية وضعها في يد الشيخ بينه وبينه، بعد أن التصق به حتى لا يراه أحد هامِساً بأذن الشيخ بقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: الآية ١٩٧] وهنا انعكس الوضع، فبعدما كان الشيخ متجهاً إلى الباب ونحن معه للخروج إذا به يرجع على عقبيه ونحن معه باتجاه الغرفة التي كُنَّا فيها، وهنا طلب منا اللحاق به، مُتمتماً بعبارات يُستَدَل منها على أنه يشجِّع العمل الإنساني، وأنه تفهَّم قضية هذين المريضين، ولذلك فقد عزم على مساعدتهما بعقد زواجهما الآن.

المائة ليرة اللبنانية:

بعد أن استوى فضيلة الشيخ على كرسي المحكمة، اتَّجه إلينا بوجهه مبتسماً باشّاً ومُحيياً أيضاً، وكأنه يريد بهذا الانقلاب المفاجىء في سلوكه معنا أن يمسح من أذهاننا الصورة المتجهِّمة والعابسة التي استقبلنا بها حين وصولنا إليه، ونحن نعلم في قرارة نفوسنا أنَّ محبته ـ كما يدَّعي ـ للخير ورغبته في المساعدة هو وَهمٌ وسراب، وإنما الحكمة والفضل والبركة في (ورقة المائة ليرة اللبنانية) التي أطبَقَت عليها أصابعه على راحة يده مُسرعاً بها إلى جيب (الروب الذي كان يرتديه).

عقد الزواج:

المهم سألَنا: أين الزوج؟ فقلنا: ها هو، وكذلك الزوجة هذه هي، وهذا والدها، وهو وليُّ أمرها مع أنَّ البنت بالغة رشدها. فتح دولاب خشب كان منصوباً على يمينه، وأخرج منه ورقة مطبوعة أثبت عليها اسم الزوج وجنسيته، وكذا اسم الزوجة وجنسيتها، ثم أخذ أسماءَنا كشهود على العقد، وذلك بعد أن سأل كلاً من الزوج والزوجة عن رغبتهما وموافقتهما على الزواج من بعضهما، وكذلك أخذ موافقة الوالد ومباركته لهذا الزواج، وقد وضع في العقد أنَّ الصداق هو أربعة آلاف ليرة لبنانية.

كان عقد الزواج مطبوعاً على الآلة الكاتبة، وتُركت فيه فراغات لاسم الزوج واسم الزوجة ووليّ الأمر وأسماء الشهود، وهذه ملأها أمامنا، ثم أتمَّ خطبة النكاح المعتادة، وخَتَم العقد بخاتم المحكمة، بعد أن أخذ توقيع الزوجة والزوج ووليّ الزوجة والشهود، وبعد أن وضع على العقد تاريخاً يسبق ذلك اليوم بثلاثين يوماً. بمعنى أننا سبق أن أعلنا وَفْق الإجراءات المتَّبعة، ثم توَّج فضيلته العقد بتوقيعه وختمه، ثم قدَّمه للزوج مع عبارات التهنئة والتبريك والتمني لهم بحياة سعيدة، ثم غادرنا المحكمة، وهو يودِّعُنا حتى الباب مشيِّعاً لنا بعبارات كلها وِدّ واحترام.

العودة إلى جدِّيتا:

كان التكسيان واقفان أمام باب المحكمة بناءً على طلب منا، عُدنا إلى جدّيتا، أي إلى بيت والد فاطمة محمد علي، وهناك أنزلناها ووالدها، وطلبنا منها أن تبقى في بيت أهلها حتى يَرِدها منا إشعار بما يجب فعله. نزلنا على الفور إلى أحد المطاعم في شتورا، وكان الوقت آنذاك في حدود الساعة الثالثة بعد الظهر تقريباً، تناولنا نحن الأربعة عطية بن راشد الغامدي، وعبدالله بن صالح الصرامي، وعبدالله بن حسين طعام الغداء، ثم عُدنا إلى بيروت، حيث أبقيتُ معي الزوج الأخ عطية بن راشد، بينما واصل الصديقان عبدالله بن حسين، وعبدالله بن صالح الصرامي طريقهما إلى المَصَح.

في السفارة السعودية ببيروت:

أما أنا ورفيقي فقد اتجهنا إلى السفارة السعودية في بيروت، وكانت الساعة في حدود السادسة مساءً تقريباً، ومن حُسن الحظ، ولطف الله وكرمه أن يسَّر لنا قضاء مهمتنا حيث وجدنا في السفارة المرحوم معالي الشيخ السفير إبراهيم السويِّل موجوداً فيها، لأعمال مستعجلة لديه أَوْجَبت بقاءه في السفارة حتى هذا الوقت كما شرح لنا عن ذلك.

معالي الشيخ إبراهيم السويِّل:

كانت تربطني به صلة ودٌ قديمة، فما كدتُ أدخل عليه حتى قام مرحِّباً

آمراً الفَرّاش بأن يعدَّ لنا شاي وقهوة، وقد سُرّ كلٌّ منا بلقاء الآخر بعد انقطاع بيننا أظنه دام أكثر من خمس سنوات، وكان آخر لقاء لي معه في مبني وزارة الخارجية بجدة.

حماس وأريحية:

شرحتُ له الموضوع مفصّلاً، ورجوته أن يمدَّ لنا يد المساعدة، ويثبت اسم الزوجة على جواز الزوج الذي كان معنا، وذلك بمُوجب العقد الشرعي الصادر من محكمة زحلة، وقد أبدى رحمه الله كلَّ حماس وأريحية وشهامة، مُثنياً على ما قُمنا به ومُقدِّراً - على الأصح - تضحية الأخ عطية بقبوله الزواج منها، رغم علمه بوضعها الصحي الميؤوس منه.

تسجيل الزوجة على جواز الزوج:

قدَّمنا له الصَّك ومعه جواز عطية، فذهب إلى مكتب السفير .ونحن معه وسجَّل الزوجة على جواز الزوج وختمه بختم السفارة، بعد توقيعه من قِبله أيضاً، وهنا رجوتُه أن يُكمل مساعدتنا بأن يزوِّدنا بخطابٍ رسميٍّ صادر من السفارة مُوَقعاً منه، ومُوجَّهاً إلى وكيل المرضى السعوديين في لبنان الشيخ سليمان العبدالله الغنيم، ومُتضمِّناً الطلب منه تسجيل المريضة لديه فاطمة باعتبارها أصبحت سعودية الآن، يسجلها ضمن المريضات السعوديات، وأنَّ عليه أن يكتب لإدارة المصَح لإلحاق فاطمة محمد علي ضمن المريضات السعوديات، وفعلاً أتمَّ ذلك وزَوَّدنا بالخطاب الرسمي، مُتمنياً لنا وللزوجين الصحة والشفاء.

شهامة ونُبْل:

وهنا أجد أنَّ من الإقرار بالفضل لذويه أن أسجل لأخي معالي المرحوم الشيخ إبراهيم السويِّل هذا الموقف منه في إنجاز مهمتنا هذه. هذا الموقف الذي يمثل الشهامة والنُبل ومنتهى الإنسانية. فهو لم يتردَّد ولم يتلكَّأ، أو لم يحاول التهرُّب، أو اختلاق المعوِّقات، وما أكثرها لو أراد، أو

لو وجدنا مكانه غيره، ولكن هذا بدون شك فضلٌ من الله وتوفيق بالنسبة لنا، ومَكرمة من الإحسان والفضل وفعل الخير ومساعدة المحتاج ستسجَّل في موازين حسناته إن شاء الله.

كتاب السفارة إلى وكيل المرضى السعوديين في لبنان:

قضينا صلاة المغرب جماعةً في السفارة، كان معاليه يَؤمّنا وكُنا خلفه: أنا وعطية وفرَّاش السفارة، حاول رحمة الله عليه أن يصحبنا إلى مطعم الغلاييني على شاطىء البحر لتناول طعام العشاء، وقد ألحَّ علينا أشدَّ الإلحاح، ولكن اعتذرنا شاكرين ومقدِّرين، وأننا نحاول الوصول إلى مكتب سليمان الغنيم هذه الليلة قبل خروجه منه وإغلاقه، لكي نسُلِّم له كتاب السفارة، ونستلم منه كتاباً لإدارة المَصَح بإدخال المريضة فاطمة ضمن المريضات السعوديات، ودَّعناه شاكرين ومقدِّرين فضله، حامدين له نبله وإنسانيته وكريم تواضعه.

بوصولنا مكتب الغنيم كان على وشك الإغلاق، وكان الموظف المختص فيه، يُدعى إبراهيم آغا، وهو صهر سليمان الغنيم لأنَّ الأخير مقترن بأخته. كان على وشك مغادرة المكتب وإغلاقه، بَيْدَ أنه اضطر إلى البقاء واستلام الكتاب، ومن ثم تزويدنا بكتاب للمَصح كما أسلفت، وقد تمَّ ذلك في غضون ساعة تقريباً.

العودة إلى مصح بحنِّس:

كان سائق التاكسي لا زال معي، وهو السائق الذي كنت ركبتُ معه مع الإخوان في صباح ذلك اليوم على مَقربة من مَصَح بحنِّس، بعد استلامي لكتاب إدارة المَصَح اتجهت مع التاكسي نفسه إلى مَصَح بحنِّس، فوصلت في حدود الساعة التاسعة والنصف تقريباً. وحيث أنَّ السائق هذا قد اصطحبنا في الصباح وذهب معنا إلى دار والد فاطمة محمد علي فقد أعطيته مائتي ليرة لبنانية إكراميةً له لقاء عمله معنا ذلك اليوم، ثم أعطيته أيضاً مائة ليرة لبنانية أخرى، طالباً منه أن يذهب في الصباح المُبكر إلى دار فاطمة،

ويُسلّمها ورقة مُوقعةً مني وموجهةً إليها، ومضمونها أن تحضر معه في الحال إلى مَصَح بحنّس، لتصل إليه في حدود الساعة الثامنة صباحاً، وسأكون بانتظارها عند الباب. ودّعت السائق شاكراً له وراجياً منه تنفيذ ما طلبته منه، وعلى أن يحرص أن يحضرها في الموعد المحدد إلى المَصَح.

فرحة واغتباط:

عُدت والأخ عطية إلى جناحنا، وإلى زملائنا الذين اغتبطوا أشد الاغتباط وفرحوا أشدَّ الفرح بنجاح مهمتنا، وخاصةً عندما قرأت عليهم الكتاب الموجَّه إلى إدارة المَصَح بإلحاق فاطمة محمد علي ضمن المريضات السعوديات، اللاتي يُعَالجنَ على حساب المملكة العربية السعودية، مُوضحاً للإخوة بأنَّ فاطمة هذه هي الآن عند أهلها، وغداً صباحاً سنستقبلها عند باب المَصَح.

كان السرور يغمر الجميع، وكلهم فرحون، مبتهجون أن وفَّق الله سبحانه وتعالى، بإتمام هذا الموضوع بهذه السهولة واليُسر، وفي خلال يوم واحد فقط.

كنت متعب الجسم، ولكني منشرح الصدر، أحسُّ بأعماقي بأنَّ ما تمَّ هو نعمة من الله، أسبَغها عليَّ ووفَقني لأدائها، ويسَّر لي وسهَّل جميع خطواتها.

زوبعة دخول فاطمة السعودية إلى المَصَح:

في تمام الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي كنتُ، ومعي بعض الإخوة من المرضى السعوديين، واقفين أمام مدخل باب المَصَح من الخارج، وخلال ذلك أقبلتْ فاطمة متّجهةً إلينا، وعند وصولها أشرتُ إليها بأن تقف على مقربة منّي. وهنا أبرزتُ الكتاب الذي كان معي من مكتب الصديق سليمان العبدالله الغنيم موجَّهاً إلى إدارة المَصح وقدَّمته للموظف المختصّ بقيد المرضى المستجدّين من قِبل إدارة المَصَح.

طلب تسجيل المريضة السعودية فاطمة محمد علي:

قدّمتُ له الكتاب وطلبت منه أن يُسجل المريضة فاطمة محمد علي ضمن المريضات السعوديات، وأن يطلب حضور إحدى الممرضات الراهبات إلينا الآن، لكي تأخذ فاطمة إلى جناح السعوديات، وتُرشدها إلى غرفتها.

دهشة واستغراب:

وهنا خرج من غرفته ليرى المرأة التي يُطلب تسجيلها، فإذا به يقول بصوتٍ عالٍ أشبه بالصراخ مشفوعاً بإشارة من يده إليه، إنَّ هذه هي روز الممرضة المسيحية عندنا في المَصَح، فكيف أصبحت فاطمة محمد علي؟ فتجاهلتُ ذكره لكلمة (روز)، وركزتُ قائلاً: هذه فاطمة محمد علي زوجة المواطن السعودي عطية بن راشد وهو واحد من المرضى السعوديين الموجودين لديكم الآن.

وكان عطية بن راشد في تلك اللحظة لازال في غرفته في جناح المرضى، لأنه كان يعتقد أنها لن تحضر قبل الساعة العاشرة صباحاً حسب قوله.

انفعال وغضب:

دارت المناقشة بيني وبين (إدوارد) هذا، وهو يكلّمني بانفعال وغضب، وكان يرتعش أثناء كلامه، فألححتُ عليه بأن لا مجال للمجادلة، وأنَّ عليه إما أن يقبل أو يرفض.

الاستنجاد برئيسة المصح:

وهنا أسرع مهرولاً من أمامي وكأنه قنفذ لأنه محدودب الظهر، أسرع إلى مكتب رئيسة المَصَح للاستنجاد بها وإعلامها بالموضوع، وما هي إلا دقائق حتى حضرت الرئيسة، وهي كما ذكرت سابقاً امرأة طاعنة في السِّن قد جاوزت من العمر السبعين تقريباً، ولكنها ممتلئة حيويةً ونشاطاً وكأنها ابنة العشرين، وهي في خَلقها أقرب إلى الرجولة منها إلى الأنوثة.

غيظ وخنق:

أقبلتْ إلينا وكان غطاء رأسها وهو معروف لِمَن يعرف غطاء رأس الراهبات قبعة من القماش الأبيض المكوي والمُنَشَّى، تتجه جوانبه إلى الأعلى، وتنسدل الجوانب الأخرى على مقدمة الوجه والصدغين، جاءت مسرعةً تُتَمتم في طريقها بعبارات لم أفهمها لأنها لا تتكلم العربية، وهي تنمُّ عن غضبها وحنقها البالغ اللامحدود، خاصةً عندما وقفت قريبة من فاطمة، فكانت تخاطب فاطمة بالفرنسية بلهجةٍ عنيفةٍ مشيرةً إليها بيدها التي كانت تهزها في وجهها حتى كأنها تكاد تضربها، وقد طلبتُ من فاطمة الصمت وعدم الإجابة.

دامت المجادلة بيني وبينها بواسطة (إدوراد) هذا، كنت أخاطبها بهدوء وأدب محاولاً إقناعها بأنَّ الواقفة أمامها هي سعودية ترغب الدخول للمَصَح ضمن زميلاتها السعوديات، وهذا الكتاب الرسمي من وكيل المرضى موجَّهاً لكم يثبتُ ذلك، بَيْدَ أنها ازدادت غضباً وغلياناً، حتى كاد الزبد الأبيض يخرج من فِيها، ثم أدبرت بعد أن صرخت في وجه (إدوارد) هذا، وأخَالُها تؤكد عليه بعدم القبول.

مواجهة العنف بالعنف:

هنا لم أجد بُدّاً من أن أقابل العنف بالعنف، وكان الكثير من الإخوان المرضى قد تجمّعوا على مقربة منا، وسمعوا النقاش بيني وبينها.

طلبتُ من الأخ عبدالله صالح الصرامي وكان موجوداً أن يذهب إلى جناح السعوديين ويطلب منهم الحضور حالاً إلى باب المَصَح، وأن لا يتخلّف منهم أي واحد.

لم تمضِ نصف ساعة تقريباً حتى أصبحوا جميعاً يملؤون الساحة، وكما سبق أنْ ذكرت في هذه الخواطر، فإن عددهم في ذلك الوقت يبلغ أربعةً وثمانين مريضاً.

إنذار بمغادرة المصح:

بعد أن اكتمل حضورهم، وكان منظرهم منظراً مثيراً، دخلت إلى

إدْوَراد في غرفته، وطلبتُ منه الخروج ليشاهد المرضى السعوديين، وهنا أنذرتهُ بأنّ إدارة المَصَح إذا لم توافق الآن بدون أي تردد على قبول المريضة، فإننا نحن المرضى السعوديون جميعنا ومعنا أيضاً المريضات السعوديات سنغادر هذا المَصَح، ونلتحق بالمَصحات الأخرى كَمَصح ظهر الباشق ومَصح العزونية وغيرهما من المَصحات.

موقف حازم:

ذُهل الرجل أو على الأصح صُعِقَ من الموقف الحازم؛ لأنّه يعلم أنّ المرضى السعوديين يمثلون ثلاثة أرباع دَخْل المَصَح، هنا أسرع مهرولاً كعادته إلى رئيسته، وما هي إلا دقائق حتى حضرت الرئيسة، وهو خلفها، وعندما شاهدت الساحة ممتلئة بالمرضى المتجمهرين، وقفتْ لحظات لمشاهدتهم، ثم رجعت مسرعة، وهي تتكلم بصوت جهوري مليء بالانفعال والحنق موجهاً إلى الموظف (إدوارد) ويبدو أنها تأمره بقبول المريضة.

قبول المريضة في المستشفى:

أخذ الكتاب مني وسجّله لديه، واتصل بإحدى الراهبات التي حضرت إلى حيث كنا واقفين، وكانت علامات الحنق والغضب تكاد تكون شرارات تنبعث من عينيها، اصطَحَبَتْ فاطمة معها إلى غرفة المريضات، وأصررتُ بدوري على أن نصحبها رغم معارضة الراهبة والموظف (إدوارد)، ولكنني أحببتُ أن أطمئن على السرير الذي خُصِّص لها، وفي الوقت نفسه أُشْعِر من أصادفه من المريضات السعوديات بأنَّ هذه المريضة اسمها فاطمة محمد علي، وهي مسلمة سنيّة، ومتزوِّجة من أحد السعوديين، ولها قصة سترويها لَكُنَّ، فنرجو الاهتمام بها والعناية بشأنها.

عادت الأمور إلى طبيعتها، وعُدنا إلى جناحنا كالعادة حامدين لله فضله أن هدأتْ الزوبعة إلى ما نحب، وإننا وُفِّقْنا ـ بفضل الله وعونه ـ إلى تحقيق الهدف الأسمى الذي كنا نتطّلع إلى تحقيقه.

الفحص الدوري العام للمرضى:

كما سبق أن ذكرت في هذه الخواطر والذكريات، أن إدارة المَصح تُجري فحصاً عاماً لجميع نزلائه المرضى ذكوراً وإناثاً، بأن تُأخذ للجميع في نهاية كل شهر صوراً إشعاعية لصدورهم، يجتمع لها في اليوم التالي أطباء المَصَح من جرّاحين ومعالجين يرأسهم رئيسهم الدكتور إلياس الخوري (الذي تولّى وزارة الصحة اللبنانية في ذلك العام) تُحضر ملفات المرضى في اليوم الأول للذكور، وفي الذي يليه للإناث.

بِشارتان لي ولعطية الغامدي:

كنت أنا وصديقي عطيَّة بن راشد الغامدي (زوج فاطمة) ضمن المرضى، وقد نُوديَ على عطيَّة للذهاب إلى الأطباء، وفعلاً بعد نحو ربع ساعة عاد إلينا وهو متهلل الوجه، منشرح الصدر، تكاد الفرحة تُفقده وقاره، سألناه: ما الخبر؟ خيراً إن شاء الله! قال: إنّ الهيئة قد أخذت له عِدة صور لصدره، وأنَّ رئيس الهيئة الدكتور الياس الخوري رَبَتَ على كتفه قائلاً له: إنَّ هناك بُشرى سارة سنزِفها إليك عندما يأتي الفحص الثاني في آخر الشهر. بعد نحو ربع ساعة من عودة عطيَّة نُوديَ على اسمي فذهبت، (وكما يعلم القارىء أنَّ الدكتور الذي أجرى العملية لي قد أفهمني بأنّه ميؤوس من صحتي، وأنّه لا فائدة من أي علاج) ذهبت إليهم، وهنا طُلب مني الوقوف أمام آلة التصوير، وأن أكشف عن صدري.

حضر إليَّ الدكتور الياس الخوري ومعه الدكتور صادر، الذي سبق أن أجرى العملية لي ومعهما الدكتور إدوارد باروكي، وهو المُشرف على علاجنا في الجناح، ومعهما صور إشعاعية بِيَدِ الدكتور صادر، وهنا وقفتُ أمام الآلة، وأخذ لي الدكتور الخوري عدة صور في أوضاع مختلفة في صدري، ثم أُمرت بارتداء ملابسي. كانوا يتحدَّثون خلال ذلك باللغة الفرنسية، وكانت علامات الانبهار والدهشة باديةً على وجوههم، ومن خلال حركات أيديهم، ثم أُمرتُ بالانصراف ولكن الدكتور الخوري ربتَّ على كَتفي قائلاً: هناك بُشرى سارة سنزفها لك إن شاء الله عند الفحص القادم،

ولست بحاجةٍ لأن أشرح للقارىء الكريم عن الصدى العميق، والأثر النفسي المملوء بالغبطة والسرور، نتيجةً للكلمات التي سمعتها من الدكتور الخوري، وكذلك الحال بالنسبة للأخ عطية.

عُدنا أنا وعطية إلى الجناح، وكان زملاؤنا هناك، ونحن نكاد نقفز في الهواء من الفرح والسرور، وإن كُنَّا لا نعلم كُنْه هذه البشرى، ولا حقيقة هذه البشرى التي وُعدنا بأنها ستُزفُّ إلينا في نهاية الشهر.

وبشرى ثالثة لفاطمة:

في اليوم التالي، وهو المُخصَّص لفحص النساء، دخل عليَّ الممرض إليان في غرفتي، وهو بالمناسبة أرمَني الأصل، أخبرني بأنَّ فاطمة موجودة في دكان البقالة القريب من الجناح، وهي ترغب حضوري إليها الآن لأمرٍ مهم، وكان الوقت ساعتئذٍ حوالي الثانية بعد الظهر، بعد انتهاء فحص النساء.

غبطة وسرور:

ذهبتُ إليها على الفور، وإذا هي واقفة على مقربة من باب البقالة، فابتعدتْ بي قليلاً عن هذا المكان، وأخبرتني وعلامة السرور والبهجة والفرح تشعُ من وجهها، أخبرتني بأنَّ الدكتور إلياس الخوري قد أفهمها بأنَّ هناك بشرى سارة ستنتظرها في الفحص الثاني، وهو نفس ما قاله لي ولزوجها عطية، وهنا أخبرتها بأني وزوجها قد تلقينا من الخوري البِشارة نفسها التي وعدها بها.

ابتهال وضراعة:

كان التأثر النفسي مني ومنها قد بلغ مداه فرفع كلٌّ منا يديه إلى السماء والدموع تتساقط من عينيه ابتهالاً وضراعةً، وشكراً للحيّ القيوم الذي لا يعجزه شيء، والذي بيده وحده الشفاء، وبيده الموت والحياة. رجع كلٌّ إلى جناحه، دون أن نتفوَّه بأيِّ كلمة بما كنا نُحسّ به من أثرٍ نفسي غَمَرَ قلوبنا ومشاعرنا شكراً لله وحمداً لفضله.

بانتظار ساعة الخروج:

مرّتْ الأيام ثقيلة بالنسبة لنا نحن الثلاثة، يمرّ اليوم وكأنه سنة، ومع ذلك فكل آتٍ قريب. أما زملاؤنا وإخواننا المرضى، سواء في جناح الذكور أو جناح الإناث فقد بلغ تأثرهم بهذه الأخبار الحد الأقصى، وأخذوا يلهجون بالشكر والثناء لله سبحانه وتعالى، والتحدُّث بِنِعمه وأفضاله التي لا تُحصى.

عالم علوي نوراني:

لَعَلّي لا أجافي الحقيقة إذا قلت: إنَّ الأيام التي مرّت عليَّ ـ منذ سماعي لكلمة الدكتور الياس الخوري حتى نهاية الشهر، الذي ستُجرى فيه الفحوصات، فنعلم كُنْهَ هذه البشرى التي سبق أن وُعدنا بها ومدلولها ـ لن أجافي الحقيقة إذا قلت: إنَّ ساعات تلك الأيام ودقائقها ولحظاتها كانت بالنسبة لي حياةً، برزخيةً تملأ جوانبها الانفعالات النفسية الممزوجة بالإخبات الروحي الذي تجعل المرء يعيش في عالم علوي نوراني، كله بهجة ومسرَّة وحبور.

محاسبة النفس:

كُنت في لحظات تلك الأيام أحاسب نفسي وأستعرض ما مضى من حياتي، فأجد فيها الكثير الكثير مما لا يَحْسُن فعله بين عبد مع خالقه.

كنت أستعرض حياتي، فأجد فيها الهنات والأخطاء، والذنوب والتراخي عن ما هو مطلوب مني بصفتي مسلماً مؤمن يتوجَّب عليه شعائر ومُثل يجب عليه أن يلتزم بها.

منن الله وآلاؤه علي:

أحاسب نفسي فأجد أن رحمة ربي وسِعتَني فلم تعجِّل لي العقوبة ولم تؤاخذني، بل كانت مِنَن ربي وآلاؤه تتضاعف عليَّ باستمرار. ولعلَّ من أبرز هذه المِنن أنني عشت سعيداً مُنَعَّماً، مُدْرِكاً لما تتمناه نفسي، ومُحققاً لكثير

من رغباتي، مُتَمتِّعاً بالصحة والعافية، خَلِيَّ البال، سليم الذمة، لم أصادف في حياتي أيَّ مشكلة أو عقبة، بل كانت هذه الحياة مُيَسَّرة سهلة لم ينغِّصها أيُّ منغص أو كدر.

لقاء مع الموت:

ومع ذلك كله فقد مرّت عليَّ خلال هذه الفترة من حياتي ثلاث مرات لقيت خلالها الموت وجهاً لوجه، لم يكن هناك أي مانع أو حائل يمنعني من هذا الموت المُحقَّق إلا عناية ربي ولطفه، التي كانت تمتد إليَّ في آخر لحظة تمتد يد الموت لتخطف روحي.

كانت أُولى هذه المقابلات تَمَّتْ وأنا في حدود التاسعة من عمري، وكنت في بلدي عُنيزة وقتذاك.

أما الثانية فقد تمَّت في الطريق الممتد بين الكويت وقرية في صحراء يعرفها الجميع تُعرف (بالدبدبة) على بعد نحو مائة وخمسين كيلومتراً جنوب الكويت وعلى بعد نحو سبعين كيلومتراً شمال (قرية)، وسأتحدث عن حادثة عنيزة فيما سيرد في هذه الخواطر مستقبلاً إن شاء الله تعالى:

وأما الثالثة فهي فشل العملية الجراحية في مصحِّ بحنِّس، ثم شفائي بعد ذلك، بعد اليأس المحقق، وارتقاب الموت، وذلك بفضل الله ورحمته عليَّ.

تَحقق الفرج:

انتهى الشهر وحان يوم الفحص، واجتمع المرضى كالعادة على مقربة من غرفة اجتماع الأطباء. كنت والصديق عطية بن راشد متلهِّفَيْن لسماع ما يتعلق بنا، وكأننا واقفون على الجمر، نُصغي مترقبَين لمناداة واحدٍ منا.

نُودي على عطية بن راشد، فأسرع إلى غرفة الاجتماع، ومكث نحو ساعة... ثم عاد إلينا والبِشْر يطفح من وجهه، وعلامات السعادة تغمر نفسه.

أقبل إلينا عطية مسرعاً باشّاً ضاحكاً، يكاد يَعْجَزُ عن النطق نتيجةَ للفرح والتأثر والانفعال عما حدث، حتى نُوديَ باسمي، فأسرعت مُهروِلاً، فإذا كلٌّ من الدكتور الياس الخوري والأطباء الجرَّاحين: الدكتور صادر، والدكتور شهاب، ومعهم الدكتور المعالج إدوارد باروكي واقفين أمام آلة التصوير، وبِيَد الدكتور الباروكي ملف الصور الإشعاعية الخاصة بي.

طُلب مني الكشف عن صدري، والوقوف أمام آلة التصوير، وهنا ابتدأ الدكتور الخوري بأخذ الصور لصدري عِدة مرات على أوضاع مختلفة، ثم أعقبه الدكتور شهاب، ففعل كما فعل الدكتور الخوري، ثم أعقبه الدكتور صادر، وفعل الشيء نفسه، أي أنَّ كلاً من الثلاثة قد قام بأخذ عِدة صور على أوضاع مختلفة. ثم طُلِبَ مني ارتداء ملابسي والانتظار، بينما دخلوا جميعهم إلى غرفة الاجتماع.

بعد دقائق معدودة طُلب مني الدخول إلى غرفة اجتماعهم، فإذا بهم واقفون، وإذا بالدكتور الخوري يَمدّ يده لمصافحتي شادًّا على يدي بحرارة وعُنف، مُهنئاً لي بالشفاء الكامل، وأنه أصبح في وِسعي أن أغادر المستشفى في أيِّ وقتٍ أريد، فلم يبقَ داعٍ لوجودي في المَصَح، مضيفاً إلى ذلك: إنَّ التقرير الطبي الرسمي الذي يثَبتُ شفائي الكامل سيكون في المساء عند الموظف (إدوارد)، ثم صافحني بقية الأطباء الثلاثة فرحين ومهللين ومهنئين بالشفاء الكامل، ويتَّضح من أحاديثهم في تلك اللحظة أنَّ شفائي وشفاء عطية كان معجزةً إلهيةً لا يد للطب أو العلاج فيها.

من هاوية الموت المحقّق إلى رحابة الحياة:

ودَّعتهم شاكراً وانصرفت، وكنت في حالة نفسية من الانفعال لم تمكِّني من تجاذب الأحاديث معهم. توجَّهت إلى الجناح، فوجدتُ إخواني المرضى مجتمعين كلهم في الصالون يهنئون الأخ عطية بالشفاء، وكان واقفاً بينهم، وبوصولي إليهم قصصتُ عليهم قصتي، وإذا بما فعله الأطباء معي هو ما فعلوه مع صديقي عطية، وأنهم أشعروه بشفائه التام، وأنَّ تقريره الطبي الرسمي الذي يثبتُ شفاءه سيكون عند الموظف (إدوارد) مساء هذا

اليوم، وأنَّ في وِسْع عطية أن يغادر المَصَح في أي وقت شاء. ولست بحاجة لأن أشرح للقارىء العزيز الحالة النفسية التي كنت فيها، أنا وصديقي عطية في تلك اللحظات، والشعور الغامر الذي نحسُّه يملأ أعماقنا شكراً لله وامتناناً لفضله، فإنَّ ذلك فوق الطاقة وأكبر من أن يُعبَّر عنه بالكلمات والحروف، ويكفي أنه صعوداً من هاوية الفناء المُحقق إلى رحابة الحياة ومباهجها.

العناية الربانية والألطاف الإلهية:

كان ذلك اليوم يوم عرس في المَصَح عند إخواننا وزملائنا، إذ ظللنا طيلة ذلك اليوم مجتمعين، لا حديث لنا إلا عن هذه المعجزة الربانية التي أنعمَ الله بها علينا، ونِعَمُ الله محيطةٌ بكل إنسان في كل لحظة وفي كل جزئية من جزئيات حياته، وصدق سبحانه وتعالى إذ يقول: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وإذ يقول جلّت قدرته: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧]. كان كلٌّ من زملائنا يُحِسُّ بأنَّ هذه العناية الربانية واللطف الإِلَهي قد اختصَّ به وحده.

دموع الفرح والبهجة بالشفاء:

في اليوم التالي، وبعد صلاة العصر، وَكُنّا مجتمعين في الصالون إذا بفاطمة محمد علي تدخل علينا فتزفُّ إلينا بشرى شفائها، وتَروي لنا قصتها مع الأطباء، وما فعلوه، وما قالوه لها، وهي القصة نفسها التي تمَّت مع زوجها عطية ومعي، وقد تبادَلت التبريك مع زوجها أمامنا، وكانت الدموع وهي تتحدث تتقاطر من عينيها فرحاً وانفعالاً وبهجةً بالشفاء.

وهنا استأذَنَت من زوجها أن تذهب في الحال إلى بيت والديها لتزفَّ لهم البشرى، ثم تعود لكي تُكمل إجراءات خروجها من المَصَح في صباح اليوم التالي، ولكن زوجها أجاب بأنه يجب أن يذهبا معاً، لأنَّ فرح أسرتها بشفاء زوجها عطية لن تقلّ عن فرحهم وابتهاجهم بشفاء فاطمة. وفعلاً خرجا من المَصَح، واستقلا تاكسياً إلى بيت فاطمة، ثم عادا إلى المَصَح

حوالي الساعة التاسعة مساءً، وفي صباح اليوم التالي غادرا المَصَح بعد أن أخذ كلٌّ منهما التقرير الطبي الرسمي الصادر عن إدارة المَصَح مُثبتاً فيه شفاءه كاملاً.

سفر عطية وفاطمة إلى بني ظبيان:

وقد مكثا ـ كما فهمت ـ في بيروت ثلاثة أيام، ريثما أتمَّ الحجز على الخطوط السعودية متوجهاً إلى جدة، ومنها إلى الطائف، فالباحة، فمَسْكَن عطية في بني ظبيان الذي يقع على بعد نحو أربعة كيلومترات جنوب غرب مدينة الباحة.

مزاولة فاطمة مهنة التمريض:

كانت فاطمة هذه تحمل شهادة تمريض رسمية معترَفْ بها، صادرة من معهد التمريض الصحي الذي كان قد أنشأه المُحسن الغَيور الدكتور مصطفى الخالدي للفتيات المسلمات، ومقرَه بجوار المستشفى الذي يملكه المذكور ـ أي مستشفى الدكتور مصطفى الخالدي ـ وقد اصطحبت ـ كما فهمت ـ كميات لا بأس بها من الإبر والحبوب التي تُستعمل عادةً للإسعاف، اصطحبتها معها من بيروت. وبما أن سكن عطية هذا يقع في بني ظبيان، فإنَّ المنطقة التي تشمل الباحة وبلجرشي والقرى العديدة التابعة لها، كانت كلها مجالاً رحباً لنشاط فاطمة هذه، لمزاولة التمريض بين الأُسر والبيوت، وما كاد يمضي على وصولها بضعة أيام حتى انتشر ذكرها في هذه المنطقة كطبيبة، لأنَّ المنطقة في عام ١٣٧٢هـ كانت من حيث المستوى الصحي في مستوى بدائي محدود، فأصبحت الدعوات تردُ إليها صباحَ مساء من كثير من الأُسر لطلب المعالجة، مُضافاً إلى ذلك القيام بتوليد الحوامل مما اضطرها أن تشتري حماراً لمواصلاتها، إذ لا توجد بين تلك القرى والمدن طُرق سالكة معبَّدة، اللهمَّ إلا الخط العام.

كانت ـ كما روت لي فيما بعد ـ تردُ إليها الدعوات، وقد تكون مستعجلة وفي الهزيع الأخير من الليل، فكانت تهبّ مسرعةً لإجابة الطلب،

فتولَّد هذه، وتعطي تلك إبرة لوقف الحرارة، وتُعطي آخر حبوباً لوقف الصداع وهكذا. وقد درَّ عليها هذا العمل دخلاً محترماً مَكَّنها من أن تبني مع زوجها عطية خلال خمس سنوات فقط من وصولها أربع فلل فخمة في بني ضبيان، وعلى مستوى رفيع من حيث مواد البناء أو من حيث التأثيث. وقد رزقهما الله سبحانه وتعالى أربعة أبناء ذكور، حَرِصَتْ على أن تُتيح لهم أعلى مستوى من الثقافة والعلم فأرسلتهم جميعاً إلى أمريكا للدراسة بعد الدراسة الثانوية في المملكة.

دوام صلتي بالزوجين عطية وفاطمة:

كان الاتصال بينهما وبيني مستمراً منذ وصولهما إلى بني ضبيان، سواءً مدة وجودي في لبنان أو في المملكة، بعد أن عدتُ إليها في أوائل عام ١٣٧٤هـ، فما يكاد يمر شهر دون أن تَردني رسالة منهما بتوقيع الزوجين معاً، يشرحان لي عن حياتهما وأوضاعهما، وما حباهما الله سبحانه وتعالى من فضل ومِنّة، ماثلاً ذلك في وجود الذرية وَسِعة الرزق.

وفاة الأخ عطية الغامدي:

ومنذ ثلاثة أعوام (من تاريخ إملاء هذه الذكريات عام ١٤١٨هـ) انتقل إلى رحمة الله الصديق عطية بن راشد لألَم عُضال ألَمَّ به، لم يمهله أكثر من ثلاثة شهور، انتقل إلى جوار ربه مُخلفاً زوجته الوفية وأبناءهما الأربعة، يعيشون في بحبوحة من العيش، ورغد الحياة، يتمتعون بثروة محترمة، ويملكون العديد من العقارات في تلك المنطقة، وهم مع والدتهم فاطمة، لازالوا في مساكنهم في بني ظبيان حتى اليوم.

كرامة عجيبة مدهشة:

كان موضوع الممرضة اللبنانية فاطمة محمد علي، وقصة زواجها من عطية بن راشد الغامدي، في مَصَح بحنّس عام ١٣٧٢هـ وما رافق هذا الزواج وأحاط به قبل مولده حتى بروزه حقيقةً واقعةً، من ظروف ومُلابسات هي إلى الخيال أقرب منها إلى الواقع، ولهذا فإنه من البدهي، ومن المعقول

جداً أن ترتسم على شفاه مَن يقرأ هذه القصة، التي عرضتها علامة استفهام، قد تصل إلى التشكيك في صحة وقائع القصة، كما جرتْ وكما سُرِدَتْ. وهذا شيء بدهي، لأنَّ الناس اعتادوا على أن لا يصدقوا إلا ما يلمسونه ويشاهدونه، ويكون مَبنياً على وقائع محسوسة، أي على مقدمات تتلوها نتائج. بَيْدَ أنَّ هذه القصة هي خارقةٌ لهذا المألوف، فشفاء الزوجين تمَّ بمعجزة خارجة عن نطاق حسابات العقل، تمَّ في مدةٍ وجيزةٍ جداً، انتُقِل فيها من قعر هاوية الهلاك إلى قمة بهجة الحياة وزخرفها. تمَّ ذلك كله بدون أن يكون هناك أيُّ سبب معقول، وإنما هي عناية الله سبحانه وتعالى ولطفه، وصَدَق الشاعر إذ يقول:

وإذا العنايةُ لاحظتك عيونها ... نَمْ فالمخاوفُ كلُّهن أمانُ

• وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧] وقد حدث على سبيل المثال، وكدليل على أنَّ كثيرين قد يترددون قبل أن يصدِّقوا هذه الرواية مع أنَّ أبطالها موجودون، وجميع نزلاء مصَح بحنّس يعرفونها تمام المعرفة، لأنهم شهودُ حال، وكذا الأخ الصديق عبدالمحسن الحمد المنقور، والصديق أحمد محمد المانع أمدَّ الله في حياتهما، وغيرهم العشرات والمئات ممن يعرفون هذه المعجزة وتفاصيلها.

صلتي بالقاضي الفاضل أحمد بن علي العمري:

أقول كدليل على صحة ما ذكرت: إنني بعد أن عُدْتُ من لبنان في عام ١٣٧٤هـ، ثم التحقتُ رئيسَ مال وأمين جمارك الحدود الشمالية في مدينة عرعر، ومعروف أنَّ هذه المدينة تمَّت ولادتها على يد شركة (التابلين) الأمريكية، في عهد محافظ الخط محمد أحمد السديري، وذلك في نهاية عام ١٣٦٩هـ، وكانت هذه المدينة أرضاً فضاءً، لا يوجد فيها أي عمران، مما أوجبَ على الحكومة السعودية في عهد وزير ماليتها السابق عبدالله السليمان الحمدان أن يُثبتَ نصاً في اتفاقيته مع (التابلين) على أن تقوم هذه

الشركة وعلى نفقتها الخاصة، بإنشاء مجموعة من البيوت المُشادة بالإسمنت المُسلَّح لعددٍ من كبار موظفي الدولة، وهم: القاضي، ورئيس ديوان الإمارة، ورئيس المالية، وأمين الجمارك، ومدير الشرطة، وأن تُجَهَّز هذه المساكن بكل ما يلزم لها من أثاث واحتياجات، مُضافاً إلى ذلك تخصيص سيارة صغيرة لكلِّ واحدٍ من هؤلاء الرؤساء خلال كل عامين، مع تأمين ما يلزمها من محروقات.

كانت المساكن هذه من حيث السِعة والمنافع والنموذج المعماري متماثلةً، وكان البيت الذي سكنتُ فيه ملاصقاً لبيت القاضي، وبُحكم الجيرة فضلاً عن العمل، فقد كانت تربطني بفضيلة الشيخ الوقور والصديق الحميم أحمد بن علي العمري ـ الذي عُيِّنَ قاضياً في عرعر في أواخر الثمانينات ـ صداقةً. وكنت يومياً أخرج معه، ومعنا أطفالنا الصغار، بعد عصر كل يوم، خارج مدينة عرعر، على طريق طريف، أو على طريق رفحة، أو على طريق سكاكا بمسافة لا تقل عن خمسة كيلومترات، أو عشرة في بعض الأحيان في مكان فسيح نختاره ليكون مجالاً للعب الأطفال ونشاطهم.

القاضي العمري يسمع بقصة الزوجين:

كُنَّا نقضي أوقاتنا في أحاديث متنوعة، كُلٌّ منا يروي للآخر عن مراحل حياته، وما مرَّ عليه خلال هذه المراحل من صاب وعسل، ومن شجون وشؤون، ومن ذكريات وطرائف. كان من ضمن الذكريات التي رويتها لصديقي فضيلة الشيخ أحمد بن علي العُمَرِي قضية زواج فاطمة محمد علي وعطية بن راشد، وَفْقَ التفصيل الذي سردته ضمن هذه الذكريات، وقد كان الحديث ذا شجون، وخُضنا فيه في نقاش نوراني مُنبعثٍ من قلوب ملؤها الإيمان بالله وصدق وعده.

انتقال القاضي العمري إلى محكمة جدة الكبرى:

كان ذلك في أواخر الثمانينات وأوائل التسعينيات الهجرية، ثم قُدِّرَ للشيخ أحمد بن علي أن يُنقل إلى محكمة جدة الكبرى، قاضياً في محكمة

المستعجلة فيها، وظلَّ فيها مدةً طويلةً، ثم رُفِعَ منذ سنوات معدودة إلى قاضٍ في هيئة التمييز وهو حال التاريخ، أي: ١٤١٨/٦/٢٦هـ، ولازال في مدينة الطائف أمدَّ الله في عمره، وأكثرَ من أمثاله وأحسنَ لنا وله العُقبى والختام.

كيف استطاع القاضي استدارجي للباحة:

في عام ١٣٩٨هـ تمَّت إحالتي إلى التقاعد، فانتقلت إلى جدة، وكان هو آنذاك لازال يعمل قاضياً في المستعجلة، وكنت أزوره باستمرار أثناء عمله في المحكمة، للصداقة المتينة التي نشأت وتوطَّدت على مرِّ الأيام، بحيث أصبح كلٌّ منا يُكِنُّ للآخر أصدق الوِدّ، وأعمق الاحترام.

في أحد أيام ربيع الثاني من عام ١٤٠٢هـ اتصل بي من بيته تليفونياً سائلاً إياي عما إذا كان يوجد لدي ما يستلزم بقائي في جدة أيام الخميس والجمعة والسبت من ذلك الأسبوع، أجبته بالنفي. وهنا عقَّب قائلاً: أنا لديَّ رخصة أربعة أيام سأزور خلالها والدتي وأسرتي الموجودة على بعد نحو خمسين كيلومتراً جنوب شرق مدينة (المخواه) المعروفة، فما رأيك أن ترافقني فيها؟ أجبته: أهلاً وسهلاً، إنني أَقبلُ بكل ترحيب وامتنان، أجابني بأنه سوف يمرّ عليَّ في باب مكة مقر إقامتي، في صباح الخميس المُبكر ليصطحبني معه في السيارة ثم نتوجه معاً إلى حيث يقصد.

كان هو السائق يقود سيارة وانيت جديدة، محمَّلة ببعض الأغراض وبكمية من أكياس الإسمنت لإصلاح دار والدته كما يقول. كان يرافقه شابٌّ يبدو أنه من معارفه، يبلغ من العمر حوالي ١٨ عاماً، وقد يكون هو السائق ولكن الشيخ أحمد فضَّل القيادة بنفسه.

غادرنا صباحاً مدينة جدة إلى الطائف على الطريق الذي يتجه إليه عن يمين الحديبية (المعروف بطريق النصارى) ثم واصلنا سيرنا إلى الطائف، فتناولنا طعام الغداء في أحد مطاعمه، ثم اتجهنا جنوباً على الخط الذي يمر بالباحة وبلجرشي ويستمر حتى خميس مشيط وأبها ونجران. كانت المدينة

الأولى التي مررنا بها بعد مدينة الطائف هي مدينة الباحة، الخطُّ إليها مُعَبَّد ويخترق المدينة من جانبها الشرقي، والمدينة في منخفض من الأرض أشبه بالوادي تتناثر على جوانبه بعض الدكاكين البدائية، التي تعرض أنواعاً من الفواكه ومن الخضروات، والاحتياجات المنزلية الأخرى، وهي على العموم بحالة بدائية متواضعة، وأعتقدُ أنَّ بيوت البلدة هي في غير هذا المكان الذي ذكرت، لأنَّ سطح المنطقة جبلي غير مستوي السطح.

البحث عن بيت عطية الغامدي:

عندما وَقَفَت بنا السيارة في سوق الباحة الذي ذكرته آنفاً لكي نأخذ بعض الفواكه من أول دكان أمامنا، إذا بالشيخ أحمد ـ عفا الله عنه ـ يبادرني بسؤالٍ مفاجىء قائلاً لي: أين الدكتورة فاطمة وزوجها؟ وكأنَّ حكايتي عن هذا الموضوع معه، منذ ما يقربُ من عشرين عاماً لازالت في ذهنه لم ينسها بعد، ولذلك أحبَّ أن يتأكد بالمشاهدة.

فوجئتُ بالسؤال الذي أبانَ لي أنَّ الشيخ أحمد ـ عفا الله عني وعنه ـ لم تبلغ القصة التي رويتها له عنهما حدَّ اليقين في نفسه، وإنما تقبَّلها مشوبةً ببعض الشك، فهذا يُوحي بأنّ طلبه مني في جدة أن أرافقه وأن نمرَّ معاً بمدينة الباحة وفيها بيت القصيد، إنما كان القصد منه أن يوقفني أمام الواقع، لكي أثبت له بالمشاهدة صحة ما رَويت. وبما أنني لم أَصل قط إلى مدينة الباحة قبل هذه المرة، كما أنني لا أعلم أين تقع قرية بني ظبيان التي يقيم فيها الزوجان في بلدة الباحة هذه، وإنما كانت كل معلوماتي من رسائلهم إليَّ هي أنهما في الباحة في بني ظبيان. لذلك فقد أسرعتُ ـ بعد أن سمعتُ سؤال فضيلة الشيخ ـ أسأل صاحب الدكان الذي نحن واقفين أمامه الآن، أسأله عن عطية بن راشد الغامدي: أين مسكنه؟ فأجابني بالنفي، وبأنه لا يعرف هذا الشخص، وبالتالي لا يعرف سكنه، فأسرعت إلى الدكان الآخر أسأله السؤال نفسه، والشيخ يتبعني، ترتسمُ على شفتيه ابتسامة لا أملك تفسيرها، ولكنها كانت بالنسبة لي أشبه بالمشرط الحاد، كان جواب صاحب الدكان الثاني سلباً كالأول، فأسرعت إلى الثالث فالرابع، والشيخ

يسير خلفي ويسمع أسئلتي والإجابة عليها. وهنا خطرت لي فكرة فسألت صاحب الدكان الأخير: هذا الشخص ـ أعني عطية بن راشد ـ كان موجوداً في لبنان وقد عاد منذ مدة طويلة إلى هذه المنطقة ومعه زوجة لبنانية، وهنا التفت إليَّ الشخص وسألني قائلاً: هي الدكتورة فاطمة، قلت: نعم، وهنا أوضح لي بأن مكان إقامتها مع زوجها تقع على بعد نحو ستة كيلومترات جنوب المكان الذي كنت واقفاً فيه على الشارع العام، ثم عليَّ أن أتجه على اليمين بنحو مائتي متر، ثم يقابلني منعطف على اليمين، يُفضي إلى مجموعة فِلل متجاورة وما عليَّ إلاَّ أن أتجه إلى هناك فأنادي باسم عطية، وسيسارع للقائي.

لقائي الحار بالغامدي وفاطمة:

اتجهنا حسب الوصف، وعند مدخل الممر الذي يفضي إلى الفلل، أوقَفنا السيارة الوانيت، ونزلنا أنا وفضيلة الشيخ، وناديتُ بأعلى صوتي: يا عطية بن راشد! وكان واقفاً بجوار شجرة كبيرة تبعد عن مكان وقوفي بنحو مائة متر تقريباً، وما كاد يسمع صوتي حتى أسرع يركض قائلاً بأعلى صوته: يا فاطمة... هذا عمي إبراهيم الحسون، فإذا بها تُسرع إليَّ راكضةً، وتصل إليَّ قبل وصول زوجها كاشفة الوجه، وإذا بها تضمّني بعنف إلى صدرها وتقبّل رأسي وخدودي وأكتافي، وفضيلة الشيخ ـ عفا الله عنه ـ على بُعد خطوات مني فاغراً فاه دهشةً مما يرى. وكأنَّ دهشته انصبَّت على جمال الفتاة التي كانت أشبه بالوردة المتفتّحة من قطرات نسمات الصباح العليلة، كانت جميلة حقاً، جسم ممتلىء، خدود متوردة، يكاد الدم يقطرُ من وجنتيها، عيون واسعة يكسوها هدب كثيف أسود، وهي في وضعها تمثل قمة النضج والصبا لأنها في ذلك الوقت قد جاوزت الثلاثين عاماً على ما أعتقد.

كان لقائي مع زوجها عطية قد تمَّ بالوضع نفسه والحرارة والوِد، التي لقيتها من فاطمة، وهنا أمسكت بيدي قائلةً لزوجها: اذهب بضيفك إلى المجلس وأسرع بالذبيحة، أما أنا فسآخذ عمي إبراهيم لكي أريه ما يثلج صدره ويملأ قلبه بالسرور. استأذنت من الشيخ بابتسامة عريضة هي ابتسامة

المنتصر بدون شك قائلاً له: دعني مع فاطمة، وها هو مضِيفك عطية شأنك وشأنه. ذهبتُ مع فاطمة إلى حيث الدار التي تسكن فيها، وإذا بنا ننزل عبر درجات قد تبلغ العشر إلى أسفل، وهناك كان العديد من الغُرف والمجالس. كانت تُطْلِعُني على ما تقتنيه من حُلي ورياش، وما تحتويه هذه الغرف من أرزاق وخيرات ماثلة في الفخم من الأثاث والأواني والملابس وكل ما يملأ القلب بهجةً.

وكانت خلال ذلك تحمد الله وتشكره وتخبرني بأنها تنفق الكثير مما أفاءه الله عليها من خير وفير، فهي تعالج الأُسر الفقيرة بدون مقابل، بل وتشتري لها الأدوية المطلوبة بدون مقابل أيضاً، مُضافاً إلى ذلك مساعدة مادية مُجزية، وأنا أُصَدِّقها كلَّ الصدق فيما تقوله، لأنها كانت تكرر على مسمعي أنَّ كل ما تنفقه يخلف على هؤلاء الفقراء والمساكين ليعوضها الله عنه أضاعفاً وأضعافاً، ويخلفه.

بطبيعة الحال نسيتُ عطية، ونسيتُ الشيخ، وظللتُ مع فاطمة تحدثني كثيراً وكثيراً عن نِعَم الله عليهم، وتشرح لي عن حياتهم السعيدة الهانئة التي لا يكدر صفوها مُكدِّر، ولا يشوبها منغِّص. وبينما كانت تتحدث إذا بي أسمع صوت عطية ينادي عليَّ بأنَّ الشيخ يطلبك، وهنا استأذنتُ منها متمنياً لها ولزوجها مزيداً من السعادة والتوفيق.

ذهبتُ إلى شيخنا في المجلس فوجدته متكِئاً على وسائد ناعمة من ريش النعام، وعلى أريكة تعلوها عدة بطائن من المخمل الفخم، وإذا بشيخي يبتسم في وجهي ويقول: لقد نصرَكَ الله عليَّ، فتبادلنا الضحكات، ومرةً أخرى اتجهنا بحديثنا إلى فضل الله ولطفه، وإلى أياديه ومِننه على من يشاء من عباده سبحانه وتعالى.

شمائل فضيلة القاضي العمري:

وقد أوضح لي الصديق أحمد بأنه لم يخامره أيُّ شك في صدق حديثي له عن هذا الموضوع، عندما حدثته عنه لأوّل مرة في مدينة عرعر، وإنما كما قال: إنه نظراً لأنَّ هذه القضية هي كرامة خارقة بدون شك فقد

أحبَّ أن يتأكد منها بالمشاهدة، حتى إذا رواها لغيره يكون شاهد حال لا ناقل خبر. وفضيلة الشيخ أحمد هذا، لاحتكاكي المستمر اليومي به، طيلة ثماني سنوات تقريباً معه، قضيناها في عرعر، نجتمع كل مساء مدة لا تقل عن ساعتين، كنا نتناقش، ونتجادل في موضوعات أدبية ولغوية ودينية، وكُنَّا نبحث في علوم الحديث، وفي علوم التفسير، وفي علوم اللغة والشعر. وعندما نختلف في موضوع أو في تفسير كلمة أو مصطلح، نرجع إلى الكتب المختصة في هذا البحث عند عودتنا في المساء، وعادةً يكون ذلك بعد صلاة العشاء، فنخلو معاً لوحدنا. كان هذا الصديق وأقولها بكل صدق، متمكناً ومحيطاً بما تعنيه النصوص الفقهية، مُلِمًّا بالكثير من آراء الفقهاء واختلافاتهم في كثير من المسائل الشرعية، والأحكام التي يلزم إصدارها وفقاً لمضمون تلك النصوص.

كان واسع الأفق، مرهف الحس، ذا عقلية لمّاحة ذكية، كانت أحكامه التي يصدرها بمنتهى الضبط والدقة والإحكام. كان بحكم اتصالنا المستمر قد آل الأمر به إلى أن يُطلعني على الكثير من القضايا العويصة التي يكون قد أصدر عليها حُكماً، وفق ما رآه متماشياً مع النصوص والقواعد المرئية. كانت ديباجة الحكم الذي يصدره على أعلى مستوى من الدقة والضبط والصياغة المُحكمة، والتسلسل المنطقي الواضح المتمشي مع مجريات القضية، وكان كثيراً ما يصدر منه حكمٌ، ثم تُعاد إليه القضية من قِبل هيئة التمييز في الرياض، بعد أن يكونوا قد أبدوا على هذه القضية بعض ملاحظات تتفق ومفهومهم للنص، الذي استند إليه في الحكم، بَيْدَ أنه كان صلباً قوياً، إذ يعيد المعاملة إليهم مرفقةً بشرحٍ وافٍ مُفصل، يُبيّن لهم فيه خطأ ما رَأوه وصواب حكمه. كانت المعاملةَ تدور أكثر من مرة، وكانت المحصلة الأخيرة، أن يُؤخذ بالحكم الذي أصدره، وأن تتلاشى جميع ملاحظاتهم واعتراضاتهم على الحكم، حتى أخذوا في النهاية يتحاشون إبداء الملاحظات على أحكامه، ويتقبلون هذه الأحكام بدون اعتراض.





الأيام التي عشتها في لبنان بعد خروجي من المَصح:

كان اليوم العاشر من شهر شوال من عام ١٣٧٢هـ يوماً خالداً في نفسي ونفس الصديق عطية بن راشد الغامدي وزوجه فاطمة محمد علي. كان يوم عُرْسٍ لنا جميعاً كما هو لمجموعة من زملائنا، سُمِحَ لهم بمغادرة المستشفى معنا في ذلك اليوم. وكما قلت: فإنَّ الصديق عطية بن راشد وزوجته لم يمكثا في بيروت بعد ذلك إلا مدةً وجيزةً غادراها إلى السعودية. أما أنا وزملائي الآخرين، الذين خرجوا معي في ذلك اليوم فقد انتقلنا إلى مخيم أُعِدّ لنا من قِبل وكيل المرضى السعوديين الشيخ سليمان عبدالله الغنيم.

مخيم المير لويس:

هذا المخيم عبارة عن مجموعات من الغُرف شُيدت بالألواح المضغوطة، وتستوعب ما لا يقلّ عن خمسين مريضاً. ويقع هذا المخيم في غابة من أشجار الصنوبر، تقع على بعد نحو خمسة كيلومترات من مدينة (حَمّانا)، على الطريق الذاهب إلى قرية (قرنايل) الواقعة على قمة الجبل، حيث يقع هذا المخيم، على يمين هذا الخط بنحو مائة متر تقريباً. وهو مجهَّز بأسِرَّة وفُرش ومطبخ، وفيه مجموعة من الخدم، بما فيهم طباخ ومعاونيه، كان هذا المخيم تُؤَمَّن احتياجاته اليومية من خضار ولحم،

ومستلزمات أخرى من قِبل الوكيل المذكور، ويطلَق عليه اسم مخيم الميرلويس، وخُصص لكُلّ مريضين حجرة واحدة.

والغرض من هذا هو أن يكون أشبه بدار نقاهة يقضي فيها المرضى الذين يُسمح لهم بمغادرة المَصَح بعد شفائهم. وموضع المخيم هذا اختيرَ بعناية ودقة من حيث جوِّه الصحي، ويقع على ربوة منبسطة تظلله أشجار الصنوبر الباسقة، ويقع على مقربة من منحدر الوادي الذي يحيط به من جهة الجنوب، وينحدر إلى مجموعة من القرى ينحدر بعضُها عن بعض.

كان الموجودون في هذا المخيم حين وصلت إليه، في حدود الثلاثين شخصاً، يتمتَّعون بصحة جيدة، ويتناولون وجبات محترمة من الغذاء الجيد، ويُشرف على خدمتهم وتلبية طلباتهم مجموعة من الممرضات.

كان السكن في هذا المخيم مريح وممتاز؛ لأنه يتيح للمريض الجو النقي والغذاء الجيد، والراحة الكاملة مع الهدوء التام. لكنه بالنسبة لي كان غير منسجم، وما أتطلع إليه، فهو يقيِّد حرية الشخص، بحيث يتوجَّب عليَّ أن أكون فيه بصورة مستمرة، طالما أنني مُسجل ضمن ساكنيه، يضاف إلى ذلك أنَّ المجموعة المتواجدة فيه من حيث مستواه الثقافي، تُشعرني بأنني غريب عن هذه المجموعة، إذ لا أجد من آنسُ به يُبادلني أو أبادله الحديث الذي يروق لي.

استئجار بيت شاكر في مدينة (حمانا):

ولذلك فلم أمكث في هذا المخيم أكثر من ثلاثة أيام فقط، انتقلت بعدها إلى بيت استأجرته يقع في مدخل مدينة (حمَّانا) مباشرةً، ويُعرف ببيت عبده شاكر، كانت تملكه امرأة في حدود الستين من العمر، لها ابنتان وولد واحد، استأجرتُ منها الطابق الأول المكوَّن من ثلاث غرف، وصالون استقبال، وغرفة طعام، ومطبخ، وحمامين.

اللقاء بالصديق إبراهيم الملّوحي:

في اليوم التالي لنزولي هذا البيت، التقيتُ بالصديق إبراهيم العبدالله

الملُّوحي، وهو مواطن عُنيزي، أعرفُ داره وأهله في مدينة عُنيزة قبل مغادرتي لها عام ١٣٤٤هـ.

كان الصديق إبراهيم الملُّوحي، قد خرج لتوِّه من مستشفى (البربير)، أحد مستشفيات بيروت الخاصة، ولذا فقد رَغِبَ السكن معي، فرحبتُ به، ثم انضمَّ إلينا في اليوم التالي صديق مصاحب له في مستشفى البربير، وخرج مثله لِتوِّه من ذلك المستشفى، وهو على ما أذكر يُدعى عبدالله السلُّوم وهو عُنيزي أيضاً، ولكني لم أعرفه من قبل، ولكن رابطة الانتماء بيننا جميعاً إلى أمنا عُنيزة جعلتني أوافق على سُكناه معي، استناداً على تزكية زميله إبراهيم الملُّوحي بالنسبة للجانب الخُلقي فيه.

الطباخة ماري:

كَلّفنا صاحبة البيت بأن تبحث لنا عن طباخة تقوم بخدمتنا وتهيئة وجبات طعامنا، وفعلاً أحضرت لنا في اليوم التالي امرأة في منتصف العقد الرابع من العمر تُدعى السيدة ماري، وهي حورانية المنبت، سورية الجنسية، مسيحية العقيدة، اتفقنا معها على أجر شهري قدره أربعمائة ليرة لبنانية، على أن تقوم بخدمتنا نحن الثلاثة من حيث القيام بالطبخ، وغسل الملابس وكيّها، وتنظيف الحجرة، أما أجرة هذا المسكن فهي في حدود أربعة آلاف ليرة لبنانية لمدة ثلاثة شهور.

لقاءات بالصديق سليمان الغنيم:

كان الصديق الشيخ سليمان العبدالله الغنيم، وكيل المرضى السعوديين، قد استأجر فيلا ذات ثلاث طوابق متسعة المساحة، تحيط بها مجموعة من الأشجار، وهي مؤثثة تأثيثاً فخماً، استأجرها ليقضي فيها مع عائلته صيف ذاك العام، كانت هذه الفيلا لا تبعد عن موقع سكننا أكثر من ثلاثمائة متر تقريباً. كنت أقضي أغلب أوقاتي ـ إذا لم أكن في زحلة مع زَميلَيْ في السكن ـ عند الصَّديق سليمان العبدالله الغنيم، حيث يتوافد لزيارته يومياً الكثير من فضلاء القوم من إخواننا السعوديين، سواء من كان منهم قادماً

لِتوِّه من السعودية، أو كان من السعوديين في مدن الاصطياف في لبنان.

التعرف على الشيخ محمد الإبراهيم السبيعي:

كان هذا التلاقي بين الجميع يُتيح تبادل الأحاديث والمناقشات والاطلاع على ما يجدُّ في الوطن من أمور أولاً بأوّل. وكان ضمن من سُعدتُ وشُرِفتُ بلقائه، عند الشيخ سليمان العبدالله الغنيم، المواطن السعودي، والتاجر المرموق المحترم الشيخ محمد الإبراهيم السبيعي، وهو غنيٌّ عن التعريف ـ أمدَّ الله في حياته ـ كان يأتي باستمرار إلى فيلا الشيخ سليمان الغنيم، ولا يمرُّ أسبوع أو أسبوعان دون أن ألتقي به في هذا المكان. وقد فهمتُ أن الصديقين سليمان العبدالله الغنيم ـ رحمه الله ـ ومحمد إبراهيم السبيعي ـ أمدَّ الله في عمره، وأحسن لي ولهما الختام ـ يرتبطان بصلة تجارية فيما بينهما، مع الملاحظة أنَّ محمد الإبراهيم السبيعي هو من مواليد ومواطني مدينة عنيزة.

أمضيتُ مع الصديقين الملُّوحي والسلُّوم مدة الصيف في السكن الذي ذكرت. كُنَّا كثيراً من الأوقات ننزلُ إلى (بيروت) ثم نعود إلى (حمَّانا) ظهراً، وقد يكون نزولنا إلى بيروت بعد الغداء مباشرةً، ثم تكون عودتنا إلى (حمَّانا) حوالي الساعة التاسعة ليلاً، وقد أمضينا الأمسية في إحدى دور العَرض في بيروت وفق الفيلم الذي يُعرض عنه في الصحف اليومية، والذي نرى أنَّ عنوانَه وموضوعه يشدنا لمشاهدته.

دار التربية الوطنية:

وكثيراً ما كُنا نستعيض عن ذلك بالذهاب إلى دار التربية الوطنية للاستماع إلى المحاضرات القيّمة التي تُلقى في تلك القاعة أسبوعياً، يحضرها عِلْيَةُ القوم، ونخبةٌ مختارة من قادة الفكر والمثقفين، كعمداء الجامعة الأمريكية والوزراء، وذوي الشهادات العليا من الوسط الثقافي في بيروت، مِمَّن أُتيحت لهم الدراسة في الغرب، وحصلوا على الشهادات العليا من تلك المدارس.

محاضرات دار التربية:

وكنت أنا بالأخص لا أسمح لنفسي بأن تفوتني واحدة من هذه المحاضرات، وقد يمضي عليَّ أسبوعان أو أكثر دون أن أدخل دار عرض، أما بالنسبة للمحاضرات فلا يفوتني شيء منها. وللحقيقة والتاريخ فإنَّ هذه المحاضرات يتولاُها عادةً نخبة متميزة من المفكِّرين، وممن أُتيحت لهم ثقافة واسعة في فنون متعددة من فنون المعرفة، وقد كان من شأن تلك المحاضرات أنَّ مَن لم يبادر بالحضور إلى مقعد القاعة قبل بدء موعد المحاضرة بنحو ساعة، أو ساعتين على الأقل، لن يجد له مكاناً، وبالتالي يظلُّ واقفاً طيلة المدة، أما أنا فقد كنت أحضر إلى هذه القاعة فور فتح المسؤول عنها لأبواب القاعة، كانت المحاضرة تتم على النحو الآتي: عندما يكتمل الحضور، يأتي المُحاضِر ليقعد على كرسيه، أمامه الميكروفون، وطاولة صغيرة عن يمينه عليها كوب من الماء، يأتي بعد ذلك عريف الحفل، فيقدِّم المُحاضِر، بعد أن يُعلن عن عنوان المحاضرة، وطبعاً هذا تحصيل حاصل، لأنَّ كلَّ واحدٍ من الحضور يكون قد عرفها عن طريق الصحف اليومية. يقدِّم العريف المحاضرة، معطياً فذلكةً مختصرةً عن مراحل حياته، وعن حصيلته العلمية، والشهادات العليا التي حصل عليها مع ذكر نشاطه العلمي، إذا كان له نشاط ماثلاً في أسماء ما أصدره من كتب ومؤلفات علمية، مع إيضاح العمل الذي يزاوله المُحاضِر.

طريقة إلقاء المحاضرة:

يشرعُ المُحاضِر في إلقاء محاضرته بصوت هادىء، وعبارات قوية، ولغة عالية، وأداء بمنتهى الروعة، بحيث يُحسُّ السامع أنَّ في وِسعه أن يعدَّ حروف الكلمات أثناء خروجها من فم المُحاضِر، كانت طريقة الإلقاء أخَّاذة حقاً، تجذب السامع إليها جذباً بدون إرادته، إذ يتميَّز الإلقاء بأنَّ المحاضر يصبغ ويُلَوِّن العبارات التي تنطلق من فِيه على حسب الصورة والجرس الذي يرغبه، فتراهُ يُطلق العبارة الحماسية بنبرة قوية ذات جرس مُشْتَعِلٍ، تكاد تتفاعل قوةً بعد انطلاقها من فمه، بينما ينطق عبارةً أخرى يكون مضمونُها

متعلّق بمأساة أو ألم أو خوف أو رهبة أو حسرة أو أسى تنطلق بصوتٍ حزينٍ، يأخذ بمجامع القلوب، يشدُّها عند النطق، فتُسمع نغمةً حزينةً تنفذ إلى شغاف النفس وأعماقها، ثم تأخذ بالتلاشي والضياع. وبالجملة فإنَّ تلك المحاضرات كانت أشبه بمدرسة بعيدة الأثر، يحسن بكل مَن أُوتيَ ولو قِسطاً يسيراً من الثقافة ألاَّ يتركَ حضورها إذا كان ذلك في إمكانه.

موضوعات المحاضرات:

كانت المحاضرة عادةً تكون في موضوعات اجتماعية حساسة من واقع المجتمع الحاضر، وتارةً تكون في أحداث تاريخية مهمة، كانت لها معالم بارزة في تغيير مجريات التاريخ وحياة الشعوب. كان المُحاضر عندما ينهي محاضرته، تُقدَّم إليه مجموعات ضخمة من أوراق صغيرة يقدمها إليه الحاضرون الذين استمعوا إلى محاضرته، متضمنةً أسئلتهم وملاحظاتهم على ما جاء في محاضرته.

الإجابة عن أسئلة الحاضرين:

كان يجمع تلك الوريقات على طاولة موضوعة أمامه، ثم يبدأ بالإجابة عليها ورقةً ورقةً، موضحاً بعبارات صريحة لا تقبل اللبس أو التأويل على كل ما جاء في ورقة الاستفسار. وكان هذا التعقيب منه يستغرق من الوقت ضعف ما يستغرقه وقت المحاضرة، وكان الجمهور يستفيد بكل التأكيد من هذا الشرح المفصَّل المستند على الوقائع والنصوص إن استلزم الأمر ذلك.

تبادل الرأي والمناقشات:

عندما تنتهي الأسئلة، يغادر المُحاضِر مكانه، ثم يتحلَّق جمهور الحاضرين على هيئة مجموعات تتكون من اثنين فأكثر، يتبادلون الرأي والمناقشة فيما سمعوه من المُحاضِر، بعضهم مؤيّد وبعضهم معارض، وهكذا يدخلون في نقاشٍ حادٍ، تتشعَّبُ فيه الأفكار والآراء مما يُثري عقل المستمع في ثقافةٍ متميزةٍ قد لا تعادلها قراءة عشرات الكتب.

صيف وادع هانىء:

قضيتُ وزميليَّ في المسكن (إبراهيم الملُّوحي، وعبدالله السلُّوم) أشهر صيف ذلك العام في حياةٍ وادعةٍ هانئةٍ، يسودها ودٌّ صادق، واحترام متبادل. كان كلٌّ منا مطلق الحرية يذهب أين شاء، ويتجه حيث أراد، بدون أن يتقيَّد بالآخرين، وكُنا صباحاً على مائدة الإفطار نتشاور إذا كان في وسعنا هذا اليوم أن نذهب معاً إلى مدينة معيّنة، أو مَعْلَم تاريخي من معالم لبنان، وفي كثير من الأوقات نتفق على رحلة نقوم بها هُنا وهناك، ومع أنَّ هناك تبايناً واضحاً بيني وبينهما من حيث الأمزجة، إذ كنت أحرص أشدَّ الحرص على مشاهدة أيِّ بقعة أو مكان أو أثر له سِمَة تاريخية، وأحرص على أن أصل هذا المكان لأشاهد الموقع على الطبيعة، بينما زميليَّ لا يهتمان بمثل هذه الأمور، ففي الغالب الأكثر يختاران النزول إلى بيروت للالتقاء ببعض معارفهما ممن يكونوا فيها، أو في مدن الاصطياف القريبة منها، كأبي رمانة وبحمدون وعاليه، وغيرها من المصايف المعروفة في لبنان.

الحفلات الليلية:

أما في الليالي وخاصةَ في الليالي المُقْمِرة، فإننا كُنَّا نحن الثلاثة نقضيها في ملهى شاغور حمَّانا، أو في رويسات صوفر، أو في بحمدون، أو في عاليه، حيث تُقام الحفلات ليلياً في هذه الأماكن طيلة أيام الصيف، يعلنُ عنها في الصحف اليومية، ويحضرها جمهور كبير من مختلف البلاد العربية وغيرها.

كُنَّا نذهب سوياً بعد المغرب مباشرة، ونعود إلى منزلنا في حوالي الساعة الثانية عشر تقريباً في كل ليلة، حيث نتناول وجبة العشاء، إن لم نكن قد تناولناها في أحد المطاعم، وخلال النهار إذا كنا في (حمَّانا) فكثيراً ما نتناول طعام الغداء على نبع الصفا.

حرصي على زيارة الأماكن والآثار التاريخية

في بادىء الأمر كانوا يُبدون لي رغبة ملحّة في مرافقتي لمشاهدة الموضع الذي أكون قد اخترتُ زيارته لذلك اليوم، كنت أذكر لهم اسمه ومكانه خلال تناولنا وجبة الإفطار، ولكن ابتدأ حماسهم هذا يضعف شيئاً

فشيئاً، وقد أحسستُ بذلك حينما لاحظتُ رغبتهم في الانصراف الفوري من الموقع الذي كنا نقصده حال وقوفنا عليه، بينما كنت أنا أحرص على التأني والبحث عن كل ما يتعلّق بهذا الموضوع. ولذلك فقد وجدتُ من الأفضل أن أصارحهم، بأنَّ مرافقتهم لي هي من نوع العبث وإضاعة الوقت بالنسبة لهم، لأنهم لا يهتمون بمثل ما أهتم به، ولا يشاركونني اللذة النفسية التي أُحسها عندما أقف على الموضع، أستقصي خبره، وأُلِمّ بموضوعه. وعلى ذلك اتفقنا بأن لا يتقيَّد أحدنا بالآخر، وسأقوم وحدي بالرحلات التي أرغب زيارتها.

رحلتي إلى مدينة بعلبك:

وقد كانت أول رحلة بعيدة المسافة، قمتُ بها بعد هذا التفاهم، هي رحلتي إلى مدينة (بعلبك) المدينة التاريخية، التي تقع في أقصى الشمال الشرقي لسهل البقاع، والتي ظفرت بمساحة ضخمة من سجلات التاريخ. ولعدم زيارتي لهذه المدينة ومعرفتي بها فقد استأجرتُ أحد سائقي التكاسي في مدينة (حمّانا) على أن يكون مرشداً لي في الوقت نفسه على آثارها التاريخية، وقد اتفقتُ معه بأجرة قدرها، على ما أذكر بحدود أربعين دولاراً أمريكياً، على أن يذهب بي إليها ويعيدني إلى (حمّانا) في آخر اليوم.

كانت المسافة بين حمّانا وبعلبك تزيد على مائة وعشرين كيلومتراً تقريباً، وهذا على وجه الظن، لأنني غير متأكد من ذلك، فقد تكون أكثر من هذه المسافة، ولكن لا أظنها أقلّ من ذلك.

التعرف على مدينة بعلبك:

وصلنا بعلبك، أَوقفَ السائق سيارته في جانب من الطريق، ثم ذهبنا معاً نتجوّل في أسواق المدينة وأزِقتها، نشاهد مظاهر الحياة فيها، ومظاهر العمران، وطراز المباني وَسِعة رقعة المدينة، وما فيها من معالم حضارية كالمعارض، والأسواق التجارية وغيرها. نتجوّل ونشاهد ونتأمّل، ونستعرض

التاريخ لهذه المدينة العريقة الخالدة، التي طوت في أعماقها قروناً وحِقباً من التاريخ، تمثلت في حاضرة الرومان، ومَن سبقهم من ملوك، وأجيال الشعوب المتعاقبة التي نشأتْ وحكَمَتْ، ثم بَادَتْ في هذه الديار، ثم يعود بها التاريخ إلى عصرها الذهبي حينما رفرفت على مباني قلعتها الخالدة، لأول مرة في التاريخ راية التوحيد خفاقةً تُعلن للملأ في بقاع الدنيا أن لا إله إلا الله محمد رسول الله.

ظللتُ وسائق التاكسي المرافق معي نتجوَّل طيلة ذلك النهار، مشياً على الأقدام، نجوب شوارعَها وأزقتها، ونشاهد ساحاتها وحدائقها. نتفرَّج على المساجد واحداً بعد الآخر، ونطوف على المدينة لنشاهد أرباضها الخارجية، نحاول التعرُّف على امتداد نمو العمران فيها في أزمنتها الغابرة وعصورها الذهبية، عندما كانت في ميعة الصبا وعنفوان الشباب.

رأس العين:

ثم اتَّجهنا بعد ذلك وكان الوقت قد قارب الثالثة بعد الظهر إلى مطعم شعبي هناك يقع جنوب البلد على ما أعتقد، وبجواره عين جارية ويسمّى المكان رأس العين.

مسجد المدينة القديم:

وعلى مقربة من هذا المكان بمساحة لا تزيد عن بضعة أمتار جنوب الموضع الذي كنا جالسين فيه، كان هناك مسجد مبنيّ بالحجارة، بناءً محكماً، ولكنَّ تعاقب السنين وتوالي الدهور قد نالت منه، فتهدَّمت سقوفه، وظلت أنقاضها في داخل المسجد، وعلى باب هذا المسجد آياتٌ قرانيةٌ، لا أذكر نصَّها الآن، وعلى مدخل باب المسجد بالإضافة إلى الآيات القرآنية عبارة تدلُّ على تاريخ إنشاء هذا المسجد وأرقامُها أكثرها قد انْمَحَى، ولكن يبدو أنَّ تاريخها يشير إلى منتصف القرن السادس الهجري، أي في عهد بطل الإسلام الخالد يوسف بن أيوب السلطان صلاح الدين تعمَّده الله برحمته.

جهل أهل بعلبك بتاريخ مدينتهم:

بُعيد تناول الغداء في هذا المطعم على حافة العين، وكان بجواري مجموعة من مواطني مدينة بعلبك، تتفاوت أعمارهم ما بين فتى وشاب وشيخ وكهل، كنت أستدرجهم للحديث معي، وأحاول أن أستفيد، وخاصةً من كبار السِّن، بما قد يوجد لديهم من معلومات تتعلَّق بتاريخ بلدهم. بَيْدَ أن معلوماتهم جميعاً في هذا المجال هي صفر مُكعب، وقد يكونون معذورين، لأنهم كلهم على حسب ما رأيت لم تُتَح لهم فرص التعليم، بل هم أناس بُسطاء ثقافتهم بدائية بكل ما تعنيه هذه الكلمة.

صروف الدهر ومحن الحروب:

مدينة بعلبك حسب ما شاهدت ورأيت، مدينة قد نالت من الحضارة والرقي، ومن سَعَة العمران وانتشاره النصيب الأوفر، بلغت من الازدهار والنمو الاقتصادي والعمراني شأواً لم تبلغه مثيلاتها من مدن البقاع. ولكنَّ صروف الدهر، ومِحن الحروب، وويلات الفتن، التي تعاقبت على هذه المدينة قد نالت من كبريائها، وثلَّت عرش مَجدِها، كما تدلُّ عليه المئات من المباني والدور التي لم يبقَ منها سوى الأنقاض، ويدلُّ عليه تنوُّع فن العمارة فيها، بحيث يبدو طرازها فريداً مُحكماً غاية الإحكام، وكذا مساجدُها الكثيرة والواسعة، وقد هُجِرَ أكثرُها، ولم يبقَ منها ما تُمارَس فيه الشعائر الدينية إلا القليل الأقل.

أما في بعض العصور الإسلامية فقد بلغت في عهد ولاية والد السلطان صلاح الدين أعظم أمجادها لأنَّه في عهد السلطان محمود نور الدين الشهيد، كانت البلاد الشامية ومن ضمنها لبنان تتمتع بقسطٍ من الرخاء والازدهار، وظلت طيلة حياته منعَّمة بالأمن والأمان.

زيارة قلعة بعلبك:

كانت الساعة آنذاك حوالي الساعة الخامسة بعد الظهر، وكان مواطني مدينة بعلبك، الذين تحدثتُ إليهم، كما شرحت آنفاً، يحثّونني ويشوقونني

إلى زيارة قلعة بعلبك، وهي القلعة التي امتلأت أسفار التاريخ بالحديث عنها. وكنت أختزن في ذاكرتي معلومات عنها متناثرة خلال قراءاتي المستمرة، وكنت مُقرراً في نفسي زيارة هذه القلعة، ولكنَّ الزيارة قد تكون عابرة، أما وقد سمعت من هؤلاء البعلبكيين الكثير عما تحتويه هذه القلعة من عجائب وغرائب، فقد رأيتُ من الأفضل أن أخصِّص لها يوماً كاملاً، حتى أُلمّ بخبرها وما تحتويه.

فندق فيلا خيَّام:

سألت أحد الحاضرين، عمَّا إذا كان يوجد في مدينة بعلبك فندق أو بنسيون، فقال لي شاب: هُنا يوجد فندق يسمّى (فيلا خَيَّام)، وأشار إلى الفندق بيده. وكان قريباً جداً من مكان جلوسنا، وذهبتُ مع الشاب لأتفقد وضع هذا الفندق على أي مستوى، فإذا به لا بأس به من حيث الأثاث والنظافة والحديقة المحيطة به، ومظهر خدم العاملين به، ويمكن اعتباره من فئة الدرجة الثانية، وقد شاهدتُ هذا الفندق أو الفيلا كما تُسمّى مملؤةً بالسُيَّاح من مختلف الأجناس، ولاحظتُ أنَّ الصالون الذي يلي مدخل هذا الفندق مباشرةً فيه ما لا يقلّ عن ثلاثين شخصاً من مختلف الجنسيات.

سألت صاحب الفندق، وكان رجلاً أشيبَ الشعر، تبدو عليه علامات الشيخوخة المُبكرة، والمظهر الجَديّ الحازم، سألته: عما إذا كانت لديه غرفة شاغرة؟ أجابني بالنفي، مضيفاً أنّ واحدةً من الغرف ستخلو غداً الساعة الثانية عشر ظهراً، فطلبتُ منه أن يحجزها لي، ونقدته ثلاثمائة ليرة لبنانية تحت الحساب، دون أن أعرف أجرة الغرفة، معلناً له أنني غداً بمشيئة الله سأكون عنده ظهراً.

العودة إلى (حمّانا):

سَجَّل اسمي وأعطاني إيصالاً بالمبلغ، ثم عُدت بالتاكسي المرافق لي إلى حمَّانا، فوصلتها حوالي الساعة الثامنة والنصف مساءً، وقد وجدت زميليَّ إبراهيم الملُّوحي وعبدالله السلُّوم في حالةٍ من القلق والخوف

والجزع، لأنهم وقد غربت الشمس ظنوا أنني لن أعود؛ لأنني سبق أن ذكرت لهم أنني سأكون عندهم بمشيئة الله عصر ذلك اليوم، ولكن تأخري إلى هذا الوقت مع ما كان يُشاع وتتناقله الألسن أن طريق بعلبك محفوف بالمخاطر أقلقهم، ولكنَّ الله سَلَّم.

بعد أن أوصلني السائق إلى مدينة (حمَّانا)، طلبتُ منه أن يأتي إليَّ في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي. أَويتُ إلى الفِراش مبكراً في تلك الليلة، نظراً لتجولي عدة ساعات في مدينة بعلبك. في صباح اليوم التالي حضر صاحب التاكسي، وكان هو من مواطني مدينة (حمَّانا) يُدعى أبو مرزوق، أفهمتُ زميليَّ إبراهيم الملُّوحي وعبدالله السلُّوم بأن لا ينتظرا عودتي هذا اليوم، فسوف أتأخَّر في مدينة بعلبك، وربما أقضي فيها أربعة أيام على الأقل، فلا يقلقا لتأخري في العودة، مُفهماً إياهما أنني سأقيم في فندق هناك يُدعى فيلا خَيَّام، وأنني قد حجزتُ إحدى الغرف، ودفعتُ مبلغاً على الحساب، وهدفي من ذلك أن أبقى في مدينة بعلبك، أُغادي كلَّ صباح قلعتها الخالدة وأُماسيها، حتى أستطيع أن أروي عطشي عن تاريخ هذه القلعة المعجزة التي لم يُذكر لبنان قط في التاريخ إلاَّ وذُكرتْ هذه القلعة في قائمة معالمه الخالدة.

التوجّه إلى بعلبك:

غادرت (حمَّانا) متوجِّهاً إلى بعلبك، لا يوجد معي أحدٌ في السيارة، كنت أنا والسائق، وقد وصلتُ المدينة حوالي الساعة العاشرة والنصف صباحاً. نزلتُ في فيلا خيَّام، وبطبيعة الحال فإنَّ الغرفة التي أشار إليها بالأمس صاحب الفندق لم تخلُ حتى تلك الساعة، وإنما ستكون مُعَدَّة لاستقبالي في تمام الساعة الثانية بعد الظهر، ويكون نزيلها قد أخلاها.

كنت أحمل معي شنطتي الصغيرة، تحوي ملابس النوم، وروب الحمام، وبعض الأغراض، أودعتها عند مسؤول الاستقبال في الفندق. ونظراً لأنَّ مرافقي سائق التاكسي على معرفة سابقة بالقلعة، وكان يحدِّثني عنها أثناء سيرنا في اتجاه بعلبك؛ فقد رأيت أنَّ من الأفضل أن أذهب الآن

إلى القلعة، ريثما يتمّ إعداد الغرفة وتجهيزها، بدلاً من الانتظار في صالون الفندق.

أمام قلعة بعلبك:

ذهبنا إلى القلعة أنا والسائق بسيارته، وقطعنا نحو ثلاثة كيلومترات تقريباً حتى وصلناها، وكانت تقع فيما يُخيّل إليَّ الآن في الشمال الغربي للمدينة. وقفنا أمام الباب الضخم، باب القلعة وهناك موظف مختصّ يتولّى تقديم تذاكر الدخول وهي أوراق حكومية مطبوعة، على هيئة إيصالات صغيرة الحجم، وأعتقد أنَّ قيمتها ـ إنْ لم تخنِّي الذاكرة ـ في حدود ليرتين لبنانية، إنْ لم تكن أكثر، ولا يُسمح بالدخول لِمَن لا يحمل هذه التذكرة، أخذتُ تذكرتين لي وللسائق، ثم جلسنا في ممر واسع ضخم تعلو جدرانه مسافة لا تقلّ عن مترين ونصف أو ثلاثة من الأحجار البالغة الضخامة، التي قد يزيد وزن البعض منها عن أربعة أطنان.

التجوُّل داخل القلعة:

تجوّلنا داخل هذه القلعة بين غرفها وسراديبها وممراتها، ومُدرّجاتها الضخمة، ومنشآتها المتعددة من الغرف الضخمة والمذابح التي كانت تُتَّخذ لاستقبال ذبائح الآلهة التي كانت تُعبد آنذاك في عهود متقدِّمة حين تمَّ إنشاء هذه القلعة.

ظللنا نتجوَّل قرابة ساعتين مبهورَين مندهشيَن بما نرى ونشاهد من مظاهر القوة وعظمة الحضارة، ومقدرة الإنسان على صُنع العجائب المدهشات.

العودة إلى الفندق:

بعد أن أخذ منا التعب مأخذه، عُدنا إلى الفندق، فتناولنا طعام الغداء، ثم أَذِنتُ للسائق بالعودة بعد أن نفحته بالمبلغ الذي أرضاه.

أَويتُ إلى الفِراش بالغرفة التي قد أُعِدت وجُهزت، ووُضعتْ شنطتي فيها، وقد قرأتُ على اللوحة المثبتة فوق باب الغرفة من الداخل أنَّ أجرة

الغرفة في اليوم والليلة هي مائتي ليرة لبنانية علماً بأنها ذات سرير واحد، ولكنه سرير متميز في شكله وفَرْشِه، وملحق بالغرفة حَمام فيه بانيو ومُلحقاته ومجموعة من المناشف والصابون المعطَّر.

نزلاء الفندق:

أويتُ إلى الفراش بعد أن أديتُ فريضتَي الظهر والعصر قصراً وجمع تأخير، وبعد نحو ساعة استيقظتُ ونزلتُ إلى صالون الفندق. وقد وجدته مزدحماً بالنزلاء أشبه ببرج بابل من مختلف الجنسيات، من غربيين وشرقيين، وكأنه خلية نحل، فتسمع هذا يتكلم بالفارسية، وآخر بالإسبانية، وثالث بالإنجليزية، ورابع بالهندية، وهكذا... رغم أنه يوجد من ضمنهم مجموعة من العرب، الذين كنت أسمع أحاديثهم يتكلمون اللغة العربية فيما بينهم، ويبدو من ملامح وجوههم أنَّ منهم مَن ينتمي إلى الشمال الإفريقي كتونس والجزائر والمغرب، ومنهم مَن ينتمي إلى مصر أو العراق أو إمارات الخليج.

صحف بيروت اليومية:

لم أجد في نفسي رغبة بالاتصال بأحد، وإنما وجدتُ مجموعة ضخمة من أعداد صحف بيروت اليومية لذلك اليوم، وكان منها على ما أذكر جريدة النهار لغسان تويني، وجريدة الأنوار، وزميلتها مجلة الصياد لسعيد فريحة، وجريدة بيروت لمُحيي الدين النصولي، وجريدة بيروت المساء لعبدالله المشنوق، وجريدة الشرق لخيري بعلبكي، وجريدة العمل لبيار الجميِّل، التي كانت لسان حال حزب الكتائب آنذاك، ومجموعة كبيرة بما فيها مجلة الأحد الأسبوعية التي كان يصدرها رياض طه، وكانت في تلك الأيام ما تكاد تنزل الأسواق حتى تتخاطفها الأيدي، لأنها كانت شُعلة من الحماس للقومية العربية، وللشعور القومي العربي الذي هبَّ من نومه فجأة مستجيباً لنداء «جمال عبدالناصر».

قراءة هذه الصحف:

أخذتُ هذه المجموعة معي، وكان في أحد جوانب حديقة الفندق

مجموعة من الكراسي المُريحة التي تُمكِّن السائح بأن يتَمدَّد عليها، أو يجلس مستقيماً، وهي عادة تتكاثر في منتزهات السواحل وعلى ظهور السفن، أخذتُ راحتي على هذا الكرسي.

مجلة الأحد والصياد:

أخذتُ ألتهم قراءة هذه الصحف بادئاً بمجلة الأحد ومجلة الصياد، وكان الأستاذ سعيد فريحة يكتب افتتاحية كل عدد منها تحت عنوان (من الجعبة) كان أسلوبه شَيّقاً جذاباً ساخراً، يشدُّ القارىء إليه؛ لأنه يتناول أحداث الساعة الجادة ذات التأثير في مَجْرىٰ دنيا العرب، فيصوغها بأسلوب أشبه ما يُوصف بأنه وخز الإبر بأسلوب سهل ممتنع كما يقال.

جريدة العمل الكتائبية الحاقدة:

ثم تليها جريدة العمل وهي جريدة كان كل حرف من حروفها يقطر حقداً على العرب وتراث العرب وأمجاد العرب، وكل سطرٍ فيها تلمسُ فيه الوقاحة الساخرة والشتيمة البذيئة وكلها موجهة للعرب، وفي مقدمتهم حكومة ووزراء وقادة الرأي في لبنان، مستغلة بذلك حرية التعبير التي كان لبنان ينفرد بها دون بقية شعوب العالم العربي.

جريدة النهار:

أما جريدة النهار وصاحبها غسان تويني، وهو أرثوذكسي العقيدة، كما أَعتقد فهي جريدة جادة جريئة في نهجها، متميزة بأسلوبها، يكتبُ فيها كُتّاب ذوو ثقافة عالية، ولذلك فقد كانت هذه الجريدة تحظى باحترام مرموق في عالم الصحافة العربية.

جريدة الحياة:

كذلك من الصحف البارزة آنذاك في بيروت هي صحيفة الحياة لصاحبها كامل مرُوة، وهي بحقّ جريدة كانت تُعنى بمشاكل العالم العربي

فأخذها مني بحجة أنه سيُتلفها سراً لأنه ـ كما يزعم ـ لا يتعاطى مثل هذا النوع من المخدرات، ولكنه خِدنٌ مُحيّاهُ مُدْمِنٌ على مصاحبة بطحة العرق، ويبدو لي أنَّ أبا طنّوس هذا غير صادق في زعمه أنه سيُتلفها، وإنما سيستنشق عبيرها عبر خياشيمه.

العودة إلى (حمانا):

عُدت إلى (حمَّانا) ضمن ركاب إحدى الحافلات، التي كانت تنقل الركاب ما بين بعلبك وبين بيروت، حيث اتفقتُ مع سائق الحافلة أن يُنزلني في مفرق حمَّانا، الذي ينطلق من (المديرج) ونزلتُ من الحافلة عندما وصلتُ إلى هذا المكان، واتجهتُ إلى حمَّانا في انحدار مستمر كما يعلم مَن زار هذه المدينة، اتجهتُ سيراً على الأقدام، لأنَّ المسافة ما بين المفرق هذا ومدينة حمَّانا لا تتجاوز ثلاثة كيلومترات على أكبر تقدير.

الفندق العربي لصاحبه كامل بلُّوط:

أمضيتُ والإخوة إبراهيم الملُّوحي وعبدالله السلُّوم بقية أشهر الصيف، حيث سافرا هما إلى المملكة بينما أنا بقيتُ في بيروت مُقيماً في الفندق العربي الذي يملكه الأخ الصديق والخفيف الروح، المَرِح أبو أمين (كامل بلُّوط)، وهو بالمناسبة مدير هذا الفندق المكوَّن من طابقين فقط، مجموع غرف الطابق الأول ست غرف، والثاني أربع غرف بما فيها منافعهما المعتادة. كان هو وزوجته أم أمين يقومان بخدمة نزلاء هذا الفندق.

سبب اختياري لهذا الفندق:

وقد اخترتُ هذا الفندق وفضَّلته على غيره من فنادق بيروت، فقد قُدِّر لي أن أدخله لأول فترة زائراً لأحد أصدقائي الذي كان مقيماً فيه بعد حضوره من المملكة رأساً، وهو الصديق صالح الزامل، فضَّلته لعدة أسباب منها: إنَّ نزلاءه كلهم من مواطنيَّ إلا ما نَدَر، وأنَّ هذا الفندق يكاد يكون خاصاً بالسعوديين دون غيرهم. يضاف إلى ذلك أنَّ إدارته إدارة حازمة لا

تسمح بأي وجه من الوجوه بما يُشْتَمُّ منه مجافاة الأخلاق أو إساءة السلوك، أو قبول من يُظن فيه خروج على السلوك السويّ. مضافاً إلى ذلك موقعه المتميِّز في قلب بيروت على حافة ساحة البرج، مما يتيحُ لي استقبال جميع الصحف تقريباً في صباح كل يوم، وذلك بعد أن اتفقت مع باعة الصحف على أن يوافيني كلٌّ منهم في كل صباح، فأختار مما معه مجموعة من الصحف التي تروقُ لي عناوينها، وقد تبلغ أربع صحف أو خمس، ويعود إليَّ بعد ثلاثة ساعات ليستلمها مني مقابل أن أدفع له ما يساوي نصف قيمتها أو أقل حسب الاتفاق. وفوق ذلك كله فإنَّ أبا أمين ـ صاحب الفندق ـ إنسان تميَّز بحلو الحديث وطرافة النكتة، وبشاشة المحيّا ورفعة الذوق، فهو يشدُّ سامعه إليه بما يُسمِعه من نُكت وطرائف ومرح، يشدُّ جليسه إليه أطول مدة ممكنة.



السائدة آنذاك، وتعالج تلك الأحداث بعمق وشمولية يكتبُ فيها كُتّاب متميزون، في مقدمتهم صاحب الجريدة نفسه كامل مرُوة، وكانت باتجاهها العربي لساناً معبّراً أو مدافعاً عن الحكم في بغداد.

كانت زيارتي الأولى لبعلبك قد أقنعتني بإنَّ زيارة خاطفة كهذه ليست بذات جدوى، ولذا فإنَّه من الأفضل أن أواصل جولاتي فيها عدة أيام، أستقصي خبرها، وأُنقّب عن تاريخ بُناتها وعن تفصيل ما تحتويه بين جدرانها من منشآت عملاقة ضاربة في القِدم، يوحي كل جزء منها بالمستوى الحضاري الذي بلغه بُناتها في تلك العصور السحيقة.

أربعة أيام في بعلبك:

ظللتُ أربعة أيام متوالية أغاديها وأُماسيها كل يوم، بدءاً من اليوم الثاني من زيارتها، وذهبت صباح ذلك اليوم مشياً على الأقدام، مررتُ بموظف باب القلعة واستلمتُ منه تذكرة الدخول بعد أن نقدتُه قيمتها، وكذا فعلتُ في مساء اليوم نفسه، وفي بقية الأيام التي ظللتُ أتردد خلالها عليها.

أفواج السيَّاح المتلاحقة:

كانت هناك أفواج متلاحقة من سوَّاح العالم تأتي يومياً جماعات جماعات يتلو بعضها بعضاً، حتى أنّه في بعض الأيام تكاد تغصُ ساحتها الواسعة بجماهير السُيَّاح. وبما أني كُنت لا أُجيد لغة أجنبية لكي أشارك السُيَّاح فَهْمَ ما يشرحه المُرشد السياحي الرسمي وزملاؤه داخل القلعة صباح مساء، يتولّون استقبال السُيَّاح ويتجوَّلون بهم على حجرها ومنشآتها وعجائب بنائها، فقد سألتُ المرشد اللبناني: إذا كان يوجد مَن زملائه من يقبل بمرافقتي لكي يشرح لي باللغة العربية ما أسأله عنه، بَيْدَ أنه اعتذر عن إمكانية ذلك بحجَّة أنه من المتعذّر تخصيص مُرشد مستقل لنفرٍ واحد، نظراً لكثرة السُياح الذين يستوعبون جميع المُرشدين.

لم يكن في وِسعي أن أناقشه في الموضوع بعد أن أصرَّ على موقفه، رغم أنني أشعرته بأنني إن كنت فرداً فإنني سأدفع له مبلغاً محترماً يرضيه، ولكن يبدو أن العِلة في هذا الرفض هو أن أي مُرشد سيتناول مبلغاً محترماً

من كل فرد من هؤلاء السُيَّاح تكون حصيلته أضعاف أضعاف ما سأدفعه له، حتى ولو تقمَّصت جلد حاتم الطائي.

تجوُّلي في القلعة بمفردي:

ظللتُ أتجوَّل بمفردي، وأشاهد هذه القلعة الضخمة التي تكبرُ عن الوصف، ويضاعف من بنائها المدهش أنها شُيِّدت في قرون سحيقة قد لا تقلّ عن ألفي عام إذا لم تزد على ذلك بكثير، حيث لم أجد في المصادر التاريخية نصّاً يحدِّد تاريخ إنشاء هذا الطود الضخم. جدرانها الأربعة كلها قائمة لم يتصدَّع منها شيء، بل هي متماسكة بشكل لا شك بأنه سيمكِّنُها أن تجتاز قروناً مستقبلية، قد لا تقل عما قطعته من قرون سابقة. تتكوَّن جدرانها التي يبلغ ارتفاعها ما لا يقل عن أربعة أمتار، تتكوَّن هذه الجدران من أحجار ضخمة، قد يبلغ طول الواحد منها مترين فأكثر، في عرض متر ونصف أو مترين في سماكة متر فأكثر، وبعضها الآخر من هذه الأحجار قد لا يقل وزنه عن عشرة أطنان. والمدهش والمثير للغرابة، هي كيف أمكن لِبُناةِ هذا الطود أن يرفعوا هذه الأحجار الضخمة عند إنشائها، ويضعوا بعضها فوق بعض، حالة أنَّ عصر إنشائها كان عصراً بدائياً بدون شك، يعتمد على سواعد الرجال فحسب، فلم تكن هناك رافعات أو (ونشات)، أو ما يحفل به عصرنا الحاضر من وسائل في استطاعتها أن ترفع مئات الأطنان دفعة واحدة إلى أي ارتفاع مطلوب.

أبرز المعالم التي شاهدتها:

كانت من أبرز المعالم التي شاهدتها، تلك الأعمدة الشامخة المستديرة التي تعلو قممها تيجان مزخرفة بشكل يُوحي بدقة الصُنعة، ومهارة الصانع، كما لاحظت المذبح الضخم الذي لازال محتفظاً ببنائه وهندسته، رغم مرور الأيام ورغم الأنقاض وبعض التصدُّعات التي ملأت ساحته.

مسجد قديم:

كما لاحظتُ في الجانب الغربي منها باتجاه الجنوب صالة واسعة

مكشوفة السقف، يوجد فيها محراب على هيئة المحاريب الموجودة في المساجد الإسلامية، وهو باتجاه القبلة، وهذه الصالة يبدو أنها حوِّلت مسجداً عندما وصل الفتح الإسلامي الأوَّل إلى هذه البلدة في حدود العام الرابع عشر من الهجرة النبويّة، في عهد القائد البطل أبو عبيدة عامر بن الجرَّاح الذي تمَّ على يديه، وعلى يد زميله البطل الآخر خالد بن الوليد فتح بلاد الشام وفلسطين.

وبعلبك هذه تُعتبر من بلاد الشام لأنه لم يكن معروفاً آنذاك شيء اسمه لبنان بالمعنى المتعارف عليه في الوقت الحاضر.

استلهام العبرة والذكرى:

كنت أقف في كل ركن وفي كل زاوية وفي كل غرفة أو صالون أو سرداب، أقف مفكراً متأمّلاً، أستعرضُ أحداث التاريخ مُسْتَلهماً العبرة والذكرى، كانت نفسي تجيشُ بالشعور المؤمن المطمئن بأنّ البقاء لله الواحد القهّار وحده، وأنَّ الأمم والشعوب تنمو وتزدهر، ثم تبلغ القمة في القوة والشموخ، ثم تعلوها الشيخوخة، فتبدأ بالانحدار رويداً رويداً، ويطويها التاريخ والنسيان بين تضاعيفه، فلا يبقى منها سوى الذكرى، أو ما تتركه من معالم ومنشآت ضخمة، تتحدث بلسان الحال عن عظمة تلك الأمّة، ثم تنشأ أمّةٌ أخرى تقوم على أنقاضها، وتمرُّ عليها السنين نفسها التي مرّت على سابقتها، وهكذا إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: الآية ٦٢].

هدية أُهدِيتُها:

في مساء اليوم الرابع، وهو اليوم الأخير لزيارتي من هذه القلعة عند خروجي من البوابة، وكانت نشأت بيني وبين الموظف أُلفة طيلة الأيام الأربعة، إذ رآني زبوناً مواظباً أُصابِحهُ وأُماسيه أربعة أيام، قدَّم لي، على ما أذكر خلالها عند خروجي وقت الظهيرة زجاجة كوكا كولا قائلاً: أنها هدية منه وعلى هذا فقد ودَّعته، ونفحتهُ عشرين ليرة، على ما أذكر، فصافحني

بحرارة، ثم انصرفتُ سيراً على الأقدام باتجاه الفندق، وما كدتُ أبتعد عنه بضعة أمتار حتى أسرع إليَّ راكضاً مؤشراً لي بيده أن أقف، وبوصوله إليَّ قدَّم لي علبة كبريت ملفوفة في قطعة من القماش الأخضر الناعم قائلاً لي: إنه يعتذر إذ لم يكن لديه ما يُكرمني به سوى هذه الهدية المتواضعة التي يرجوني أن أقبلها، شكرته بطبيعة الحال ثم اتجه كلٌّ منا إلى سبيله.

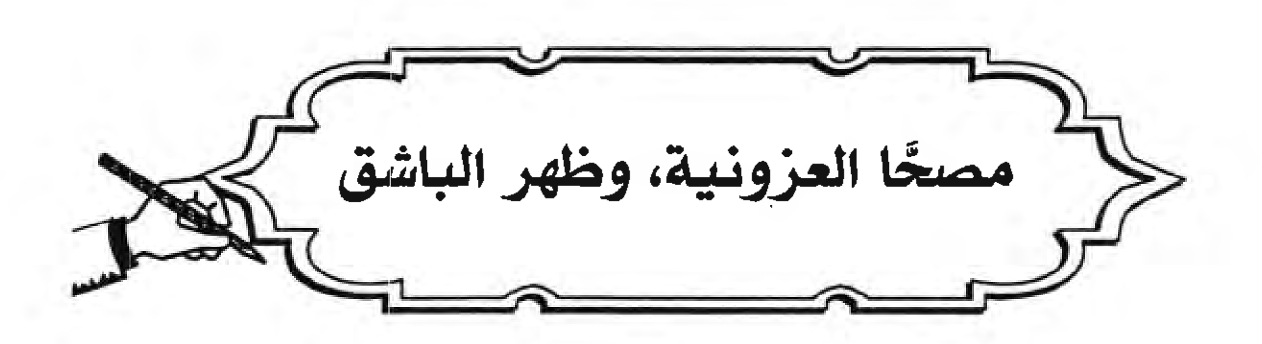
كان الوقت حوالي الساعة السادسة مساءً حينما وصلتُ الفندق فصعدت إلى غرفتي لأغيِّر ملابسي، لكي أنزل إلى الصالون لتناول طعام العشاء عندما يحينُ وقته.

قطع من الحشيش:

بعد وصولي الغرفة فتحتُ قطعة القماش، وكانت مغلَّفة بخيط حريري، أخرجتُ ما بداخلها، فإذا بداخلها علبة كبريت عادية، ولكن بدلَ أن تكون هذه علبة مملوءة بأعواد الكبريت، كانت تحتوي بدلاً عن ذلك على حوالي خمس أو ست قطع صغيرة داكنة اللون في حجم بيضة العصفور أو أصغر ذات نكهة مميزة. ولجهلي بمعرفة هذه القطع الصغيرة إذ لم يسبق لي أن شاهدت مثلها، فقد اصطحبتها معي حينما نزلت إلى ساحة الحديقة، وبالتالي أشرتُ إلى صاحب الأوتيل، وكان يُدعى (أبو طنوُّس)، وهو على مقرُبة مني، أشرتُ إليه فحضر إليَّ، فعرضت عليه العلبة راجياً تعريفي بكُنْه هذه القطع الصغيرة. وما كاد يراها حتى قهقه ضاحكاً بأعلى صوته قائلاً: ألا تعرف هذه القطع؟! أجبته: كلا! ولو كان الأمر كذلك لمَا عرضتُها عليك. هنا ضحك مرةً أخرى وقال: يا سيدي هذه قطع من النوع الممتاز من الكَيف، أي أنها قِطع من الحشيش، وهذه هدية ثمينة يتزاحم عليها مُدمنوها، ويبذلون من أجلها الغالي والرخيص.

تقديم الهدية لأبي طنُّوس:

وقد شرحتُ له كيفية وصولها إليّ، وقلت له ساخراً: يبدو أنك يا أبا طنّوس من عُشَّاقها، ولذا فإني أَهِبُها لك هديةً مني فاقبلها مني ولك الشكر،



خلال مدة وجودي في مصح بحنّس ما بين شعبان عام ١٣٧١هـ إلى شوال ١٣٧٢هـ كان هناك في المَصَحات الأخرى في لبنان، أي في مَصَح العزونية، ومَصَح ظهر الباشق، مجموعة من الإخوة السعوديين، بعضهم اختار أحد هذين المَصَحين؛ إما لأنه وصل إلى لبنان في مدة سابقة لصدور الأمر بتحمُّل الحكومة السعودية نفقات المرضى السعوديين، وكان وقت ذاك عليه أن يتحمَّل نفقات علاجه، أو أن يكون اختار المَصَح بعد امتلاء مَصَح بحنّس، وتعذُّره عن استقبال مرضى، لعدم وجود غرف خالية فيه، وبعضهم اختار مَصَح العزونية للشُّهرة التي كان يتمتَّع بها صاحب هذا المَصَح وهو الدكتور (مقردجيان)، وهو طبيب أرمني، حاز على الشُّهرة في عملياته الجراحية، واختصاصه بهذا النوع من الأمراض، وأعني به مرض السِّل، فكانت نسبة الوفيَّات في العمليات الجراحية التي تتم على يديه قد لا تصل إلى ٢٪ مما أكسبه شهرةً واسعةً، وجعل كثيراً من الناس يفضِّلون المَصَح الذي يشرف عليه، وهو المعروف بمَصَح (العزُّونية)، مع أنَّ هذا المَصَح بالنسبة لمَصَح (بحنّس) لا يُعدُّ شيئاً من حيث المساحة والإمكانيات.

نزلاء مصح العزونية:

كان من ضمن نزلاء مَصَح العزونية، إخوة أعزة علينا من المواطنين السعوديين، من خيرة من يُفتخر ويُعتز بصحبتهم.

الصديق أحمد محمد المانع:

كان من هؤلاء الأساتذة أحمد بن محمد المانع نجل الشيخ محمد المانع الذي سَبق أن تولَّى منصب المدير العام للمعارف في المملكة العربية السعودية، وتولَّى ـ ابنه أحمد هذا ـ مَنْصِب الممثل الثقافي والمُشْرف على شؤون الطلاب السعوديين في القاهرة بعد شفائه من المرض، ومغادرته مَصَح العزونية، وهو شاب رفيع الخُلق، ذو ثقافة متميزة، وأدبٍ جمٍّ، مع تواضُع يحملُ مَن يقابله على احترامه وتقديره من أول لقاء.

الصديق عبدالمحسن المنقور:

ومنهم الصديق الأستاذ عبدالمحسن الحمد المنقور، وهو من مواليد مدينة الأحساء وأستاذ في أحد مدارسها الحكومية، وهو رجل يتمتع بصفات متميِّزة نبلاً وتواضعاً وعمق ثقافة، وطلاقة محيًا، وقد تولَّى بعد مغادرته المَصَح وشفائه مَنْصب الملحق الثقافي السعودي في لبنان وسوريا، وإقامته في بيروت مشرفاً على شؤون الطلاب السعوديين أيضاً.

الصديق عثمان الحمد القاضي:

ومنهم الصديق عثمان الحمد القاضي، وهو من أبناء مدينة عنيزة، وهو شاب أعتقد أنه يمارس العمل التجاري قبل حضوره إلى المَصَح وهو لا يقل عن الأخوين نبلاً ودماثة خُلُق.

الصديق عبدالرحمن بن جبير:

كذلك الصديق عبدالرحمن بن جبير، وهو أحد أبناء مدينة المجمعة.

الصديق عبدالعزيز الخاطر:

ومنهم المرحوم عبدالعزيز الخاطر، وهو من أبناء مدينة الجبيل. وكلهم على جانب من الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة، وكانوا يزوروننا في مَصَح بحنّس ما بين آونةٍ وأخرى، كما كُنّا نردّ لهم الزيارة.

في نهاية ذلك العام منَّ الله عليهم بالشفاء وغادروا المصح، أما عبدالعزيز الخاطر، فقد سبقهم في الخروج من المصح، ولذلك كان متواجداً في مخيَّم المير لويس الذي سبق أن أقمتُ فيه بعد خروجي من المصح مدةً وجيزةً قبل انتقالي إلى سكن مستقل.

وفاة عبدالعزيز الخاطر نتيجة حادث بدراجة نارية:

كان عبدالعزيز الخاطر هذا ضمن المرضى في ذلك المخيَّم يُتمُّون دور النَّقاهة، وحدث في اليوم الثاني لوصولي هذا المخيَّم أن وقع لهذا الأخ أعني عبدالعزيز الخاطر - رحمة الله عليه - حادث مُؤسف أَوْدَى بحياته، خلاصتُهُ: أنه استأجر دراجة نارية من أحد أبناء الدروز الموجودين على مقربة من المخيَّم، ليتمرَّن على ركوبها، وذلك على الطريق العام المُمْتد من طريق (قرنايل) الذي يقع على مقربة من هذا المخيَّم، متَّجهاً إلى الغرب، وهو طريق منحدر وضيِّق، شأنه شأن طرق لبنان الجبلية.

فما كاد يمتطي هذه الدراجة ويسير بها بضعة أمتار حتى اختل توازنه عليها فسقط معها من حافة الوادي الذي أوْدى بحياته على الفور.

وقد نقله الإسعاف الذي حضر لِتَّوه وأنا وبعض الإخوان في المخيَّم، نرافقه على تاكسي مستقل إلى مستشفى (ديو) في بيروت، ولكنه كان قد فارق الحياة بعد سقوطه مباشرة.

وقد تمَّ تجهيزه والصلاة عليه في المسجد العمري في بيروت وحضر الصلاة عليه جمهورٌ لا يُحصى من إخواننا السعوديين واللبنانيين، وتمَّ دفنه في مقبرة الباشورة في بيروت، تغمَّده الله برحمته، وجبر مصاب أسرته، وأحسن عزائهم فيه.

أخلاق المرحوم الأخ عبدالعزيز الخاطر:

كان المرحوم شاباً مهذَّباً في نهاية العقد الثاني من عمره، خلوقاً حَسَنَ السَّمْت، مستقيم الخلق، حميد السيرة والسلوك، عوَّضه الله الجنَّة في

شبابه، وكان ذلك اليوم أعني يوم الحادث المؤسف يوم فجيعة لنا نحن السعوديين جميعاً.

قضاء أشهر الشتاء في (عاليه):

كان كلٌ من الإخوة أحمد المانع، وعبدالمحسن الحمد المنقور، وعبدالرحمٰن الجبير، ممَّن فضَّلوا عدم العودة إلى المملكة، والبقاء في بيروت، لقضاء أشهر الشتاء فيها، وكنت على اتصالٍ مستمر بهم، ولذلك اتَّفقت معهم على أن نقضي معاً أشهر الشتاء في مدينة (عاليه).

استئجار بيت مدام برباري:

استأجرنا بيت مدام برباري في عاليه، وهو عبارة عن أربع غرف نوم وصالون استقبال ومطبخ وثلاث حَمَّامات، وغرفة للخادمة، ومثلها للسائق، مع غرفتين للضيوف.

كان الاتفاق ينصُّ على أشهر الشتاء، وكان البيت مفروشاً بأثاث جميل، ونظيفاً ومزوَّداً بجميع ما يحتاج من وسائل الطبخ، وما يتعلَّق به، ولأننا بحاجة إلى مَن يقوم بخدمتنا في هذا السكن من حيث الطبخُ والإشراف على نظافة البيت، ولأنَّ المرأة التي كانت تخدمنا في (حمَّانا) وهي ماري الحورانيَّة كانت آنذاك في بيروت، وكانت في خدمتها لنا في (حمَّانا) قد أثبتت أنها تُجيد الطبخ، فقد عرضتُ اسمها على الجماعة فطلبوا مني الاتِّصال بها، والاتفاق معها إذا كانت ترغب في العمل كطبَّاخة تقوم بواجبات الطبخ، والعناية بنظافة المسكن، والقيام بغسيل وكي ملابسنا.

الاتصال بالسيدة ماري الحورانية:

اتَّصلت بها، وطلبت منها الحضور إلى المسكن الذي نحن فيه بعد أن وصفت لها موقعه، حَضَرت إلينا في أوَّل ليلة سَكَنَّا فيه، وتفاهم الإخوان معها، واتَّفقوا على أن يدفعوا لها أجراً شهرياً قدره ستمائة ليرة بعد أن

حدَّدوا لها الواجباتِ المطلوبة منها، وقد رَضِيَت بذلك، وتمَّ الاتفاق بموجب عقد حُرِّر في وقته وتمَّ توقيعه منها ومن أحد الإخوان وأظنه الأستاذ عبدالمحسن، وفي صباح اليوم التالي باشرت العمل، وكان الصَّديق عبدالمحسن هو الذي يؤمِّن لها الاحتياجات ويتولَّى المصاريف.

أشهر الشتاء في (عاليه):

قضينا أشهر الشتاء وهي من أمتع الأيام وأجملها وأسعدها وأبهاها، التي مرَّت علينا في حياتنا جميعاً، إذ كانت عقلية الجميع متوافقة ومنسجمة من حيث الأخلاق، ومن حيث الثقافة، ومن حيث البُعد عن الشُبهات ومزالق الخطأ، كُنا كإخوة أشقاء أبناء أمٍّ واحدة وأب واحد، كانت أجواء لبنان في أيام الشتاء، وخاصةً في المدن الجبلية كعاليه وغيرها أجواء ممطرة بشكل يكاد يكون يومياً، فضلاً عن برودة الجو وتساقط الثلوج.

برنامجنا اليومي:

وكُنا نقضي أوقاتنا على شكلٍ يكاد يكون مُبَرْمَجاً، فنحن نظلُّ في البيت حتى الواحدة ظهراً، ثم ننزل إلى بيروت، وهي تبعد عن (عاليه) اثنين وعشرين كيلومتراً تقريباً، ننزل جميعنا على أحد التكاسي.

في مقهى متواضع:

وهناك في بيروت وعلى مقربة من ساحة البرج ومن الفندق العربي، كانت توجد عمارة تشغلها بورصة بيروت، وفي مدخل هذه العمارة سيب يمتد نحو أربع أمتار وفي عرض ثلاثة أمتار تقريباً، يوجد في هذا المكان مقهى متواضع تتناثر على مساحته مجموعة من كراسي الخيزران، ويديره أحد مواطني بيروت، ويُدعى مصطفى، لا أعرف بقية اسمه، ولكنه شيعي المذهب.

كان هذا الرجل يمتاز بإتقانه صنع الشاي، وكُنا نحن الأربعة، وكثيرون غيرنا من إخواننا العراقيين والسعوديين يتَّخذون من هذا المقهى المتواضع

نقطة التقاء يجتمعون فيها، يتناولون أكواباً من الشاي، المُتْقن الصنع، ثم يتفرَّق كلٌ لسبيله.

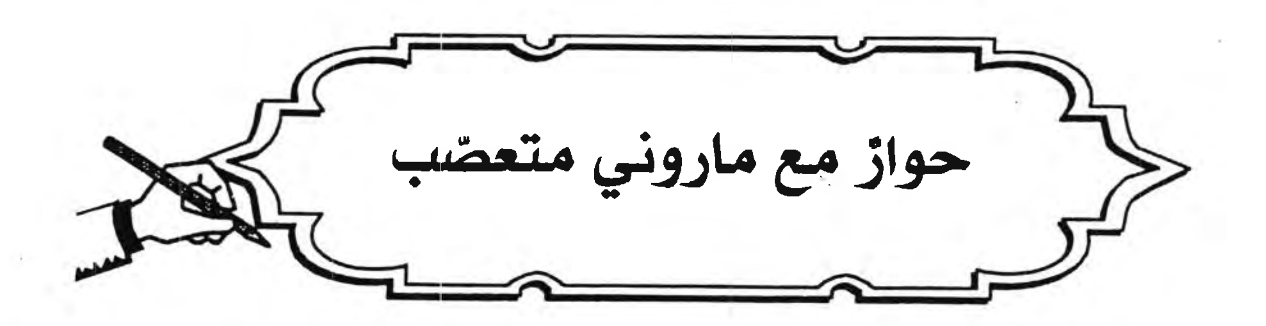
كُنت خلال ذلك لا زلت أتعاطى شرب الأرجيلة، وكانت في هذا المقهى متوفرة، ولكن بشكل صغير، وبالحمي بدل الجُراك، كُنا عندما ننزل نمكث في هذا المقهي قرابة نصف ساعة تقريباً، ثم نفترق على أن يكون الالتقاء بحوالي الساعة الثامنة مساءً في هذا المكان نفسه بعضُنا يذهب إلى دور السينما، وبعضنا يذهب إلى المكتبات كالأستاذ أحمد المانع، وبعضنا يذهب إلى قاعة التربية الوطنية أو الجامعة الأمريكية ليشهد المحاضرات، التي قد يكون قد أُعلِن عنها في صحف ذلك اليوم، وكنت أنا الزبون المتفرِّد بزيارة هذه الأماكن وشهودها والاستماع إليها حتى نهايتها، ولو أدى ذلك إلى ساعات متأخرة من الليل.

العودة إلى (عاليه):

في حدود الساعة الثامنة مساءً نلتقي في مقهى مصطفى هذا مرةً أخرى، ثم نستقل أحد التكاسي إلى عاليه، أما من يتأخر منا عن هذا الموعد فعليه أن يحضر مع أحد التكاسي وقت ما يطيب له الوقت.

كانت ليالي الشتاء كما هو معروف طويلة، كما أننا في كثيرٍ من الأوقات قد نضطر إلى البقاء في البيت عدة أيام دون أن نبارِحَه بسبب كثافة السيول التي كانت تهطل بغزارة.





حوارٌ مع ماروني متعصّب

أسرة مارونية:

كان البيت الذي نسكنُه تملكه أرملة تُدى مدام برباري، لها ابن في مستهلِّ العقد الثالث من عمره، وله أخت أيضاً تكبره بما لا يقلُّ عن خمس سنوات تقريباً، أما الأم فهي على ما يبدو على مشارف نهاية العقد الخامس من عمرها.

حزب الكتائب:

كانت هذه الأسرة كاثوليكية المذهب مارونية متعصبة ضدّ كل ما يتَّصل بالعرب أو بالإسلام، وكان ولداها، أي: الابن والبنت منتسبان إلى حزب الكتائب الماروني المتعصِّب، الذي أسَّسه ويرأسه الصيدلي المعروف الشيخ بيار الجميِّل، والذي كان آنذاك قد كوَّن مجموعات ضخمة من الشباب المسيحي الماروني المتعصِّب أُطلق عليه اسم حزب الكتائب، وهم ميليشيات تبلغ مئات الآلاف يرأسهم في ذاك الوقت الشيخ بشير الجميِّل، نجل بيار الجميل، لهم جريدة معروفة تنطق باسمهم، تُدعى جريدة (العمل) تصدر صباح كل يوم، وثمانين في المائة ما يُكتب فيها تختص بشتم العرب، وبالسخرية والزراية بهم.

شاب ماروني شديد العداء للإسلام والمسلمين:

كانت هذه الأسرة تسهر معنا ليلياً، ولا تغادر المكان إلا في حوالي الثالثة بعد منتصف الليل، كان لهذه الأسرة صديق هو شاب ماروني

متحمّس، في منتصف العقد الثالث من عمره، على ما أذكر، وهو يدرس علوم اللاهوت في إحدى مدارس الكنائس المسيحية في بيروت، كان هذا الشاب صديقاً لهذه العائلة، ويشاركهم إن لم يتفوّق عليهم في شدة العداء للإسلام والمسلمين.

كان هذا الشاب حضر مع هذه الأسرة عندنا بُعيد مجيئنا لهذا الدار بنحو عشرة أيام كان سلوكه هادئاً مُتَّزناً مهذبَ الحديث، قليل الكلام، ثم شيئاً فشيئاً ابتدأ يظهر على سجيّته، ويكشف عن دخيلة نفسه، كانت دراسته ـ كما ذكرت وكما ذكر هو لنا ـ مختصّة في دراسة الإنجيل أولاً، ثم في علم اللاهوت ثانياً.

كُنا أثناء جلوسنا في الصالون على مقربة من موقد التدفئة، نتجاذب شتى الأحاديث من تاريخية وأدبية وسياسية، وأحداث يومية التي كانت تحفل بها صحف ذلك اليوم، وفي الأيام الأولى لبدء حضوره كان يتحاشى الاشتراك معنا في الحديث، وفي الجدل والمناقشة.

الليلة الأولى معه:

وصدف في أحد الأيام أن ذكرت الصحف حادثة شجار بين مسيحي ومسلم، وقعت في حرش بيروت، كان حديثنا يدور حول هذا الموضوع، وبطبيعة الحال أقحم نفسه في المناقشة، واضعاً من نفسه محامياً وحَكَماً في القضية بأنَّ المسيحي كان بريئاً وأنَّ الآخر هو المُعتدي، بينما تفاصيل الحادث في الجريدة يفيد العكس.

محاورة هادئة:

كانت هذه المناسبة فرصةً لي لكي أدخل معه في محاورة هادئة، تتعلّق في الديانتين الرئيسيتين الإسلام والمسيحية، كان عقله ممتلئاً بصورةٍ شوهاء عن الإسلام ومعتنقيه، كان يرى أنَّ الإسلام هو دين عدواني تغلّب بالسيف والقهر، واستطاع أن يُخضع الشعوب ويرُغمها على اعتناقه بقوة السيف والرمح كما يقول، وأنه ضد كل من يعتنق ديناً سواه، وأنه أذاق

أصحاب الديانات الأخرى التي لم تنطوِ تحت لوائه، وتنقاد لأمره تلقَ أبْشَعَ صنوف الإذلال والقهر والعذاب.

كُنت أترك له الحبل لكي يستمرَّ في حديثه، ولكي يُظهِر ما يختزنه في خبايا نفسه ضد الإسلام والمسلمين، ويبدو أنه استشفَّ من إغرائي له على الاسترسال في الحديث، أنني مُعْجب ومندهش بصحة المعلومات التي يَسْردها، ويصرُّ على أنها حقائق لا تقبل الجدل، تركته تلك الليلة بكاملها يتحدَّث عن المسيحية وفضائلها ومُثلها، وما أسْدَته إلى البشريَّة من رُشد وهداية خاتماً ذلك بتبيان فضائل ومميزات السيد المسيح صلوات الله عليه وسلامه، موضِّحاً أنه ابن الله تعالى الله عن ذلك، ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ يقول: أنه ابن الله والأثير عنده، وأنه تعالى تقدَّست أسماؤه عندما رأى الخلق قد انغمسوا في الضلالة، وخاضوا بحار الخطيئة تفضَّل سبحانه وتعالى بأن أرسل ابنه هذا ـ كما يقول هذا الدَّعي ـ أرسله رحمةً للعباد لكي يتحمَّل عنهم جميع ما ارتكبوه من خطايا وموبقات، أي أنَّ المسيح عليه السلام قد جاء إلى الأرض ليفدي بنفسه البشرية من ذنوبها وخطاياها، ويخلِّصها من أدران الوثنية والشِّرك وعبادة البشر والأصنام، ولذلك أُطلق عليه (صلوات الله عليه وسلامه) عند المسيحيين لقب الفادي والمخلِّص.

كان الحديث في تلك الليلة قد استمرَّ حتى الساعة الرابعة بعد منتصف الليل تقريباً، كانت السيدة مدام برباري وولداها يُصغيان بانتباه ممزوجٍ بالحماس لما كان يَسْرده هذا الأخ في حديثه ماثلاً ذلك في تأمينهم ما بينَ آونة وأخرى على ما يَرد خلال حديثه من مؤاخذات على الإسلام والمسلمين، وما ارتكبوه في حق المسيحيين خاصة من ظلم وقهر واستبداد، عندها ختم حديثه وأنا مُصْغٍ له.

علامات النشوة والانتصار:

كان بادي السرور، تظهر على ملامحه علامة النَّشوة والانتصار لأنه استطاع أن يُبرِزَ جميع ما يختزنه في ذهنه من آراء بالنسبة للإسلام

والمسلمين. على مسمع من مسلم لم يعترض عليه، ولم يقاطعه في الحديث.

كان النعاس قد ابتدأ يُشعرنا بوجوده بادئاً بالتثاؤب، عندئذٍ وقفت قائماً، فوقفوا معي يودِّعون منصرفين وكلٌّ منهم يبدو منتشياً بقرارة نفسه، ومهنئاً هذا الفتى على حديثه.

الليلة الثانية:

في الليلة التالية لتلك الليلة حضر هذا الأخ ومدام برباري وأبناؤها كالمعتاد، وابتدأنا كالعادة في قراءة الصحف، ومناقشة أخبارها، وكان الإخوان الأستاذ أحمد المانع والأخ عبدالمحسن المنقور والأخ عبدالرحمن الجبير قد لاموني في صبيحة تلك الليلة على تركي هذا المتعصب يسترسل في حديثه، دون أن أناقشه أو أجادله، أو أصحِّح له الأخطاء التي كان يوردها خلال حديثه، تلك الأخطاء المتعلقة بأحداث التاريخ بالنسبة لعلاقة الإسلام بالمسيحية، أو كان بالنسبة بالمقارنة بين الإسلام والمسيحية كديانتين سماويتين، وبماذا يمتاز أحدهما عن الآخر.

سبب سكوتي على شبهات الماروني:

اعتذرت للإخوة بأنني فعلت ذلك معه عن عمد، لكي يُبرز جميع ما يختزنه في عقله خطأً كان أم صواباً، وأنني تركت له الحديث طيلة الوقت الذي امتد نحو أربع ساعات يصول ويجول، وذلك بهدف أن يتيح لي الفرصة على ضوء ذلك أن أناقشه مناقشةً هادئةً مستمدةً من العقل ومن وقائع التاريخ التي لا تقبل المكابرة.

تناول طعام العشاء:

كانت العادة أن نتناول طعام العشاء الذي تعدُّه لنا الخادمة ماري في حوالي الساعة الحادية عشر من كل ليلة، وكان هؤلاء الأربعة ـ أعني مدام برباري وأبناؤها وصديقهم الشاب وأخاً له اسمه (ميشيل) إن لم تخنِّي

الذاكرة، ـ كانوا يتناولون معنا طعام العشاء، وهي وجبة دسمة فيها الدجاج واللحم والسمك والفواكه على مختلف أنواعها، الشيء الذي أعتقد أنه لم يظفروا بمثله بمنازلهم، كان عادةً يعقب تناول وجبة العشاء شرب الشاي.

بين الإسلام والمسيحية:

كان الشاب في تلك الليلة منطلقاً مرحاً قد تخلَّى عن سِمة التحفُّظ والصمت، وأصبح يتشوَّق إلى الحديث والمناقشة، ولذا فقد ابتدأتُ نقاشي معه بادئاً بتاريخ الإسلام مع المسيحية وأيٍّ منهما أرحب صَدْراً، وأوسع أفقاً، وأبرُّ رَحِماً، وأسهل موضعاً.

انتشار الإسلام:

بدأت حديثي إليه بسؤال وجهته إليه: من أيِّ مكان انطلق المسلمون في أول انطلاقة قاموا بها لِنشر دينهم؟ قال: من المدينة. قلت: كم تبعد المدينة عن لبنان؟ قال: في حدود ثلاثة آلاف كيلومتر تقريباً. قلت: أين وصل المسلمون من بقاع الأرض حينما كانوا ينتشرون دعوتهم؟ قال: لا أدري. قلت: معنى هذا أنَّ معلوماتك في التاريخ ضحلة ضبابية، وكيف يكون لك أن تدرس الأديان كما تقول وتقارن بين الديانات وأنت لا تعرف التاريخ.

قال لي: عفواً أنا لم أتبحَّر في التاريخ الإسلامي، ولذلك يتعذر عليَّ معرفة الأماكن التي وصل إليها المسلمون عندما كانوا ينشرون رسالة دينهم في عصرهم الأول.

قلت له مصحِّحاً: في الشرق قد وصلوا إلى أرض الصين واستطاع قائدهم قتيبة بن مسلم أن يطأ أرض الصين بقدميه، وأن يؤتى له بأبناء ملوك الصين فيختمهم إشعاراً بالسيادة عليهم، ويفرض على مَلِكِهم الجزية عن يدٍ وهو صاغر. هذا في مشرق الشمس.

أما في مغربها فقد وطئت أقدامهم أقصى بقعة في جزيرة إيبريا، أقصى

بقعة تقع في الشمال الغربي مما يلي المحيط الأطلسي، وهي التي تُعرف الآن بأرض البرتغال وأرض أسبانيا، على يد القائدين العظيمين طارق بن زياد وموسى بن نصير، مروراً بفرنسا من جهة الشمال الشرقي بالنسبة لأوربا، حيث وطئت أقدام القائد البطل عبدالرحمن الغافقي أرض مدينة تولوز الفرنسية التي لا تبعد عن باريس الآن أكثر من سبعين كيلومتر تقريباً، والتي سقط على ساحاتها البطل عبدالرحمن الغافقي شهيداً مضرجاً بدمائه، في معركة بلاط الشهداء التي ملأت أخبار بطولاتها وأمجادها صحائف التاريخ إسلامياً وغربياً، وهذا بالنسبة لمغرب الشمس وكل من الصين أو أسبانيا أو فرنسا تبعد عن نقطة الانطلاق أي انطلاق أول كتيبة إسلامية من المدينة مئات ألوف الكيلومترات، أو بمسافة لا تقل عن عام من السنين لكي يصل إليها المسافر على وسائل النقل المتاحة في ذلك العصر.

دخول الناس في دين الله أفواجاً:

هذه المساحات الممتدة من المدينة إلى الصين في الشرق، أو من المدينة إلى أسبانيا في الغرب ثمانية وتسعين في المائة من سكانها أسرعوا يتنافسون إلى اعتناق هذا الدين الجديد، وأعني به الإسلام الذي رفع عن أعناقهم قيود الرق، وعن كواهلهم الضرائب والسُّخرة والقهر والإعنات، والذي أشعرهم لأوَّل مرة أنَّ الخلق متساوون، وأنَّ لا فرق في هذا الدين بين حاكم أو محكوم، وبين أمير وخفير، وبين غني وفقير، بل الجميع متساوون في الحقوق والواجبات.

ثم أردفتُ قائلاً وخطابي مُوجَّه إليه: كم يبعد لبنان الذي وُلِدْتَ أنت فيه وعشتَ، نقيم الآن نحن وأنت على أرضه؟ كم المسافة التي تفصل بين لبنان والمدينة المنوَّرة نقطة انطلاق الكتيبة الأولى من كتائب الإسلام؟

أجاب وكأنه شعر بالهدف الذي أرمي إليه، أجاب قائلاً: لا أدري. قلت: افترض المسافة التي تراها أنت ألفي كيلومتر، ثلاثة آلاف كيلومتر، عشرة آلاف كيلومتر!! مرةً أخرى أجاب بقوله: لا أدري.

قلت له: لنفرض أنها عشرة آلاف كيلومتر، أليس كذلك؟ أجاب بقوله: يمكن.

عندئذٍ سألته: متى وُجدت المسيحية على أرض لبنان؟ كم مضى عليها من السنين؟

أجابني: وُجدت منذ انتشر حواريُّو المسيح عليه السلام للدعوة والتبشير بالإنجيل قبل وبعد صلب المسيح.

قلت له: معنى ذلك أنَّ المسيحية في لبنان سابق وجودها على ظهور الإسلام؟ قال: نعم.

سماحة المسلمين في التعامل مع النصارى:

قلت: ألم يكن في وِسع المسلمين في اندفاعتهم الأولى أن يزيلوا كل ما يمتُّ إلى المسيحية من طقوس ورموز لو كانوا كما قلت في حديثك ليلة البارحة بأن الإسلام أكره الشعوب التي استولى عليها إكراهاً بالقهر والسيف والرمح كما ذكرت؟ كما أنَّ بقاء المسيحية والمسيحيين في لبنان طيلة هذه القرون السحيقة، ووجودهم محتفظين بكنائسهم وبطقوسهم وبتقاليدهم خير دليل على ذلك.

لم يذكر التاريخ قط حادثة واحدة تقول أنَّ واحداً من معتنقي المسيحية قد تمَّ إكراهه على تركها واعتناق الإسلام، أليس ذلك صحيحاً؟ قال: بلى، ولكنكم كنتم تأخذون علينا جزية.

الجزية التي تُفرض على أهل الكتاب:

قلت له: إن تلك الجزية هي مقابل حمايتكم والدفاع عنكم لأنكم لستم مكلَّفين بحمل السلاح للدفاع عن الوطن، وإنما المسلمون وحدهم هم الذين يقومون بمقاومة الأعداء والطامعين، فهم يحملون السلاح نيابةً عنكم. وعندما يحدث أن يصبح المسلمون غير قادرين على الدفاع عنكم فإنَّ هذه الجزية تسقط عنكم أو تُعاد إليكم إن سبق أن أُخذت منكم!

إحسان المسلمين إلى نصارى لبنان:

كنتم طيلة هذه القرون المتعاقبة تعيشون في ظلّ الإسلام وَكَنفِهِ، عيشةً هانئةً سعيدةً، متساوين في الحقوق والواجبات مع إخوانكم المسلمين، كنتم تتمتعون بكامل الحرية في مزاولة شعائر دينكم، وفي إنشاء المعاهد الخاصَّة بكم، وفي ميادين التجارة، وكل نواحي الحياة الأخرى لا فرق بين مسلم ومسيحي، الحكم الإسلامي يُطبَّق على الجميع، وشعار الإسلام ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾.

إساءة مسيحي لبنان إلى المسلمين:

كما أنَّ مسيحيي لبنان قد أساؤوا إلي المسلمين أيما إساءة، بل أكاد أقول: طعنوهم في الظهر، وذلك إبان الهجمات المتكررَة التي شنَّها غُلاة المسيحية ضد الإسلام والمسلمين باسم نُصرة الصليب، والقضاء على أعداء المسيحية بزعمهم. تلك الهجمات البربرية الوحشية التي اشتركت فيها آنذاك شعوب أوروبا بأكملها نتيجةً لتحريض بطرس الناسك المتعصِّب الذي كان يثير مع بابوات روما حفيظة شعوب أوروبا ضد الإسلام والمسلمين.

الهجمات الصليبية الحاقدة:

تلك الهجمات التي كانت أشبه بموجات البحر العاتية، التي لا تكاد واحدة منها تنتهي حتى تعقبها الأخرى بأشد وأعنف منها، والتي ظلَّت مستمرةً طوال قرنين من الزمان، استطاعت الصليبية أن تُثبت أقدامها في فلسطين وسوريا وشرق تركيا، وأوشكتْ أن تصل إلى غزو البلاد المقدَّسة الإسلامية، أنشأتْ خلالها ممالك ودولاً عمّرتْ من الزمن ما عمّرت، فهذه مملكة بيت المقدس، وتلك إمارة طرابلس، وأخرى إمارة الرَّها، وتلك إمارة الكرك، وغيرها من الممالك والدويلات التي ظلَّتْ جاثمةً على صدر الأمّة العربية والإسلامية في منطقة الشرق الأوسط قرنين من الزمان كما ذكرنا.

فرح نصارى لبنان بالحملات الصليبية:

كان مسيحيو لبنان قد أقاموا معالم الأفراح، ونثروا الورود في طريق الغُزاة الفاتحين من برابرة أوروبا ابتهاجاً بقدومهم، وإظهاراً لشماتتهم بالعرب والمسلمين، وكأنَّهم لم يكونوا يتمتَّعون بأفضل حياةٍ هانئةٍ سعيدةٍ، منذ انبثق فجر الإسلام حتى يوم الناس ذاك - أعني يوم قدوم الصليبيين -.

لقد أساء مسيحيو لبنان، وكوَّنوا من أنفسهم عيوناً وجواسيس للغزاة القادمين، ونسوا كلَّ ما تمتَّعوا به في ظلِّ الإسلام من عدلٍ وسماحةٍ ورخاءٍ واطمئنانٍ.

كنت أسْردُ هذه الوقائع ومُجادلي - أي الشاب ميشيل - يتململ بحركة تشي بأنه لا يرغب مني أن أستمر بالسَّرْد؛ لأنَّ ما أسردهُ على مسامعه حقائق تاريخية، لا تقبلُ الجدل والمُكابرة.

سبب دخول الشعوب في الإسلام:

ثم أردفتُ مُبيِّناً له: إنه في الوقت الذي كان ولازال الإسلام يحتضن كل أصحاب الأديان ويعاملهم بكل سماحةٍ ورفعةٍ وعدلٍ، لم يُكْرِه أي فرد على الدخول فيه، وإنما كانت الشعوب تلقائياً تتنافس على الدخول فيه، لأنَّ نفوس هذه الشعوب كانت متعطِّشة إلى العدل والرحمة والمساواة، يؤكد ذلك أنه لم تكد تمضِ عقود قليلة حتى أصبحت هذه الشعوب تدين بالإسلام طواعيةً واختياراً لا إكراه فيه ولا عَنَت.

وهنا اعترض محدِّثي بأنَّ ما ذكرته، وإن كان صحيحاً، فإنَّ المسيحية تمثل نفس المُثل التي جاء بها الإسلام، بل إنها تتفوَّق عليها سماحةً وتواضعاً، إذ إنَّ من ضمن شعائرها - أي المسيحية - القول: بأنَّ مَن ضربك على خدك الأيمن فأَدرْ له خدَّك الأيسر.

مبادىء النصرانية الخيالية:

هنا أوضحتُ له: إنَّ هذه المبادىء السامية التي تَدين بها المسيحية

نظرية خيالية، وإنَّ معتنقي هذه الديانة لا يكادون يطبِّقون من تعاليمها هذه بنسبة أكثر من ١٠٪ على الأكثر، ودعني أضرب لك أمثلةً سجّلها التاريخ كمقارنة بين سماحة الإسلام وعدالته، وتقيُّد مُعتنقيه بهذه السماحة والمُثل، وبين المسيحية ومُعتنقيها، ومقدار البُعد الشاسع بين مُعتنقي هذه الديانة وبين تطبيق مُثلها العُليا. هاك أمثلةً على ذلك:

سبب انتصار الحملات الصليبية:

عندما وصلت جَحَافلُ الغزاة الصليبيين إلى أرض الإسلام على مشارف نهاية القرن الخامس الهجري، واستطاعوا بفترةٍ وجيزةٍ من الزمن أن يتغلبوا على المقاومة العربية التي قابلتهم، والتي كانت بحالة من الضعف والتفكك نتيجةً لِما كانت عليه حال الأمَّة الإسلامية من ضعف وتمزُّق وانحلال، وكانت الدول الإسلامية في تلك الحقبة مجموعات ممزَّقة في كل بلدةٍ، وفي كل قريةٍ، وفي كل مدينةٍ أمير أو ملك أو سلطان لا تجمعهم رابطة ولا تربطهم وشيجة.

ضعف الخليفة العباسي:

وكان خليفة الإسلام آنذاك الخليفة العباسي قابعاً في قصره في بغداد لا حَوْل له ولا قوة، ولا يتجاوز حكمه جدران قصره، بل حتى داخل قصره لا يملك من الأمر شيئاً، لقد كان الأمر بيد المتغلبين من المماليك والغلمان ومن نساء القصر، حتى بلغ الحال بأحد خلفائهم أن يُنشد بيتين من الشعر يفيضان بالحسرة والألم، وذلك عندما طلب مبلغاً زهيداً من المال من خزينة قصره، فأبى عليه المملوك في القصر هذا المبلغ بحيث ضاق صدر الخليفة، ففاض حزنه بهذين البيتين اللذين يقطران أسىً وحسرةً:

أليسَ من العجائب أنَّ مثلي ... يَرى ما حَلَّ ممتنعاً عليه
وتُؤخذ باسمه الدنيا جميعاً ... وما من ذاك شيءٌ في يديه

كانت حالة الإسلام والمسلمين في تلك الحقبة قد بلغت من السوء

والتمزُّق ما أتاح للغزاة أن ينتشروا فيها، ويقيموا دولهم وممالكهم بيُسر وسهولة بدون أن يجدوا أي مقاومة تُذكر.

دخول الجحافل الصليبية بيت المقدس:

دخلتْ جحافلهم بيت المقدس المسجد الأقصى، دخلوا ساحاته الطاهرة على خيولهم وبِغالهم، فأعملوا السيف في رقاب المسلمين سكان المدينة، حتى وضعوا الرؤوس والجثث أكواماً كالجبال في ساحات الحَرم الطاهر، وغاصت حوافر خيولهم بالدماء الذكيَّة. فعلوا ذلك بوحشية تفوق وحشية الغاب، لم يرحموا شيخاً، ولم يرحموا طفلاً، ولم يرحموا عاجزاً أو مريضاً، ولم يرعوا لفتاةٍ أو عجوزٍ حُرمةً ولا ذمةً، وإنما أفرغوا ما تُكِنُّه صدورهم من حقدٍ دفين، وغلٍّ منتنٍ ضدَّ الإسلام ومعتنقيه، هذا ما فعله بنو جلدتك الصليبيون.

ما فعله المسلمون بالصليبيين بعد انتصارهم:

وإليك بالمقابل ما فعله المسلمون ببني جلدتك، أي الصليبيين بعد أن دارتْ الأيام، وتمكَّن المسلمون من جمع شَتَاتهم، وتوحيد كلمتهم وجمع قواهم، وذلك على يد البطل يوسف صلاح الدين الأيوبي، ومن قبله معلِّمه وأستاذه الشهيد محمود نور الدين زنكي، الذي أبلى في الدفاع عن الإسلام وإحياء روح الجهاد، وتوحيد الكلمة أعظم بلاء مَكَّنَه من أن يكوِّن من هذه الدويلات والإمارات الصغيرة المتناثرة هنا وهناك. استطاع بعد كفاحٍ طويلٍ مُضْنٍ مملوءٍ بالسهر والتعب أن يكوِّن منها قوةً رهيبةً دكَّت عروش الإمارات الصليبية واحدة بعد الأخرى تحت شعار لا إله إلا الله محمد رسول الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ [التوبة: الآية ١١١].

معركة حطين:

عندما استطاع المسلمون بقيادة البطل الخالد السلطان صلاح الدين الأيوبي، تغمَّده الله برحمته، أن يَدُكُّوا عروش الإمارات والممالك الصليبية

واحدة تلو الأخرى، حتى لم يبقَ سوى مملكة القدس، وهناك خاض المسلمون بقيادة هذا البطل معركة من أعظم معارك التاريخ هي معركة حطين، التي اجتمعت فيها فلول الصليبية التي تجمعَّت من جميع الإمارات والممالك التي كانت موجودة آنذاك، وانهارت تحت ضربات قوات المسلمين.

جمع الصليبيون في تلك المعركة كلَّ ما يملكونه من قوة وعَتَاد وسلاح ورجال في معركةٍ فاصلةٍ، خُيِّل إليهم أنهم سيسحقون القوة الإسلامية المُقابلة لهم في الجانب الآخر في ساحات حطين، كانت تحت قيادة وإِمرة السلطان صلاح الدين، وذلك اعتقاداً من الصليبيين بأنهم سيقضون لا محالة، نظراً لكثرة عددهم وَوَفْرة فرسانهم المدرَّبين، وكثرة العَتاد والسلاح لديهم، وبذلك يُنْقِذون مملكة القدس من السقوط في يد المسلمين، ومن ثم يعود الصليبيون إلى مقارعة المسلمين وتثبيت أقدامهم مرة أخرى في ديار الإسلام.

دارتْ المعركة بين جحافل الصلبيين المُدجَّجين بالسلاح والعَتاد والفرسان، وكانت جموع الجنود تبلغ في تعدادها أكثر من ثلاثة أضعاف الجيش الإسلامي المقابل، وبين الجيش الإسلامي الذي كانت نسبة تعداده بالنسبة لجيش الصليب واحد إلى خمسة أو أقل، هذا الجيش الإسلامي الذي كانت أسلحته ومعدّاته تُعتبر بالنسبة لِما لدى خصمه شيئاً لا يُعتدُّ به، وإنما كان اعتماد هذا الجيش ـ بعد الله سبحانه وتعالى ـ نابعاً من قوة إيمانه ويقينه بأنه يقاتل لنُصرة الحق والعدل لإعلاء كلمة الله، ورفع الظلم والطغيان عن البشر، وإعادة شرع الله؛ ليستفيء بظله وبسماحته وعدله جميع أفراد البشرية.

هزيمة حملة الصليب:

دارتْ المعركة رهيبة وكانت نتيجتها أن علَتْ كلمة التوحيد، وانتصر جند الله التي وُعدت بالنصر بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: الآية ١٧٣] وانتهت المعركة بهزيمة ساحقة لحملة الصليب، قضت على كل مقاومة لديهم.

سماحة الإسلام:

وقد تجلَّت سماحة الإسلام في هذه المعركة، فبعد أن جُمِعَ قادة الصليب أعداء الإسلام من حُكام وأمراء ونبلاء الذين أذاقوا المسلمين منذ وطئتْ أقدامهم أرض الإسلام أشد فظائع الوحشية من ظلم وقتل واستعباد، جُمع هؤلاء جميعاً بعد المعركة في بساط القائد المنتصر صلاح الدين، وكان المنطق والمعقول أن يأمر بضرب رقابهم نظراً لما أذاقوا المسلمين من بطش وتقتيل.

كان هؤلاء الأسرى جاثين على ركبهم، مُنكسي الرؤوس ينظرون بطرفٍ خفيٍّ إلى الكلمة التي ستنطلق من فم القائد المنتصر بشأنهم، وكلهم مُجْمعون في قرارة نفوسهم على أنها القتل، جزاءً للفظائع التي لطَّخت أيديهم بدماء المسلمين، بَيْد أنَّ القائد المنتصر بوحي من تعاليم دينه ومُثُلِه العُليا وما تمثله من رأفة وسماحة ونُبل، كانت الكلمة هي العفو عنهم والسماح لهم بأن يعودوا من حيث أتوا أحراراً مُكرَّمين، محوطين بحماية كافية تمنع من أن يلحقهم أي أذى أو مكروه، حتى يركبوا سفنهم عائدين إلى بلادهم، لم يستعبدهم، ولم يسبِ نساءهم، ولم يلحقهم أيُّ فعلٍ يشير إلى أنهم أعداء ألداء لهم.

قتل أرناط حاكم الكرك:

وهنا اعترض الشاب قائلاً: إنّ ما قلته صحيح، ولكن صلاح الدين قد سجَّل التاريخ أنه قتل بيده قائداً صليبياً بارزاً يُعتبر في مقدمة أمراء الصليبيين، وهو حاكم الكرك في منطقة الأردن المعروف باسم (أرناط) فكيف تدَّعي أنَّ السلطان صلاح الدين لم يقتل أحداً من الأسرى؟ أجبته: إنَّ هذا القائد الصليبي وضعُهُ مختلفٌ، وله قصةٌ مستقلةٌ تجعل قتله أمراً محتَّماً تُمليه أبسط قواعد الحرب، ذاك أنَّ هذا القائد الصليبي وكانت إمارته في الكرك في الأرض الأردنية، كانت إمارته التي يحكمها مُتحكمة ومُسيطرة على الطريق الذي يعبرُ منه المسلمون ذهاباً وإياباً لقضاء فريضة الحج في كلِّ عام. وكان هذا الأحمق شريراً، شَرِساً، حقوداً، لا يلتزم بعهد ولا يتقيَّد

بميثاق، كان سفَّاكاً للدماء، مجرماً، قاطعاً للطرق، لاقت منه قوافل الحجيج ولاقى منه المسلمون أشدَّ أنواع البلاء. وقد كان من مخططاته أن يغزو البلاد المقدسة عن طريق أيلة (العقبة)، وكاد أن يُنفِّذ خطته الإجرامية لولا أن تنبَّه لها صلاح الدين وأحبطها وقضى عليها.

كانت من ضمن جرائمه التي اعتاد ممارستها مع قوافل الحجَّاج التي تمرُّ في طريقها كل عام أنْ كانت أخت السلطان صلاح الدين المعروفة بِستِّ المُلك قد ذهبت لأداء فريضة الحج ضمن قوافل الحُجَّاج، فما كان من هذا الخبيث الحاقد إلا أن تربَّص لها مع جنوده حين عودتها من الحج، ونهب القافلة التي كانت فيها، وقتل الكثير من أفرادها، ولم تنجُ ستُّ المُلك إلا بأعجوبة بحيث اضطر أخوها صلاح الدين عندما بلغه الخبر بأن يُقسم بالله بقوله: (والله لإن أظفرني الله بهذا الكلب لأقتلنه بيدي). ولذا فإنه لمّا جِيء به إلى مجلس السلطان صلاح الدين مكبَّلاً بالأغلال، كان من الطبيعي أن يُبِرَّ بقَسَمِهِ فيقتله بيده.

هذا صنيع القائد المسلم صلاح الدين بقادة وجنود معركة حطين، ثم أعقب ذلك أن اتجه إلى بيت المقدس التي لم تستطع الصمود في وجهه طويلاً، فاضطُرتْ إلى التسليم والخضوع، وفتحتْ أبوابها لجند الإسلام ليُطهِّروها من رجس الوثنية والكفر.

هذا ما حَكَم به صلاح الدين:

ولكن ماذا فعل القائد المنتصر صلاح الدين في سكان المدينة وبمن فيها من جنود وقادة وحُماة، وكلهم صليبيون لازالت أيديهم تقطرُ بدماء المسلمين؟ ماذا فعل القائد المُنتصر المسلم؟ أتُراه ينكِّل بهم ويجتزُّ رؤوسهم، ويفعل بهم ما فعله آباؤهم بسُكان المدينة المسلمين حينما استسلمتْ المدينة لهم؟ إنه لو فعل ذلك لكان عملاً منطقياً جزاءً وفاقاً لفعله، ولكن هَيْهات، إنَّ القائد المسلم صلاح الدين لا تحكمه عواطفه ونزواته ولا يُسيِّره هواه ورغباته، وإنما يستمدُّ جميع تصرُّفاته من وحي عقيدته، من روح الشريعة الإسلامية البارّة الرحيمة التي تفيض رأفةً ورحمةً، التي لا تَدَع للعنف والاستبداد سبيلاً إلى تصرفاتها.

كان موقف البطل القائد المسلم المُنتصر صلاح الدين أنه لم تُرَق قطرة دم واحدة بعد استسلام المدينة. وكانت إنسانيته ورحمته وعطفه وتعاليه على الجراح أكثر مما يتصوَّره العقل، وأكبر مما يخطر ببال لقد أصدر عفواً عاماً عن كل مَن في المدينة مُكتفياً بفرض جزية يسيرة هي في حدود دينارين على كل شخص قادر من هؤلاء الصليبيين، سواءً كانوا أمراء أو قادة أو جنود أو رجال دين أو جمهور السكان، وفي الوقت نفسه تكفَّل السلطان صلاح الدين بأنَّ هذه الجزية المتواضعة على القادرين على الدفع، وأنه ـ أي السلطان ـ سيدفع من جيبه الخاص الجزية المطلوبة من كل شخص غير قادر مرخِّصاً لهم في الوقت نفسه أنهم أحرار: مَن شاء منهم أن يرحل فهو حر، ومَن شاء أن يبقى فهو كذلك، وأنهم أحرار في نقل كل ما يملكون من متاع وأموال يصطحبونه معهم لا يُنقِصون منها درهم واحد؛ كذلك أصدر أوامره بأن مَن يريد أن يرحل مُصطحباً أمواله وما يمتلكه فإنه سيكون بحماية الجيش الإسلامي لا يتعرَّض له أحد، ولا يصاب بمكروه، ولا يُنتقَصُ من ماله شيء منذ خروجه من مدينة القدس إلى أن يصعد على متن السفن الراسية في البحر التي ستُقِلُّه إلى بلاده التي قَدِمَ منها.

كل إناءٍ بالذي فيه ينضح:

هكذا فعل المسلمون أيُّها الأخ ميشيل، هذا صنيعهم، وهذه تعاليم مثلهم وأخلاقهم، وعليك أنت أن تقارن بينها وبين بني جلدتك التي سردنا فعلهم، وما ارتكبوه من مجازر تقشعر منها الأبدان حين دخولهم مدينة القدس كما سبق أن شرحتها لك أثناء هذا الحديث، وهكذا ينطبق علينا وعليكم قول الشاعر:

ملكنا فكان الحِلم منا سجيةً   فلما ملكتُم سال بالدم أبطحُ
ولا عجبٌ ذاك التفاوت بيننا   فكلُّ إناءٍ بالذي فيه ينضحُ

استطاع المسلمون بعد أن وحَّدوا كلمتهم، واجتمعت صفوفهم،

واتخذوا من تعاليم دينهم منهجاً يسيرون تحت لوائه، استطاعوا أن يجتثُّوا جذوع الصلبية من أرض الإسلام ويقذفوا بهم إلى البحر، ليعودوا من حيث أتوا بعد صراعٍ دامٍ استمر قرنين من الزمان.

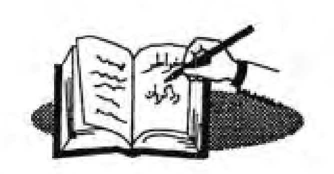
كانت أوروبا بأكملها على مختلف شعوبها وحكوماتها، ترسلُ النجدات الضخمة من العَتاد والرجال والسلاح بشكل مستمر، أملاً في إنقاذ صليبيي منطقة الشرق الأوسط، ولكن رغم ذلك كله لم تُجدِهم شيئاً، ولم تنقذهم من مصيرهم المحتوم.

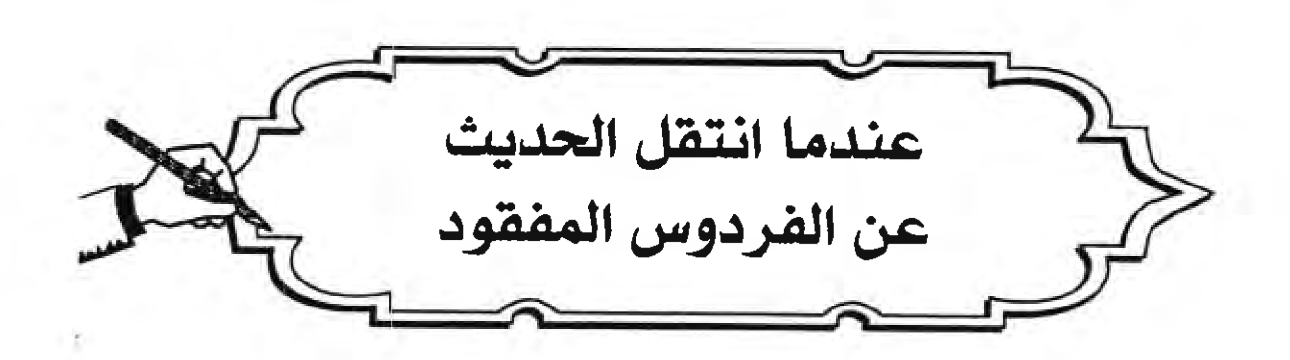
كان في وِسع المسلمين وقد تمكنوا من استرجاع حريتهم، وتمكُّنهم من دَحر أعدائهم والقضاء عليهم، كان في وِسعهم أن يلتفتوا إلى الجماعات المسيحية المتبقية في أرض لبنان من الأقليات المسيحية الموجودة في فلسطين وسوريا، والتي كانت شوكةً في ظهور المسلمين إبان الغزو الصليبي شأنهم شأن مسيحيي لبنان، كان في وِسع المسلمين أن يحاسبوا هؤلاء الذين تنكَّروا لِمَن أَحسن إليهم، وأذاقوا المسلمين خلال الفتح الصليبي أقذر أنواع الخيانة والغدر. كان في وسِعهم أن يفعلوا ذلك ولو فعلوا لما كنتَ أنت وأمثالك الآن تعيش على أرض لبنان، ولكنَّ سماحة دينهم وتعاليمه السامية التي تتميَّز بالعدل والرأفة والسماحة أبتْ عليهم ذلك، ولذلك فقد ترفَّعوا عن معاقبة المُسيء، وتركوا الجماعات المسيحية تظلُّ باقيةً في أماكن تواجدها وكأنها لم تفعل شيئاً ضدَّ الإسلام والمسلمين.

حقائق لا يحجبها إلا من يحجب الشمس:

كان دارس اللاهوت الأستاذ ميشيل يستمع إلى حديثي وهو يتململ، متوتر الأعصاب، بادي الغضب. ولكن الحقائق التي لا تقبلْ الجدل والنِّقاش ولا يحجبها إلا مَن يحجب الشمس بِكفه، هنا لم يجد ميشيل هذا مجالاً لإنهاء الحديث إلاّ أن يهبَّ واقفاً بحُجَّة أنه يشتكي من صُداع ألَمَّ به، وكان الوقت آنذاك في الهزيع الأخير من الليل، أي في حوالي الساعة الثانية بعد منتصف الليل تقريباً. ودَّعته بحرارة مُوضحاً له بأنَّ المسلمين طبقاً لتعاليم

دينهم لا يحملون حقداً ولا ضغينةً، ولذلك فإنَّ حوادث التاريخ لم يكن ولن يكون لها تأثير في معاملة المسلمين لأصحاب الديانات الأخرى كالمسيحية واليهودية.





عندما انتقل الحديث عن الفردوس المفقود

في الليلة الثالثة وبعد أن تناولنا طعام العَشاء نحن ومدام برباري وولداها والأستاذ ميشيل، أتبعناهُ بِشرب الشاي كما هي العادة يومياً: دخلتُ أُناقشه في موضوعات شتى موضحاً له رغبتي المُلّحة في الاستزادة من معلوماته ومن ثقافته اللاهوتية، مُوحياً له بأني أُمثِّل التلميذ المُبتدىء الذي يطمح إلى الاستفادة من معلومات أستاذه، وهو بالطبع ميشيل هذا.

كان هذا التصرُّف مني، يخلقُ في نفسه غروراً واستعلاءً، مما يجعله يميلُ إلى المناقشة والجدل.

كيف دخل الإسلام إلى الأندلس؟

وشيئاً فشيئاً أخذتُ أستجرّهُ في الحديث حتى انتقلتُ به إلى الأندلس (إسبانيا)، وكيف دخل الإسلام إليها، وكم هو عدد الجنود الذين اقتحموها مع طارق بن زياد لأوَّل مرة في رجب عام ٩٢هـ، ثم لَحِقَ به مولاه موسى بن نُصير، وما هي إلا مدة لا تزيد عن العام حتى كانت إسبانيا والبرتغال قد انضوت تحت راية الإسلام، وكيف أنَّ شعوب تلك البلاد كانت تُسارع جماعات وزرافات إلى اعتناق الإسلام طَوْعاً واختياراً لِمَا لمستْ فيه وفي أحكامه وتعاليمه، وفي أخلاق وسلوكيات أَتباعه من حُكام ومحكومين، ما لَمَستْ فيهم من سماحةٍ وعدلٍ وحريةٍ ومساواةٍ.

صروح العلم والمعرفة:

وكيف أنَّ المسلمين قد رفعوا مشاعل العلم والمعرفة في ربوع تلك البلاد، فأنشؤوا صُروح العلم والمعرفة في المعاهد والجامعات. وكيف أنَّ طلاب العلم من مختلف أنحاء أوروبا كانوا يتوافدون باستمرار إلى معاهد العلم في العاصمة قرطبة، وكان على رأس هؤلاء أحد البابوات في روما الذي تلقَّى دراسته وثقافته في جامعة قرطبة قبل أن يحتل كرسيه الرسولي (بابا لمعتنقي الديانة النصرانية).

أجنحة العدل والنور:

كيف أنَّ الإسلام ظلَّ باسطاً أجنحة العدل والنور على شعوب تلك البلاد ثمانية قرون من الزمن، كانت إسبانيا خلالها أشبه بسراج مُضيء يُنير لأوروبا وشعوبها الغارقة في دياجير الجهل والظلام، ينيرُ لها طريق الحرية والخلاص.

مسيحيو إسبانيا في ظل الحكم الإسلامي:

كان مسيحيو إسبانيا الذين رغبوا أن يظلوا على عقيدتهم، كانوا يعيشون في ظلِّ الحكم الإسلامي أخوةً متساوين في الحقوق والواجبات مع مواطنيهم المسلمين، يتمتَّع الفرد المسيحي بكافة ما يتمتَّع به الفرد المسلم من حقوق وواجبات، بل إن الفرد المسيحي يمتاز على الفرد المسلم لأنه غير مُكلَّف بخدمة العلم، أي بالدفاع عن البلاد كما هو مطلوب من الفرد المسلم.

أسباب سقوط الخلافة الأموية في الأندلس:

وعندما قضتْ سُنَّة الله التي لا تبديل لها؛ لأنَّ الأمم تظل شامخة قوية ما دامت متمسكة بشعائرها ومُثلها وأخلاقياتها. عندما سقطت الخلافة الأموية في نهاية القرن الرابع الهجري في قرطبة نتيجةً للصراعات والمطامع الشخصية بين القادة والزعماء، ونتيجةً لانصرافهم إلى الدعة والانغماس في

اللهو والملذّات، تمزّقت هذه الدولة العتيدة إلى دويلات متناحرة في كل منطقة أمير أو سلطان يكيدُ بعضهم لبعض، ويحاول كلٌّ منهم أن يستولي على ما بِيَدِ الآخر، مما نتجَ عنه الضعف شأنهم جميعاً، وهانتْ هيبتهم في صدور أعدائهم، وأصبحوا شِيعاً ودويلات كما قال الشاعر موضحاً لحالهم:

ألقابُ مملكةٍ في غير موضعها   كالهرّ يحكي انتقاحاً صولة الأسد

تساقط الدويلات المتناحرة:

وكانت النتيجة الحتمية لهذا الوضع المُزري المُعيب والمُحزن أيضاً، أنْ انكمشت رقعة الإسلام في تلك الديار، وأصبحت هذه الدويلات تتساقط كأوراق الخريف تحت ضربات المسيحية التي نَمَتْ وتَرَعْرَعَتْ في (أراغون) و(قشتالة) في أقصى الغرب من شبه جزيرة ليبريا، وهي التي كوَّنت دويلتين صغيرتين باسم أراغون وقشتالة، ثم أخذتْ تنمو نتيجةً لِما كانت أوروبا تمدُّها من عونٍ ماثلٍ بالعَتاد والسلاح والمال، ومستفيدةً من تفرُّق كلمة الحُكّام المسلمين واقتتالهم وتطاحنهم.

سياسة دولتي أراغون وقشتالة:

كانت سياسة هاتين الدولتين بالنسبة لتلك الدويلات الإسلامية المتصارعة هي أن تغتنم الفرص، فتُسارع حينما ترى حاكماً مسلماً يحارب أخيه المسلم محاولاً القضاء عليه وأخذ ما بيده، كانت تُغري الجانب الضعيف من هذين المتقاتلَين، تُغريه بالوقوف جانبه وتمكينه من الانتصار على خصمه، مقابل أن يتنازل لها عن بعض ما تحت يده من قِلاع وحصون إسلامية.

سقوط غرناطة:

وهكذا ظلَّ هذا الوضع مستمراً منذ سقطت الخلافة في قرطبة عام ٤٠٠هـ، وحتى سقوط غرناطة، آخر بقعة بقيت في يد الإسلام في آواخر عام ٨٩٢هـ، سقطت بِيَد الملكَين الصليبيَين، الملك فرديناند والملكة إيزابيلا، بعد حصار طويل لمدينة غرناطة، أبدى سُكانها من ضروب البسالة والشجاعة والقتال ما لا يستطيع الوصف أن يحيط به.

إمارة طُليطلة:

كانت أول إمارة خسرها المسلمون بسقوطها بِيَد الأعداء الصليبيين هي إمارة طُليطلة التي سقطت في عام ٦٤٢هـ. والتي كان سقوطها في عهد حكامها من بني هود المسلمين.

موت روح الجهاد والانغماس في اللهو والملذات:

كان المسلمون في ذاك الوقت بُعيد سقوط الحكم الأموي في قرطبة يمتلكون قِوى هائلة من الإمكانيات المادية من وِفرة المال والعتاد والرجال، وكان في وِسعهم لو جمعوا كلمتهم ووحَّدوا صفوفهم، وتكتلوا يداً واحدةً، كان في وِسعهم أن يقضوا على دولة (قشتالة) وزميلتها دولة (أراغون)، قضاءً لا تستطيعان النهوض بعده رغم الإمدادات التي كانت تتواصل باستمرار من دول أوروبا لهاتين الدولتين. كان في وِسع المسلمين ذلك، ولكنَّ انحرافهم عن تعاليم دينهم وابتعادهم عن روح الجهاد، وانصرافهم إلى الراحة والدِّعة والانغماس في اللهو والملذات ما أدَّى لتقويض حكمهم.

كيف نشأت دولتا (قشتالة) و(أراغون)؟

ولعلَّ من المفيد لك أيها الصديق ـ أعني ميشيل ـ أن أذكر لك كيف نشأتْ هاتان الدويلتان، أعني (قشتالة) و(أراغون) حالة أنَّ الجيوش الإسلامية قد وصلتْ إلى أقصى بقعة من شبه جزيرة إيبريا حين امتد اندفاعها في فتوحاتها الأولى في رجب عام ٩٢هـ.

مجموعة مغارة (كادا نوجا):

ولإيضاح ذلك أذكر لك بأنه لم يبقَ خارجاً عن السيادة العربية من شبه الجزيرة هذه سوى مجموعة لا يزيد تعدادها عن أربعين فرداً، لجؤوا إلى قمة جبل يقع في غرب شبه الجزيرة مُطلاً على المحيط الأطلسي، توجد في قمة هذا الجبل مغارة لجأ إليه هؤلاء الأربعون. وهذا الجبل يحيط به من جهاته الثلاث الشرق والجنوب والشمال وادٍ سحيقٍ يبلغ انخفاضه عن قمة

الجبل أكثر من ثلاثة آلاف متر (ويُعرف هذا المكان بـ (كادا نوجا)، وتبلغ مساحته أي مساحة هذا الوادي قرابة عشرة كيلومترات، منخفض عن سطح الأرض أكثر من عشرين متراً، وهذا المنخفض عبارة عن غابات لم يطأها الإنسان قط، تنتشر فيها الوحوش والأفاعي والكثير من الحيوانات غير المعروفة، ومع ذلك فقد بقي في هذا الوادي المنخفض مجموعات من أفراد الجيش الإسلامي مرابطين فيه ومحاصِرين أولئك الذين تحصَّنوا في مغارة الجبل.

مكثوا - أي المسلمون - في هذا المكان أكثر من ستة شهور قاسوا فيها من أصقاع البرد وزمهريره ما لا يُطاق، كما لقوا من الوحوش والأفاعي ما لا يقلُّ هولاً عن ذلك. ثم ارتأى القائد لتلك المجموعة أن لا جدوى من البقاء في هذا المكان وأنَّ هؤلاء المتحصنين في قمة الجبل لا أهمية حربية لهم، إذ لا يزيد عددهم عن أربعين فرداً، وهم في النهاية سيغادرون هذه المغارة طال الزمن أو قصُر، ولن يشكِّل وجودهم إذا عادوا إلى أرض الإسلام - وهم عائدون لا محالة - أيَّ خطر أو تهديد.

لصوص وقُطَّاع طرق:

استمرَّ هؤلاء المتحصِّنون في مغارة الجبل مدةً طويلةً تأقلموا فيها على حياة الموقع المحيط بهم، ثم أخذوا يمارسون حياتهم على حدود الأرض الإسلامية على هيئة لصوص وقُطاع طرق يُغِيرون على فريستهم، ثم يلجؤون إلى مكمنهم مرةً أخرى، ثم أخذ يتضاعف عددهم قليلاً قليلاً لِمَن قد يحمله الحقد على دولة الإسلام أن يلتحق بهم.

خليّة سرطانية:

وهكذا كانت هذه المجموعة - في مغارة (كاداتوجا) - أشبه بخلية سرطان أخذت تنمو وتتغلغل رويداً رويداً، وتتقوى بما أخذ يردِ إليها من المَدد والعون ممن يحقدون على الحكم الإسلامي.

ومع ذلك فقد ظلَّت الدولة الإسلامية لا تُعير هذه الفئة أيَّ اهتمام أو

اكتراث لأنَّ الدولة كانت موحَّدة تحكمها الخلافة الأموية طيلة أربعمائة عام، وكان لديها من القدرة والإمكانيات ما يجعلها تسحق أي قوة تريد النيل منها.

نموُّ البُؤْرة السرطانية:

وعندما انحلَّت دولة الخلافة في قرطبة وتمزَّقت إلى دويلات وإمارات بعضها يكيد لبعض، وبعضها يحاول افتراس البعض والقضاء عليه سنَحت الفرصة لبؤرة هذا السرطان أن ينمو ويتقوى وينتشر، مُغتنماً تمزُّق الجيش الإسلامي بانهيار الخلافة من قرطبة، ومُغتنماً فرصة هذا التطاحن المُريع بين هذه الدويلات كلٌّ منها تحاول ابتلاع الأخرى.

إمدادات بالمال والعتاد:

مُضافاً إلى ذلك أنَّ دول أوروبا الحاقدة على الإسلام قد أتاحت لها هذه المدة الطويلة من حكم الخلافة أن تتصل بهذه المجموعات المتمرِّدة على الإسلام والمسلمين، وأن توجد معهم حلقات اتصال تمدُّهم من خلالها بالرجال والمال والعَتاد بحيث استطاعوا في النهاية أن يكونوا خِنجراً ابتدأ يطعن في جسم الأمّة الإسلامية ويتغلغل فيه، حتى استطاع القضاء عليها.

مُثُل من سماحة الإسلام:

مع العلم بأنَّ جميع الأراضي التي حكمها الإسلام في إسبانيا تركت لشعوبها الحرية الكاملة للبقاء على ديانتهم يمارسون طقوسهم وتعاليم كنائسهم على الوجه الذي يرغبونه، وهذا أوضح مَثَل على سماحة الإسلام ورحابة صدره، وأنه لا يُكرِه أحداً على اعتناقه والدخول فيه.

الطابور الخامس:

ومع الأسف فإنَّ المسيحيين الذين ظلوا على ديانتهم كانوا أيضاً من العوامل الهدَّامة التي ساعدت على سرعة تقويض الحكم الإسلامي لأنهم

كانوا يمثِّلون الطابور الخامس بين صفوف المسلمين، فهم كانوا عيوناً وجواسيسَ لبني جلدتهم على الدولة التي نعموا خلال حكمها بما لم يحلموا به قط من عدل ورحمة وسماحة وحرية مُطلقة.

فرح مُجادلي بالقضاء على النفوذ الإسلامي في أسبانيا:

كان مُجادِلي ينصتُ إليَّ، وكانت أساريره تتهلل ما بين آونة وأخرى كلما جئتُ على ذكر نمو قوة مسيحيي إسبانيا، وكيف أنهم استطاعوا في النهاية وبمددٍ مستمر من الكنيسة في روما ومن دول أوروبا كافة، استطاعوا أن يقضوا في نهاية المطاف على النفوذ الإسلامي من كامل شبه جزيرة إيبريا، عندما سقط آخر معقل من معاقل الإسلام وأعني بها مدينة غرناطة على عهد ملِكها المنكود الحظ محمد أبي عبدالله آخر ملوك الإسلام في الأندلس، مسلِّماً مفاتيح المدينة للملك المنتصر (فرديناند) وزوجته (إيزابيلا) في رجب عام ٨٩٢هـ، بعد أن قاوم هذا الملك وشعبه المحصور في المدينة مقاومةً فاقت المعجزات، ولكن الكثرة والقوة تغلب الشجاعة.

آخر ملوك الإسلام في الأندلس:

ذلك الملك التعيس الحظ الذي التفتَ إلى غرناطة وهو يخرج من باب البيَّازين منها مودِّعاً لها الوداع الأخير، يرنو بطرفه إلى قصور الحمراء، ويذرف الدموع من عينيه حزناً وحسرةً على معاقل مجده وصروح دولته ومآثر آبائه وأجداده، تسقط من عينيه دمعةً حَرى فتلحظها أمُّه لتقول له بشيء من الجزع والحسرة: «ابكِ كما تبكي النساء، فقد أُعطيت مُلكاً لم تُحسن الدفاع عنه»، وهي في الواقع بمقولتها هذه قد ظلمته أشدَّ الظلم؛ لأنَّ الدفاع والمقاومة والبسالة التي أدَّاها سَجَّلتها كتب التاريخ في الشرق والغرب كمعجزات خارقة.

بين سماحة الإسلام وطغيان النصارى:

وهنا تبرز المقارنة بين سماحة الإسلام وبين طغيان وهمجية معتنقي الديانة النصرانية، لا أقول الديانة وإنما أقول معتنقيها. ولذا فإن ادعاءك بأنهم

يتقيَّدون ويُنفذون تعاليمها ومثلها هو زُور وكذب وافتراء، وهاك يا أستاذ ميشيل البرهان: سُلِّمت غرناطة بموجب اتفاقية بين الملك المسلم محمد أبي عبدالله الأحمر المهزوم، وبين مَلكَي النصرانية فرديناند وإيزابيلا المنتصرَيْن، سُلِّمت المدينة بموجب معاهدة بلغت بنودها أكثر من سبعين مادة، وذلك بعد أن عَجز المَلكان الصليبيان عن اقتحامها بالقوة رغم حصارهما لها مدةً تقربُ من العامين، ورغم ما كانا يتمتَّعان به من وَفْرة الجيوش والسلاح والعتاد.

نصوص المعاهدة بين المسلمين والنصارى:

كانت بنود الاتفاقية تنصُّ أول ما تنصُّ على بقاء المسلمين في أراضيهم وممتلكاتهم، لا يُضارُّون بها ولا ينقص منها شيء، وأنَّ لهم كامل الحرية بأن يزاولوا شعائرهم الدينية دونما اعتراض أو تضييق. يشرفون على أوقافهم الإسلامية وعلى معاهدهم ومدارسهم ومساجدهم، وعلى ما يمتلكونه من أراضٍ ومزارع وحقول. وأنهم أحرار من أراد منهم البقاء في البلاد فليبقَ مصونَ الكرامة، محترم الحقوق، متمتِّع بكامل الحرية، ومن أراد مغادرة البلاد، فإنَّ من حقه أن يَضطحب معه كل ما يمتلكه من أموال ومتاع لا يعارضه أحد ولا يُنتقص مما معه شيء.

هذه بعض نصوص المعاهدة، وهي معاهدة دولية قانونية مُلزمة، تعهَّد مَلكا النصرانية بالالتزام بها وتنفيذها حرفيّاً بكلِّ دقة. وهذه المعاهدة لازالت موجودة بنصوصها في كتب التاريخ التي تعرَّضت لسقوط الإسلام في الأندلس سواءً كانت غربية أو شرقية.

تلك كانت بنود المعاهدة التي تُوِّجت بتوقِيعَي مَلكي النصرانية (فرديناند) وزوجته (إيزابيلا) من جهة، ومعهم كبار رجال الدولة ورجال الكنيسة، وبين الملك المسلم المهزوم أبي عبدالله محمد آخر ملوك بني الأحمر، وآخر ملوك الإسلام في الأندلس، وتواقيع كبار رجال دولته.

ما فعله الصليبيون بالمسلمين في الأندلس:

كان أن غادر الملك المسلم وأسرته وحاشيته، ومَن أحبَّ أن يلحق به من أفراد شعبه أرض الأندلس، وارتحلوا إلى العدوة الأخرى على الجانب

الجنوبي من البحر، أي إلى شمال أفريقيا. كان المنطق والقانون وبنود المعاهد أن يظلَّ سكان الأندلس المسلمين في أراضيهم وفي مساكنهم وعلى ممتلكاتهم، يظلوا مواطنين عاديين في ظل الدولة المسيحية، شأنهم شأن بقية السكان من الرعايا المسيحيين، وهذا الوضع هو نفس ما اتبعه المسلمون حين فَتحهم لهذه البلاد في أول مرة، إذ ظلَّ المسيحيون يتمتَّعون بكامل حريتهم على أراضيهم وممتلكاتهم شأنهم شأن المسلمين تحت ظل الحكم الإسلامي، ينعمون بالعدل والحرية والمساواة والتمتُّع بكافة الحقوق التي يتمتَّع بها المسلمون الفاتحون.

التنكر لبنود المعاهدة:

بَيْدَ أنَّ الذي حدث أنه لم يمضِ عقدان من السنين، حتى بدأ الملك الإسباني، بتحريضٍ من رجال الكنيسة، يتنكَّر للمعاهدة محاوِلاً التنصُّل من بنودها، فبدأ يضيِّق الخناق على المسلمين. ثم أخذ يرهقهم بالضرائب وتقييد الحريات ومصادرة الأموال والممتلكات ومحاولة منعهم والتضييق عليهم لمزاولتهم لشعائرهم الدينية.

ثم خطا خطوةً أخرى فمنع خروج المسلمين من إسبانيا مُتنكراً لبنود المعاهدة التي كفلتْ لهم الحرية في ذلك، مبتدئاً بمنع المسلم الراغب في مغادرة الأندلس من أن يصطحب أي شيء من ماله أو ممتلكاته، وأنَّ عليه أن يذهب فقط بدون أن يحمل أيَّ شيء معه، لأنَّ الدولة ستصادر ما يملكه هذا الراغب في السفر من عقار وأموال ومتاع.

ثم خطا الملك النصراني فرديناد وزوجته إيزابيلا خطوةً جديدةً فمنعوا الهجرة إطلاقاً، وأرغموا المسلمين على البقاء في إسبانيا ليقوموا بخدمة النصارى، وليسخِّروا ثقافتهم وفنونهم وما يمتلكونه من نَشَب ومال لخدمة الدولة المسيحية.

ثم تجرَّأ بعد ذلك فأخذوا يصادرون ما يملكه هؤلاء البؤساء الذين قُدِّر أن يبقوا في أرض إسبانيا ويُمنعوا من مغادرتها. ثم أخذوا يُذيقونهم ألواناً

من العذاب والسُّخرة في العمل، ويُلحقون بهم أشد وأقصى أنواع الذل والإهانة، بحيث أصبحت معاملة المسيحيين لهؤلاء المسلمين البؤساء أقسى وأعنف وأذل من معاملة العبيد.

تعاظم الحقد المسيحي:

ظلَّ هذا الوضع مستمرّاً بضعة عقود من الزمن، ثم أخذ الحقد المسيحي يتعاظم ويخرج عن دوره ويبرز علناً بكل صفاقةٍ ونذالةٍ وحقدٍ قذرٍ. أخذوا يمنعون المسلمين من أداء شعائر دينهم بمساجدهم، فأقفلوا المساجد، ومنعوا الصلاة فيها. ثم حرَّموا على المسلمين صيام رمضان وصلاة العيدين وكل ما له صلة تدلُّ على انتسابه للإسلام. ثم أرغموا المسلمين على تغيير أسمائهم بأسماء مسيحية، بحيث منعوا أي اسم إسلامي من أن يُنطق به في إسبانيا، وعلى مَن يحمل اسم محمد مثلاً أن يغيّره باسم طوني أو جورج أو روبرت أو ما شاكل ذلك. ثم أتبعوا ذلك بأن منعوا المسلمين من الإتيان بأي سِمة تشي بأنها من شعائر الإسلام، أُلزم الجميع رجالاً ونساءً أن يرتدوا الزِي المسيحي، ومُنعوا من الاغتسال. ثم أُنشئت جمعيات لمراقبة المسلمين لمعرفة ما إذا كانوا يزاولون في بيوتهم خفيةً، ولو كان قدراً يسيراً من شعائر دينهم، والويل كل الويل لِمَن يُضبط يقوم بشيء من ذلك، فهناك الحبس، وهناك التنكيل والقهر والغرامات.

محاكم التفتيش:

وأخيراً عَمدوا إلى أبشع صورٍ سجَّلها التاريخ على امتداد حقبة من حقد وعنف وجبروت ووحشية التي تقصر عنها أنياب أُسُد الغابة. ذلك أنهم وكأنَّ ما فعلوه بالمسلمين من قهرٍ وإذلالٍ ومصادرةٍ للممتلكات ومنعٍ لمزاولة شعائر دينهم، وإلزامهم بتغيير زيّهم الإسلامي، وإبدال أسمائهم العربية بأسماء أجنبية، ومنعهم من الغُسل أو الوضوء أو كل ما يمُتُّ إلى الإسلام بصلة، فعلوا بهم كل ذلك جاعلين منهم عبيداً أرقاء، وآلةً صمّاء لخدمتهم وتأمين الرفاهية لهم، لم يكفِهم ذلك كله لإرواء تعطُّش حقدهم الدفين على

الإسلام والمسلمين، فأنشؤوا محاكم في كل بلد أُطلق عليها اسم (محاكم التفتيش)، محققوها وقُضاتها من غُلاة رجال الكنيسة المتعطشين إلى دماء المسلمين. أنشؤوا هذه المحاكم وألحقوا بها المئات من الجواسيس يتتبعون كل مسلم، يحصون عليه حركاته وسكناته، ويرفعونها يوماً بيوم إلى هؤلاء القسّيسين والرهبان الذين أُسندت إليهم مهمة التحقيق والعقاب - أي الخصم والحكم معاً -. ولن أشرحَ لك عن محاضر التحقيق المُخزية، التي يندى لها جبين الإنسانية خجلاً واشمئزازاً؛ لأنَّ ذلك شيء تشمئز منه النفوس الأبيّة، ويثيرُ في النفس الغثيان والاشمئزاز. وما عليك إذا رغبت في معرفة تفاصيله ومهازله المُضحكة، إلاَّ أن تقرأ الكتب التي سجَّلتْ أحداث تلك الفترة، سواءً في مصادرها المسيحية أو العربية. وإنما يعنيني فقط أن أذكر لك نوع الأحكام التي كانت تُصدرها تلك المحاكم بحق أولئك البؤساء من المسلمين الذي عَثَر بهم الحظ فأوقعهم في براثن أولئك السّباع المُلطخة أنيابها وأصابعها بدماء الأبرياء، وأعني بهم أولئك القسّيسين والرهبان الذين يتولّون التحقيق، ثم يتولّون إصدار الأحكام وتنفيذها.

من ألوان التعذيب:

كان هناك في كلِّ بلد وعلى مقربة من هذه المحاكم ساحات واسعة اختيرتْ خصِّيصاً، ونُصبت عليها أعوادٌ من الخشب يبلغ ارتفاع الواحد نحو مترين ونصف، وعلى بُعد ثلاثة أمتار تقريباً أو أربعة عمود مماثل للعمود الأول مساوياً له في الطول، وأُثبتَ بين العمودين على ارتفاع نحو مترين من الأرض عمود من الخشب، أُثبتَتْ فيه كلاليب من الحديد بعضها بجوار بعض مماثلة للمسالخ المعروفة.

كان الحُكم الذي لا يتغيَّر مهما كانت التهمة تافهة هو الحرق شنقاً، معنى ذلك أن يُقيد الضحية من قِبل يديه ورجليه، ثم يُعلَّق بأحد هذه الكلاليب الحديدية، كما تعلَّق الشاة عند سلخها.

كان هؤلاء الوحوش يجمعون من تصدرُ عليهم هذه الأحكام، يخصِّصون لهم يوماً مُعيناً يحددون وقته من النهار لكي يحضر سكان المدينة

لمشاهدة المنظر، ثم يُؤتى بهؤلاء التُعساء مُقيدي الأرجل والأيدي، ويعلِّقون على تلك الكلاليب الحديدية واحداً بجوار الآخر، وقد يبلغ عدد هؤلاء التُعساء العشرة أو أكثر، يعلَّقون على هذه الكلاليب كالخِراف المذبوحة، ويتجمهر سُكان البلد لمشاهدة المنظر، وكان يُعتبر يوم عيد عندهم. بعد أن يتمّ تعليق هؤلاء الضحايا يُؤتى بأكوام من الحطب تحتهم مباشرةً، ثم تُشعل فيها النار، ولن أسترسل في الوصف فيكفيك أن تتصور في خيالك هول وفظاعة ذلك المنظر.

بقعة سوداء في تاريخ النصرانية:

هذا حُكمكم يا أستاذ ميشيل وأنا قد أفهم أن تكون محاربة الإسبان المسيحيين للمسلمين وإخراج المسلمين من إسبانيا، أفهم بأن الادعاء بأنَّ هؤلاء المسيحيون إنما قاموا باسترداد حريتهم وطرد الغزاة الفاتحين ـ أعني المسلمين ـ من ديارهم، أفهم أنَّ ذلك قد يكون مبرَّراً برغم ما فيه من تهافتِ ومجانبةٍ للواقع، أفهم ذلك كله وقد أقبله منك مُدافعاً عن النصرانية، ولكن لن أقبل منك ولن يقبل منك التاريخ، ولن يقبل منك أيُّ إنسان مُدرك أن تبرِّر ما فعله الإسبان والمسيحيون، وعلى رأسهم ملوكهم وقساوستهم ورهبانهم، لأنَّ ما فعلوه هو وصمةُ عارٍ وخزيٍ، لطخت وجه التاريخ وستبقى بقعةً سوداء في تاريخ المسيحية إلى أن يَرِثَ الله الأرض ومَن عليها.

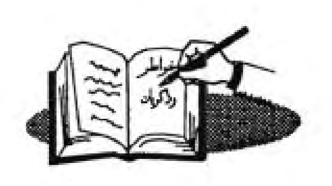
وصمة عار في جبين النصرانية:

كان ميشيل هذا ينصتُ بهدوء لوقائع التاريخ التي سردتها على مسامعه عما فعله بنو جلدته من النصارى في مسلمي الأندلس. كان يستمع بصمتٍ محاولاً بين آونة وأخرى التشكيك في تلك الوقائع التي كنت أسْردها عليه، وكانت إجابتي له دائماً أنَّ عليه قبل أن يشكِّك في صحة هذه الوقائع، عليه أن يرجع إلى وثائق محاكم التفتيش في إسبانيا، وفي دوائر الفاتيكان في روما، وفي الكتب العديدة التي سجَّلها مؤرِّخو النصارى من إسبان وفرنسيين

وغيرهم من مفكري تلك الحقبة المُظلمة، والتي هي وصمةُ عار في جبين المسيحية كما يقول أولئك المفكرون الأحرار من الإسبان وغيرهم الذين عُنوا بتسجيل أحداث تلك الفترة. كان يتململ أثناء استماعه ويكاد العرق يتصبب من جبينه خجلاً مما يسمع.

وقد حدث أن تَغَيبتُ عن لبنان مدة أسبوعين لزيارة سوريا، ثم عدتُ بعد ذلك فوجدتُ أنَّ الأستاذ ميشيل لازال مواظباً للحضور ليلياً ومعه مدام برباري وأبناؤها، ولازالوا مواظبين على الحضور كل ليلة بعد غروب الشمس مباشرةً حتى الثانية بعد منتصف الليل تقريباً؛ لأنهم أصبحوا ينظرون إلى سكننا هذا كمطعم جيدٍ يتيحُ لهم يومياً وجبةً دَسِمةً هي وجبة العَشاء، ثم يظلُّون على الأرائك بجوار مواقد التدفئة يقرؤون الجرائد المُكدسة، ويتبادلون شتى الأحاديث مع الإخوان الزملاء.

مكثتُ بعد عودتي نحو أسبوعين تقريباً، كنت أتجنَّب مناقشة الأستاذ ميشيل لأنني أراه يتهرَّب من وجودي، ويحاول وصل حديثه مع أحد الزملاء.





الأستاذ ميشيل يتحدث عن المسيحية

مرّت تلك الأيام ويبدو أنه خُيِّل إليه أنني لم أجرؤ على الدخول معه في مناقشته للمفاضلة بين الديانتين: بين الإسلام والمسيحية، وهو معذور في هذا التصوُّر؛ لأنه كان يقوم آنذاك بدارسة اللاهوت الذي هو علم الأديان، وبالطبع لأنه درس ويدرس ما يتعلَّق بالديانات الثلاث: الإسلام والمسيحية واليهودية، ومعنى ذلك أنه أستاذ في هذا الفن، بينما أنا لم تُتَح لي فرصة للدراسة مثله، وبالتالي فإن معلوماتي فيما يتعلَّق بهذا الموضوع ضَحلة ومحدودة لا تُمَكِّنني من الجدل والمناقشة في موضوع شائك كهذا.

وعلى أساس هذا التصوُّر أخذ تدريجياً يغيِّر مَسْلَكه ويتجه إليَّ بالحديث، وتبدو منه إشارات تَشي بأنه يرغب استدراجي إلى الدخول معه في المناقشة حول الدِّيانات. كنت من جانبي أُبدي له شيئاً من عدم الرغبة في الخوض في مثل هذه الموضوعات لأنَّ معلوماتي عنها محدودة، وكنتُ في قرارة نفسي أهدفُ إلى إغرائه بالإصرار على المناقشة. وفعلاً تحقّق الهدف الذي أشرتُ إليه، إذ ما كِدنا أنا وزملائي وميشيل وجماعته ننتهي من تناول وجبة العَشاء وشرب الشاي بعدها، حتى أخذ يلاحقني بالأسئلة مُلّحاً عليَّ بالدخول في المناقشة، مُضيفاً إلى ذلك أنَّ من حقه وقد أصغى لحديثي المطوَّل عن تاريخ المسلمين وتاريخ النصرانية المُمثل في جيوش الصليبية التي غزت الشرق الأوسط واستقرَّت به قرابة قرنين من الزمان مُنشئةً فيه دولاً وممالك، أو ما فعله نصارى إسبانيا عندما تغلَّبوا على دولة الإسلام، وقضوا على آخر رمز للإسلام مُمثلاً في آخر ملوكه أبي عبدالله محمد بن الأحمر

عام ٨٩٢هـ، من حقه ـ كما يقول ـ أن أصغي لحديثه عن الديانة المسيحية وفضائلها، وما تمتاز به من رحمةٍ وسماحةٍ وَبِرٍّ.

كانت إجابتي لطلبه أن سألته: هل تحب أن تقوم بالمقارنة بين المسيحية والإسلام كعقيدتين سماويتين، أم تحب أن أقوم أنا بذلك؟ أجاب أنه يرغب هو أن يتولّى شرح الموضوع. بدأ حديثه بأنَّ المسيحية هي رسالة أتى بها السيد المسيح مكلَّفاً بها من الله لإبلاغها لبني إسرائيل، وأنَّ هذه الديانة قد سُجلت ضمن الأناجيل المعروفة سواءً التي أمْلاها السيد المسيح نفسه، أو أملاها حواريّوه الذين أرسلهم إلى الأقطار للتبشير بهذه الديانة، وهم لوقا ومتّى وبطرس وبقية الحواريين.

تحمل خطايا البشر وعقيدة الفداء:

وأنَّ هذه الشريعة تصبُّ جميع تعاليمها وطقوسها بوجوب الرحمة والتعاطف بين البشر والابتعاد عن الحروب، وَتَجنُّب الرذائل والأخذ بمكارم الأخلاق، وأنَّ البشر إخوة متساوون، وأنَّ صاحب الرسالة السيد المسيح عليه السلام رحمةٌ أنزله الله لإنقاذ البشر، وأنه ابن الله الأثير لديه، وأنَّ الله سبحانه وتعالى لَمّا رأى البشرية قد انغمست في الضلال والفجور، وفي الموبقات والرذيلة، وارتكبت من فظائع الظلم والاضطهاد ما لا مزيد عليه، فإنَّ الله سبحانه وتعالى أرسل ابنه هذا الذي جاء عن طريق العذراء بدون أب كمعجزةٍ لخلقه على تلك الصورة، أرسله الله سبحانه وتعالى ليُنقِذَ البشرية من ضلالها، وليتحمَّل خطايا البشر وسيِّئاتهم وموبقاتهم مخلِّصاً لهم من هذه الشرور وفادياً لهم بنفسه، ولذا فالمسيحيون يطلقون عليه لقب (الفادي) و(المخلِّص).

كرسي الاعتراف:

وأنَّ من تعاليم الإنجيل أنَّ المسيحي ذكراً كان أو أنثى إذا ارتكب فاحشةً أو ذنباً أو خطيئةً فما عليه إلاَّ أن يذهب إلى القسيس أو الراهب فيعترف له بما ارتكبه من ذنوب وسيئات، وعندئذٍ يوصيه الكاهن أو القِس

بعدم العودة مرةً أخرى إلى مثل ما فعل، موضِّحاً له أنَّ خطيئته التي اعترف بها للكاهن أو القِس أو الراهب قد غُفرت له ومُحيت من سِجل حياته وكأنها لم تكن.

وذلك على أساس قاعدة تضمَّنها الإنجيل تقول: إنَّ ما يُربط في الأرض يُربط في السماء. ثم استرسل في حديثه هذا شارحاً... لأنَّ الطقوس التي أوجبتها عليهم تعاليم الإنجيل هي حضورهم الكنيسة كلَّ يوم أحد لسماع عِظة القِس أو الكاهن لمدة محدودة من الزمن، ثم لا شيء بعد ذلك. وأنَّ التركيز كلَّ التركيز هو إشاعة الأُلفة والمحبة بين البشر، ومساعدة المحتاجين والبؤساء، والصفح عن مَن اعتدى على أساس أنَّ من ضربك على خدك الأيمن فأَدِرْ له خدك الأيسر.

عقيدة الصلب:

ثم أخذ يفيض بالحديث حول هذه الأشياء موضحاً عن نهاية السيد المسيح عليه السلام، وكيف أنه تحمَّل القتل على الصليب يَفدي بنفسه خطايا البشر، وكيف أنه نقل الصليب على كتفه ماراً بأسواق القدس القديمة حتى أتى إلى الموضع الذي كان قد تَجمّع فيه خصومه وأعداءه قادة وزعماء اليهود ورجال الحكم الروماني وعلى رأسهم حاكمهم، ثم أُصعدَ على خشبة الصليب وسُمِّرت يداه حتى فاضت روحه، ثم أُنزل بعد ذلك ودُفن بكنيسة القيامة لمدة يومين، ثم انشقَّ القبر عنه وصعد إلى السماء. وأنه الآن يجلس عن يمين الإله سبحانه وتعالى الذي يُسمِّيه المسيحيون أباً له، وأنه سيظلُّ كذلك عن يمين الله حتى يحين الوقت الذي قضى الله سبحانه أن ينزل فيه إلى الأرض.

الأقانيم الثلاثة:

ثم أنهى كلامه بأنَّ عقيدة المسيحيين تتألف من ثلاثة أشخاص هم: الله سبحانه وتعالى، وابنه المسيح ـ كما يزعمون ـ، وروح القُدس، الذي هو جبريل. وأنَّ هذه الشخوص الثلاثة تمثِّل شخصاً واحداً هو الله سبحانه

وتعالى وهو ما يعبِّر عنه المسيحيون بـ (الآب والابن والروح القُدس).

ومعنى الآب في عقيدتهم هو الله سبحانه وتعالى، ومعنى الابن هو: السيد المسيح عليه السلام، ومعنى الروح القدس، هو: جبريل أمين الوحي.

إنصات ويقظة واهتمام:

كنتُ أُنصِتُ لحديثه بكلِّ يقظة واهتمام مستحضراً جميع حواسي. لم أقاطعه قط، ولم أعترض على أيِّ كلمةٍ ذكرها في حديثه، بل تركته ينطلق على سجيته حتى ختم حديثه بتعيين الإله المعبود الذي يتجه إليه المسيحيون للعبادة، والذي يعبِّرون عنه بالآب والابن وروح القُدس. ثلاثة شخوص يكوِّنون في ـ زعمهم ـ شخصاً واحداً، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ﴿كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا﴾ [الكهف: الآية ٥].

عندما بُهِتَ الذي كفر:

سألته بعد أن توقَّف عن الحديث عما إذا كان لديه ما يرغب أن يقوله بهذا الموضوع، مفهماً له أني على أتمِّ استعداد لمواصلة الإنصات إليه والاستماع لما يقول. أجاب بأن ما سَردَهُ في حديثه هذا كان خلاصةً مركَّزة عن ما يعتقده أنه الشرح الوافي للعقيدة المسيحية. هنا أجبته بقولي: هل تحب أن أشرح لك عن العقيدة الإسلامية وشعائرها ومبادئها ومُثلها العُليا أولاً، ثم أناقشك بعد ذلك عن رأيي الخاص فيما تضمَّنه حديثك عن العقيدة المسيحية ثانياً؟ أم ترغب أن أبدأ بمناقشتك عما جاء في حديثك أولاً، ثم أشرحُ لك بعد ذلك عن العقيدة الإسلامية، لكي تناقشني فيما قد يبدو لك موجباً للمناقشة؟

أجاب: وفي وِسعك أن تناقشني أولاً عما تضمَّنه حديثي لك الآن عن العقيدة المسيحية، وما إذا كان لديك من اعتراض أو نقاش في سماحتها ومُثلها ومبادئها السامية الرفيعة.

قلت: حسناً إذاً فلنبدأ أولاً بنظرة المسيحية إلى السيد المسيح عليه السلام، **أولاً**: أنا أعلم أنَّ المسيحيين لا يؤمنون بالإسلام وبالتالي لا يعترفون بنبيّه، بينما المسلمون لا يُعتبر المسلم صحيح الإيمان ما لم يُؤمن بالسيد المسيح نبياً مُرسَلاً بشريعةٍ سماويةٍ من قِبل الله جلَّ وعلا، ومعنى ذلك أنَّ من يُنكر نُبوّة السيد المسيح عليه السلام وسائر الأنبياء والمرسلين قبله، لا يُعتبر مسلماً.

مناقشته في عقيدة الفداء:

ثانياً: أنت تقول أنَّ السيد المسيح عليه السلام قد أرسله الله سبحانه وتعالى وهو ـ كما تزعم ـ ابنه العزيز لديه الأثير عنده، أرسله إلى الأرض لِيفدي بنفسه ذنوبَ البشر الموجودين وقت ذاك، بحيث يتحمَّل القتل لكي ينقذهم من ذنوبهم وخطاياهم، ومن أجل ذلك أطلق عليه المسيحيون ـ كما ذكرت ـ لقب الفادي والمُخلِّص. وأنت تعلم ـ كما أعلم وكما يعلم جميع معتنقي الدِّيانات السماوية الثلاث ـ أنَّ الله سبحانه وتعالى جلَّ ذكره وتَعَالَتْ أسماؤه هو الحقّ وهو العدل، وهو الذي لا يظلم الناس مثقال ذرة؛ لأنَّ البشر جميعهم هم صنعةُ يده، وهم متساوون عنده لا فرق لواحد على آخر، ولذلك فإنَّ تحديد مهمة السيد المسيح عليه السلام بأنه الفادي والمُنقذ تعني أنه ضحّى بنفسه وفَدى به البشر الذين كانوا موجودين وقت ذاك، ثم مَن يتبع تعاليمه التي تضمَّنتها الأناجيل إلى أن تقوم الساعة كما تعتقدون أنتم المسيحيون، وهنا نسألُ: كم من الأنبياء والرُسل والرسالات السماوية، وكم من الأمم والشعوب التي عاشت على ظهر هذا الكوكب (الأرض) منذ أُهْبِطَ أبونا آدم من الجنة إلى الأرض حتى وقت بعث المسيح وإرساله؟ لا شك أنك تُقِرُّ معي بأنَّ هناك أمم وشعوب قد عاشت طيلة هذه القرون المُوغِلة في القِدم، أي منذ أُهبط آدم إلى وقت مجيء المسيح. هذه الأمم التي عاشت على وجه هذه البسيطة ارتكبت من الذنوب والخطايا، ومن الجحود والنُكران بوجود الله سبحانه وتعالى الكثير، بعضها قد عُوقِبَ في الدنيا وبعضها لم يُعاقب، ومعنى هذا أنها ماتت وهي مُثقلة بالخطايا والذنوب.

مصير الأمم الذين كانوا قبل مجيء المسيح:

وعلى أساس هذا المنطق الذي جاء في حديثك فإنَّ البشرية كانت قسمان: قسمٌ سبقوا مجيء المسيح وهؤلاء عاشوا وماتوا بذنوبهم وخطاياهم، وقسمٌ بعد مجيء المسيح وهؤلاء فَدَاهُم المسيح بنفسه هم ومَن سيأتي بعدهم إلى أن تقوم الساعة.

وواضح أنَّ الخَلْق جميعه خَلْق الله سبحانه وتعالى، وهم متساوون عنده من حيث كونهم جميعاً صنعة يده، وهو عادل لا يظلم أحداً، وهذا التميز بين الفئتين من خَلْقه، أي الفئة التي امتدت من هبوط آدم مباشرةً إلى بعثه السيد المسيح عليه السلام، وبين الفئة التي وُجدت بعد مجيء المسيح وستمتد إلى يوم القيامة.

ألا ترى أنَّ في هذه المعادلة بين الفئتين معادلة غير عادلة، وحاشا الله سبحانه وتعالى أن يحيف أو ينحاز أو يُحابي أو يَظلم أي مخلوق من خَلْقه.

ألا ترى أنَّ الأخذ على أساس منطقك الذي سَردته في حديثك مؤدياً إلى هذه النتيجة؟؟ أي أنَّ الله سبحانه وتعالى تعطَّف فبسط رحمته للفئة التي أعقبتْ مجيء المسيح عليه السلام، بينما حَرَم الفئة السابقة لها، والتي أعقبتْ هبوط آدم حتى مجيء المسيح، ألا ترى أنَّ ذلك ظلم للفئة السابقة لمجيء المسيح وإجحاف بحقها، والله سبحانه وتعالى مُنَزَّه عن الظلم، ومثل هذه المقولة لا يمكن أن يقبلها ذو عقل وبصيرة.

ارتباك ميشيل وتململه وانصرافه:

كنت أحدِّث الأستاذ ميشيل، أُناقشه بهدوء، وقد بَدَتْ عليه علاماتُ الارتباك والضجر والتململ. وإذ ألححتُ عليه بوجوب الإجابة الصريحة على صحة هذه النتيجة المنطقية التي ترتَّبت على ما جاء في حديثه من أنَّ المسيح عليه السلام كانت مهمته أن يَفدي البشر بنفسه، ويموت على خشبة الصليب ليكفِّر بموته عن خطايا وذنوب البشر.

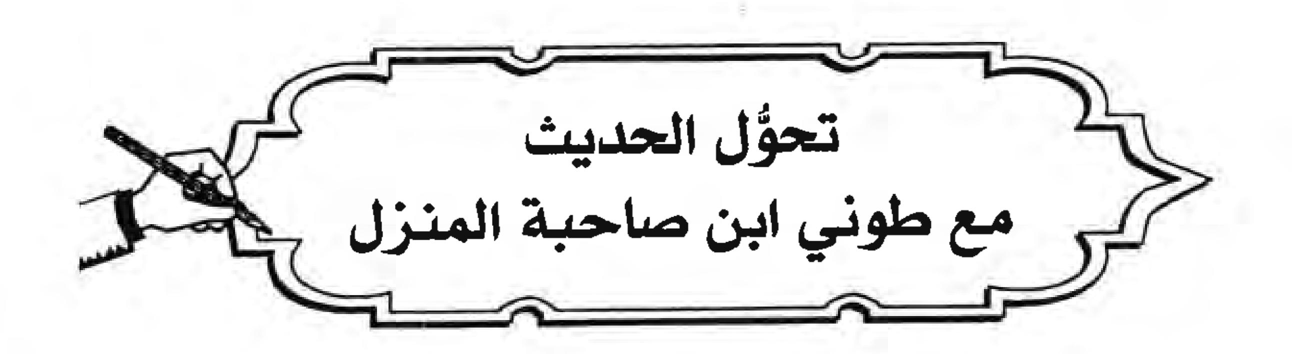
ظلَّ صامتاً بضع دقائق دون أن يُحِر جواباً، ثم هبَّ واقفاً موضحاً أنه يحسُّ بصداع قد لا يُمكِّنه الآن من مواصلة الحديث، وأنه سيعطي الإجابة في الليلة القادمة، ثم انصرف مُسرعاً، وكانت الساعة آنذاك حوالي الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

فرية مضحكة:

بعد انصرافه وكان الزملاء رفاقي أحمد وعبدالمحسن وعبدالرحمن قد قطعوا شوطاً طويلاً في نومهم تاركين الساحة لي وللأخ ميشيل. هنا أويتُ إلى فراشي، وكل تفكيري منحصرٌ في هذه الفرية التي يعتنقها بحقِّ الله سبحانه وتعالى المسيحيون، إذ يعتبرون ذاته العليَّة مكوَّنةً من ثلاثة شخوص: آب، وابن، وروح قدس، وأنَّ هذه الثلاثة في زعمهم ومعتقدهم الباطل تمثِّل إلٰهاً واحداً؛ تعالى الله عما يقولون عُلواً كبيراً، إنما هو الله واحد لا إلٰه إلا هو ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: الآيتان ٣، ٤].

كيف يستسيغ هؤلاء البشر فريةً مُضحكةً ساذجةً كهذه الفَرية: ثلاثة شخوص تُمثل شخصاً واحداً؟!! كيف تستسيغ عقولهم قبول مثل هذا الجهل المُضحك وهم مَن هم، فيهم المفكرون الفلاسفة والعباقرة والمخترعون، ومَن بلغ أسمى مراتب النُضج العقلي، كيف يستسيغون ذلك؟! إنها الأعجوبة المدهشة، وصدق الله إذ يقول: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: الآية ٤٦].





تخلف ميشيل عن الحضور:

في الليلة التالية لهذا النقاش، لم يحضر الأستاذ ميشيل كما وعد وكما هي عادته في كل ليلة، وإنما بعثَ إليَّ رسالةً شفهيةً على لسان مدام برباري (مالكة المنزل) مَفادها أنه لم يحضر لأنه يحسُّ بصداع مستمر لم يُمَكِّنه من الحضور. تمنَّيتُ له الشفاء، ثم استمرتْ جلستنا الاعتيادية كل يوم، مدام برباري وأبناءها ونحن سكان المنزل، نتناول العَشاء كالعادة، ثم نشرعُ في قراءة صحف ذلك اليوم مُسترخين على الكراسي بجوار مواقد التدفئة نتجاذب أطراف الحديث.

محاولة دخول طوني في حوار معي:

وهنا لاحظتُ أنَّ ابن صاحبة المنزل وهو يُدعى طوني يحاول الدخول معي في مناقشات حول الموضوع الذي كان مدار النِقاش بيني وبين زميله الأستاذ ميشيل دارس اللاهوت.

ضحالة معلوماته:

كنتُ أتجاهل رغبته هذه، وأحاول إدارة دفة الحديث إلى وُجهة أخرى غير موضوع الديانة وما يتعلَّق بها؛ لعلمي أنه ضَحل المعلومات فيما يتعلَّق بالحديث مدار البحث. ولكن كان إعراضي عنه يحملُه على الإلحاح عليَّ

بمبادلته النقاش كما فعلتُ مع صديقه ميشيل.

كانت أخته شديدة التوثُّب لمساندة أخيها في مناقشتي، وهنا سألتُ طوني قائلاً له: إنَّ نِقاشي كان يتعلَّق بموضوع العقيدة المسيحية كما سمعتَ خلال حديثي مع ميشيل، وأنَّ ميشيل بِحُكْمِهِ يدرس اللاهوت في الكليّة اليسوعية في بيروت، أي علم الأديان، ولذا فهو مؤهَّل للمناقشة لأنها تدور في محيط دراسته واختصاصه، أما أنت فالحديث معك في موضوع كهذا غير ذي جدوى.

وهنا تحدَّث قائلاً: إنني درستُ ضمن دراستي التي لازلت أمارسها حتى الآن في الكلية اليسوعية في بيروت، درستُ على يد الخوارنة والقساوسة الكثير عن موضوع العقيدة المسيحية، ولذا ستجدني على استعدادٍ كاملٍ لأن أقوم مكان الأخ ميشيل في مواصلة المناقشة في هذا الموضوع.

الدخول في الحوار:

لم أجد بُداً من الاستجابة لطلبه رغم علمي بعدم جدوى هذه المناقشة، إلاَّ أنني فعلتُ ذلك تحقيقاً لرغبة الإخوان أحمد وعبدالمحسن وعبدالرحمن الذين ألَحُّوا عليَّ بالاستجابة لطلبه.

هنا سألته بقولي: هؤلاء الإخوان الذين تراهم أمامك وهم الأستاذ أحمد والأستاذ عبدالمحسن والأستاذ عبدالرحمن، كم عددهم؟ أجاب بقوله: ثلاثة. قلت: ألا يمكن أن يكونوا شخصاً واحداً؟ قال: لا، إنَّ ذاك مستحيل.

عقيدة التثليث:

قلتُ: إنكم أنتم المسيحيون تؤمنون بأنَّ الثلاثة يكوِّنون شخصاً واحداً. قال: كلا، إنَّ ذاك مستحيل هم ثلاثة أشخاص كلٌّ منهم مستقل بذاته وكيانه.

قلت: إذن عندما ترفع يديك عند دخولك الكنيسة فتضعها على صدرك

وجبينك قائلاً: الآب والابن والروح القدس، ماذا تعني بهذه الأسماء الثلاثة التي ذكرتها؟ قال: أعني بها الآب وهو الله، والابن وهو المسيح، وروح القُدس الذي هو جبريل.

قلت: هؤلاء ثلاثة فكيف يكوِّنون واحداً؟ قال: لا، إنما تعني هذه الكلمات الثلاثة شخصاً واحداً هو الله. قلت: كيف يكون ذلك؟ أليس كلمة الابن تمثِّل المسيح، وكلمة الروح القُدس تمثِّل جبريل، وكلمة الآب تمثِّل الله - في زعمكم -؟ أجاب بقوله: إننا وإن كُنا نقول الآب والابن وروح القُدس، فإننا لا نقصد أنهم أشخاص ثلاثة متميزون لكلٍّ منهم شخصيته المستقلة! قلت: هذا منطق طفوليّ بالغ السذاجة والجهل؛ لأنكم تنطقون ثلاثة أشخاص، ثم تدَّعون أنَّ هؤلاء الثلاثة شخص واحد. أجاب: هكذا تعلَّمنا من الإنجيل، وهذه العقيدة ليس يُراد منها التثليث، وإنما يُراد بها في النهاية ذاتٌ واحدةٌ هو الله سحانه وتعالى. قلت له: دَع عنك الأناجيل وما تقول، وارجع إلى عقلك مُجرداً مما تحمله الأناجيل، وقل لي: أليس هؤلاء ثلاثة لكلٍّ منهم كيانه وشخصيته المُستقلة، فضلاً عن أنَّ الابن له مهمة خاصة أُوكلت إليه في زعمكم، وهي التضحية بنفسه على الصليب تكفيراً عن خطايا البشر، وأنَّ روح القُدس هو جبريل ومهمته نقل التعليمات الإلٰهية من السماء إلى الأرض، وأنَّ مهمة المَولى سبحانه وتعالى هي الإحاطة والسيطرة على جميع الخَلق، هؤلاء الثلاثة لا يمكن أن يكونوا شخصاً واحداً.

تلعثم وارتباك:

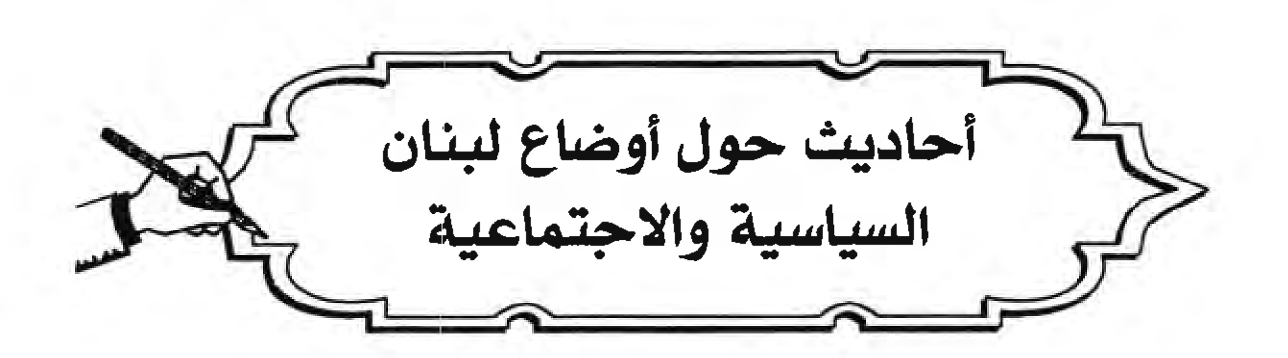
وهنا أخذ يتلعثم في الحديث وتبدو عليه علامات الارتباك، مُكرراً قوله: إنَّ هذا الاصطلاح، أي اصطلاح الثلاثة أشخاص يُراد بهم حين ذكرهم شخص واحد هو الله، إننا هكذا قرأنا في الأناجيل التي تضمَّنت تعاليم المسيح، وهي صادقة لا نَشكُّ في صحتها.

قلت له: إنكم تزعمون أنَّ المسيح ابن الله، ومعنى ذلك أنه إذا كان له ولد فإنه يصبح مُماثلاً لخَلقه الذين يولدون ويلدون، ومعنى ذلك أيضاً أنه

حينما يصبح مماثلاً للخلق فإنه ينطبق عليه ما ينطبق على خَلقه من فناء وعَدَم. والله سبحانه وتعالى حيّ باقٍ لا يزول لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم، يدير هذا الكون العظيم ببالغ حكمته ودقة تدبيره، وهو سيظلُّ باقياً لا يزول. بينما الخَلق كله محكوم عليه بالفناء والعَدَم، وإنه سيأتي وقتٌ لا يوجد فيه كائن قط من بشر، ومُلك، وكل مُقومات الكون لا يوجد منها سوى الذات الإلهية عندما يُعلن: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: الآية ١٦].

هنا أخذ مُحدِّثي يتراجع عن حماسه، مُبدياً رغبته بإنهاء الحديث في هذا الموضوع، لأنَّ الأشياء التي أناقشه فيها الآن لم يسبق له أن سمعها من أساتذته الخَوارِنة والقساوسة في الكليّة اليسوعية في بيروت.





أحاديث حول أوضاع لبنان السياسية والاجتماعية

توقَّف الحديث عند هذا الحدِّ، وطرأ تغيُّر ملحوظ فيه شيء من التملق نحو الإسلام والمسلمين. مرَّت بضع أسابيع لم نرَ فيها الأستاذ ميشيل، ثم أخذ يعود إلينا يوماً ويغيب آخر، ثم بدأ يواصل الحضور ليلياً، ولكن كان يتجنَّب الحديث عما يتعلق بالدِّين، وأخذتْ أحاديثنا ومُناقشاتنا ليلياً تدور حول أوضاع لبنان السياسية والاجتماعية.

شمعة مضيئة في دنيا العرب:

كان لبنان آنذاك كما هو معروف يُعتبر الشمعة الوحيدة المُضيئة في دنيا العرب، إذ كان البلد العربي الوحيد الذي يحكمه نظام برلماني ديمقراطي يستمدُّ حكمه من إرادة شعبه عن طريق الانتخابات الحرة.

توزيع مناصب الدولة العليا بين الطوائف:

كانت الشخصيات التي تُهيمن على مُجريات السياسة اللبنانية والتي تتعاقب على دفة الحكم هي شخصيات معروفة بالنسبة لرئاسة الوزارة التي هي من نصيب الطائفة السُّنية في لبنان، كما قضتْ بها الاتفاقية التصالحية التي انتهجها الفرنسيون عندما كانوا يتولَّون الحكم في لبنان باسم الانتداب من قِبل عصبة الأمم، والتي كانت تقضي بتوزيع مناصب الدولة العُليا بين الطوائف الثلاث، أو على الأصح الأربع: المَوَارِنة ولهم رئاسة الجمهورية،

والسُّنة ولهم رئاسة الوزارة، والشيعة ولهم رئاسة مجلس النواب، والدروز ولهم وزارة الدفاع.

أما بالنسبة لِما عدا هذه المناصب العُليا فإنَّ هناك توزيع في مناصب الوزارة أو في قيادة الجيش أو في المناصب الرفيعة الأخرى، توزَّع على فئات متعددة من الطوائف الموجودة في لبنان.

رئيس الجمهورية كميل شمعون وقائد الجيش فؤاد شهاب:

كان رئيس الجمهورية آنذاك ـ وأعني به كميل شمعون ـ وهو مَاروني مُتعصب، كما أنَّ قائد الجيش فؤاد شهاب وهو مَاروني أيضاً، ولكنه كان رجلاً عقلانيّاً مُتّزناً على قدرٍ كبيرٍ من الحنكة وبُعد النظر. وبالمناسبة فإن فؤاد شهاب هذا دخل المسيحية منذ مدة ليست بالطويلة، إذ أنه ينتمي إلى أسرة شهاب المُسلمة المعروفة في لبنان، والتي تحوَّل قسم منها إلى المسيحية ويُمثلهم فؤاد شهاب هذا، بينما ظلتْ بقية أفراد هذه الأسرة المسلمة السُّنية متمسكة بعقيدتها ويُمثِّلها عبدالعزيز شهاب.

رئاسة الوزارة:

كانت رئاسة الوزارة تكاد أن تكون محصورة في أربع أو خمس شخصيات من الطائفة السُّنية البارزة يتناوبونها مُمثلة في رياض الصلح، عبدالحميد كرامي، عبدالله اليافي، رشيد كرامي، سامي الصلح، صائب سلام.

رئاسة النوَّاب:

أما رئاسة النواب فكانت آنذاك يتولاَّها صبري حمادة، وهو من أبرز شخصيات الطائفة الشِّيعية.

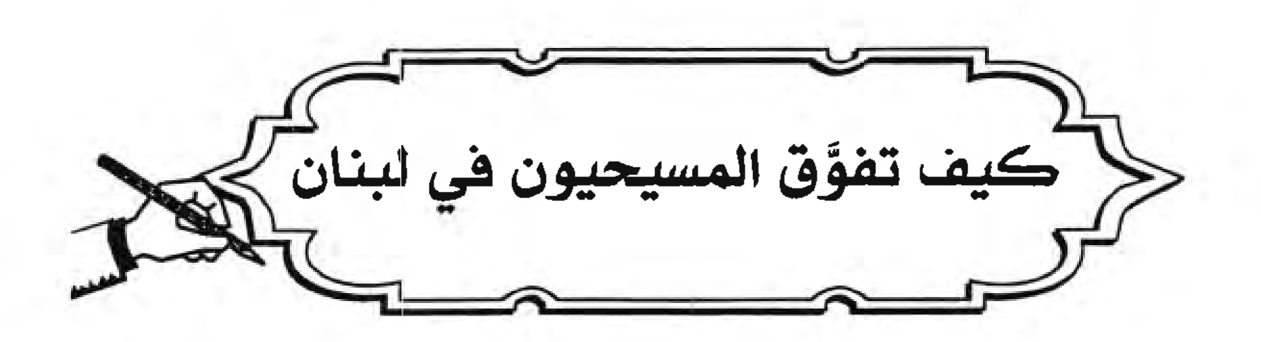
وزارة الدفاع:

كما أنَّ وزارة الدفاع تكاد أن تكون محصورة في الأمير مجيد أرسلان مُمثلاً للطائفة الدرزية. كما أنَّ كمال جنبلاط يكاد أن يكون مختصاً وحده في الغالب الأكثر بوزارة الداخلية.

كمال جنبلاط:

وبالمناسبة فإن كمال جنبلاط هذا وهو يُمثل الطائفة الدرزية أيضاً التي تتولّى مشيختها أسرة آل جنبلاط الأسرة العريقة هذه. كمال جنبلاط هذا تميَّز على غيره من السَاسة العرب لا في لبنان وحده، بل على امتداد الوطن العربي بأكمله، تميَّز بالجرأة وبالحنكة السياسية وبُعد النظر، وبالعِفة والنزاهة وبمقارعة الخصوم مهما كان شأنهم، ومهما ارتفعت مراكزهم، وفي لبنان بالذات كانت مواقفه وجرأته تخيف أعلى مراكز الدولة، وهو رئيس الجمهورية. وهو الشخص الذي قاد المعارضة اللبنانية بقوةٍ ودهاء، واستطاع أن يوحِّد كلمتها رغم تباين نِحلها وانتماءاتها، مكوّناً منها قوة استطاعت أن تُنحي بشارة الخوري عن مَنصب رئاسة الجمهورية حينما أراد أن يتشبث بِمَنْصِبه محاولاً إصدار تشريع يُخَوّله تمديد مدة رئاسته فترة أخرى. استطاع كمال جنبلاط هذا أن يؤلِّب المعارضة ضده، وبالتالي يجبره على التنحي، ثم الإتيان بكميل شمعون ليحتلَّ منصب الرئاسة بدلاً عنه.





كيف تفوّق المسيحيون في لبنان

وفي هذه الليلة كان الحديث يدور حول تركيبة لبنان السُّكانية وأوضاعه الاجتماعية، وقد أفاض الأستاذ ميشيل في تبيان التركيبة السكّانية للبنان، وكيف أنه يتكوَّن من مجموعة طوائف ونِحل، قد تكون متباينة من حيث الأصول والأعراق. موضِّحاً أنَّ هناك الأرمني والكردي والأرثوذوكسي والكاثوليكي والدرزي والشِّيعي والسُّني وغيرهم، من أقليّات صغيرة محدودة العدد، ولكنهم جميعاً ينصهرون في بوتقة واحدة تمثِّل كيان لبنان.

حديث ميشيل عن مميزات الطائفة المسيحية:

أما من الناحية الاجتماعية فقد أطنبَ في سرد مميزات الطائفة المسيحية على اختلاف مذاهبها، وكيف أنها تحتلُّ مواقع مرموقة متميِّزة عن غيرها من الطوائف الأخرى، سواءً أكان من حيث الثقافة ومستوى الرُّقي الفكري، أو من حيث التجارة والاقتصاد. فالطائفة المسيحية هي الأوفر عدداً من حيث رجال الفكر والعلماء والمثقفين، وهي الأكثر ثراءً من حيث التجارة والمصانع ورجال الأعمال، لذلك فهي في نظره متفوِّقة ومتميِّزة على الطوائف الأخرى من السُّنة والشِّيعة والدروز. كان وهو يتحدَّث يحاول أن يُوحي لسامعه بتفوُّق العنصر المسيحي على العنصر المسلم، إذ أنّ الطائفتين تعيشان معاً على أرض لبنان، ومع ذلك فالطائفة المسيحية واضحة التفوُّق والبروز، وهذا في نظره يدلُّ على تفتُّح الذهن المسيحي، وعلى قابليته للتقدُّم والرقيّ والتفتُّح على استيعاب منتجات الحضارة، بينما الطائفة

الإسلامية لازالت تعاني من الانغلاق الذهني، والتمسُّك بموروثات قديمة هي أشبه بقيود تُبقيها في محيط التخلُّف عن الرَّكب الحضاري، وذلك بالإضافة إلى أنَّ الفكر المسيحي ـ كما يقول ـ أكثر انفتاحاً وأعمق تفكيراً من الفكر المسلم.

كان وهو يُحدِّثني كأنه يُوحي إليَّ بأن تفوُّق المسيحيين في لبنان وتميُّزهم بِوفرة المفكرين فيهم، وانتشار الثقافة بينهم، وحيازتهم مصادر الثروة والمال، مرجعه إلى تميُّز هذا العنصر على الآخرين بالذكاء والانفتاح الذهني. وهنا كان لا بُدَّ لي من أن أناقشه، وأن أُوضِح له بأن تميُّز المسيحيين في لبنان على المسلمين ليست أسبابه هي الأسباب التي ذكرها. قد يكون البعض منها صحيحاً، ولكن في مُجمل الأحوال فإن هذا التفوُّق مَرجعه عوامل خارجية تضافرتْ وتكاثفتْ حتى هيَّأت له هذه الفُرص، ومَكَّنته من هذا التفوُّق.

الإرساليات المسيحية والمدارس التبشيرية:

ولعلَّ من أبرز تلك العوامل ـ إن لم تكن أبرزها ـ التي مكَّنت المسيحيين من أن يصلوا إلى ما هم فيه، هو أنَّهم بِحُكم انتمائهم الديني، وبِحكم الإرساليات المسيحية، والمدارس التبشيرية التي غرستها فرنسا في أرض لبنان منذ قرون، باعتبار أن مسيحيي لبنان هم الأطفال المُدللون لدى الحكومة الفرنسية ولَدى الكنائس والجمعيات المسيحية فيها.

ضعف الدولة العثمانية:

مُضافاً إلى ذلك ما أصاب الدولة العثمانية منذ أكثر من مائتي عام من تدهور في قوتها وانحطاط وضَعف، مكَّن الدول الغربية، وفي مقدمتها فرنسا بأن تُملي على الباب العالي، وأعني به الحكومة العثمانية، أن يكون لبنان مُميَّزاً بصفة خاصة دون جميع ولايات الدولة العثمانية، وهذا الوضع المتميِّز مُمثلاً في أن يكون الوالي العثماني الذي تُسند إليه ولاية لبنان مسيحياً، وأن يوافق مسيحيو لبنان على قبوله، مما مكَّن المسيحيين بحكم صلتهم بفرنسا،

وارتباطهم معها بأن تُتاح لهم فُرص التعليم العالي في جامعاتها ومعاهدها، وأن تكون وكالات الشركات التجارية محصورة بالمسيحيين وحدهم.

انتداب فرنسا على لبنان:

ذلك كان في عهد الحكم العثماني، وقد أعقب انحسار الحكم العثماني عن لبنان في الحرب العالمية الأولى أن أُسندت إلى فرنسا مهمة الانتداب على لبنان من قِبل عصبة الأمم، التي برزت إلى الوجود بعد نهاية الحرب العالمية الأولى مباشرةً في عام ١٩١٨م.

المندوب السامي:

وقد تلا ذلك أن أصبح لبنان يُحكم بواسطة حاكم فرنسي يُدعى المندوب السامي، ومن ثَمَّ أخذ الموظفون الفرنسيون يتدفَّقون على لبنان، ويتغلغلون في جميع وظائف الدولة، واضعين في اعتبارهم وضع مصلحة مسيحيي لبنان في المقام الأوَّل، ولذلك فقد كانوا يسهِّلون لهم جميع الفُرص، بينما كان المسلمون يعيشون على الهامش وكأنهم غرباء وليست هذه بلادهم.

تباهي نصارى لبنان بالكلام باللغة الفرنسية:

كان مسيحيو لبنان يتعاملون مع موظفي فرنسا القادمين وكأنهم أبناء أسرة واحدة، خاصةً وأن جميع مسيحيي لبنان إلا ما قلَّ يتكلمون لغة الأجنبي المُحتل، اللغة الفرنسية، ويتباهون بها بفخرٍ في مجالسهم وأحاديثهم، أنهم يتقنون لغة أمّهم الحنون فرنسا.

تبجّح رئيس الجمهورية اللبنانية:

وقد بلغ بهم الغرور والاستعلاء على المسلمين أن يتبجح بوقاحة وصلف رئيس جمهورية لبنان الماروني (إميل إده) حينما نصَّبَه الفرنسيون بعد وصولهم لبنان رئيساً لجمهورية لبنان، قال بوقاحة وصلف في أحد مجالسه

مخاطباً إحدى الشخصيات المسلمة البارزة في لبنان عندما كان يناقشه في أحد الموضوعات التي تتعلّق بشؤون الطائفة المسلمة المُهمَلة في لبنان والمهضومة الحقوق، وجّه إليه خطابه قائلاً قولته المشهورة: إذا كان مسلمو لبنان لا يعجبهم العيش فيه، فعليهم أن يرتحلوا إلى مكة التي قدِموا منها.

مراكز النفوذ والسلطة:

كانت السلطة الحقيقية والنفوذ مُركزة في أيدي رجال الدولة المُنتَدبة فرنسا، ويليهم في ذلك مباشرةً المسيحيون في لبنان.

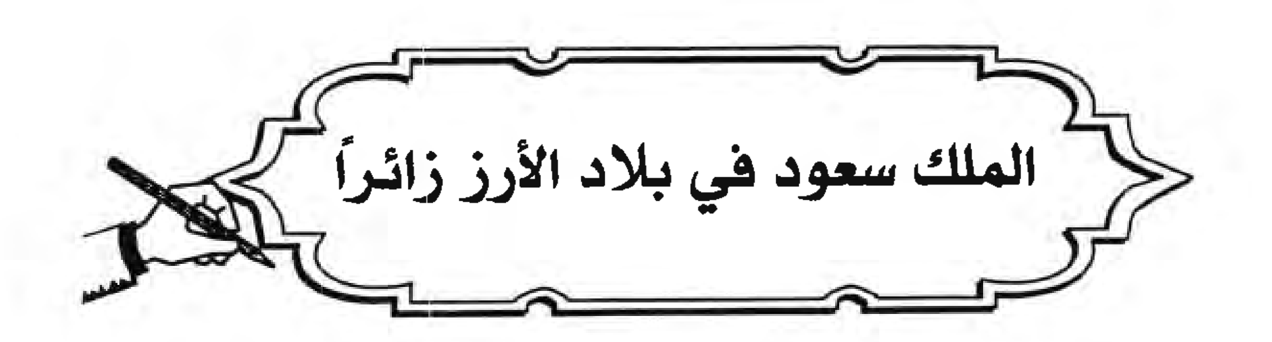
كان الحكم في لبنان آنذاك يعامل مواطني لبنان بمعيارين مختلفين، فالمسلمون وقضاياهم مهمَّشون في جميع المرافق، مهضومة حقوقهم مُهمَلة قضاياهم، بينما المسيحيون من الجانب الآخر جميع طلباتهم وقضاياهم مهما كانت تافهة أو ثانوية الاعتبار تُلبَّى على الفور.

حالة الجالية الكردية المسلمة:

ولعلَّ من أبرز الأدلة على ذلك أنه يوجد على أرض لبنان جالية كردية مسلمة تبلغ أعدادها الآلاف، وُجدت على أرض لبنان منذ عشرات السنين. وقد وَفَدَت إلى لبنان عندما كان هذا البلد خاضعاً للدولة العثمانية. هذه الجالية قد يزيد عددها على أكثر من ربع مليون شخص، بعض أفرادها استوطنوا لبنان قبل مائة عام أو أكثر، ومع ذلك فإنَّ هذه الجالية المسلمة المُسالمة التي تزاول شتى الحِرف والمِهن المتواضعة في لبنان، واشتُهرت باستقامة السلوك والابتعاد عن الإجرام وعن الانحراف، وعرفت بتمسُّكها بشعائر دينها التي تعصمها من الانزلاق إلى مواطن الرذيلة أو إلى السرقة أو الإخلال بالأمن بل هي بشهادة الجميع، وبشهادة المسيحيين اللبنانيين المُنصفين، شهادتهم لهؤلاء بأنهم عنصر فعَّال يتميَّز بالهدوء والطيبة وباستقامة السلوك والترفُّع عن الإجرام والرذيلة. هذه الجالية حاول المسلمون في لبنان أن يتحصَّلوا على موافقة الحكومة اللبنانية بمنحهم الجنسية أُسوةً ببقية الطوائف الأخرى، ولكنَّ جميع محاولات هؤلاء الزعماء المسلمين المستمرة

والمتكرِّرة باءت جميعها بالفشل والإخفاق، لا لشيء إلا لأنهم مسلمون. أما عندما تطأ قدَم أي أفَّاق أو مجرم أو لِص، حالما تطأ قدماه أرض لبنان من أيِّ جنسيةٍ كانت على وجه الأرض بشرط أن يكون مسيحياً فإنه لا تمضي عليه بضعة أيام حتى تُسلَّم له الجنسية اللبنانية على طَبَقٍ من ذهب. بعد هذا النِقاش الموسَّع والحوار الطويل مع دَارس اللاهوت، الأستاذ ميشيل انقطع مجيئه إلينا ولم نكد نراه إطلاقاً.





إبان وجودي في مَصَح بحنّس في رجب ١٣٧٢هـ، الموافق شهر نيسان حضر إلى لبنان جلالة الملك سعود بن عبدالعزيز في زيارة رسمية استمرَّت عدة أيام، وكان وقت ذاك ولياً للعهد، إذ كان والده الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ لازال على قيد الحياة.

إقامة الزينات ومعالم الفرح:

وقد قامت الدولة اللبنانية والشعب اللبناني بإقامة الزينات ومعالم الفرح والابتهاج في كل زاوية ورُكن، قبل قدومه، وهو أمرٌ لم تشهده بيروت لأي زعيم قبله.

اهتمام المملكة بلبنان وشعبه وسيادته:

كانت صحافة لبنان على اختلاف ميولها ونزعاتها، وفي طليعتها صحيفة العمل الكتائبية المارونية تملأ صفحاتها الأولى كلَّ صباح بالحديث عن المملكة العربية السعودية وبالترحيب الحار بمَقدم وليِّ عهدها لزيارة لبنان، وأنَّ زيارته تُعتبر رمزاً حيّاً وبرهاناً ساطعاً على مدى اهتمام المملكة العربية السعودية بلبنان وسيادة لبنان وشعب لبنان، وعلى عمق ما يكُنُّه اللبنانيون من حبٍّ وتقديرٍ لمواقف المملكة مع قضاياهم، وحرصها على تأكيد سيادة بلادهم.

وصول ولي العهد السعودي إلى مطار بيروت:

وصل وليُّ العهد السعودي إلى مطار بيروت، فكانت الحشود التي

هبَّت للقائه، والترحيب به، تملأ الساحات المحيطة بأرض المطار، وتمتدُّ على طول الطريق الذي سيمرُّ به من المطار إلى السكن المعدِّ له في بيروت، كانت الأعلام السعودية واللبنانية تُغطِّي الشوارع والأزِقة والمُنعطفات، كانت الجماهير تسدُّ الطرقات، وتكتظُّ بها الشوارع التي يمرُّ منها موكبه في تنقلاته طيلة الأيام التي قضاها في لبنان.

زيارات يومية مستمرة:

كانت الهيئات والمؤسسات الحكومية والشعبية تتنافس على زيارته لها، بالإضافة إلى حفاوة الدولة بمختلف دوائرها، وكذا الجميعات والهيئات الدينية والطوائف التي تمثِّل عناصر الشعب اللبناني. كان سموُّه يحرص أشدَّ الحرص على أن يُرضي الجميع بتلبيته طلباتهم من حيث زياراتهم.

كانت برامجه خلال أيام وجوده في لبنان في زيارات مستمرة يومياً، تبدأ من الصباح وحتى المساء، فلم يخيِّب رجاء أيّ أحد التمس منه الزيارة.

إغداق العطاء على الجمعيات الخيرية:

كان يُغدِق العطاء على الجمعيات الخيرية والمؤسسات الدينية ودُور البِرّ والإحسان والمدارس والمعاهد الخاصة.

كنا نحن المرضى السعوديون عندما قَدِم في يومه الأول قد استأذَنّا من إدارة المَصَح بأن تسمح لنا بالنزول إلى بيروت وترك المَصَح خلال مدة وجوده.

كان أوَّل عمل قام به سموّه أن أوفَدَ لنا فَور وصوله أرض لبنان مُوفَداً من قِبله للاطمئنان على صحتنا والعناية براحتنا، والاطلاع على الوضع الذي نعيشه داخل المَصَح من حيث العناية الطبية، ومن حيث التغذية، ومن حيث العلاج.

مندوب ولي العهد أديب الحبال لزيارتنا في المصح:

كان مندوبه الدكتور أديب الحبَّال الذي كان آنذاك يرأس مديرية الشؤون الصحية في الحجاز، حضر إلينا المذكور، وبرفقة رئيسة المَصَح

المعروفة باسم (المابر) تجوّلا - أي المندوب والرئيسة - في غرفنا غرفةً غرفة، وسألا كُلاً منا عما إذا كان لديه ملاحظة أو شكوى حول خدمة المَصَح وحول عنايته بالمرضى، وعن أنواع الأطعمة التي تُقدَّم لنا خلال وجبات الطعام. وللحقيقة فإنَّ السعوديين في ذلك المَصَح كانوا متميزين عن بقية المرضى في جميع ما يتعلّق بهم من خدمةٍ وغذاءٍ وعلاجٍ، تعاملهم إدارة المَصَح معاملة متميِّزة ماثلةً في تلبية جميع طلباتهم.

سمحتْ لنا إدارة المَصَح لِمَن يكون وضعه الصحي يسمح بذلك، وكان أكثرنا يتمتَّع بصحة جيدة، ومع ذلك فقد كانت إدارة المَصَح حريصةً أشدَّ الحرص على ألا تسمح بالخروج إلا لِمَن يكون على وشك الشفاء التام ومغادرة المَصَح. كُنَّا مجموعة من المرضى الذين هم على وشك مغادرة المَصَح قد لا يقلّ عددهم عن ثلاثين شخصاً.

مرافقة موكب سمو ولي العهد:

نزلنا إلى بيروت نرتدي ملابسنا الوطنية، واستأجرنا مجموعة من التكاسي، وكوّنا مَوكِباً يرافق مَوكب سموِّه أينما اتجه. رافقناه إلى (بكركي) مقرّ البطريرك الماروني، وإلى (المُختارة) مقر الزعيم الدرزي كمال جنبلاط، وإلى غير ذلك من الأماكن التي زارها سموه كالمعاهد والمؤسسات الخاصة، وفي مقدمتها مؤسسة المقاصد الخيرية الإسلامية التي كان يُشرف على إدارتها آنذاك الزعيم المسلم السُّني «صائب سلام». وبالجملة فقد كانت زياراته بالخير والبركة على كل مؤسسة يزورها، ماثلةً في دعمه المالي السخي.

سخاء كفِّ الملك سعود:

كانت إدارة المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت قد شرعت في إقامة مشروع اجتماعي خيري يتمثَّل في إقامة مسجد وصالة واسعة للمحاضرات والندوات، وبجوارها مدرسة لتعليم الأيتام، ومشغل لتعليم اليتيمات فنون الخياطة والأشغال اليدوية مع مكتبة واسعة ودار للأيتام.

كان المشروع قد وُضعت خرائطه، وشُرع في تنفيذه قبل حضور وليِّ

العهد بمدة. وكان الدكتور عبدالله المشنوق وهو أحد أبرز الشخصيات السنيَّة في لبنان، يصدرُ صحيفة يومية تُدعى بيروت المساء، وتولّى منصب الوزارة في الحكومة اللبنانية، وهو أديب مثقف يمتاز برؤية عميقة، وفكر ثاقب، وخيال خَصب، كان محبوباً من الجميع يتَّقد حماسةً وغَيرةً على المسلمين وشؤون المسلمين.

زيارة ولي العهد لجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية:

وقد اهْتَبَل الدكتور عبدالله المشنوق فرصة زيارة وَليّ العهد لإدارة المقاصد الخيرية الإسلامية، فكلَّم سموَّه عن الموضوع، وقدَّم له الخرائط والمُخططات بهدف أن يتبرَّع سموُّه بمبلغ يساعد على إتمام المشروع، ولكنه فُوجىء بقول سموِّه: حققوا جميع تكاليف المشروع، واعرضوه علينا، كانت مفاجأةً سارةً للدكتور عبدالله المشنوق، ولجميع زملائه في إدارة المقاصد، ولجميع منسوبي تلك المؤسسة، بل في نفوس مسلمي لبنان كافة.

مكرمة سخية:

في اليوم الثاني لهذه الزيارة، رُفع لِسموِّه الدكتور عبدالله المشنوق بياناً يوضِّح كافة تكاليف المشروع. وكان جملة المبلغ هو مائتين وخمسين ألف ليرة لبنانية، كان مبلغاً ضخماً بدون شك في تلك الأيام، فكانت الليرة اللبنانية آنذاك في أوج عِزِّها وازدهارها. وفي مساء ذلك اليوم نفسه قُدِّم شيك بكامل المبلغ لعبدالله المشنوق باسم جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في لبنان.

شكر وتقدير:

كان لهذه المَكرمة السخية من سموِّه صدى بارز لهجتْ به ألسنة اللبنانين على مُختلف طوائفهم، وامتلأت به أعمدة الصحف لعدة أيام، وكلها تلهجُ بالشكر والتقدير والثناء على هذه الأريحية والكرم الحاتمي من سموِّه.

إكمال بناء المشروع الاجتماعي الخيري:

بعد عام من تاريخ زيارة سموِّه هذه تمَّ المشروع، واكتمل بناؤه، واكتمل تأثيثه وتزويده بكل المستلزمات من كُتب وأجهزة وفُرش وأدوات، وكل ما يتطلَّبه مشروع اجتماعي ضخم كهذا المشروع.

خلية الملك سعود الاجتماعية:

وتقديراً من إدارة جميعة المقاصد الخيرية الإسلامية لِسموِّه على هذا العَون، وتخليداً لهذه المَكرمة فقد قرَّرت إدارة جميعة المقاصد أن تُطلق على هذا المشروع اسماً يحقِّق الهدفين ويخلِّدهما على مرِّ الأيام. أولهما يصوِّر الهدف الأساسي الخيري الإنساني الذي من أجله أُنشئ هذا المشروع، والثاني يحمل اسم الشخص الذي تبنَّى هذا المشروع ودفع تكاليف إنشائه، ولذلك كان الاسم الذي وقع عليه الاختيار هو (خلية الملك سعود الاجتماعية) ولذلك وُضِعَت لوحة من الرخام ضخمة حُفرَ عليها هذا الاسم، وأُثبتت على مدخل هذا المبنى.

احتفال ضخم:

وقد رأت الإدارة المُشرِفة عليه وقد اكتمل المشروع من جميع متطلباته، رَأت أن تقيم احتفالاً ضخماً تجمع فيه نخبة المفكرين والكُتّاب وقادة الرأي في لبنان على مختلف دياناتهم ونِحلهم وأحزابهم من عمداء الجامعات والوزراء والنوَّاب والكُتّاب ورؤساء الديانات والأحزاب. وبالجملة فقد حرصت على أن يكون هذا الاحتفال مناسبةً فريدةً يشهدها جميع النخبة في لبنان، لذلك حددت تلك الإدارة يوماً معيناً للافتتاح، وطبعتْ ووزعتْ بطاقات الدعوة، وأعلنت في جميع الصحف عن موعد افتتاح هذه التظاهرة الإنسانية النادرة.

كان السعوديون آنذاك في لبنان في مقدمة الذين وُجِّهت لهم بطاقات الدعوة، وعلى رأسهم السفير السعودي، وموظفو السفارة، وجميع السعوديين في بيروت. وكنت والأصدقاء الأستاذ الفاضل عبدالمحسن الحمد

المنقور، والأستاذ الصديق أحمد محمد المانع، والصديق عبدالرحمن بن جبير، والصديق سليمان العبدالله الغنيم وموظفيه وغيرهم كثيرون ممن لا تحضرني أسماؤهم ممن وجِّهت إليهم الدعوة للمشاركة في الاحتفال.

إعداد الحفل وتنظيمه:

كان إعداد الحفل وتنظيمه رائعاً جداً بمختلف المعايير. اكتظَّت القاعة بجمهور غفير ضخم كلهم من عِلية القوم، وقادة الفكر، وممثلي الثقافة ومديري ومحرري الصحف والمجلات، فضلاً عن الوزراء والنواب ورؤساء الأحزاب ورؤساء وعمداء الجامعات ورؤساء الطوائف. وكانت مُكبِّرات الصوت قد أثبتت بأكثر من موضع في القاعة بعضها موجَّه لداخل القاعة، وبعضها إلى الساحات والشوارع المحيطة، والتي ازدحمت بجماهير غفيرة من المواطنين تفوق أضعاف أضعاف من هم بداخل الصالة.

بُدِئ الحفل بآي من الذِّكر الحكيم، ثم اعتلى المنبر الدكتور عبدالله المشنوق فصالَ وجالَ وشرَّق وغرَّب في ميادين البلاغة وساحات البيان، وأخذ يلعب بمشاعر الجمهور بحيث تكاد أكفّ أيديهم تنفجر بالدماء من كثرة التصفيق إعجاباً بما يسمعون.

كلمة الأستاذ عبدالله المشنوق:

كان يخطب ارتجالاً على مستوى عالٍ من الفصاحة والبلاغة وجهارة الصوت وجرس الكلمات، واللعب بالعواطف والشعور.

كُنَّا ونحن نستمع إليه كأننا نستمع إلى سحبان وائل، أو إلى قسّ بن ساعدة العربيَين، أو إلى ميرابو أو روبس بير الفرنسيين، وهما يصولان ويجولان في ساحات الباستيل في عاصمة النور باريس.

مشاعر الحماس والكرامة والإباء:

ظلَّ الخطيب يلعب بأفئدة الجمهور أكثر من ساعة لم يتلعثم، ولم يكرر كلمة، ولم تخفت لهجته أو تتأثر نبراته.

اعتلائي صهوة المنبر:

كان جو القاعة قد التهبَ بالحماس الطاغي الذي سيطر على مشاعر جمهور السامعين فأحال القاعة إلى طوفان من الشعور الملتهب. كانت جدران القاعة تكاد أن تهتزَّ من توالي التصفيق الحاد والهُتافات.

كنتُ في بدء الحفل بجوار الصديق الأستاذ عبدالمحسن الحمد المنقور تفصل بيني وبين منبر الخطابة مسافة لا تزيد عن أربعة أمتار تقريباً.

كانت مشاعري، كغيري من الجمهور، تزداد التهاباً واتّقاداً لحظةً بعد أخرى، فوجدتُ نفسي غير قادر على كبح جِماح شعوري وعواطفي. ولذلك سارعت إلى امتطاء مِنبر الخطابة دونما وعيٍ مني أو شعور، فور أن نزل عنه الخطيب السابق.

حماس هادر:

لست بمستطيعٍ أن أحدِّد العبارات أو الجُمل التي تفوَّهت بها على صهوة المنبر، وكُنتَ في عهد الدراسة أزاول فنَّ الخطابة ارتجالاً، وبدون أيّ أعداد أو وسائل كخطوط رئيسية يتقيَّد خلالها الخطيب أثناء خطابه، لذلك فقد انطلقتُ بحماسٍ هادرٍ ينبعث من إحساس مرهف أثخنته جراح مآسي أمّته التي عايشها منذ فجر طفولته، كنت أنظر إلى الأمّة العربية شاخصةً في خيالي، وكأنها لوحة معروضة أمام ناظري، ثم تكلَّمت، وكان التصفيق الذي لا يكاد ينقطع يُضَيع عليَّ فرصة الكلام، وفرصة تسلسل العبارات والموضوعات.

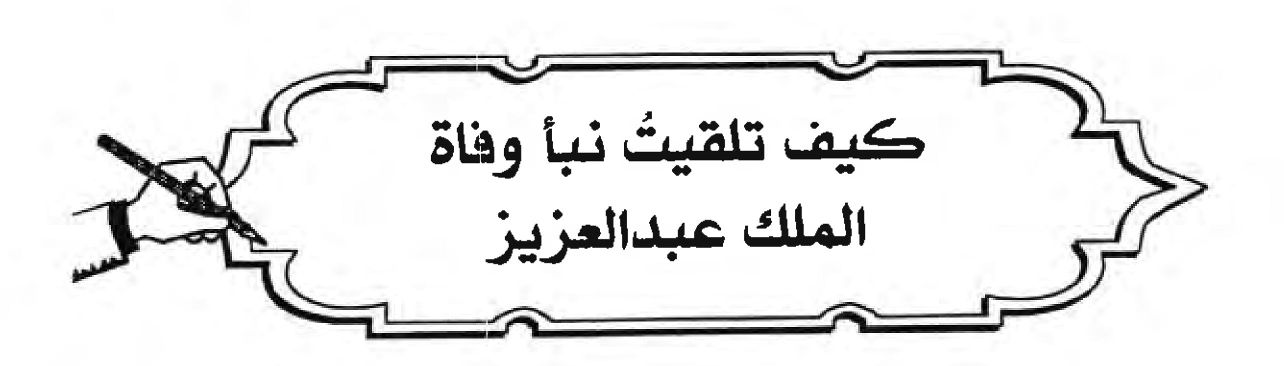
ولستُ أعرف المدة التي مكثتُها أمام المِنبر، ولكن أعرف أنَّ جميع الإخوان السعوديين وغيرهم قد احتضنوني واحداً إثر الآخر مقبِّلين ومُشجعين.

ظلَّ الحفل مستمراً قرابة أربع ساعات متوالية، علماً بأنَّ صعودي المِنبر كان خطأً فادحاً مني لأنَّ اسمي لم يُدْرَج ضمن برنامج خطباء الحفل، وكان من الممكن جداً أن يسرع المشرفون على الحفل بإبعادي عن المِنبر،

ولكنهم تفضلوا عليَّ فتركوني وشأني لِما شاهدوه عليَّ من علامات التأثر والانفعال البادي على ملامحي.

ظلَّ هذا الحفل حديث الصحافة اللبنانية أكثر من أسبوع تحدَّثت عنه بإسهاب وتفصيل قلَّ أن يظفرَ به حفل مثله. كان من ضمن الحضور كما سبق أن شرحت موظفو السفارة السعودية في بيروت، وعلى رأسهم سعادة السفير.





كيف تلقيتُ نبأ وفاة الملك عبدالعزيز

سكنتُ في الفندق العربي القريب من ساحة البرج في بَيروت، بعد أن انتهى فصل الشتاء، وتفرَّق زملائي الذين قضينا معاً أشهُر الشتاء في بيت مدام برباري في مدينة عاليه. أمّا أنا فقد أمضيتُ أشهُر صيف ذلك العام، أعني عام **١٣٧٣**هـ متنقِّلاً ما بين الفندق العربي وفنادق حمَّانا وفالوغا.

وقد تلقيتُ مساء اليوم الثالث من شهر ربيع الأول عام **١٣٧٣**هـ، وكنتُ في الفندق العربي، النبأ الفاجع، والخطب الجَلل، الذي وقع على رأسي وقوع الصاعقة، وهزَّ كياني هزّاً عنيفاً، أسال عبراتي وجعلني أنتحب كما تنتحب النساء بدون أيما شعور أو إرادة.

كان ذلك الخطب الذي هزّ العالم، وبالأخص العالم الإسلامي، والعالم العربي، سقوط ذلك الطود الشامخ، الذي ظلَّ أكثر من سبعين عاماً منارةَ فخرٍ واعتزاز ورمز بطولة ومجد.

النبأ الفاجع والخطب الجلل:

كان الوقت آنذاك في حوالي الساعة السادسة مساءً من اليوم الثالث من شهر ربيع الأول عام **١٣٧٣**هـ، وكنت وقت ذاك أتحدَّث مع الصديق أمين كامل بلُّوط مدير الفندق في صالون الاستقبال، كُنَّا ننصتُ إلى إذاعة لندن، وإذا بها تُفاجئنا بالنبأ الفاجع الجَلل الذي لم أكد أسمعه، وكان المذيع آنذاك

على ما أذكر عيسى خليل صبَّاغ المذيع المشهور (إن لم تخنّي الذاكرة)، لم تكد تصدق أُذنايَ ما أسمع حتى اعتراني ذهول أفقدني التفكير لبضع لحظات وجدتني بعدها أردد: «مات عبدالعزيز، مات عبدالعزيز».

مات عبدالعزيز، مات عبدالعزيز:

انطلقتُ باكياً، واضطررتُ إلى مغادرة الصالون متوجِّهاً إلى غرفتي مُغلقاً بابها عليَّ دون أن أتبادل مع جليسي كلمةً واحدة. ارتميتُ على السرير دامع العين، ذاهل الفكر، مجروح القلب، لا أكاد أتمالك أعصابي، وأكفكف دموعي حتى تنفجر عبراتي مرةً أخرى، يصحبها إعصار هائج مُدمِّر من الانفعالات والوجيعة والأسى.

ارتسام لوحة مشرقة أمام مخيلتي:

ظللتُ أكثر من ساعة لا أستطيع حصر أفكاري، ولا السيطرة على مشاعري، ولا إيقاف عبراتي ونَشيجي، كان وقع الخبر عليَّ أكبر من أن يُحتمل. ولا غرو في ذلك، فقد ارتسمت على الفور أمام مخيلتي لوحة مشرقة أرى فيها البطل، يقطع الأرض بخطواته أمامي منذ عرفت الحياة، وأصبحتُ قادراً على الوعي والتمييز. عرفته وتابعته بحسِّي ومشاعري، متنقلاً يجوبُ فيافي جزيرة العرب يميناً وشمالاً وشرقاً وغرباً، لحافه السماء، وفِراشه الغبراء، واضعاً رأسه على كفيه.

دخوله مدينة الرياض:

أُبصرهُ وقد قدِم مع نخبة مختارة قليلة العدد، ربطت مصيرها بمصيره، ورضيتْ أن تقتحم معه دنيا المجهول، بما فيها من أخطار وأهوال، غير عابئة بالموت، ولا مكترثة بالصِعاب. أشاهده ورفاقه يقتعدون ظهور الإبل، وصهوات الجِياد، يسيرون في جُنح الظلام، ويكمنون في وَضح النهار، قادمين من الكويت، من الشمال الشرقي من جزيرة العرب باتجاه الجنوب باتجاه مدينة الرياض. يُواصلون السير بالسُرى، لا يحملون معهم من العَتاد المادي إلا القليل من وسائل بدائية، ولكنهم كانوا يحملون بين طيَّات

ضلوعهم من العَتاد ما هو أقوى وأَمضى من أيّ سلاح يمكن أن ينتجه البشر، ألا وهو سلاح الإيمان بالله، والثقة به، واليقين بنصره، لأنَّ أمامهم هدفاً سامياً نبيلاً باعوا أرواحهم في سبيل أن يحققوه، ألا وهو إزالة ذلك الظلام الدامس الذي كانت تعيشه أمّة العرب في مختلف أماكنها، ماثلاً في التمزُّق والتشرذم والفقر والفوضى والجهل.

مغامرة جريئة:

كانت الأمّة تَئِنُّ وتتوجَّع من حالة الانحدار الذي وصلتْ إليه بحيث أصبح ضعيفها لقمةً لِقَويِّها، تحكمها شريعة الغاب، ورُبّ قائلٍ يقول: إنَّ هذا الوقت الذي خرج فيه أولئك الرجال يقودهم البطل عبدالعزيز كان الجزء الأكبر من جزيرة العرب، وخاصةً وسطها وشمالها تحكمه دولة آل الرشيد انطلاقاً من عاصمتها حائل. إذ كانت تلك الدولة آنذاك تسيطر على مناطق العارض والقصيم وحائل، وهي رقعة تنتظم أوسع رقعة من أرض الجزيرة. وجوابي على ذلك: أنَّ هذا حق بالنسبة للواقع، ولكنَّ هذا الحُكم لم يستطع أن يوفِّر الأمن والأمان والطمأنينة، ولم يستطع أن يَحول دون الظلم والقهر والطغيان، ولم يستطع أن يوفِّر حماية الحقوق وإنصاف المظلوم والأخذ على يد القوي المعتدي. علماً بأنَّ إقدام عبدالعزيز ورفاقه القليلو العدد على مغامرتهم الجريئة هذه رغم علمهم بوجود تلك الحكومة، وَبِوفرة إمكانياتها، وشراسة بطشها شهادةٌ ستظلُّ خالدة على مدى التاريخ لقوة عزم هذا البطل الشاب ورفاقه الأبطال. وإن كنت لم أُدرك الأيام الأولى التي بدأت فيها خطوات عبدالعزيز ورفاقه، إذ أن ولادتي لم تأتِ إلا بعد أربعة عشر عاماً من بدء تلك المسيرة، ولذا فإن أحداثها قد ملأت مُخيلتي بعد أن بلغتُ سِنَّ الفهم والإدراك، نتيجةً لِما كنتُ أسمعه يدور على الألسن على مختلف المستويات: على ألسنة الشباب، وعلى ألسنة الكهول، وحتى على ألسنة النساء والعجائز اللواتي كانت أمي وَجَدتي من ضِمنهن بطبيعة الحال، وكنتُ أسمعهنَّ بعد كلِّ صلاة يرفعنَ أكفَّ الضراعة إلى الله بأن يحفظ عبدالعزيز ويحقِّق له آماله.

النسور البواسل:

كنتُ أشاهد خُطاه مرتسمةً على خريطة خيالي، وأبصرهُ كالعُقاب يَنقضُّ كاسراً من أعالي الفضاء مع بضعة رجال من رفاقه، ينقضُّون مع إشراقة فجر أحد الأيام من عام ١٣١٩هـ، على قصر عجلان الحاكم الرشيدي من قِبل حائل، وما هي إلا أقل من سُويعات حتى يكون هذا الحاكم رغم حَرَسِه وجنوده، ورغم قوته وعَتاده، قد أصبح فريسةً مجندَلاً في ساحة القصر بمخالب أولئك النسور البواسل. وإذا بكل مقاومة تنتهي في ساعات، وإذ العلم السعودي يرفعه ذلك الشاب البطل على شُرفات القصر مُعلناً للتاريخ أن الحُكم لله، ثم لعبدالعزيز البطل.

أشاهدهُ بعد ذلك يغادر الرياض مُسرعاً إلى حيث هِضاب ورَوابي نَجد، تاركاً الرياض ريثما يستجمع قِواه ليكرَّ عليها مرةً أخرى، يقيناً منه بأنه لم يكن آنذاك من القوة بوضع يمكّنه من الصمود في المدينة التي ما لبثت أن توالت عليها النجدات والقِوى والإمدادات تحمل الرجال والذخائر من عاصمة المُلك في حائل، ومن المناطق التابعة لتلك العاصمة.

تأسيس دولة:

تدور الأيام وينقضُّ البطل على فريسته مرةً أخرى وهكذا كرٌّ وَفَرٌّ، حتى استطاع البطل أن يتمكّن في زمن محدود من تأسيس الدولة، وأن يتحصَّل على القوة التي مَكّنته من مُقارعة خصمه مقارعة النِدِّ للندِّ في ساحات الحرب وميادين القتال. ثم يستمر الصراع سِجالاً بين القوتين حتى ينتهي الأمر بأن يتحوَّل إلى معارك كبرى بين الخصمين ماثلةً في وقعة البُكيرية، ثم وقعة روضة مهنّا التي استطاع فيها جنود البطل عبدالعزيز أن يجتزوا رأس خصمه اللدود العنيد والبطل الشجاع: عبدالعزيز بن متعب الرشيد حاكم حائل.

وقعة روضة مهنا:

كانت هذه المعركة هي الفاصلة في سَيْر الأحداث، إذ أخذت دولة حائل بعد هذه الموقعة تتضاءل وتنكمش وينحسر نفوذها من جميع ممتلكاتها

في الجزيرة حتى اقتصر حُكمها على حائل فقط وضواحيها. ومن الواضح أنَّ الشِقاق قد دبَّ بين الأسرة الحاكمة في حائل، وتمثَّل في تطاحن أفراد الأسرة الحاكمة وصراعهم على الحكم بحيث أخذ القتل يصبح بين أفراد هذه الأسرة هو الوسيلة إلى نَيل الحُكم، فأخذ بعضهم بعضاً دونما رحمة ودونما اعتبار لنَسَبٍ أو قرابةٍ.

أتخيلُ عبدالعزيز على خريطة مُخيلتي، فأراهُ بعد أن أمضى إحدى وعشرين عاماً يطوي الجزيرة يَمنةً ويَسرةً، فما كاد أن ينتهي من معركة حتى يقتحم أخرى، لا يعرف للراحة طعماً ولا للسكينة سبيلاً.

خضوع مقاطعات نجد لحكمه:

نراهُ بعد هذه المدة وقد طَوى تحت جناحيه مقاطعة الرياض ومقاطعة القصيم فمقاطعة الإحساء، كل ما يمتُّ إلى هذه المقاطعات من مُدن وقرى، نراه ينقضُّ بعد أن خضعت هذه المناطق جميعها لحكمه، وتوحَّدت تحت إرادته، نراه ينقضُّ للمرة الأخيرة مُجهزاً على حائل عاصمة خَصمه اللدود ابن الرشيد، فيقضي على آخر رمز للسيادة في تلك الدولة مُمثلاً في آخر حاكم لها هو محمد بن طلال آل الرشيد، مُصطحباً إياه معه إلى الرياض، ورافعاً العَلَم السعودي على قصر الحكم في حائل (برزان) وذلك في عام ١٣٤٠هـ.

احترام الملك عبدالعزيز أسرة آل الرشيد:

وللتاريخ فإنَّ هذا البطل عبدالعزيز قد بالغ في احترام وتقدير وإكرام الأسرة الحاكمة الرشيدية، وعلى رأسها محمد بن طلال، أكرمهم غاية الإكرام، إذ أنزلهم في مدينة الرياض بعد أن هيَّأ لهم قصوراً وخدماً تليق بمقامهم كأسرة حاكمة، وأفاض عليهم من الكرم ما جعلهم يشعرون بأنهم في وضعٍ متساوٍ مع عبدالعزيز البطل وأسرته.

التسامح مع الخصم والمبالغة في إكرامه:

وهي سجية من سجايا عبدالعزيز، التي تتمثل في التسامح مع الخصم

والبرِّ به والإنعام عليه، والمبالغة في إكرامه؛ لامتصاص ما يختزنه هذا الخصم من حقد وضغينة على خصمه عبدالعزيز، فلا تمضِ فترة قصيرة حتى يكون هذا الخصم من أخلص المخلصين لعبدالعزيز، وهي سجية أصيلة في نفسه نَعِمَ بها جميع أفراد شعبه.

سلطنة نجد وملحقاتها:

وهكذا بعد صراعٍ دامٍ استمر إحدى وعشرين عاماً، استطاع عبدالعزيز بفضل من الله وتوفيقه، وبقوةِ عزمه وصِدق إيمانه وثقته بربه أن يكوِّن هذا الصرح الشامخ الذي كان يتمثل في سلطنة نَجد ومُلحقاتها، أي ثلاثة أرباع رقعة المملكة السعودية آنذاك.

إنشاء الهجر لقبائل الجزيرة:

أشاهده وقد ربط الجَواد وعلَّق السيف ورَكز الرمح، أراهُ ينصرف إلى البناء والتشييد والإعمار، فينشىء الهجر للعديد من قبائلَ الجزيرة وينشئها مدناً يسكنها أفراد هذه القبائل منتقلين من حالة البداوة والارتحال، لا يكادون يستقرُّون بموضع حتى ينتقلون إلى آخر.

نرى هؤلاءَ البدو الذين أَلِفوا النهب والسَلب وقطع الطريق وافتراس الضعيف، يأكلون بعضهم بعضاً، لا يكاد الواحد منهم يقرُّ له جفن، نراهم يسكنون في بيوت ثابتة تشدُّهم إلى الأرض فلا انتقال ولا ارتحال ولا غزو ولا نهب، وإنما نظام واستقرار وانصراف إلى البناء واستغلال الأرض في الزراعة، والتردد على نداوت الدرس في المساجد وغيرها للاستنارة بالعلم والمعرفة والتفقُّه في أمور الدِّين الضرورية.

وما هي إلا سنوات قلائل حتى أصبحت تلك الهجر مدناً عامرةً بالحركة والنشاط يُزاول سكانها حياة الهدوء والاستقرار والعمل المُنتج.

معالم البناء والعمران:

أشاهدُ هذا البطل يُشيد معالم البناء والعمران بكلتا يديه بعد أن نحّى السيف وعلَّق الرمح وربط الجَواد، ومع ذلك فلا تكاد تمضي بضع سنوات

حتى أكمل مهمته الصعبة هذه، أعني توطين البادية وتثبيتهم في مساكن تَحولُ بينهم وبين حياة التنقل والارتحال التي أَلِفوها منذ فجر التاريخ.

لا تكاد تمضي سنوات على هذا الجهد الشاق الضخم الذي استطاع أن يكوِّن من أفراد لم يَألفوا قط الإذعان لحكم أو سلطة أو توجيه، استطاع أن يروِّض شكيمتهم، وأن يحملهم على تقبُّل الهدوء والاستقرار والإذعان للأنظمة والطاعة.

انقضاضه على دولة الحسين بن علي في الحجاز:

أشاهدهُ على تلك الشاشة، وقد فَرغَ من مهمته تلك، يسارعُ بعد أن حِيلَ بين رعاياه وبين أداء فريضة الحجّ دونما سبب أو مُبرِّر، نراه يسارع مُنقضًا كالعقاب على دولة الحسين بن علي في الحجاز، فما هي إلا سنوات ثلاث، وإذا بآخر حاكم شريفي، وهو جلالة الملك علي بن الحسين يغادر مدينة جدة في جمادى الأولى عام ١٣٤٤هـ مسلِّماً مقاليد الحكم في الحجاز إلى البطل عبدالعزيز. وإذا التاريخ يسجِّل لأول مرة في سِجله الخالد المملكة العربية السعودية ممتدةً من شواطىء البحر الأحمر غرباً إلى شواطىء الخليج العربي شرقاً، إلى تُخوم العراق شمالاً، إلى حدود اليمن والرُّبع الخالي جنوباً.

ملامح مرت على لوحة مخيلتي:

تلك الملامح التي مرّت على لوحة مُخيلتي، كانت تمثل البطل في ميادين الصراع والكفاح، والطعن والقتال، ومقارعة الخطوب، ومُنازلة الأقران، كانت تلك صورةً مُصغَّرةً إلى أبعد الحدود عن حياة ذلك البطل في تلك المعارك، وفي تلك الفترة التي قضاها في فجر حياته.

لقد استطاع بفضل الله وتوفيقه، وبقوة العزم والتصميم واليقين بنصر الله، وصلابة الرأي، وقوة العزيمة أن يقيم لأوَّل مرة في التاريخ بُعيد العصر الأول الهجري مملكة مُترامية الأطراف، متينة الأساس، مُوحَّدة الكلمة، تنتظم ثلاثة أرباع الجزيرة، وهو جهد قُصرت عن تحقيقه دولٌ عِظام

كانت تخفق راياتها على مشرق الشمس ومغربها، وهي دولة بني العباس وما تلاها من دول الإسلام.

صرح شامخ البنيان:

يأتي فرد واحد مع بضعة نفرٍ تقمَّصوا شخصه، ودانوا بعقيدته، وانسجموا مع قوة إرادته وبُعد هِمَّته، يأتي هؤلاء النفر الذين لم يتجاوز عددهم الستين شخصاً في مبدأ أمرهم يُنشئون هذا الصَّرح الشامخ البنيان الذي أصبح منارةً يُقتدى بها ويُستظلُّ بوارفِ ظِلها، وتحتلُّ مكانةً مرموقةً بين دول العالم وشعوبه.

جوانب شخصيته المتعدِّدة:

وبعد: فلم تنتهِ - قارئي العزيز - ذكريات ملحمة هذا البطل، فتلك ملامح حياته في ميادين الحروب، وميادين الإنشاء والتأسيس والبناء. أما وقد ودَّع السيف والرمح والجواد وانصرف إلى عالم الراحة والدِّعة، أو على الأصح إلى عالم تدعيم البناء وتثبيته، والسهر على صيانته، وتنمية مرافقه ومقوِّماته. أما عن هذه المرحلة من حياته التي امتدت إلى أن آوى في رقدته إلى جوار الرفيق الأعلى، فليس في وِسعي ولا في وِسع غيري كما أعتقد أن يُشخِّص الجوانب المتعدِّدة لشخصية هذا البطل، فهو في ميادين الكرم والحلم والأناة وبُعد النظر وعمق التفكير وشفافية البصيرة، وفي مجال التواضع والرأفة والعطف والترفُّع عن الكبرياء والغرور. أمّا في بساطة العيش وبشاشة المُحيّا وطلاقة الوجه والعطف على الفقير والمحتاج وتحسُّس ذوي الحاجات وتفقد أحوالهم، فإنه في جميع هذه الميادين لا يقلّ بروزاً وشموخاً عن بروزه وتألُّقه في ميادين الحرب والطعان.

وإذا كان إبراز هذه الجوانب أو بعضها بالصورة التي تتفق مع الواقع المشهود متعذِّراً عليَّ لأنه فوق الطاقة والجهد، فإني أكتفي بأن أذكر لمحات خاطفة مما عرفته وعايشته مع هذا البطل وإليك نماذجاً من ذلك:

حِلْم الملك عبدالعزيز وعفوه:

في ميدان الحلم والعفو في عام ١٣٦٠هـ وقعت حادثة البدوي المدعو (مُجَرِّي) والتي ذكرتها فيما سبق أن أمليته من هذه المذكرات. والتي تعكس مدى حلمه ورأفته وسَعَة صدره، وكنت كغيري في الجزيرة كُلها ممن عرف تفاصيل هذه الحادثة نحسب أنَّ الملك عبدالعزيز سيأمر بإعدامه فور وصوله، ولكن كانت المفاجأة المعجزة أنه ما كاد يعلم بوصوله إلى الرياض حتى عفا عنه مهدِّئاً روعه ومُغدقاً عليه الإنعام. أمّا كيف ذلك فلا تسأل، إنها معجزة أخلاق عبدالعزيز، معجزة روح التسامح والرأفة التي تملأ قلبه وتأخذ عليه مشاعره.

انقضاضه على قلعة مدينة الأحساء:

ونراه ينقضُّ مرةً أخرى كالعقاب على القلعة الضخمة في مدينة الأحساء التي ملأتها الدولة بالعَتاد الضخم من الأسلحة والمدافع ومئات الجنود النظامية المدرَّبة أحسن تدريب، ينقضُّ عليها كالصاعقة بجنوده المحدودي العدد والإمكانيات والتدريب، فيشلُّ حركة القادة فيها، ويقضي على مقاومتهم في ساعات معدودة، وإذا بهم يستسلمون رافعين الأعلام البيضاء بدون أن يُبدو أيَّ مقاومةٍ تُذكر.

ترفُّع الملك عبدالعزيز عن التشفي والانتقام:

كان منطق الأحداث والعُرف المُتَّبع في المعارك أن يكون جنود العدو أسرى للمنتصر، وعتادهم وأسلحتهم وكل ما يملكون من وسائل القوة غنيمةً باردةً لخصمهم. ومع أنَّ الدولة العثمانية قد ناصبت الدولة السعودية في فتراتها الأولى والثانية، وفي مدة البطل عبدالعزيز ناصبتها أشدَّ العداء، وأرسلتْ الجيوش تلوَ الجيوش للقضاء عليها وتمزيقها. بالإضافة إلى تشويه رسالتها التي هي رسالة التوحيد الخالص، وهي الرسالة التي قامت عليها هذه الدولة منذ فجر ولادتها، بالإضافة إلى ما كانت تذيعه الدولة العثمانية في جميع أنحاء العالم من تشويهٍ لِسُمعة هذه الدولة والافتراء عليها، وقلبِ

لحقائق دعوتها. كل هذه المبرِّرات تجعل من المنطق أن ينتقم البطل من جنود عدوِّه، ولكنَّ ترفُّعَ البطل عن التشفي والانتقام، وحبه للتسامح وحرصه على أن يكون القدوة في السلوك ورفعة الخصال، كل ذلك أبى عليه إلا أن يعامل هؤلاء الجنود مع ضبّاطهم وقياداتهم معاملة ضربت أروع مثلٍ يقدِّمه خصم لخصمه، يتلطَّف بهم فيأذن لهم بأن يحملوا جميع ممتلكاتهم وأسلحتهم الشخصية فَيُرحِّلهم على جِمال استأجرها لهم، تنقلهم من الأحساء إلى ميناء العُقير حيث يُبحرون إلى بلادهم مُعزَّزين مُكرَّمين موفوري الكرامة والشرف، وهو لا يكتفي بهذا فقط، وإنما يزوِّد كلَّ فرد منهم بمبلغ من المال حسب مرتبته ليستعين بها خلال سفره.

وأترك للقارىء أن يتصوَّر هذا الموقف، موقف البطل هذا فيختار من الأوصاف والألقاب ما يراهُ مناسباً لصنيع هذا البطل.

موقفه من خصمه ابن الرشيد والجنود العثمانيين:

وليست هذه المرة الأولى التي يقوم فيها هذا البطل بمثل هذه الأعجوبة في التسامح وكَظم الغيظ والترفُّع عن الحقد والضغينة. فقد سبق له أن قام بمثل هذا العمل مع جنود الدولة العثمانية ذاتها حينما التحمَ مع خصمه اللدود ابن الرشيد في إحدى المعارك الفاصلة، وهي معركة (الشنانة) أو (الطُرْفية) لست أذكر أيهما.

كانت الدولة العثمانية أَمَدَّتْ خصمه بمئات الجنود النظاميين المُدربين على فنون الحرب أحسنَ تدريب، وبالعديد من المدافع الضخمة التي كانت تجرُّها البِغال والخيول، ولم تألفها ساحات الجزيرة من قبل.

كانت المعركة بين الخصمين شَرِسة وعنيفة، وانجلى غبارها في نهاية الأمر بانتصار البطل عبدالعزيز ورفاقه، بينما أسرع خصمه منهزماً يجرُّ أذيال الخيبة تاركاً هؤلاء الجنود الذين قَدِموا لمساعدته للقضاء على خصمه، تاركاً إياهم في المعركة في حالةٍ حيرى لا يعرفون أين يذهبون لأنهم غرباء عن بِطاح الجزيرة ومجاهلها.

كانت أريحيَّة البطل وشهامته وحبه للتسامح وقلبه الكبير الذي لا مكان فيه للحقد أو الانتقام قد أَمْلَتْ عليه موقفاً يعتبر أروع مثل في دُنيا الشهامة والإباء.

لم ينتقم من هؤلاء الجنود الذين قَدِموا لمحاربته والقضاء عليه، لم يفتك بهم، لم يصادر أسلحتهم، لم يأخذ موجوداتهم وما يحملونه، وإنما أَسرعَ إلى ترحيلهم بعد أن استأجر لهم مئات الجِمال لتنقلهم إلى المدينة المنوَّرة حاملين أسلحتهم الشخصية وما يملكونه من مَتاع أو نقود. استأجر لهم هذه الجِمال ورحَّلهم عليها مصحوبين بأدلاَّء، وبمن يمنع عنهم الأذى أو الانتقام خلال سفرهم إلى المدينة. رحَّلهم معزَّزين مُكرَّمين لم يَنَلْهم أي أذى، ولم يلحق بهم ما يُذلُّ كبرياءهم أو يُشعرهم بالذُّل أو الهزيمة. رحَّلهم موفُوري الكرامة بعد أن نفح كلاً منهم مبلغاً من المال يستعين به على سفره.

تواضعه وكرمه ولطفه:

هكذا كانت مواقف عبدالعزيز مع أعدائه وخصومه، وللقارىء أن يَصف ذلك بما يشاء. يَفِدُ إليه البدوي قادماً من فجاج الجزيرة، البدوي الذي عاش بين السَّباسب والقِفار طيلة حياته، يقدِم إليه وكل سمات الغلظة والخشونة بادية في حركات هذا البدوي، يَفد إليه في قصر المربَّع بالرياض أو في غيره من أماكن وجود البطل عبدالعزيز، فما يكاد يقربُ منه حتى يخاطبه: «يا عبدالعزيز».

«يا عبدالعزيز»:

كلمة مُحببة تمثِّل الصدق والإباء، فيتقبلها البطل باسماً هاشّاً باشّاً مُحيياً قاصدَه بعبارات ليِّنة رقيقة ملؤها العطف والتحبُّب.

يُنصت باهتمام إلى ما يقوله هذا البدوي، فيقضي حاجته، ويُطيِّب خاطره، وينفحه بعونٍ ماديٍّ، بحيث ينصرف شاكراً مسروراً قد أخذ إعجابه بتواضع البطل وكرمه ولطفه وحُسن بشاشته، أخذ بمجامع قلبه فامتلأ بمحبة

البطل والتفاني في الولاء والإخلاص له. هكذا ببساطة، لا صاحب جلالة، ولا صاحب فخامة، ولا أي لفظ من ألفاظ التفخيم والتبجيل التي جرى العُرف بأن تُستعمل في مخاطبة الملوك.

❋ ❋ ❋

لقائي الأول بالملك عبدالعزيز:

أُتيحت لي فرصة اللقاء المباشر بالمغفور له جلالة الملك عبدالعزيز ثلاث مرات: أُولاهم كانت في مبني قائم مقام جدة الواقع قُبالة باب جديد من الداخل، وهو المبنى الذي كان يُعرف آنذاك بالخزنة، وكان في الوقت نفسه مقر حاكم جدة الإداري، وما كان يُسمَّى آنذاك قائم مَقام جدة.

دعوة ابنُ معمَّر الملك عبدالعزيز لتناول طعام العشاء:

كانت تلك المناسبة أنَّ المرحوم إبراهيم بن معمَّر قائم مقام جدة آنذاك، وكنت أعمل معه سكرتيراً خاصاً له، وكان قد دعى جلالة الملك لتناول العَشاء لديه، وكان الذي حمل الدعوة إلى جلالته هو جلالة الملك فيصل رحمه الله، الذي كان آنذاك حاكماً عاماً للحجاز باسم نائب جلالة الملك، ويشغل في الوقت نفسه منصب وزير الخارجية.

كُلِّفتُ بإيصال الدعوة الموجَّهة لسموِّ الأمير فيصل، وكانت عبارة عن التماس خطي قدَّمه إبراهيم بن معمَّر لجلالة الملك عبدالعزيز لتناول العَشاء، إذ كان جلالة الملك عبدالعزيز آنذاك موجوداً في جدة في قصر خزام.

بعد أربعة أيام تلقَّى قائم مقام جدة إشعاراً تليفونياً من الأمير فيصل بموافقة جلالة الملك عبدالعزيز على الدعوة محدِّداً لها يوماً معيّناً.

إكمال الاستعدادات والترتيبات:

أُكمِلت الاستعدادات في اليوم المعيّن لمجيء جلالته، ورُفعتْ الزينات على جوانب المبنى والشوارع التي سيمرُّ بها جلالته.

كان الوقت صيفاً ودرجة الحرارة مرتفعة، ولم تكن وسائل التبريد آنذاك معروفة بعد، إذ إن تلك الدعوة كانت في منتصف رجب عام ١٣٥٦هـ، لذلك فقد رأى المسؤولون عن الحفل أن تكون سفرة الطعام على سطح المبنى، وأن تقتصر المائدة على جلالة الملك وكِبار مرافقيه، وهم في حدود خمسة عشر نفراً تقريباً، أما بقية المرافقين فقد مُدَّت لهم الموائد في ساحة حديقة الخزنة.

بعد مغرب اليوم المُحدَّد شرَّف جلالة الملك عبدالعزيز ومرافقوه، وكما قلت: فإنَّ الترتيبات قَضَتْ بأن يكون الملك ومرافقوه المعيَّنون على السطح، أما الآخرون فيبقون في ساحة الحديقة.

صعد جلالة الملك المبنى وكان مُكوَّناً من طابقين، أُعدَّ في السطح جناح خاص زوِّد بالأرائك المُخملية الناعمة.

كان جلالته فاره الطول، مستقيم القامة، مرفوع الرأس، متناسق الأعضاء، ممتلىء الجسم، لا بدانة مُفرطة، ولا نحافة ملفتة، بل كان جسمه متناسقاً ممتلىء، تَشي حركاته بالقوة والنشاط.

كان يصعد الدرج، وكنتُ واقفاً بجوار مُستقبليه على السطح، وعلى رأسهم سموُّ الأمير فيصل وإبراهيم بن معمَّر، كان جلالته يصعد الدرج بعزم وقوة وكأنه ابن العشرين بعد.

أخذ مكانه المعدّ له، وأحاط به مرافقوه، ثم انطلق بعفوية مُحببة في حديث شيِّق مع مرافقيه، حديث تغلب عليه الطرافة والنكتة وروح المداعبة خاصَّةً مع المَدْعُوَيْن: ابن الجبعا وابن خثيلة، وهما من مرافقي جلالته في تنقلاته.

كلمة ترحيبية مني بالملك عبدالعزيز:

كنتُ أقف مع إبراهيم بن معمَّر، ورئيس بلدية جدة آنذاك علي سلامة، ورئيس الكنداسة محمد السليمان التركي، ومدير مالية جدة، وأظنه هاشم سلطان إن لم تخنِّي الذاكرة. كُنا وقوفاً على بعد نحو ثلاثة أمتار من مجلس الملك نسمع ونشاهد ما يدور فيها بكلِّ وضوح.

اقتراح مدير بلدية جدة بإلقاء كلمة أمام الملك:

وهنا اقترحَ علي سلامة مدير بلدية جدة على قائم مقام جدة إبراهيم بن معمَّر بأنه سيكون مناسباً جداً لو أُلقيت كلمة أمام الملك، شكراً له وترحيباً بمقدمهِ وتفضُّلهِ بالتنازل لتلبية الدعوة.

وهنا راقت الفكرة لابن معمَّر فالتفتَ إليَّ، وكان قد سبق له أن شَهِدَ حفلاً في افتتاح شارع الملك فيصل عند قدومه معيَّناً قائم مقام جدة في أوائل جمادى الأولى عام ١٣٥٦هـ، كان قد شاهدني أُلقي أمامه في ذلك الحفل خُطبةً ارتجاليةً تتعلّق بالمناسبة، كما سبق لي أن شرحتُ فيما مضى من هذه الخواطر.

التفتَ إليَّ قائلاً: هل سمعتَ ما قاله رئيس البلدية؟ قلت: نعم. قال: ما رأيك في الموضوع؟ هل في وِسعك أن تقوم بالمهمة؟ قلت: نعم، وعلى أتمِّ الاستعداد.

مشاعر الإعجاب والتقدير:

وكانت مشاعري وأحاسيسي ملتهبة بالإعجاب والتقدير لجلالة الملك بعد أن شاهدته عياناً، وسمعتُ حديثه الشيّق والمتواضع مع مرافقيه.

هنا اتَّجه ابن معمَّر إلى الأمير فيصل، وهمسَ بأذنه وأَخالهُ طلب منه أن يستأذن والده بالسماح لإلقاء كلمة، حيث اتجه واقفاً إلى والده، وأفضى إليه برغبة قائمقام جدة، وهنا رأيتُ جلالة الملك رحمة الله عليه وهو يرفع يده وكأنها يد أسد قائلاً: «مرحبا، ما يخالف».

هنا اتَّجهتُ إلى حيث يجلس جلالته ووقفتُ على بُعد نحو ثلاثة أمتار، ثم ارتجلتُ كلمةً ملؤها الحماس والانفعال، كانت الأكفُّ تقاطعني بتصفيقٍ حادٍ لا ينقطع.

وخلال تلك اللحظات كانت تعلو الجو سحابة يتساقط منها رذاذ من المطر، وكانت فرصة لي أن أختم بها تلك الكلمة المُرتجلة بقول الشاعر:

تحيا بكم كلُّ أرضٍ تنزلون بها   كأنكم لِمَوات الأرض أمطارُ

ثم تقدَّمت قليلاً حيث قبَّلت يَد جلالته.

وبانتهاء الكلمة سألني: من أنت؟

أجبته: أنا إبراهيم الحسُّون.

قال جلالته: من أيِّ بلد؟

قلت: من عنيزة.

قلت: نعم.

قال: بارك الله في عنيزة، وفي أبنائها

بعد ذلك نهض جلالته إلى المائدة، وكانت على أرضية السطح، وهنا مرَّ بي المرحوم الأمير فيصل، ربت على كتفي قائلاً: بخٍ بخٍ تحيا به كل أرض! ثم انصرف ضاحكاً إلى حيث المائدة.

في قصر المربَّع في الرياض:

أما المناسبة الثانية التي سعدتُ فيها بلقاء الملك عبدالعزيز، فكانت في قصر المربَّع بالرياض، وبالتحديد في اليوم العاشر من شهر شعبان عام ١٣٥٧هـ، وقد مرَّ ذكرها فيما سبق من هذه الخواطر والذكريات.

في حفل أرامكو في رأس تنورة:

كما مرَّ ذكر المناسبة الثالثة أيضاً في حفل (أرامكو) في رأس تنورة، حينما ألقيتُ بين يدي جلالته كلمةً مُرتجلةً بمناسبة تصدير أوَّل دفعة من البترول السعودي إلى الخارج عبر الموانىء السعودية.

وبانتهاء الكلمة سألني: من أنت؟

أجبته: أنا إبراهيم الحسُّون.

قال جلالته: من أيِّ بلد؟

قلت: من عنيزة.

قال جلالته مُستفسراً: أنت (فيد) خطبة ابن معمر في جدة؟

قلت: نعم.

قال: بارك الله في عنيزة، وفي أبنائها.

استعراض لوحة الأحداث في ذاكرتي:

أعود إلى حيث كنت في غرفتي بالفندق العربي مساء يوم ٣ من ربيع الأول عام ١٣٧٣هـ، أستعرضُ تلك اللحظات الحزينة وأستعيدُ في ذاكرتي لوحة الأحداث التي مرَّت أمام خيالي طيلة معاصرتي لحياة هذا البطل الذي هوى من الأعلى كالنسر إلى بطن التراب.

ومن الواضح أن حياةً حافلةً بالأحداث الجِسَام شُيِّدت فيها دولة، وأُقيم صرحُ مُلك، وكوِّنت خلالها مملكة مترامية الأطراف، وُحِّدت أجزاؤها، ومُزِجَت عناصرها، وصُهرت جميعها، رغم ما فيها من تباين ونزعات وتباعد بين منطقة وأخرى، صُهرت كلها في بوتقة أنتجت (المملكة العربية السعودية). ليس في وِسعي أن أُعطي شرحاً كاملاً مفصَّلاً عن الأحداث التي انتظمت أربعةً وخمسين عاماً من عمر الزمن، من عام ١٣١٩هـ حتى أَفَل النجم، وغاب عن الوجود.

في هذا اليوم الكئيب ليس في وِسعي أن أفعل ذلك؛ لأنه فوق الجهد والطاقة، ولأنه فوق ذلك كله أشبه ما يكون بالمعجزة التي تحقَّقت في الجزيرة بعد مُضي ١٣٠٠عام من عمر الزمن.





السفر إلى القاهرة

خطاب من أخي عبدالله:

خلال وجودي في بيروت في أواخر ربيع الأول عام ١٣٧٣هـ، تلقَّيت خطاباً من أخي المرحوم عبدالله، وكان آنذاك يقيم في مصر مع أسرته، يدعوني فيه للحضور إليه في مصر في أسرع وقت ممكن.

أسرعتُ مُلبياً الطلب، وبوصولي إلى هناك أوضحَ لي بأن أرضِ حلقة الخُضار في مدينة جدة، المُلاصقة للعمارة التي يملكها هو هناك قد أُعطيت لبعض الأشخاص، وشُرع في البناء عليها، وطلبَ مني السفر فوراً إلى جدة، وبذل كل جهد ممكن للحيلولة دون إقامة أي بناء عليها، باعتبارها مرفقاً عاماً لبيع الخضار في مدينة جدة، وأنه في حالة تعذُّر إبقائها على وضعها السابق، فإنه مستعد لشرائها من الدولة مهما غلا الثمن، وتسجيلها وقفاً لتظلَّ مبيعة للخضار، لمنفعة أهالي جدة.

زواج ابنة أخي فوزية:

مكثتُ في القاهرة ريثما حجزتُ مقعداً في الطائرة إلى جدة، وخلال وجودي معه ـ رحمة الله عليه ـ أشعرني بأنه اعتزمَ أن يزوِّج ابنته فوزية على ابن عمها، وطلبَ معرفة رأيي في الموضوع. عارضته على الفور لِعلمي بالبون الشاسع بين عقلية كلٍّ منهما وتفكيره، ولكنه قطع عليَّ الطريق بقوله بأنَّ الموضوع تمَّ بعد أخذ موافقة فوزية.

مناقشة فوزية في اختيارها شريك حياتها:

خلوتُ بفوزية بعد هذا الحديث، وسألتها عن الموضوع، فأكدت لي صحة أقوال والدها، وأنَّ الأمر تمَّ بملء إرادتها، وهنا شرحتُ لها عن رأيي الشخصي في الموضوع من ناحية معينة، تتجاوز ناحية القربى والنسب، موضحاً لها أنَّ ابن عمها نِعْمَ الرجل خُلقاً وتديُّناً واستقامة سلوك، إلاَّ أن نظرته للحياة نظرة منغلقة، ضيقة الأُفق، لأنه عاش طيلة حياته في جو بدائي لا يمتُّ إلى المعرفة بصلة، ولا يَعي تطور الحياة، وقد عاش حياته (في الوادي)، والوادي مجموعة من النخلات، يبعدُ عن مدينة عنيزة نحو عشرين كيلومتراً تقريباً، يكاد ينقطع عن العالم، مما يجعل تقبُّلَهُ لِحياة الحضارة والانفتاح على التطور شيئاً قد لا يستطيع هضمه، بينما هي قد عاشت في جو مرفَّه، وأُتيح لها من الثقافة، وانفتاح الفكر ما يجعلها تعايش روح العصر، وتنسجم معه.

كانت إجابتها لي: إنه ابن عمي، وأنا مستعدة أن أعيش معه ولو تحت سقف خيمة أو بيت شَعر في الصحراء.

اعتزازها بأسرتها وتعاليها على متع الدنيا:

أكبرتُ فيها هذه الروح التي أثارت إعجابي واحترامي إلى أقصى حد ممكن. روح الاعتزاز بالنسب والحفاظ على الأسرة، والنظرة المُتعالية عن مُتع الحياة ورفاهيتها، وقبولها وهي الفتاة المُترفة المثقَّفة، أن تقترن بإنسان حظه من المعرفة دون المتوسط، وأن تقبل العيش معه تحت سقف خيمة أو بيت شَعر، هذه الروح التي تثبتُ أصالة الأسرة وتماسكها واعتزازها بجذورها.

وهنا لم يَسعني إلا التعقيب على حديثها بقولي: مبروك وألف مبروك، راجياً لها في قرارة نفسي أن تهنأ بحياة سعيدة هانئة وادعة.

وقوع ما كنت أتحسبُّه:

ومن المؤسف أنَّ الذي كنت تحسبتُ وقوعه قد وقع فعلاً، لم تمضِ

عدة أعوام على قِرانهما وبعد أن أنجبا خلال هذه الأعوام طفلة وحيدة، افترقا بعد مخاصمة طويلة مُمثَّلة في الإصرار على الافتراق من جانب، وعلى التمسُّك بعناد من جانب آخر.





أرض حلقة الخضار

الحمراني وأرض الخُضار:

غادرت مصر على إحدى الطائرات السعودية ماركة (كومفير) إلى جدة. فور وصولي إلى مطار جدة، أسرعتُ إلى موقع الأرض، أعني بها أرض حلقة مبيعة الخضار بمدينة جدة الواقعة في باب مكة والمُلاصقة لأملاك أخي.

كان الفَعلة والعمال يقومون بحفر الأساسات على حدود الأرض. سألتُ أحد العمال: أين المسؤول عنها؟ أشار إلى شاب يقف وسط الأرض. بسؤالي: مَن الشاب، مَن صاحب الأرض هذه الذي كلَّفكم بالحفريات فيها؟ أجاب: إنها أرض الحمراني (والحمراني هو أحد محسوبي وزير المالية آنذاك عبدالله السليمان الحمدان، ومن ذوي الحُظوة والمكانة لديه).

فهمتُ من الشاب أنَّ هذه الأرض مُنحت للحمراني هذا من قِبل وزير المالية، وأنه ـ أي الحمراني ـ يريد أن يقيم عليها عدة عمارات ومجموعة من الدكاكين.

لم يكن هناك أي مجال لمناقشة هذا الشاب أو البحث معه في تفصيل هذه القضية لعلمي أنه مجرد أجير مكلَّف.

برقية إلى سمو الأمير فيصل:

هنا أسرعتُ إلى الدار وحرَّرت على الفور برقيةً رفعتُها إلى سموِّ

النائب العام لجلالة الملك في الحجاز، سموُّ الأمير فيصل ـ رحمة الله عليه ـ تضمَّنت البرقية شرحاً مُفصلاً عن مساحة الأرض وموقعها، والمنفعة التي تؤديها إلى مدينة جدة، موضِّحاً بأنها مرفق عام لبيع الخضار بمدينة جدة منذ عشرات السنين، وأنَّ إزالتها وإقامة مباني عليها فيه ضرر، وأيُّ ضرر لسكان مدينة جدة، وأوضحتُ قائلاً لسموِّه: إنه إذا لم يكن في الإمكان إبقاء هذه الأرض على وضعها السابق، فإني مستعد أن أدفع أي ثمن تقررهُ الحكومة لها، وأن أُسجلها وَقفاً عاماً للمسلمين، بالإضافة إلى أنني أَحقُّ بالشفعة فيها لأنها مُلاصقة لأملاكي.

برقية أخرى مستعجلة:

كان يرأس ديوان سموِّه ـ وكان يُعرف بديوان النيابة العامة ـ الشيخُ إبراهيم السليمان العقيل، بعد ثلاثة أيام بعثتُ ببرقية أخرى مُستعجلة تأكيداً للبرقية الأولى.

وصول الأمير فيصل إلى جدة برفقة رئيس ديوانه إبراهيم العقيل:

كان من عادة سموِّ الأمير فيصل أن يزور جدة ما بين فترة وأخرى، لأنَّ إقامته كما هو معروف في مكة المُكرمة. كان عندما ينزل إلى جدة ينزل بسيارته الخاصَّة، يرافقه فيها رئيس ديوانه الشيخ إبراهيم السليمان العقيل، ومن حُسن الحظ أنه بعد برقيتي الثانية بيومين قدِم سموُّه إلى جدة، فمرَّ من جانب الأرض، وكان العمال يعملون فيها، وهنا أخبره إبراهيم السليمان بأنَّ هذه الأرض هي التي تضمنتها برقيتَي الأولى والثانية.

وقوف سمو الأمير فيصل على أرض الخضار:

فأوقف سموُّه السيارة، ونزل منها هو وإبراهيم السليمان، ووقف على الأرض، وشاهداها على الطبيعة ثم عادا إلى سيارتهما.

برقية سمو الأمير فيصل إلى وزير المالية:

في اليوم الثاني تلقيتُ صورةً من برقية صادرة من ديوان النيابة العامة

في مكة، بتوقيع النائب العام سموُّ الأمير فيصل مُوجَّهة إلى وزير المالية عبدالله السليمان الحمدان ونصها كما أذكر:

نصُّ البرقية إلى عبدالله السليمان الحمدان:

ابن سليمان: من طرف أرض مبيعة الخضار الواقعة في باب مكة بجدة، والتي أعطيتموها للحمراني، قف. هذه الأرض تبقى مرفقاً عاماً لمصلحة أهالي جدة، وعليكم تعويض الحمراني بأرض أخرى في مكان آخر «فيصل».

مكرمة من سموِّ الأمير فيصل:

ما كدتُ أستلم الصورة حتى أسرعتُ إلى رئيس العمال الذين يعملون على الأرض، طالباً منه إيقاف العمل على الفور، بعد أن أطلعتهُ على صورة البرقية. وبالفعل في اليوم الثاني، رُفعت المعدات وأدوات الحفر عن الأرض، وأُجليَ عنها العمال. كان هذا حدثاً سعيداً بالنسبة لي ولأهالي جدة، ومَكرمةً من سموِّ الأمير فيصل تدلُّ على الحكمة وبُعد النظر، ويداً كريمةً اعتبرتها تطوِّق عنقي من قِبل الشيخ إبراهيم السليمان العقيل لأنه هو الذي اهتمَّ بالقضية ولاحقها مع سموِّ الأمير فيصل حتى آل الأمر بإصدار ما يوقف عملية بنائها.

كتبتُ لأخي خطاباً مفصَّلاً عن القضيَّة، أرسلته إلى مصر، ثم عُدت من جدة إلى لبنان، وظلت الأرض فضاء، إلى أن نقلت بلدية جدة مبيعة الخضار إلى أرض أخرى.





حكايتي مع عبدالله القصيمي:

بُعيدَ عودتي إلى لبنان من جدة، كان الوقت آنذاك صيفاً، كان الصديقان الأخ أحمد المانع والأخ عبدالمحسن المنقور يقيمان في بيت استأجراه مدَّة الصيف في مدينة (حمَّانا) في لبنان، وبطبيعة الحال انضممتُ إليهما.

مقهى أبو الشامات:

كُنَّا عادةً في أكثر الأيام نقضي فترة المساء في (مقهى أبو الشامات) في (بحمدون المحطة)، وكان يجتمع معنا في هذا المقهى لفيفٌ من الأصدقاء.

وفي أحد الأيَّام حضر إلينا في المقهى - حيث كنا مجتمعين - رجلٌ رفيع القامة، ممتلىء الجسم، يرتدي ثوباً أبيض اللون، يعلوه جاكيت من اللون نفسه، ويبلغ عمره في تقديري ما يقربُ من الستين عاماً، ما كاد يصل إلى حيث كُنَّا مجتمعين حتى هبُّوا وقوفاً يصافحونه، وكنت ضمن مَن صافحه، ولم أكن قد عرفته في تلك اللحظة، وقد بدا لي من اهتمام الإخوان به ما يَشي بأنَّ الرجل ذو مكانة جعلتهم يحتفون به.

دامت الجلسة أكثر من ساعة، وكان الحديث خلالها يدور حول موضوعات شتَّى، وفي الغالب الأكثر كان هو المتحدِّث، وكنت ألحظُ من

حديثه أنه على مستوى من المعرفة، من عباراته الرزينة، وجُمَلِهِ المميَّزة، فإنَّ حديثه ذاك كان ممزوجاً بالكثير من السخرية اللاذعة.

شدة شوقي للقاء القصيمي:

انفضّ الاجتماع وذهب الرجل بعد أن أوضح له الزميلان أحمد وعبدالمحسن عن مكان إقامتهما في (حمَّانا)، وأنهما يسرُّهما استقباله وقتما يشاء.

انصرف الرجل، وهنا سألتُ الأخوان: من هذا؟ أجابوا: ألا تعرفه؟! قلت: لا. فاستغربا ذلك مني، وقالا: ألا تعرف صاحب كتاب «هذه هي الأغلال». هنا أجبت: أهو القصيمي؟!! قالوا: هو بعينه! وقد أسفتُ لأني لم أعرفه أثناء الاجتماع، لأتحدَّث معه عن كتابه ذاك، وعن كتبه الأخرى: «دفاع عن الإسلام»، و «البروق النجدية»، فقد كنت منذ أكثر من ثلاثين عاماً شديد التطلُّع والشوق للقائه.

كيف حصلت على كتاب «هذه هي الأغلال»؟

ويكفي تدليلاً على هذا الحصر أن كتابه الأخير، وأعني به «هذه هي الأغلال» حينما صدر، وكنتُ لازلت على مقاعد الدراسة في مدارس الفلاح، قد بحثتُ كثيراً عنه، وحرصتُ أشدَّ الحرص على اقتنائه، نظراً لما صاحب صدوره في الأوساط الثقافية من ضجَّة إعلامية قد لا يظفر بمثلها غيره.

وقد حملني إخفاقي في الحصول عليه داخل المملكة، وفي مكتبات مصر أن بعثتُ إلى أحد الأصدقاء في الكويت أن يبحث لي عنه، فقد بلغني أنه قد يوجد في إحدى مكتباتها، وبالفعل فقد كان يوجد في مكتبة محمد الرويح في السوق الكبير في الكويت، وأنَّ قيمته خمسون روبِّيَّة، وهو مبلغ ضخم بكل المقاييس في تلك الأيام، ومع ذلك فقد اقتنيته، ولست بحاجة لشرح مضمون هذا الكتاب لأن على مَن يرغب الاطلاع عليه أن يقرأه، وكل ما يمكن قوله عن هذا الكتاب أنه كتابٌ وُلِد في غير أوانه، وأنَّ ما حمله

بين دفتيه من آراء جريئة في ذلك الوقت، صارت في أيامنا هذه شيئاً معتاداً مألوفاً.

مواصلة زيارة القصيمي لنا:

في اليوم الثاني حضر إلينا القصيمي في (حمَّانا) مساءً، وظلَّ معنا حتى بعد تناول طعام العَشاء، وهكذا ظلَّ يواصل زيارتنا ما بين يوم وآخر، وقد أُعجبنا بغزارة معرفة الرجل أيَّما إعجاب، وبأسلوبه المميَّز الرصين في الحديث، وفي سَعَة أُفقه وعميق تفكيره.

ضائقة مالية حادة:

وكُنَّا نلحظ أنه يعاني ضائقةً ماليةً حادة، تتجلَّى في أنه يسكن في غرفة متواضعة تقع في حلقة الخضار جنوب (سينما ريفولي) الواقعة جنوب ساحة البرج ببيروت، وأجرة الليلة فيها ليرة لبنانية واحدة، لذلك فإن وضعه المالي ـ كما هو ظاهر ـ يحتلُّ حيِّزاً في أحاديثنا عنه، كنا نفكِّر في حالته تلك، ونفكِّر في الطريقة التي يمكن أن تُمكِّننا من مساعدته؛ وخلال أسبوع تقريباً من بدئه حضوره إلينا في (حمَّانا) كُنَّا ـ نحن الثلاثة ـ ومعنا لفيف من أصدقائنا جلُّهم من أهل عنيزة، مجتمعين على (مقهى نهر البردوني) في مدينة (زحلة)، وكان ذلك يوم جمعة، وأذكر من أولئك الأصدقاء الأخ عبدالعزيز الحمد العبدلي ـ رحمه الله ـ، والصديق عبدالعزيز العوهلي ـ يرحمه الله ـ، والأخ الصديق عبدالرحمن المنصور الزامل أمدَّ الله في عمره، والأخ عبدالله المهنّا من أهل الإحساء، والأخ الصديق سليمان الإبراهيم القاضي، والأخ صالح العبدلي، وبعض الإخوان الذين لا أذكر أسماءهم الآن.

كان الحديث بيننا يدور حول عبدالله القصيمي، ونظراً لما عرفنا نحن الثلاثة عنه، وعن ضائقته المالية: فقد اقترحنا ضرورة مساعدته، وأنه لا يليق بمَن يحمل مثل ثقافته وعلمه أن يعيش بهذا الوضع. وقد شرح لنا بعض الإخوان أيضاً أنَّ مجيئه ـ أي القصيمي ـ إلى لبنان كان مبعثه عدم رضا السلطات المصرية عنه، مما حملها على إبعاده.

كيفية تقديم المساعدة له:

دارتْ المناقشات بين المجتمعين بحثاً عن الكيفية التي تمكّن من مساعدته، وتكون بعيدة عن جرح كبريائه، وهنا استقرَّ الرأي على أن تُسجَّل أسماء المجتمعين بحيث يتبرَّع كل منهم بما يرغب، ثم تُجمع المبالغ، وتُسلَّم إليه بطريقةٍ لَبِقة، بعيدة عن المسّ بمشاعره، وقد أُسندت إليَّ من الإخوان مهمة جمع ما تبرَّعوا به، ومن ثمَّ أحملها معي ضمن ظرف مُغلق يحمل اسمه، أترقَّب حضوره في ساحة البرج في بيروت وأُسلِّمه بيده، على أساس أنه ظرفٌ مُرسلٌ إليه بواسطتي، ثم أنصرف عنه مُسرعاً.

تمَّ جمع المبلغ وكان على ما أذكر ٤٥٠٠ ليرة لبنانية، وضعتها في ظرف حسب الاتفاق، وحملتها معي تمهيداً لتسليمها له.

في السيارة المتجهة إلى (حمانا):

نزلت بيروت لهذا الغرض فلم أجده، وعندما أردتُ العودة إلى (حمّانا)، وكانت السيارات التاكسي المعدَّة للنقل بين حمّانا وبيروت في ساحة البرج تنادي على ركّاب حمّانا، فصعدتُ إليها، وفجأةً إذ بي أرى القصيمي مُقبلاً إلى حيث السيارة مُكملاً العدد المطلوب، وهنا أخَذَتْ السيارة طريقها إلى حمّانا.

كان ركاب السيارة أربعة: القصيمي بجوار السائق، وأنا في الخلف، وبجواري أحد أبناء حمّانا، أحد الرهبان المسيحيين.

حوار بيني وبين القصيمي:

سارت السيارة بنا، وما كِدنا نبتعد عن بيروت بضع كيلومترات حتى التفتَ إليَّ عبدالله القصيمي موجِّهاً كلامه إليَّ قائلاً: يا أخ إبراهيم! ما هو رأيك في لبنان؟

أجبته: من أيّ النواحي تعني في سؤالك؟ عن جمال طبيعته؟ عن أخلاق أهله؟ عن الحرية التي يتمتَّع بها؟ والمستوى الثقافي الذي وصل إليه؟

أجابني بقوله: أقصد لبنان ككل؟ ثم أردف قائلاً: ألا ترى معي أنَّ لبنان قد اكتملت فيه جميع المغريات التي يطمح إليها المؤمنون بعد مفارقتهم هذه الحياة! ثم أضاف: ألا ترى أنَّ لبنان يوجد فيه أنهار، ويوجد فيه فواكه متنوِّعة، ويوجد فيه جنات ونساء وغلمان وكل ما تشتهيه الأنفس؟

تبجحه بالإلحاد وإنكار اليوم الآخر:

دُهشتُ لهذا الشرح منه وقبل أن أتفوَّه بكلمة، إذا به يضيف قائلاً: إنَّ هذه الأشياء الموجودة في لبنان هي الأشياء التي ذُكرت في الجنة للمؤمنين بعد الوفاة!

هنا أجبته بقولي: ما هذا القول يا شيخ عبدالله؟! أسخريةٌ حتى في الدين؟!! أجادٌّ أنت فيما تقول، أم هو قول هزل وسخرية كما اعتدتَ في أحاديثك؟

أجابني بقوله: أنا جادٌّ فيما أعنيه، ولذلك فإني أرى لا جدوى في أن تتعب نفسك في العبادة، وما أنت موعود به هو موجود بين يديك.

موجة غضب:

وهنا أحسستُ بموجة غضَب، وجَّهت إليه قولي: اتق الله يا رجل!! كيف تجرؤ على مثل هذا القول؟!!

وهنا عقَّب عليَّ بقوله: كيف تعبد مَن هو محتاج إليك؟ ألم تقرأ في القرآن: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: الآية ٢٤٥].

تدخل الراهب المسيحي:

عندئذٍ تدخَّل الراهب المسيحي فقال له: يا شيخ اتق الله! إنَّ ما تقوله هو كفر لا يليق بك أن تنطق به.

أمّا أنا فقد أخذ جسمي يرتعش من الغضب، ولم أجد ما أقوله فقد انعقد لساني، وهنا كانت السيارة قد وصلت مدخل (عاليه)، فطلبتُ من السائق أن يقف، فنزلتُ من السيارة بعد أن نقدتُ السائق أجرته.

إعادة المبالغ إلى أصحابها:

ومكثتُ في (عاليه) حتى الساعة الحادية عشر ليلاً؛ وعندما عدتُ إلى (حمَّانا) أخبرتُ الأخوان أحمد وعبدالمحسن بالموضوع، واتفقنا على إعادة المبالغ لأهلها.

رسالة من أخي وأنا بلبنان:

سافرت إلى لبنان من جدة وكنت لاأزال أقضي دَور النقاهة من المرض وَفقاً لتوجيهات الدكتور المُعالج إدوارد باروكي. بعد وصولي إلى بيروت كان أخي ـ رحمه الله عليه ـ قد عاد إلى جدة، فمن عادته في الغالب أن يقضي أشهُر الشتاء في جدة، ثم يعود إلى القاهرة.

نوبات الألم:

كنتُ أعاني منذ مغادرتي المَصَح أَلماً يعاودني بين فينة وأخرى في الاثنى عشر، وتعتريني حالة من المغص يعقبها خروج زبد أبيض من فمي، يلازمني فترة بحدود ساعة أو ساعتين ثم يهدأ. ولم تُفصح الأشعة التي أجريتها في مستشفى الجامعة الأمريكية ببيروت عن وجود مرض معيَّن، وإنما يصفونه بأنه مجرَّد التهاب.

التصميم على إجراء عملية جراحية:

وفي أحد الأيام، وكنتُ أعاني من ألم النوبة وحِدَّتها ما جعلني أبتئس، وأنظر إلى الحياة بيأس وقنوط، مما حفَزَني على أن أحجز سريراً في مستشفى الجامعة لدخوله وإجراء عملية لهذا الموضع الذي ذكرت، وهو يقع في أسفل الصدر من الجانب الأيمن، رغم علمي بالتحذيرات التي كنت أسمعها من الطبيب إدوارد باروكي، التي تقول باجتناب إجراء أي عملية جراحية قبل أن تمضي أربع سنوات على الأقل من مغادرتي مَصَح بحنّس؛ لأن إجراء مثل هذه العملية سينتج عنها انتكاس مرض السّل مرة أخرى. ورغم علمي بذلك فقد صممتُ على إجراء العملية، وليفعل الله ما يشاء.

كان موعد دخولي المستشفى صباح اليوم التالي، وكنتُ أقيم في فندق العربي في ساحة البرج ببيروت، وفي ذلك المساء وصلتني رسالة من أخي رحمة الله عليه، ولم تكن لها سابقة. وبقراءتي للرسالة كانت بالنسبة لي أشبه بالقُنبلة، حطمَت كل أمل لي بالتعلُّق بالحياة، وكان مضمونها تقريعاً وتوبيخاً وسخريةً واستهزاءً باستمرار بقائي في لبنان، فبقائي في لبنان وعدم عودتي إلى جدة، بزعم أنني مازلت في دَور النقاهة، إنما هو تضليل وتمويه، لا حقيقة له، وإن بقائي في لبنان إنما هو للنزهة والمتعة ليس إلا.

ردِّي على رسالة أخي:

وللقارىء أن يتصوَّر شعوري وحالتي النفسية، وأنا مُقبل على العملية رغم مخاطرها، ورغم معاناتي من الألم، ورغم أنَّ بقائي في لبنان مُكرهاً لا مُختاراً، فقد حرَّرتُ له على الفور رسالة ملتهبة مليئة بالشجن والشجون، يكاد كل حرف من حروفها ينطقُ بالأسى والأنين، أوضحتُ له فيها وضعي الصحي، وما أُعانيه من ألم، وأنني غداً في طريقي إلى مستشفى الجامعة لإجراء عملية جراحية قد تكون هي الفصل الأخير من حياتي.

رسالة ملتهبة ممزوجة بالأسى والسخرية:

لأوَّل مرة في حياتي أكتب له عبارات ملتهبة الشعور ساخراً من رسالته ومضمونها، أول مرة أجرؤ فيها على أن أخاطبه بحدَّة ممزوجة بالألم والسخرية، وأذكر أنَّ من ضمن ما جاء في تلك الرسالة أنني الآن لا أعرف مقدار المدة التي سأظلُّ فيها على قيد الحياة، وأنه ـ أي أخي ـ إذا كان يعتقد أنَّ بقائي في لبنان هو للمتعة واللهو فعليه أن يتبرأ مني إذا ذُكرتُ عنده، وأن يخبر محدِّثه بأنه ليس لي أخ يُدعى إبراهيم الحسون.

كانت الرسالة بالغة العنف، مليئة بالتطاول والشِّدة. أودعتُ الرسالة في البريد، ثم توجَّهت في صباح اليوم التالي إلى مستشفى الجامعة حيث مكثتُ نحو خمسة عشر يوماً.

في مستشفى الجامعة الأمريكية:

أُخذ لي العديد من الصور وأُجريت لي الفحوصات المتكرِّرة، وكانت النتيجة في الجميع سلبية، لم يظهر أي مرض يمكن تشخيصه وعلاجه، وقد عزا أطباء المستشفى هذا الزبد الذي يخرج من فمي مصاحباً للألم أنه نتيجة تشنُّجات عصبية في المعدة، وأنه لا خطر منه، وبالتالي سُمح لي بمغادرة المستشفى بعد أن زوّدوني ببعض الحبوب للعلاج، وأعتقد أنها مُسكِّنة ليس إلا.

جواب أخي العطوف عليَّ:

عدتُ إلى الفندق... وبعد فترة ليست بالطويلة تلقَّيت من أخي رسالةً جوابيةً كلها تفيض بمشاعر العطف والحنان والأماني الطيبة، والاستعداد لدفع أيِّ مبلغ أنا أطلبه منه، وأنَّ عليَّ أن أبقى في لبنان ما شئت حتى اطمئن على صحتي، موضِّحاً في رسالته أنَّ رسالته السابقة إليَّ لم يقصد بها إلا الحرص على سلامتي كما يقول، وأنه كتب كما يقول نتيجةً لما ينقله إليه بعض الأشخاص بأنهم يشاهدون أخاه إبراهيم في لبنان يتنقَّل ما بين مَصيف وآخر، تارةً في بيروت وطوراً في عاليه، وحيناً في بحمدون وصوفر، إلى آخره.



العودة إلى المملكة عن طريق البر:

مكثتُ بعد هذا الحادث نحو أربعة شهور، وكان ذلك في أواخر عام ١٣٧٣هـ، ثم قررتُ العودة إلى المملكة، ولما كانت زوجتي، وطفلها الرضيع يوسف الذي لم أره بعد، قد انتقلت إلى حفر الباطن مع والدها في شوال عام ١٣٧٢هـ، فقد قررتُ أن تكون عودتي إلى المملكة براً عن طريق حفر الباطن مروراً بسورياً، ومن ثمَّ الأردن، ثم المملكة.

كانت وقتذاك شاحنات تزاول النقل بين لبنان والمملكة، فاستقلَّيت

إحدى الشاحنات التي كانت تَقُلُّ مواد ومعدَّات تتعلق بمدِّ خط الأنبوب الذي كانت تُقيمه شركة التابلاين، ممتداً من رأس مشعاب على الخليج العربي إلى ميناء الزهراني القريب من صيدا في لبنان مروراً بسوريا وبالأردن.

المرور بمحطة سكة حديد الحجاز:

اجتزنا الأراضي السورية عن طريق أبي الشامات، ثم مررنا بمحطة سكة حديد الحجاز، وكانت ذات مبانٍ ومستودعات ضخمة (هناجر)، والعديد من عربات السِّكة، فيها مجموعة من السكان، بعضهم يقطن في بيوت شَعر، وبعضهم في بيوت متواضعة من الطين، وقد لا يزيد عددهم عن ألف نسمة.

مشروع إسلامي ضخم:

وهذه المحطة هي إحدى المحطات الممتدة من اسطنبول(القسطنطينية) حتى المدينة المنوَّرة عبر الأراضي التركية فالسورية فالأردنية فالمدينة المنوَّرة، وهذه السِّكة تمَّ إنشاؤها على يد السلطان العثماني عبدالحميد الثاني الذي كان في نيته أن يوصلها إلى مكة المُكرمة، وهو مشروع إسلامي ضخم ربما يكون أضخم مشروع إسلامي لأنَّ تمويله تمَّ جمعه تبرعات من المسلمين ذكوراً وإناثاً في مختلف البلاد الإسلامية، حتى النساء اشتركنَ في هذا التمويل بما يملكنَ من حلي ونقود.

تخريب خط سكة حديد الحجاز:

قامت بإنشاء هذا الخط شركات ألمانية، أشرف عليها عباقرة المهندسين الألمان. كان وصول هذا الخط للمدينة المنوَّرة لأوَّل مرة في عام ١٩٠٩م، وظلَّ يعمل حتى قامت الحرب الأولى، وأعلن الأشراف ثورتهم على الدولة العثمانية بتحريض من بريطانيا، وتمَّ نتيجةً لذلك تدمير هذا الخط بنسف قضبانه وعرباته حتى تمَّ تخريبه وإيقافه على يد المدعو (لورنس).

(لورنس) ثعلب الصحراء:

وهو ضابط بريطاني كان مُرافقاً للشريف فيصل الذي تولّى محاربة الأتراك طيلة أيام الحرب، وكان في الغالب الأكثر يتولّى هو أي لورنس البريطاني نفسه وضع الألغام تحت قضبان السّكة الحديد، ويدرِّب عليها الكثير من أفراد البادية الذين يتولّون زرعها تحت القضبان، وكان من أبرز هؤلاء رجل يُدعى (عودة أبو تايه) أحد مشايخ الحويطات بالأردن، والذي قدَّم للاستعمار الإنجليزي خدمات جُلّى بفضل ما قام به من تدمير.

ولِمَن أراد أن يطَّلع على أخبار هذا الشخص وما قام به من عبث وتدمير في هذه المُنشأة الإسلامية فليقرأ كتابه «أعمدة الحكمة السبعة».

وصولي إلى حفر الباطن:

بعد يومين من السفر على ظهر الشاحنة في طرق مغبرَّة غير معبَّدة، فيها من النتوءات والحُفر والرمال الشيء الكثير، وصلتُ حفر الباطن في المملكة، وكان وصولي مفاجئاً لزوجتي وأهلي إذ لم يسبق لهم علم بمجيئي.

سرور بالغ وفرحة غامرة:

كان سروري بالغاً وفرحتي غامرة، إذ رأيتُ ابني لأوَّل مرة، أحتضنه وأقَبِّله، وكان آنذاك في بداية السنة الثالثة من عمره.

كنت أحسُّ بالسعادة وهو بين ذارعيّ، خاصةً وقد سبقه ثلاثة من إخوانه لم تُقدَّر لهم الحياة أكثر من بضعة شهور.

سفري من حفر الباطن وما لقيته من المصاعب والمشقات:

مكثتُ في حفر الباطن نحو شهر تقريباً، ثم انتقلتُ مع ابني ووالدته على إحدى الشاحنات أيضاً من حفر الباطن فقرية فالرياض. ولن أنسى المصاعب والمشقّات التي عانيتها خلال هذه الرحلة، في سوء المركب

والمطبّات والحُفر و(التغاريز)، خاصةً بين قرية والرياض حيث مكثنا نحو أربعة أيام، ونحن في جمرة القيظ، وشدة الحرارة، بين رمال النفود التي تلي طرف الدهناء، المعروف بحمار قرية، وهي كثبان رملية تعلوها أمواج من لهب الحرارة، مما يجعل إخراج السيارة حين تغريزها من أصعب المشاق، ناهيك بأنه مطلوب منك أن تشارك في دفع هذه الشاحنة من بحار الرمال الملتهبة في وهج القيظ، والطفل وأمه يكتويان في غمارة السيارة بلهب السموم، ولفح أشعة الشمس الحارقة.

وصولي الرياض:

بعد عناء وجهد وصلنا الرياض، وكان ذلك منتهى السعادة، ونزلت عند ابن العم عبدالله الحمد الإبراهيم الحسون، وأخيه أبراهيم الحمد في دارهم الواقعة في شارع السويلم أحد شوارع الرياض المعروفة آنذاك.

مكثتُ بضعة أيام عندهم ريثما تمَّت إجراءات الحجز على الطائرة، ثم غادرتُ الرياض إلى جدة، وكان الأخوان عبدالله وإبراهيم معاً في وداعي في المطار ومعهما المرحوم محمد العبدالعزيز الجمعي ابن ابنة العم حمد الحسون (نورة الحمد)، وكذا الصديق إبراهيم الوقيد مدير جمرك الرياض آنذاك.

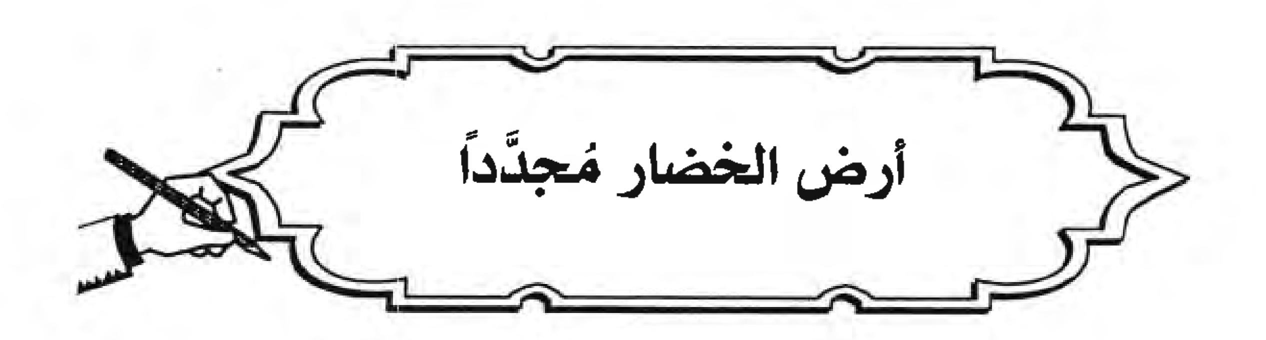
وصولي جدة:

وصلتُ جدة في شهر صفر عام ١٣٧٤هـ، فنزلت في الدور الأول من عمارة أخي البحرية في باب مكة. كان أخي عبدالله ما زال غائباً في مصر، وكان يقوم بأعماله الصديق المرحوم إبراهيم السليمان التركي.

استئناف عملي في جمرك جدة:

في اليوم الثالث لوصولي استأنفتُ عملي في جمرك جدة مراقباً أولاً.





أرض الخضار مُجدَّداً

في نهاية ربيع الثاني من عام ١٣٧٤هـ، فوجئتُ ذات صباح بوجود عدة شاحنات على الأرض تفرغ معدَّات حفر ومواد بناء، وعدداً وافراً من الفَعَلة والعمَّال، يفرغونها على الأرض، ويباشرون حفر الأساسات.

استجلاء حقيقة الأمر:

أسرعتُ أستجلي حقيقة الموضوع من المُشرف على هؤلاء العمال، وكان شخصاً يبدو أنه سوري الجنسية، يتَّضح ذلك من لهجته، وقد يكون مُقاولاً أُرسِيَت عليه عملية بنائها، أو أنه مجرَّدُ رئيس للعمال، ومشرف عليهم، سألته: لِمَن الأرض هذه؟ ولِحساب مَن تقومون بالعمل فيها؟ تلكَّأ في بادىء الأمر دون أن يُفصح بإجابة واضحة، مُبدياً في الوقت نفسه شيئاً من الخشونة في قوله: وما الذي يعنيك من معرفة ذلك؟ ولماذا تسأل عن شيء لا يعنيك؟ هنا قابلته ببضاعته نفسها، فأجبته بخشونة: إنَّ الأمر يعنيني، وإنك إذا لم تجبني عن سؤالي، فإنني سأضطر في الحال إلى إيقاف عملكم بواسطة الشرطة.

هنا تغيَّرت لهجته، وأوضح لي بأنَّ هذه الأرض تُبنى لحساب أم منصور زوجة الملك سعود.

هنا تركت الرجل، وأسرعت بإجراء التحريات اللازمة عن صحة ما ادَّعاه، فعلمتُ بعد التحريات الدقيقة أنَّ أحد السماسرة ممن يعيشون على أكتاف غيرهم ممن هم أشبه بالطفيليات تطفو على سطح ماء المستنقع،

أولئك الذين لا همَّ لهم إلا البحث عن الوسائل التي تمكّنهم من الاتصال بالجهات النافذة التي تبذل لهم العطاء حينما يقدّمون لها خدمةً ما.

ومن الواضح أن هذه القطعة من الأرض الثمينة والمتميزة بموقعها في قلب جدة، لا شك أنَّها ذات إغراءٍ واضح، ولذا فقد نقل هذا السمسار، بطريقة ما، خبر هذه الأرض إلى زوجة المَلك (أم منصور) ولا أشكُّ أنها أجزلتْ له العطاء، بعد أن قدَّم لها وصفاً عن تلك الأرض، وقد يكون وضع لها (كروكي) مخطط، يوضِّح مساحتها وموقعها، مما أغرى أم منصور هذه أن تُسارع إلى الملك سعود ـ رحمة الله عليه ـ بالطلب منه أن يهبها لها، موضحةً له أنها أرض فضاء، وليست مملوكة لأحد، وبداهةً أصدر الملك سعود أمره بمنح هذه الأرض لزوجته أم منصور، وعلى الفور أوعزتْ لمُحاسبيها والمنتفعين منها بالشروع فوراً بوضع المخططات لتلك الأرض، ومباشرة البناء عليها.

وضعٌ دقيق محرج:

كان الوضع دقيقاً جداً، ومُحرجاً جداً، فإذا كنت قد وُفِّقتُ بالأولى، باستخلاص هذه الأرض من الحمراني، فإنه من المستحيل أن يكون الوضع بالنسبة لهذه الأرض، فيما لو أردتُ تخليصها، والدفاع عنها، سهلاً ميسوراً، كما هو مع الحمراني؛ لأن الوضع الجديد الخصمُ فيه وليُّ الأمر، أي مَلِكُ البلاد.

برقيتي لجلالة الملك سعود:

فكرتُ طويلاً في الطريقة التي قد تُعيد هذه الأرض إلى ما كانت عليه، وكانت الطرق جميعها مُوصدة وصعبة، إلا أنني مع ذلك لم أيأس، وقررتُ المحاولة على قاعدة المَثل الدارج: (إن لقحت وإلا فما ضرها الجمل). بادرتُ برفع برقيةٍ لجلالة الملك سعود، أوضحتُ لجلالته مفصَّلاً عن أهميتها، وعن ما حدث عليها بالنسبة للحمراني، وأنَّ هذه الأرض منذ عشرات السنين مرفقاً عاماً لمدينة جدة، لبيع الخضار فيها، وذكرت لجلالته،

وهو وليُّ الأمر، وهو الذي يهمُّه بالدرجة الأولى رفاهية شعبه وإسعادهم، ودفع أي حَيْف أو ضرر يلحق بهم. وأنني على أتمِّ الاستعداد لدفع قيمة هذه الأرض، مهما بلغت، وإخراج صَك شرعي بإيقافها مرفَقاً عاماً على المسلمين في جدة.

كانت البرقية تشتمل على ثلاث صفحات، على ما أذكر، مُركزة ومُفصلة، ومملوءة بعبارات الإثارة، واستدرار العاطفة، والضرب على نغمة الانطلاق من حرصه على مصلحة شعبه وإسعاده.

بين عوامل اليأس والرخاء:

بعثتُ تلك البرقية، وظللتُ أكثر من أسبوع أترقَّب الإجابة، ولكن بدون جدوى. كانت تتفاعل في نفسي خلال تلك الفترة، عوامل اليأس والرجاء. بعد أسبوع لم أجد بُداً من التعقيب على تلك البرقية ببرقية أخرى، أؤكد فيها انتظاري لتوجيه جلالته، وما يقضي به أمره الكريم حول مضمون تلك البرقية.

ردُّ الملك سعود على برقيتي:

في اليوم الثاني تلقيتُ من الديوان الملكي بتوقيع الملك سعود رحمة الله عليه برقية هذا نصُّها:

إبراهيم الحسون ـ جدة.

صورة لقائم مقام جدة عبدالرحمن السديري..

جاءت برقيتكم بخصوص أرض حلقة الخضار التي في باب مكة، والتي ذكرتموها في برقيتكم. هذه الأرض سبق أن منحناها لوالدة ابننا منصور، وإذا لكم دعوى شرعية عليها فنحن قد وكَّلنا قائم مقام جدة عبدالرحمن السديري، ليذهب معكم إلى محكمة جدة، وتجلسون في مجلس الشرع، وما يحكم به القاضي يخبرنا به «سعود».

تحطُّم الآمال:

كان وقع هذه البرقية على نفسي أشبه بالصاعقة، فقد حطم فيها كلَّ أمل أو رجاء، فهو حتى بعد الجلوس في المحكمة وإصدار حكم القاضي بشأنها فإنما يأمر برفع نتيجة حكم القاضي إليه، ولم يقل أنه يقبل وينفذ أمر القاضي. كان العمال يشتغلون على الأرض بهمَّة ونشاط وبمعدَّات ضخمة متعددة.

الذهاب لمكتب قائم مقام جدة:

في اليوم الثاني ذهبتُ إلى مكتب قائم مقام جدة عبدالرحمن السديري، في مبني الخزنة الواقعة قُبالة باب جديد آنذاك من الداخل، وهو دائرة حاكم جدة، المُسمَّى قائم مقام منذ مدة طويلة، أي منذ عهد الأتراك. بدخولي إلى مكتبه ابتسمَ لي ضاحكاً قائلاً بشيء من الملاطفة: هاه، ما رأيك متى ترغب تحديد الجلسة في المحكمة؟ قلت له: خير البرِّ عاجله، لتكن في يوم الخميس القادم، وكان يوم لقائنا هذا هو يوم السبت. عقَّب قائلاً: وهل أنت مُصرٌّ حقاً على مُقاضاة الملك من أجل قطعة أرض بيضاء غير مملوكة، وهو وليُّ الأمر يفعل كما يشاء؟

مقاضاة جلالة الملك سعود:

قلت له: إنني حينما أصرُّ على مقاضاة جلالته في مجلس الشرع إنما أعطي للشَعب مثلاً حيّاً على تواضع جلالة الملك، وعلى إذعانه لأحكام الشرع، وأنه لا يأخذ شيئاً إلا بحق، وأنا عندما أُقاضي جلالته أفعل ذلك مُستنداً على ركيزتين:

إحداهما: أنَّ الأرض مُلاصِقَة لأرضي، وأنَّ لي شرعاً حق الشفعة فيها، والركيزة الأخرى: أنني سأشتريها مهما غلا ثمنها، لأُبقيها مرفَقاً عاماً لمصلحة المسلمين.

وهنا تغيَّرت لهجة القائم مقام، واقتنع بأنَّ الموضوع جِدٌّ، وأنني

مُصمِّم على الجلوس معه باعتباره مُمثلاً عن جلالة الملك في مجلس الشرع.

اتصال القائمقام برئيس محكمة جدة الشرعية:

فاتصلَ بالتليفون أمامي برئيس محكمة جدة الشرعية، وكان آنذاك المرحوم (محمد علي الحركان)، اتصلَ به على مَسمع مني، وطلبَ منه تحديد وقتٍ لجلسةٍ نحضر لديه فيها يوم الخميس القادم، واتفق معه على أن يكون حضورنا معاً إلى المحكمة الساعة العاشرة من صباح يوم الخميس.

عدتُ إلى باب مكة، وكان العمال مستمرين في حفر الأساسات، وكان الأساس الذي حُفر مُلاصقاً لعمارة أخي لا يفصله عنها أكثر من نصف متر.

مع القاضي محمد علي الحركان:

كانت الساعات تمرُّ عليَّ الواحدة أطول من شهر استعجالاً ليوم الحضور لدى القاضي في المحكمة.

وفي ليلة الخميس رأيتُ أنْ أذهب إلى القاضي محمد الحركان رحمة الله عليه في منزله لأستطلع رأيه في الموضوع وعما إذا كان لأحقيتي في الدعوة نصيبٌ من النجاح، استناداً أنَّ لي حق الشُّفعة لأنني مجاورٌ للأرض، واستناداً أيضاً إلى استعدادي لدفع ثمنها مهما غلا، وتسجيلها وَقفاً لتكون مِرْفَقاً عاماً للمسلمين.

قابلني في منزله هاشّاً باشّاً كعادته، وكما هو مُتَعارف عن خُلقِهِ السَمِحْ ومُحيَّاه الطلْق مُوجهاً إليَّ عبارته ممزوجةً بشيء من المداعبة واللطف قائلاً: وهل سمحتَ لنفسك يا أخ إبراهيم أن تُقاضي جلالة الملك «وليُّ الأمر» في قطعة أرض محدودة، وأنت تعلم أنه يملك أرض الجزيرة بدون ثمن، بينما أنت لا تستطيع أن تملك شبراً واحداً إلا بثمنه.

أجبتُه بقولي: يا لَضَيْعة المسعى! لقد أسمعتني الحكم مُقدَّماً، وأصبح لا حاجة للحضور لديك مع مندوب الملك، لأنَّ ما أسمعه منك الآن هو حكم حاسم في القضية مُكتمل الحيثيَّات. وهنا أمسكَ بيدي باسماً، وأجلسني بقربه على أريكة كان يجلس عليها قائلاً لي: دعنا من الأدب ومن المناورة، واسمع إلى كلمة الحق، وعلى الأصح كلمة الشرع، وأنا أعلم يقيناً أنك لم تأتِ إليَّ الآن إلا لتسألني عن مصير الحكم في القضية قبل الدخول فيها، لأن القضية ستُنظر ظهر اليوم التالي كما هو متفق عليه.

أجبته: نعم... إن حديثك وفراستك في محلها، فأنا لم آتِ إلا لهذا الغرض، لأستطلع رأيك في الموضوع. لا كشخصٍ سيقتعد مقعد القاضي غداً بيني وبين خصمي مندوب الملك، وإنما كصديق مُخلص تجمعني به صلة الودِّ والاحترام، أستشيره في الأمر ليس إلا.

وهنا أخذ الجدَّ في جلسته وقال لي: اسمع أنا أقول لك بلسان الناصح المُخلص، وليس بلسان القاضي الشرعي فقط، أقول لك أنَّ لا حق لك في القضية، لأنَّ خصمك هو وليُّ الأمر، وهو يملك الأرض هذه، ليست هذه القطعة فقط، وإنما يملك أرض الجزيرة كلها، ولذا فموضوع الشُّفعة التي تستند إليها في دعواك إنما تستند إليها إذا كان خصمك أحد أفراد الشعب لا وليُّ الأمر.

وثانياً: لأن القول بأنك تشتريها بأيِّ ثمن وتُبقيها وَقفاً مرفَقاً عاماً، فهذا أيضاً لا يقبل مع وليِّ الأمر، وإنما يقبل أيضاً على أفراد الشعب، وهو في موضوع الشُّفعة، لأنك لن تكون برغم إيقافك لها مرفقاً عاماً للشعب، لن تكون أحرص على مصلحة الشعب من وليِّ الأمر. إنَّ ما تسمعه مني الآن هو ما ستسمعه مني ظهر غد في مجلس الشرع.

انتهى الحديث على هذا المستوى بكل الجديَّة والصراحة من قِبل الشيخ الحركان، وهنا عقَّبت قائلاً: إذاً لا أمل لي في نجاح القضية. أجاب: ولا واحد بالمليون. هنا كان الشاي والقهوة قد أحضرتا، فتجاذبنا

أطراف الحديث في الأدب والفُكاهة المُغلفة بشيء من السُخرية مني، لأنني عقَّبت على كلامه بقولي مازحاً: قاضي المسلمين لن يحكم على وليّ أمر المسلمين. فقال لي: سامحك الله! أجادٌّ أنت فيما تقول؟ قلت: كلا، وإنما هي دُعابة ليس إلا.

التنازل عن القضية، ورفع التماس:

في صباح اليوم التالي (الخميس) الذي حُدِّدتْ الجلسة فيه، هرولتُ مُسرِعاً إلى مكتب القائم مقام عبدالرحمن السديري في الخزنة، فما كاد يراني داخلاً عليه حتى فاجأني بقوله: إنما موعد الجلسة هو الساعة العاشرة، أي أنه باقٍ على الموعد ساعتين، قلت: أجل، إنني أعرف ذلك، وإنما قَدِمتُ مُبكراً عن قصد.

أجابني باستغراب: خيراً إن شاء الله، هل جدَّ جديد؟ قلت: نعم. وواصلتُ حديثي قائلاً: لقد كنت دائم التفكير منذ تلقيتُ برقية جلالة الملك بإحالة الدعوى إلى المحكمة، كان هذا الموضوع يشغلُ فكري ليل نهار، أحاولُ أن أجد لي مُبرّراً يخوّلني الجلوس مع مندوب الملك في المحكمة؛ لأنني أدركُ أنَّ مَن سأقف معه مقام الخصومة في مجلس الشرع هو جلالة الملك حفظه الله، الذي أدينُ له بعد الله بصادق الودّ والولاء، وأعترف صادقاً بأنني وما أملكُ ملْكٌ لجلالته، ولذا فقد خلصتُ في النهاية بيني وبين نفسي إلى قرار قطعي هو أن أتنازل عن الدعوى.

دهشة القائمقام:

وهنا... اعترتْ القائمقام هزّة من الدهشة قائلاً: ماذا تقول؟ قلت له مؤكداً: إنني تنازلتُ عن القضية، وبالتالي فلن أذهب إلى المحكمة.

دُهِشَ الرجل وأخذه العجب، فنظر إليَّ قائلاً: وهل أنت مستعد لأن تسجِّل هذا التنازل كتابياً. قلت له: نعم. وأردفتُ قائلاً: بَيْدَ أنَّ لي التماساً صغيراً أضمّنه برقية تنازلي التي سأكتبها أمامك الآن بخطي وتوقيعي، على

أن تقوم أنت برفعها نيابةً عني، وأن تؤيِّدني في هذا الالتماس المحدود الذي سأضمِّنه هذه البرقية.

سألني قائلاً: وما مضمون هذا الالتماس؟ قلت له: هو أن تكون بين ملكي «أي ملك الأرض» وبين البناية التي ستُبنى على هذه الأرض مسافة لا تقلّ عن ثلاثة أمتار كي تكون ممراً بين المَبنَيين.

وكان العمال الذين قاموا بحفر الأساسات على هذه الأرض مدار الحديث قد حفروا الأساس فعلاً، ولم يتركوا بين هذه الأرض وبين أملاكِنا إلا مسافة لا تزيد عن ٧٠سم، أي أقل من متر. كانوا قد حفروا الأساس وصَبّوا القواعد.

برقية لجلالة الملك سعود:

كان القائم مقام يجلس على مكتبه، وهنا حُرِّرت برقية مُستعجلة على أحد الأبواك الرسمية الموجودة على مكتبه، حرَّرتها موجهةً لجلالة الملك متضمنةً إسقاطي للدعوة، وتنازلي عن الحضور لمجلس الشرع، موضِّحاً الأُسس التي بَنيتُ عليها ذلك، ومُلتمساً من جلالته التَفضُّل بتعميد المسؤولين عن البناء بأن يتركوا مسافة لا تقل عن ثلاثة أمتار، ثم ختمتُها بالدعاء لجلالته بطول العمر، وقدمتُها للقائم مقام بعد توقيعها.

وقد رأى القائم مقام أن تُرسَل البرقية لجلالته مباشرةً باسمي، وفي الوقت نفسه يرفع القائم مقام برقية باسمه يُشير فيها إلى مضمون برقيتي هذه، ويرجو فيها تحقيق مُلتمسي، وفعلاً تمَّ ذلك، وبُعثت البرقيتان مع مراسل، وأنا مازلت موجوداً في مكتبه.

التعقيب على برقيتي السابقة:

ودَّعته شاكراً، وكنت أُمنِّي نفسي بأن تردني الإجابة من جلالته في أسرع وقت ممكن قبل أن تنتصب أعمدة البناء، ونظراً لشدة لهفتي إلى سرعة الإجابة، وخشيَتي بأن تُترك برقيتي تلك بدون جواب، فقد أسرعتُ

في صباح اليوم التالي برفع برقية مُستعجلة لجلالته تعقيباً على برقيتي السابقة ومُلتمساً سرعة الإجابة.

كنتُ بعد عودتي من مكتب القائم مقام رجوتُ المُشرف على عمال البناء أن يتوقَّف يوماً أو يومين عن البناء في الجهة المُلاصقة لنا، بَيْدَ أنه رفض وبشيء من الجفاء قائلاً: إن هذه مُنشآت مَلكية، محدَّد إنجازها بزمن مُعيَّن يفرض علينا إنجازها في أسرع وقت ممكن.

موافقة الملك سعود على التماسي:

في مساء اليوم الثاني بُعيدَ العصر، اتَّصلَ بي قائم مقام جدة وأَفهمني بأنه تلقَّى برقيةً من جلالة الملك، تُفيدُ الموافقة على مضمون برقيتي المعقَّب عليها من قِبله، وهو الموافقة على ترك مساحة ثلاثة أمتار بعيدة عن أملاكنا، مُوضِّحاً لي في حديثه أنه سيبلغني بنصِّ الأمر بخطاب رسمي من قِبله.

وهنا رجوتهُ أن يرسلَ لي صورة الأمر في الحال، وأن يبلِّغ مضمونه لمدير شرطة جدة لكي تبعث في الحال من يقوم بإيقاف العمال عن البناء، وأن يغيِّروا موقع الأساس الذي حفروه وَفقاً لمضمون الأمر، وقد تمَّ ذلك.

بعد ساعتين تقريباً من هذه المحادثة، حضر ضابط يرافقه جنديان، وقَفا على الأرض، وأَفهما المُشرف على العمل بأن يُلغي هذه الأساسات المُلاصقة لأملاكنا، وأن يَترك مسافة ثلاثة أمتار بين أملاكنا والمبنى، وأبلغاه أنَّ هذا أمر سامٍ رسمي.

كان سروري غامراً بهذه النتيجة، وكانت غِبطتي أكثر إذ شاهدتُ المشرف على العمل يُضطر مُرغَماً، وبكثير من الاستسلام إلى دفن الأساس السابق ومن ثم إبداله بأساس وَفْق المسافة التي حُدِّدت. كانت نتيجة هذا الوضع بالنسبة لنا تُعتبر نجاحاً ١٠٠٪ لأنها مكَّنتنا بالحصول على هذه المساحة من أن نستغلها كطريق عام.

بعد ذلك كتبتُ خطاباً لأخي وقد قَبِل ذلك على مضض.

إجازة مرضية في (حمانا):

في جمادى الأولى من هذا العام ١٣٧٤هـ، أخذتُ إجازةً استناداً إلى التقرير الطبي الذي أحمله من مَصَح بحنِّس بلبنان، والذي يُلزمني بأن أقضي أوقات الصيف في جوٍّ بارد لمدة لا تقلّ عن خمس سنوات.

اصطحبتُ أسرتي يوسف ووالدته واستأجرتُ فيلا في مدينة (حمَّانا) في لبنان تقع في مقابلة فندق الشرق، الذي يقع عل الشارع المُتجه إلى (قرنايل) باتجاه الغرب.

مكثتُ أربعة شهور في (حمَّانا)، هادىء النفس، ناعم البال، سعيداً بأسرتي المتواضعة، حامداً ربي، وطالباً مزيد فضله وامتنانه.

العودة لعملي:

عدتُ إلى جدة في أواخر شعبان من ذلك العام، وباشرتُ عملي في الجمرك في اليوم التالي لوصولي. ثم استمرَّت حياتي رتيبةً على هذا النحو، أقضي أربعة أشهر في لبنان من كل عام، ثم أعود لمزاولة عملي في الجمرك، وفي الوقت نفسه أقوم بالأعمال التي كان يزاولها المرحوم إبراهيم السليمان التركي على أملاك أخي عندما يكون موجوداً في مصر. علماً بأنَّ أخي خلال هذه السنوات كان يأتي إلى جدة في فترات متفاوتة من كل عام، ويقضي فيها بضعة شهور، ثم يعود إلى مصر.





في مكتب التفتيش بطريف

وعكة صحية:

في مُستهل رمضان ١٣٧٨هـ ألمَّت بي وعكة صحية خلال عملي في مستودع المتروكات، ألزمتني الفراش والانقطاع عن العمل طيلة الشهر.

كتاب من المفتش العام للجمارك:

وفي حوالي سبعة وعشرين من الشهر - من رمضان هذا - حضر إليَّ موزع الجمرك في المقعد في باب مكة، وسَلَّمني كتاباً رسمياً موجَّهاً إليَّ، ومُوقعاً من المفتش العام للجمارك آنذاك المرحوم مدني بن حمد، باعتباره رئيس المفتشين الجمركيين وأنا واحد منهم، وفحوى هذا الكتاب كالآتي:

أ - أنه تمَّ اختياري لإدارة مكتب التفتيش في جمرك (طريف) بالمنطقة الشمالية رئيساً لهذا المكتب.

ب - أنَّ عليَّ أن أُهيىء نفسي للسفر إلى (طريف) خلال مدة لا تزيد عن خمسة أيام من بعد عيد الفطر، وأكون على رأس العمل هناك خلال تلك المدَّة. وأنَّ عليَّ أن أُراجع الخطوط السعودية، وأتوجَّه على أوَّل طائرة إلى (طريف).

وكان الخطاب يحمل كلمة مستعجل جداً.

السفر إلى طريف:

في الرابع من شوال عام ١٣٧٨هـ، كنت أُحلِّق في الفضاء على إحدى طائرات الخطوط السعودية من نوع داكوتا في طريقي إلى مدينة (طريف) لاستلام مكتب التفتيش هناك، تلبيةً للأمر الذي وُجِّه إليَّ من قِبل رئيسي كما أسلفت.

كانت الفترة الزمنية التي قضيتُها في الجو من جدة إلى طريف حوالي عشر ساعات مروراً بمطار المدينة المنوَّرة، فمطار تبوك، فمطار الوجه، فمدينة طريف.

مدينة طريف:

ومدينة طريف هذه هي أشبه ما تكون بقرية موسَّعة، تتناثر عليها مجموعة من البيوت ذات الطابق الواحد، أكثرها من الطين. هي بلدة متواضعة قد لا يزيد سكانها عن ثلاثة آلاف نسمة بما فيهم الموظَّفين. وتقع على مرتفع من الأرض (أشبه بربوة)، وتقع في الجنوب الغربي بالنسبة لموقع إدارة الجمرك، التي تفصلها عن البلدة مسافة لا تقل عن كيلومترين اثنين. أكثرية دكاكينها وبِقالاتها التي لا تتجاوز العشرين عدداً، يملكها ويُديرها مواطنون أردنيون في الغالب.

مباشرة العمل في مكتب التفتيش:

في اليوم التالي لوصولي باشرتُ العمل في مكتب التفتيش، ويتكوَّن من غرفة واحدة لا تزيد مساحتها عن ٦×٤م٢، هي إحدى غرف الجمرك، فالجمرك عبارة عن عدة غرف متجاورة، مساحتها مماثلة لمساحة إدارة التفتيش، وتقع بالنسبة لساحات الجمرك في الجنوب الشرقي.

ساحات جمرك طريف:

وساحات الجمرك تُقابل هذه المباني من جهة الشمال والشمال الغربي، وهي ساحة فسيحة قد تبلغ مساحتها أكثر من أربعة آلاف متر مربع.

تقع في وسطها صالتان كبيرتان متجاورتان مسقوفتان بالإسمنت المسلَّح، تبلغ مساحة كلٍّ منها تقريباً ٤٠×١٠م[٢]، وهي ترتفع عن الأرض بنحو متر تقريباً، وهاتان الصالتان مخصَّصتان لإفراغ البضائع التي ترِد على الشاحنات من لبنان وسوريا والأردن، تمهيداً لتفكيكها وإجراءات معاينتها، ولذا فهاتان الصالتان ذاتا بوَّابات واسعة من الشرق ومن الغرب، للتفريغ ثم للتحميل بعد إتمام الإجراءات.

هذه الساحة الواسعة مُحاطة بجدار ينتظمها، يبلغ ارتفاعه أكثر من ثلاثة أمتار، وله بوابتان: إحداهما من الشمال الشرقي لدخول السيارات القادمة، والأخرى في الجنوب الغربي لخروج السيارات، التي تمَّ تفتيشها، ودُفعت رسومُها.

كشَّافات ضخمة:

يوجد على امتداد هذه الساحة وعلى امتداد سورها، الذي يحتضن ضمن ما يحتضن غرف الموظفين وإدارة التفتيش، أَعمدةٌ من الحديد يبلغ ارتفاعها أكثر من خمسة أمتار، تعلوها كشَّافات ضخمة قد تبلغ قوة الكشَّاف الواحد ألف شمعة، كلها موجَّهة إلى ساحات الجمرك، والأراضي المحيطة به من الخارج.

جهاز موظفي مكتب التفتيش:

كان جهاز موظفي مكتب التفتيش يتألَّف من رئيس المكتب، فكاتب الآلة المدعو فهيد الجبران، أحد أبناء مدينة سكاكا، يعاونه موظف آخر لقيد الوارد والصادر والتوديع.

جهاز الجمرك:

أمَّا جهاز الجمرك فقد كان تكوينه الهرمي كالآتي: الصديق الأخ علي لافي مديراً، والأخ حسن صابر مساعداً للمدير، والأخ محمد بن يوسف، والأخ محمود بديوي يقومان بمهمة تثمين البضائع، وهناك نحو عشرة من

الموظفين الآخرين بما فيهم المعاينين وأمين الصندوق ومساعده.

يضاف إلى ذلك مجموعة من الموظفين لا يقلُّ عددهم عن ثلاثين شخصاً، بما فيهم العتَّالين والحرَّاس، ورئيس الحراس المدعو حسين التواتي، من أهالي الوجه، وكان رجلاً لطيفاً مربوع القامة، في حوالي الستينات من عمره.

طبيعة العمل في طريف:

كان العمل يتمُّ في إدارة الجمرك يومياً على النحو التالي: يبدأ العمل في الساعة السابعة صباحاً، وتكون ساحة الجمرك قد امتلأت بالشاحنات المُحمَّلة بالبضائع، وعادةً ما تكون هذه البضائع مستوردة عن طريق بيروت أو من بيروت نفسها أو من سوريا أو من الأردن.

المخلصون وكلاء التجار:

كان هناك مجموعة من المُخلِّصين، وكلاء التجار، الذين يتولَّون استقبال هذه البضائع وإتمام إجراءتها مع موظفي الجمرك المختصِّين، ومن ثَمَّ يقومون بتسديد رسومها الجمركية للصندوق، ثم يستلمون فسوحات إخراجها من إدارة الجمرك، لِتواصل سيرها على الشاحنة التي وصلت عليها عبر الخط العام المبتدىء من طريف مروراً بمدينة عرعر، فمدينة العويقيلة، فرفحا، فحفر الباطن، فالرقعي، إذا كانت وجهتها الكويت، أما إذا كان وجهتها لغير الكويت فتواصل من حفرالباطن باتجاه المنطقة الشرقية، تُفرَّغ حمولة الشاحنة على الأرض في الساحة، أما في الأوقات الممطرة فتوضع في داخل الصالتين اللتين مرَّ ذكرهما.

إجراءات المعاين:

يقوم الموظف المختصّ بواسطة العتَّالين الذين يرافقونه بفتح هذه الصناديق، وجرد محتوياتها، وقيدها على دفتر المبصَّر أو كشف الاستيراد، بعد أن يكون قد اصطحب معه الفواتير التي قدَّمها إليه وكيل التاجر، أي

المُخلِّص، لكي يمكن تطبيق محتويات تلك الفواتير عدداً ووزناً ونوعاً على واقع البضاعة المتواجدة. يتمّ ذلك تحت نظر المفتش الذي يتوجَّب أن يكون واقفاً على فتح الصناديق، وجردها ومعاينتها.

المثمنّون:

يذهب المخلِّص بعد إتمام إجراءات المُعاين من التسجيل والوزن والعدد بكشف الاستيراد، ويقوم المثمّنون بمطابقة الأسعار المثبتة في الفواتير المُرفقة، ووضع الأقيام المناسبة حسب خبرة هؤلاء المثمِّنين إذا كانت أقيام الفواتير أقل من القيمة الحقيقية للسلعة.

غرفة المحاسبة:

بعد ذلك يتَّجه المخلِّص بالمعاملة إلى غرفة المحاسبة، ليتولَّى المحاسب محمد اليوسف تحقيق الرسوم المستحقة على هذه البضاعة، ومن ثَمَّ يتجه المخلِّص إلى مدير الجمرك للتوقيع عليها، ثم يتجه بها إلى غرفة الصندوق لدفع الرسوم بعد أن يكون قد أخذ توقيع المفتش على المعاملة.

فسح خروج البضاعة:

بعد تحقيق رسومها يذهب إلى الصندوق لدفع الرسوم المستحقة، ومن ثم استلام إيصال التسديد، وأخذ فسح خروج البضاعة التي ترفق مع سائق الشاحنة، وبذلك يُسمح بخروج الشاحنة من منطقة الجمرك ومواصلة سفرها.

اعوجاج إجراءات بعض المعاملات الجمركية:

كما ذكرت سابقاً فإن لديَّ معلومات عن اعوجاج إجراءات بعض المعاملات الجمركية، وهي معلومات مؤكَّدة لأنَّ مَن نقلها إليَّ قد سبق وأن عملوا في مكتب التفتيش هناك، لذلك فهم على دراية تامة بمجرىٰ الأمور في هذه الإدارة.

استقبالي من موظفي الجمرك:

استقبلني الإخوان موظفو الجمرك، وعلى رأسهم مديرُهم الأخ علي لافي ومساعده الأخ حسن صابر ـ أمدَّ الله في حياتهما ـ وهما من أهالي الوجه، استقبلوني استقبالاً أخوياً أذكُره لهم وأقدِّره بالشكر، وإن كان يشوبه بعض الحذر والتوجُّس؛ لأنَّ هذا أول لقاء يتمُّ بيني وبينهم، ولأنهم لا يعلمون شيئاً عن منهجي في العمل.

تحسُّب وحذر:

ولذا فقد لاحظتُ من اليوم الأول لوصولي ومباشرتي العمل أنَّ هناك تحسُّباً وحذراً واضحاً بين موظفي المعاينة الذين يتولَّون إتمام إجراءات البضائع.

إظهار البلاهة والغفلة:

لاحظتُ ذلك فرأيتُ من الحكمة أن أُظهر لهم من السلوك ما قد يدل على البلاهة، أو يشير إلى الغفلة.

كنت أمكثُ في المكتب بضع دقائق ثم أغادره إلى ساحة المعاينة لأشاهد الشاحنات المحمَّلة ونوع حمولتها، ثم أقف على كل مُعاين أثناء قيامه بعمله، لأرى وأُشاهد البضائع التي يقوم بمعاينتها، ومن ثَمَّ أنتقل إلى مُعاين آخر، وهكذا، ثم أعود إلى المكتب لأمكث فيه دقائق معدودة، ثم أعود إلى الساحة كرةً أخرى، وهذا ما يمكِّنني من الإلمام والإحاطة بكل أنواع البضائع التي تمَّت إجراءاتها.

أبرز المخلِّصين الذين يعملون في إدارة الجمرك:

كان يعمل لدى إدارة الجمرك مجموعة من المخلِّصين (وكلاء التجار)، أهمهم وأبرزهم محمد المديفر، أحد أبناء بريدة، وإبراهيم الشامخ، أحد أبناء مدينة المذنَب بالقصيم، وشامي راجح، أحد أبناء مدينة الوجه. قلت: إنَّ المخلِّص عندما يُنهي المحاسب تحقيق رسوم بضاعته لا بدَّ له أن يذهب

بِكَشْف الاستيراد إلى المفتش أولاً، ليأخذ توقيعه على المعاملة قبل الذهاب إلى الصندوق لتسديد الرسوم.

توقيعي على المعاملات بمجرَّد عرضها عليَّ:

كنتُ أتعمَّد أن أوقِّع على المعاملة بمجرد عرضها عليَّ دون مناقشة أو مراجعة أو تدقيق، مع أنَّ واجب المفتش يَفرضُ عليه أن يراجع المعاملة قبل توقيعها، يراجعها من حيث الفواتير وصحتها، ومن حيث الأسعار التي وضعها المثمِّنون، ومن صحة النوع والعدد، وكذا صحة تدقيق المحاسب.

كان ذلك كلُّه يتوجَّب على المفتش مراعاته قبل التوقيع، ولكني تعمَّدت التساهل، وأن أضرب بتلك القواعد عرض الحائط، وأن أبادر بتوقيع المعاملة فور تقديمها إليَّ.

لماذا بادرت بتوقيع المعاملات فور تقديمها إلي؟

فعلتُ ذلك لهدفين: الهدف الأول: أن أُدْخِل الثقة والطمأنينة إلى نفوس هؤلاء الموظفين، الذين لا زالوا يستوحشون مني، والهدف الثاني: أنَّ البضاعة التي قُدِّمت إليَّ قد يكون فيها بعض التلاعب من حيث النوع أو من حيث السعر، ولكنه في نطاق محدود جداً لا يستحق أن يُتَّخذ فيه إجراء صارم.

قيامي بجولات تفتيشية متتالية:

كنتُ أقوم بجولات متتالية خلال أوقات العمل، متردِّداً ما بين مكتبي في الإدارة وبين ساحات الجمرك، التي انتشرت عليها البضائع، وموظفو الجمرك (المعاينون الذين يقومون بإجراءات تلك البضائع)، كان ذلك يمكِّنني من ملاحظة جميع الشاحنات الموجودة في الساحة الجمركية، سواء منها ما أُنزلت حمولتها وشُرع في إجراءات معاينتها، أو ما كانت على ظهور الشاحنات انتظاراً لدورها في المعاينة.



قصة السجاد

في أواخر شوال عام ١٣٧٨هـ، أي بعد وصولي بنحو شهر تقريباً إلى طريف، لاحظتُ أنَّ من ضمن تلك الشاحنات شاحنة تعلوها كمية من السجَّاد، مُغطاة بشراع سميك مُحكم التربيط، ويحمل ختم الرصاص الذي وُضِع عليه من قبل إدارة جمرك المصنع الذي يقع على الحدود اللبنانية السورية ـ وذلك كما هي العادة ـ ضماناً لكي لا ينزل من هذه البضائع شيء خلال مرورها بسوريا والأردن.

كنت ألاحظُ هذه السيارة واقفة في ساحة المعاينة لم يُتَّخذ عليها أي إجراء، ولازالت تحتفظ بختمها الرصاصي.

وقبل نهاية دوام العمل في ذلك اليوم بنحو ساعة فُوجئت بالمخلِّص محمد المديفر يقدِّم لي كَشف استيراد مرفقاً به الفواتير وبيان التعبئة، ويحتوي على كمية من السجَّاد سُجِّل على الكَشف عددها ونوعها وكمية أمتارها، ووُضِعتْ لها القيمة من قِبل المثمِّنين، وحُقِّقت رسومها من قِبل المحاسبة، وأُخذت عليها تواقيع جميع المسؤولين في الجمرك من المعاينين إلى المثمِّنين إلى المحاسبة إلى مدير الجمرك، ولم يبقَ عليها سِوى توقيع المفتش لكي تُدفع الرسوم للصندوق، ومن ثم تُفسح البضاعة.

فوجئت ودُهشت عندما اطَّلعت على هذا الكشف؛ لأنني لم أرَ خلال تجوالي على المعاينين أي نوع من السجَّاد بين أيديهم، وهنا سألتُ المخلِّص: أين هذا السجاد؟ ومن الذي عاينه؟ أجاب بأنَّ السجاد قد عاينه

الموظف إبراهيم العليّان أحد معايني الجمرك، فقلتُ له: أين هو؟ فخرج معي من الغرفة، وأشار بإصبعه إلى السيارة الواقفة قائلاً لي: إنَّ السجاد على متن تلك السيارة الواقفة، وأنّه قد أُنزلَ إلى الأرض وتمّت معاينته، ثم أُعيد إلى الشاحنة بعد ذلك، وتمَّ وضع الشراع عليها.

إلحاح المخلِّص بطلب التوقيع:

فهززتُ رأسي، وأمسكتُ بالمعاملة في يدي، ثم ذهبتُ إلى مكتبي حيث أودعتُ ملف المعاملة درج المكتب، وأقفلتُ عليها، ثم اتَّجهت إلى مكان الوضوء تمهيداً لصلاة الظهر، وكان الأخ محمد المديفر يلحُّ عليَّ بلهفة لا مزيد عليها طالباً مني توقيع المعاملة لأنها مستعجلة، ولأنها تمَّت إجراءاتها، وأنا أعلم أن ذلك كله غير صحيح، ولكني لم أُبدِ له أي إشارة تدلُّ على أني أُكَذِّبه فيما يدَّعيه، وإنما استمهلته حتى أنتهي من الصلاة، ومن ثَمَّ أعيدُ النظر عليها بصفة مستعجلة، ومن ثَمَّ أوقِّعها وأُسلِّمها له.

صدمة كهربائية عنيفة:

ذهبتُ إلى موقع الصلاة وكان الجميع، ذوو العلاقة بالموضوع، قد هزَّتهم صدمة كهربائية عنيفة، فكانوا في وضع لا يُحسدون عليه. تعمَّدت الإطالة في الصلاة، لكي ينتهي الوقت الرسمي للدوام، والمخلِّص واقف على مَقربة مني وكأنه يتقلَّب على الجمر.

ارتباك المخلص وتلعثمه:

كان وقت الدوام يلفظ أنفاسه، وحضرت سيارات نقل الموظفين إلى دُورهم في البلدة، وهنا التفتُ إلى المخلِّص محمد المديفر طالباً منه أن يقف معي على السيارة مدار المعاملة، وكان في حيرة لا يُحسد عليها، وأريته ختم الرصاص على الشاحنة والغبار الذي يعلوه، بدا عليه الارتباك، وأخذ يتلعثم في حديثه، وكان الموظفون قد تجمَّعوا تمهيداً للانصراف، ولكنهم توقفوا حينما رأوني أتجه والمخلِّص إلى حيث تقف السيارة.

مناداة رئيس حرس الجمرك:

وهنا وقفت بجوار السيارة وناديتُ بأعلى صوتي: يا حسين تواتي، وهو رئيس حرس الجمرك، وهنا أقبل عليَّ مسرعاً، والجميع من حراس موظفين ومخلِّصين على بعد بضعة أمتار من موقعي، صرختُ في وجه حسين تواتي قائلاً له: هل تعرفني؟ وتعمدتُ أن أُسمع صوتي للآخرين، أجاب: كيف لا أعرفك، أنت عمي إبراهيم الحسّون رئيس مكتب التفتيش، أجبته: أنا رئيس مكتب التفتيش، وأنا آمرك أن تُحضِر الآن حارسين ليقفا بجوار هذه السيارة بالتناوب، ولا يمكِّنان أيَّ مخلوق كان أن يصل إليها... يأتيك أمير طريف نجر بن صقر، يأتيك مدير الجمرك علي لافي، يجيؤك معاونه حسن صابر، يأتيك إبراهيم الحسّون، لا يمكن أن تسمح لأيِّ واحد من هؤلاء أن يمسَّ هذه السيارة حتى أتسلَّمها منك صباح غد، وأيُّ تهاون أو قصور منك فإني أُحمِّلك المسؤولية، وستكون عاقبته السجن، وأشد العقاب. وكان الحراس كلهم يسمعونني، وهنا أشار فوراً إلى حارسين من الواقفين، وكلَّفهما بتنفيذ الأمر، ثم ركبت سيارتي مُغادراً ساحة الجمرك بين دهشة وذهولهم الجميع.

سكني في طريف:

كان سكني في طريف حين وصولي، في إحدى غرف (اللاينات)، التي أقامتها شركة التابلاين، وهي مجموعة من الغرف تبلغ عشراً من حيث العدد، يقابلها مجموعة مماثلة ومساوية بالعدد، يتوسَّطها ساحة كبيرة، في أحد جوانب هذه الساحة مطبخ كبير يعمل بالكهرباء، ومغسلة وحمّامات، وهذه الغرف يشغلها موظفو الجمرك، وتبعد عنه حوالي كيلومترين.

تدخل الصديق محمد الناصر مدير الجوازات:

ما كدتُ أصل إلى غرفتي حتى لَحِقَ بي الصديق محمد الناصر مدير الجوازات في طريف، وهو من مواليد مدينة الزبير العراقية، ومن أصلٍ نجديّ، لحقَ بي إلى غرفتي، وأخذ يبحث معي الموضوع مؤكِّداً صحة

معاينة البضاعة، وأنها نُقلت إلى الشاحنة بعد إتمام إجراءاتها. فأمَّنت على كلامه متظاهراً بأنني أصدقه فيما يقول، بَيْدَ أني أوضحتُ له بأنَّ المعاملة إنما قُدِّمت لي عند نهاية الدوام، فلم أتمكَّن من مراجعتها، وليس في نيتي أي شيء إلا أن أُراجعها غداً بإذن الله ثم أسلِّمها إلى المخلِّص.

هنا ابتدأت لهجته تتغيَّر وأخذ يلمِّح لي بأنه قد يكون ارتُكب فيها بعض الخطأ، ولكنه خطأ يسير، أما إنزالها ومعاينتها وإتمام إجراءاتها فهذا شيء قد تمَّ حسب زعمه.

كرَّرت عليه مرةً أخرى ما سبق أن أجبته به. وهنا بدأ يتَّجه في حديثه اتجاهاً آخراً ملوِّحاً بأنَّ الموظف إذا كان أخطأ - ويقصد المعاين - فإنه يرى بأن يدفع هذا المُعاين، واسمه إبراهيم العليَّان عشرة آلاف ريال مقابل خطئه، ومُقابل أن أسلِّمه أوراق المعاملة بعد توقيعها.

إجابة حازمة:

وهنا أجبته بحزم وبعبارة ساخرة: كنت أتصوَّر كلَّ شيء يا أخ محمد إلاَّ أن تأتي لتساومني على ضميري، فأرجو الكفَّ، وعدم التدخُّل في هذا الموضوع، لأنه لا يعنيك، وهنا أخذ يتنصَّل من الموضوع، مُبدياً ما يفيد بأنهم هم طلبوا منه ذلك.

على كلٍّ تركته في الغرفة، وذهبتُ إلى المطبخ ومعي قِدْر الطبخ لكي أطبخ غدائي، وهدفي من ذلك أن يغادر الغرفة من تلقاء نفسه، لأني لم أرغب امتهان كرامته بطرده احتراماً لمركزه.

ما كاد يغادر الغرفة حتى عدتُ إليها، لأنه لم يكن من الحكمة أن أظلَّ في المطبخ أو في الغرفة، فمن الممكن والمعقول أن يأتي أصحاب العلاقة في هذه المعاملة، فيقتحموا غرفتي، ويأخذوا المعاملة عنوةً، لأنني اصطحبتها معي، ولم أتركها في درج المكتب. وهم جمع وأنا فرد لا أستطيع مقاومتهم، هذا احتمال وارد ومُحتمل جداً بعد أن عاد إليهم الصديق محمد الناصر، وأبلغهم بفشل مهمته.

غادرتُ الغرفة، والمعاملة في جيبي، وذهبتُ إلى مطعم بعيد في أقصى البلدة من جهة الجنوب الغربي على مقربة من الخط المتَّجه إلى القريَّات.

تناولتُ طعام الغداء في هذا المطعم، ثم مكثتُ فيه إلى بُعيد صلاة المغرب، ثم عدتُ إلى غرفتي واصطحبتُ معي ما يُعرف في الحجاز، وعند أهل جدة بالذات بـ (البيدي) وهو كساء أشبه بالعباءة مصنوع من الصوف السميك، وكان الوقت شتاءً، ويستلزم ارتداء هذا البيدي وقايةً من البرد، وعدتُ إلى المطعم مرةً أخرى، وبقيتُ حتى بعد صلاة العِشاء بنحو ساعتين.

مطار طريف:

كان مطار طريف يقع في الجنوب الشرقي مُلاصقاً لمبنى الجمرك من جهة الشرق، وكانت نهاية المطار تمتدُّ إلى نحو كيلومتر ونصف باتجاه الجنوب من مبنى الجمرك. كانت نهاية المطار هذه تنتهي بمُنخفض من الأرض تكثر فيه الشجيرات والأشجار الشوكية. وكان مبنى الجمرك تحيط به أضواء كاشفة تجعل في مقدور مَن يرغب مراقبته أن يَطَّلع على ما يجري فيه، ولو على بُعد أكثر من كيلومترين.

موقف الحزم والحذر والحيطة:

كنتُ أُقدِّر أنني مُستهدف في شخصي، وقد يكون من الممكن أن يتَّخذ أصحاب العلاقة بهذه المعاملة إجراءً متهوِّراً طائشاً يعمدون فيه إلى إنزال حمولة السيارة ليلاً، ومعاينتها وإتمام إجراءاتها على وضع سليم وصحيح، ثم إعادتها على ظهر الشاحنة مرةً أخرى مثبتين ذلك في محضر يوقِّعه جميع المسؤولين عن القضية.

كل ذلك قد وضعته في اعتباري رغم أنهم حتى لو قُدِّر أنهم فعلوا ذلك لما أجداهم نفعاً؛ لأنَّ كَشْف الاستيراد الذي أحتفظ به معي حاملاً جميع توقيعاتهم على صحة ما دُوِّن فيه، ولهذه الاعتبارات جميعها كان

منطق الحزم والحذر والحَيْطة تفرض عليَّ أن أكون يقظاً إلى أبعد حدود اليقظة؛ لذلك فقد اتَّجهت رأساً من المطعم الذي كنت أكمنُ فيه، وكان ذلك في حوالي الساعة العاشرة ليلاً.

مراقبتي ساحة الجمرك:

اتَّجهت إلى المنخفض الواقع في الطرف الجنوبي من المطار الذي سبق ذكره، وجثوتُ فيه متَّجهاً ببصري إلى ساحة الجمرك يعلوني البيدي الصوف السميك.

إشراقة الفجر:

كنت أرتعدُ من شدة البرد، ومع ذلك ظللتُ يقظاً طيلة الليل لم يغمض لي جفن، وكانت إشراقة الفجر هي مفتاح الفرج لمغادرتي لمكاني.

بواكير الصباح:

اتجهتُ إلى ساحة الجمرك مع بواكير الصباح الأولى، وأديتُ صلاة الصبح في الساحة، وقد صلَّى معي حارسا السيارة. مكثنا ثلاثتنا بجوار السيارة حتى ارتفعت الشمس، وأخذ موظفو الجمرك ومخلِّصوه وعُمَّاله يتوافدون إلى ساحة الجمرك، وما أن اكتمل حضور الجميع حتى دعوتُ المخلِّص محمد المديفر، وكان هو المسؤول عن إجراءات ترسيمها، دعوته إلى حيث أقف، وأمرتُ مجموعة من الحُمَّال بإنزال حمولة السيارة إلى الأرض بعد تفكيك حبال الطرابيل المثبَّتة على ظهرها.

إنزال حمولة السيارة:

أُنزلت كامل الحمولة إلى الأرض، وكان فيها ستمائة قطعة سجاد بلجيكي مشروك بصوف.

فرز قطع السجاد:

طلبتُ من المخلِّص بأن يُمسك بورقة وقلم، وفعلتُ أنا مثله، وأَمرتُ الحمَّالين بأن يفرزوا هذه القطع الستمائة قطعةً قطعةً، ونُسجِّل أنا والمُخلِّص محمد المديفر المقاسات المثبتة على طرف السجادة من قِبل الشركة المصنِّعة، والتي تُحدِّد مساحة كلِّ قطعة طولاً وعرضاً بالسنتيمتر.

تحرير محضر والتوقيع عليه:

كان كلٌّ منا يضع القطعة، ويضع أمامها مقاساتها المثبتة عليها، وفي النهاية طلبتُ منه جمع ما دوَّنه من قطع السجَّاد، وجمع ما أثبتَ عليها من مقاسات بالمتر المربَّع، وفعلتُ مثل فعله. وفي النهاية طابقنا ما دوَّناه فوُجد مطابقاً من حيث العدد والمقاسات. وهنا طلبتُ منه التوقيع على الورقة التي كانت بيدي، كما وقَّعتُ أنا بدوري على الورقة التي كانت بيده، ثم حررنا بالإضافة إلى ذلك محضراً بالإجراءات التي اتَّخذناها، نحن الإثنين، مُسجلين فيه عدد السجَّاد ونوعيتها، ومجموع مقاساتها بالأمتار المربعة، ثم وقَّعنا على ذلك المَحْضَر، واحتفظ كلٌّ منا بنسخةٍ منه، مع نسخة من بيان الجرد الإفرادي.

تحرير مذكرة رسمية إلى مدير الجمرك:

وهنا اتَّجهتُ إلى مكتبي بالجمرك، وحررتُ مذكرة رسمية إلى مدير الجمرك تتضمَّن العناصر الآتية:

أولاً: أنه نتيجةً للشكِّ الذي ساورني عن سيارة السجَّاد القادمة من لبنان، باسم التاجر الهديَّان بالرياض، وتولَّى التخليص عليها، وإتمام إجراءاتها المخلِّص الجمركي محمد المديفر فقد تمَّ صباح هذا اليوم إنزال حمولة تلك السيارة، وإعادة جردها جرداً فعلياً من قِبل كلٍّ من المُخلِّص المديفر، الذي هو وكيل المالك، وبيني رئيس مكتب تفتيش جمرك طريف وقد أسفرَ الجرد عن:

أ ـ إنَّ مجموع عدد السجَّاد هو ستمائة قطعة، وليس كما أُثبتَ في كشف الاستيراد بأربعمائة قطعة.

ب ـ إنَّ مجموع أمتار تلك القِطع هو ثمانية آلاف متر لا كما أُثبتَ في كشف الاستيراد أربعة آلاف متر.

ج ـ إنَّ نوعية الزَّل هو صناعة بلجيكية جوت مشروك بالصوف.

د ـ إنَّ فئة هذا النوع من السجَّاد تخضع لفئة الرسم ٢٥٪ وليس ٢٠٪ كما أُثبتَ في كشف الاستيراد.

هـ ـ إنَّ سعر المتر من هذا الصنف من السجَّاد يترواح ما بين أربعة عشر إلى ستة عشر ريالاً للمتر الواحد، وليس كما أُثبتَ في كشف الاستيراد بستة ريالات للمتر.

ثانياً: على إدارة الجمرك أن تُتِمَّ إجراءات تسليم هذه البضاعة وِفقاً لواقعها الذي أثبتناهُ في الفقرات الخمسِ السابقة، وذلك بعد أن تقوم بإعادة الجرد مرة أخرى إذا كان لديها أيُّ شكٍّ فيما أوضحناه، بموجب المَحضر الموقَّع من وكيل صاحب المال ومنا، على أن تتمَّ هذه الإجراءات في أسرع وقت ممكن، وَفقاً لما توجبه فئات التعرفة، ونظام الجمارك العام.

وجَّهت المذكَّرة لمدير الجمرك، دون أن أتوسَّع في الشرح والإيضاح، عن استخفافِ المسؤولين بواجباتهم، الذي يمثله على الأقل، أنَّ هذه البضاعة لم تُعاين أساساً، وإنما وُضِعتْ أعدادها وأمتارها ونوعها بطريقة عشوائية.

محاولة تخفيف العقوبة على الموظف الجمركي:

وكان هدفي من تفادي ذلك هو تخفيف العقوبة التي سيتعرَّض لها الموظف الجمركي، الذي قام بهذه العملية العشوائية، وأثبتها على كشف الاستيراد وهو المدعو إبراهيم العليَّان، وهو موظف بسيط ساذج فقير الحال.

تباطؤ إدارة الجمرك بإكمال الإجراءات:

انتظرتُ أن تقوم إدارة الجمرك بإكمال إجراءات هذه البضاعة وَفْقاً لما ذكرت، وَوَفقاً لما يوجبه النظام، بَيْدَ أنَّ البضاعة ظلَّت على الأرض حتى نهاية الدوام دون أن يُتخذ بشأنها أيُّ إجراء. وكان ذلك موقفاً غريباً من إدارة الجمرك، وبطبيعة الحال لم أهتم بالموضوع لأنني واثق من سلامة الإجراء، ولأني قد طلبتُ منهم رسمياً سرعة إتمام تلك الإجراءات، وعلى ذلك فهم وحدهم يتحمَّلون مسؤولية ما يلحقُ هذه البضاعة من ضرر أو تلف.

مع الزميل عبدالرحيم الكابلي:

قبل هذا الحادث بثلاثة أيام كان قد وصل إلى الجمرك الزميل عبدالرحيم كابلي، وهو يعمل مفتشاً في جمرك جدة، أُرسل إليَّ في (طريف) ليعمل معي في المكتب مفتشاً مساعداً تحت رئاستي، وبطبيعة الحال فقد كان يقوم بتوقيع بعض المعاملات، وكنت أقرُّه عليها دونما اعتراض مني بحكم أنه مفتش مثلي. كانت صلتي به صلة زمالة، كُنَّا نعمل معاً ضمن جهاز واحد في جمرك جدة.

توجيه مذكرة أخرى إلى مدير الجمرك:

في اليوم التالي لتوجيه مذكرتي لإدارة الجمرك، لاحظتُ أنَّ البضاعة مدار البحث لازالت مُلقاة على الأرض، عرضةً للأتربة والغبار والشمس دون أن يُتخذ عليها أيُّ إجراء أيضاً، فوجَّهت لمدير الجمرك مذكرة أخرى تحمل صفة الاستعجال، وتلحُّ بسرعة إنفاذ الإجراءات التي تضمَّنتها مذكرتي السابقة.

استخفاف وقلة اهتمام:

لم يتغيَّر الوضع، ولم أرَ من إدارة الجمرك أيَّ اهتمام أو مبالاة بهذا الموضوع، مما يدلُّ على الاستخفاف بواجباتهم الرسمية، وبتعريضهم لأموال

التاجر الهديّان للتلف والخسارة، لذلك عمدتُ أيضاً إلى توجيه مُذكرة مؤكدة لمذكراتي السابقة، ومُحملةً لمدير الجمرك كامل المسؤولية عما يحدث في هذه القضية.

المذكرة الأخيرة:

وفي هذا اليوم الذي وجهت فيه مذكرتي الأخيرة، وكان على ما أذكر صباح الخميس، أي آخر أيام العمل الأسبوعي، بمعنى أنَّ تلك البضاعة تحت الشمس والغبار ستة أيام كاملة.

مذكرة رسمية إلى أمين الصندوق:

وخلال عودتي إلى المكتب بعد جولتي الصباحية على الساحة، وكنتُ في اليوم السابق قد وجَّهت مذكرة رسمية إلى أمين الصندوق معطياً منها لمدير الجمرك، ولزميلي المفتش الجديد عبدالرحيم كابلي صورة من تلك المذكرة التي تضمَّنت التأكيد على أمين الصندوق بإيقاف أي معاملة جمركية ترِد إليه حتى ولو كانت مُوقَّعة من زميلي المفتش عبدالرحيم كابلي، وذلك نظراً لِما لاحظته من اتجاه كافة المعاملات وتحويلها إلى المفتش عبدالرحيم لتوقيعها، وكأنني غير موجود في الساحة، وكأنني قد سمحتُ، ووافقتُ على هذا الإجراء.

ثورة عارمة من الكابلي:

ما كدتُ أستوي جالساً على كرسي المكتب حتى فوجئت بزميلي عبدالرحيم كابلي، وكان ضخم الجثة، وفي عنفوان قوته، يُسرع إليَّ هادراً مزمجراً تقذف شفتاه ألفاظاً نابيةً من الشتيمة والبذاءة، يُسرع إليَّ بعنف فيدفعني في صدري فإذا بي أقع على الأرض، وإذا بموظفي المكتب فهيد الجبران كاتب الآلة، وزميله كاتب الصادر والوارد، وفرَّاش المكتب يهبُّون بسرعةٍ باتجاه عبدالرحيم يدفعونه إلى الوراء لإبعاده عني.

تحريض بعض مسؤولي الإدارة بالجمرك:

أدركتُ على الفور أنَّ ذلك نتيجةً طبعيةً لردة فعل إيقاف مفعول توقيعه على المعاملات من جهة، ولأنه من جهة أخرى، وهو الأهم، قد حُرِّض بكل تأكيد من بعض مسؤولي الإدارة بالجمرك للإقدام على ما أقدمَ عليه، ظناً منهم أنَّ ذلك سيُغريني بالمقاومة، فيُتاح لهم فرصة ذهبية، كي يحرروا محضراً بالمشاجرة بين رئيس المكتب وزميله أثناء العمل، ومن ثَمَّ تنحى القضية منحىً آخر، خاصةً أنَّ الزميل عبدالرحيم منذ وصوله، ومباشرته العمل كان ملازماً لمسؤولي الجمرك بصفة مستمرة، لا يفصلهم عنه سوى أوقات النوم، رغم علمه واطِّلاعه على تفاصيل القضية القائمة بين مكتب التفتيش وإدارة الجمرك آنذاك، ورغم اطِّلاعه على المذكرات الرسمية التي وجهتُها مكررةً لمدير الجمرك.

كتابة محضر:

لم أُبدِ أية مقاومة وإنما نهضتُ واقفاً قائلاً لكاتب الآلة فهيد الجبران، وأنا أغادر غرفة المكتب: اعمل محضراً سريعاً بما وقع وشاهدت، ووقِّعه منك ومن الحاضرين، ثم غادرت إدارة الجمرك.

برقية لمدير عام مصلحة الجمارك ومدير عام التفتيش بجدة:

اتضحَ لي نتيجةً لِما وقع أنه لا بد من حلِّ القضية حلاً سريعاً وحازماً، يتجاوز إدارة الجمرك، وكان اتصال اللاسلكي ما بين مدينة طريف ومدينة جدة يتمُّ كلَّ ليلة من بعد المغرب مباشرةً، لذلك أعددتُ برقيةً مختصرةً موجَّهةً لمدير عام مصلحة الجمارك ولمدير عام التفتيش بجدة، وصورة منها لمعالي وزير المالية والاقتصاد الوطني الشيخ عبدالله بن عدوان رحمه الله.

طلب لجنة ثلاثية للتحقيق:

كانت البرقية تحمل الاستعجال الفوري، وطلب الإجابة باستلام هذه البرقية حالَ استلامها. وفحوى تلك البرقية كان ملخَّصاً ومُختصراً في فقرات

ثلاث هي: أنَّ هناك عبثاً بحقوق الخزينة، ثانياً: أنَّ هناك محاولة لإلحاق الضرر بأموال التجار، ثالثاً: أنَّ إدارة الجمرك وحدها هي المسؤولة عن كل ذلك، وعليه أطلبُ وعلى الفور إرسال لجنة تحقيق من وزارة المالية، ومن مصلحة الجمارك، ومن مديرية التفتيش للشخوص فوراً إلى جمرك (طريف).

في إدارة اللاسلكي:

أعددتُ البرقية، وفي الساعة السابعة مساءً بعد المغرب دخلتُ إدارة اللاسلكي فوجدت مديرها الأخ مصطفى عيسى قد وضع إصبعه على (المانيبله) بجهاز الإرسال بدءاً بالعمل، كان أمامه مجموعة من البرقيات، بَيْدَ أني فاجأته بوقوفي فوق رأسه، ووضعي للبرقية أمامه، بعد أن سألته عن الوقت، فقال لي: الساعة السابعة، فطلبتُ منه تسجيل ذلك على البرقية وإرسالها الآن، وقد تمَّ ذلك فعلاً، وسَحَبها أمامي.

غادرته إلى غرفتي، وكنت أسأل نفسي عما ستتركه برقيتي هذه من أثر وانزعاج لدى الجهات التي وُجِّهت إليها، لأنها تحمل أموراً خطيرةً تتصف بأعلى درجات المسؤولية، وكنت أتوقَّع تأسيساً على ذلك أن تبادر تلك الجهات بإرسال لجنة ثلاثية على الأقل، على أرفع المستويات.

في صباح اليوم الباكر، وكان يوم جمعة تلقَّيت برقيةً من مصلحة الجمارك بتوقيع عثمان ناظر - إذا لم تخنِّي الذاكرة - ومفادها استلام برقيتي تلك، وأنه قد توجَّه إلى (طريف) صباح هذا اليوم المفتش العام للجمارك الأخ مدني بن حمد، كما عُمِّد برقياً الزميل علي زارع رئيس مال وأمين عام الحدود الشمالية آنذاك، عُمِّد بأن يتجه على الفور من عرعر إلى طريف ليلتقي بالمفتش العام مدني بن حمد عصر ذلك اليوم، ويكون المفتش العام قد وصل على طائرة الداكوتا التي كانت تصل عادةً الساعة الثالثة بعد الظهر.

عدم خروجي إلى المطار لاستقبال المفتش العام:

كان من المنطق ومن اللياقة أن أذهب إلى المطار لاستقبال المفتش العام باعتباره رئيسي المباشر، وباعتباره أيضاً صديقاً تربطني به صلة ودّ

واحترام. كان ذلك يُفترض أن أفعله بَيْدَ أني تعمَّدتُ العكس، بقيتُ في غرفتي التي تبعد كيلومترين عن المطار، كما سبق أن شرحت، تعمَّدت البقاء فيها حتى بعد وصول الطائرة، ونزول الأخ مدني منها. وكان حنقه شديداً وانفعاله بالغاً حينما لم يجدني في انتظاره مما دفعه إلى أن يبعث إليَّ أحد حرَّاس الجمارك، طالباً مني الحضور فوراً وبدون أيِّ تأخير.

بكل هدوء وبرودة أعصاب صافحتُ الأخ مدني قائلاً له: الحمد لله على سلامة الوصول يا أبا يونس، وهنا لم يستطع السيطرة على أعصابه، فانفلتَ يتلفَّظ بعبارات كلها حنق وغيظ، لعلَّ أخفَّها قوله: ما كنت أحسب أن تتأخر عن استقبالي حتى ولو على سبيل الصداقة والمجاملة، فضلاً عن كوني رئيسك المباشر، هنا أجبتُ بكل هدوء: إنَّ لك الحق في كل ما ذكرته، ولكني مع ذلك تعمَّدت أن لا أكون في استقبالك، لأنَّ المهمة التي قدمتَ من أجلها هي أخطر من أن تخضع للمجاملات، وأنا طرف فيها؛ لذا أحببتُ أن تكون الساحة قاصرة على الوقائع وحدها، بعيدةً عن المجاملات والعواطف.

وصول الزميل علي زارع:

وفي تلك اللحظات كان غبار سيارة الزميل علي زارع رحمة الله عليه يرتفع إلى السماء مؤذناً بقدومه من مدينة عرعر، وما هي إلا لحظات حتى وصل إلينا.

تبادلنا التحية بعبارات مقتضبة، وهنا طلبتُ منهما أن يرافقاني، وذهبت بهما إلى قطع السجّاد الملقاة في ساحة الجمرك، وهنا طلبتُ منهما بأن يقوما بجرد هذا السجّاد، ووضع المحضر اللازم بنتيجة الجَرد، ثم بعد ذلك يكون لقائي معهما.

طلبا مني الاشتراك معهما فرفضتُ موضِّحاً لهما بأنَّ مهمتي بالنسبة لهذا السجاد قد انتهت، ثم أدرتُ لهما ظهري متوجِّهاً إلى غرفتي، وهما يُتمتمان بعبارات غير مفهومة تَشي بالغيظ والحنق، إذ أنهما، وهما المترفان

المرفَّهان، النقية أجسامهما وملابسهما، سوف يتعرضان للغبار والأتربة التي كانت تثيرها الرياح العاتية بعنف في تلك اللحظات.

غادرت مكانهما متجهاً إلى غرفتي بإدارة مكتب التفتيش، وهي لا تبعد عن مكانهما أكثر من ثلاثين متراً تقريباً، كنتُ أراقبهما، وكلٌّ منهما يحاول صدَّ الغبار عن وجهه وعيونه بكفيّ يديه.

تحرير مذكرة باسم عضوي هيئة التحقيق:

وخلال ذلك حرَّرت مذكرةً موجَّهةً باسم الهيئة دون أن أذكر ألقابهما على أساس أنهما هيئة انتدبت للتحقيق، ولذا جعلت عنوان المذكرة (عضوي هيئة التحقيق المحترمَين). فصَّلتُ في هذه المذكرة مراحل القضية، منذ بدئها حتى حضورهما، موضِّحاً لهما ملاحظاتي على القضية كما سبق أن وجَّهتها لمدير الجمرك، ومعقِّباً عليها بصور من مذكراتي لمدير الجمرك، موضِّحاً لهما مدى استهتاره واستخفافه بأعمال وظيفته وهو رئيس مسؤول أولاً، ثم استخفافه وعبثه بإلحاق التلف والضَّرر في بضاعة التاجر، مضيفاً إلى ذلك حادثة اعتداء الزميل عبدالرحيم كابلي عليَّ، مرفِقاً لهما صورةَ محضر الحادث، وذاكراً لهما الكثير من أسماء شهود الحادث.

ختمتُ مذكرتي بما ملخَّصه: المطالبة بعقاب المسؤولين في إدارة الجمرك حسب تسلسل مسؤولياتهم، ثم البَتّ السريع بإتمام إجراءات قضية السجَّاد ورفعه عن الأرض تجنُّباً لتلفه، ثم محاكمة الزميل على اعتدائه عليَّ.

توقيعهما على محضر الجرد:

ما كادا ينتهيان حتى كنتُ قد أنهيتُ هذه المذكرة، لأنَّ تفاصيلها كانت حاضرة بذهني، ولذا لم تستغرق مني من الوقت أكثر من دقائق. خلال ذلك قَدِمَ إليَّ حسينُ التواتي رئيس الحرس يطلب حضوري إليهما، بناءً على طلبٍ منهما، وكنتُ شاهدتهما وهما يوقِّعان الأوراق فيما بينهما، أي أوراق محضر الجَرد الذي قاموا به. حضرتُ إليهما وهنا سألتهما: هل تسمحا لي

بالاطِّلاع على محضر الجرد، وذلك بعد أن طلبا مني التوقيع عليه. هنا أخذتُ المَحضر وطابقته على المحضر الموجود لديّ الذي سبق أن أجريته بالاشتراك مع وكيل صاحب المال المخلِّص محمد المديفر.

توقيعي على محضرهما:

كان المحضران متطابقان من حيث العدد والنوع وعدد الأمتار، وهنا وقَّعتُ على المحضر الذي وضعاه، ثم سلَّمت لهما المذكرة التي أعددتها بعد أن سجلتها في دفتر التوديع الذي وقَّعاه بالاستلام.

لم يكن ثمة مجال للبحث والمناقشة بيني وبينهما، لأنَّ جميع ما قد يسألاني عنه قد أوضحته لهما في مذكرتي الرسمية، ولذلك فقد أجبتهما عندما طلبا مني أن أذهب معهما إلى حجرة مدير الجمرك، لكي نتناقش في الموضوع على حسب قولهما، أجبتهما: إنَّ جميع ما لدي في هذه القضية قد سجَّلته في مذكرتي هذه، ولذلك فليس لديَّ ما أُضيفه على ما جاء فيها.

تناول وجبة الغداء:

كان يوجد على مَقرُبة من الجمرك خارج سور الجمرك مقهى ومطعم، يديره أحد إخواننا السوريين المدعو محمود دامر، وهذا المطعم نظيف وأكثر وجباته من المشويات، ولذا فقد طلبتُ منهما أن نتغدى سويةً فيه، فوافقا على ذلك شاكرَين، لأنهما كانا بحالةٍ من الجوع والإرهاق. وخلال تناول وجبة الغذاء، وكان يسودها المرح من قِبلي خاصةً، أوضحتُ للأخ مدني بطريق المُداعبة بأنَّ ما سأدفعه من جيبي الخاص قيمةً لهذه الوجبة إنما هو تكفير عن خطيئتي بحقِّه حين تأخرت عن استقباله. بعد ذلك تركتهما وذهبتُ إلى غرفتي، بينما ذهبا هما إلى دار مدير الجمرك الأخ علي لافي.

مذكرة عضوي هيئة التحقيق إلى مدير الجمرك.

في اليوم الثاني علمتُ من الصورة التي أُعطيت لي من مذكرتهما، التي وجَّهاها لمدير الجمرك بأنهما قد ضمَّناها جميع النقاط التي أوضحتها

في مذكرتي لهما، وفي مذكراتي الثلاث السابقة لمدير الجمرك، وهي تتلخص في:

أ ـ تسجيل قِطع السجَّاد كواقعها الحقيقي ستمائة قطعة.

ب ـ إثبات مجموع عدد الأمتار لتلك القِطع موجب مقاساتها على حسب واقعها الفعلي.

ج ـ إخضاع فئة الترسيم إلى ٢٥٪ بدلاً من ٢٠٪.

د ـ إثبات سعر المتر من هذا السجاد بـ (١٦ ريالاً سعودياً بدلاً من السعر الذي وضعه موظف الجمرك، والذي كان أقل من ذلك بكثير).

ثم ختما مذكرتهما بأن على إدارة الجمرك في حالة رفض وكيل التاجر على فئة الرسم وعلى قيمة المتر أن تُربط المعاملة بكاملها في دفتر التأمين، وتُرسل كامل أوراق المعاملة إلى اللجنة الجمركية في مصلحة الجمارك العامة بجدة، لِلبَتِّ فيها مع قطعة من السجَّاد، وذلك بعد أن تُستوفى رسوم هذا السجَّاد على أساس فئة الرسم وقيمة سعر المتر. وتُربط تلك الرسوم في دفتر التأمين ريثما يُبَتُّ في القضية.

طلب التوجه إلى جمرك (حفر الباطن):

خلال اليوم التالي لوصولهما عاد الأخ علي زارع إلى مدينة عرعر، بسيارته، وتبعد عن طريف ٢٥٠ كيلو متراً. أما الأخ مدني بن حمد فقد رأى أن يسافر إلى لبنان، مروراً بالأردن وسوريا على إحدى سيارات الأجرة، وقد حضر عندي في المكتب، وقدمَ لي شفهياً شكره وتقديره، وأنَّ ما عملته كان هو الواجب وهو الصحيح، ثم عقَّب على ذلك بأن طلب مني بأن أتوجَّه إلى حفر الباطن، وهو يبعد عن طريف ٨٥٠ كيلومتراً. أذهبُ إلى حفر الباطن، وأنتظره هناك ريثما يُنهي بعض أعمالٍ خاصة به في لبنان، كما يقول، ثم يأتي إليَّ عبر الكويت بالطائرة، ثم من الكويت إلى حفر الباطن، وهناك بعد حضوره نقوم معاً بالتفتيش على أعمال جمرك حفر الباطن.

طريقة ملتوية:

ضحكت ضحكةً ساخرةً قائلاً له: إنَّ الموضوع يمكن أن يُختصر بغير هذه الطريقة الملتوية، يُختصر بكلمة واحدة فحواها: نرغبُ نقل خدماتك إلى مكان غير جمرك طريف، وأَضفتُ إلى ذلك: إنني لن أقبل بعد الآن العمل في هذه الإدارة، إدارة التفتيش بطريف، لأنني لم آتِ إليها إلا على كرهٍ مني، لكي أحقق لكم صدق ما قلته لكم سابقاً حينما حضرتُ إليكم في جدة في أواخر رمضان موضِّحاً لكم بأن قراركم المفاجىء بنقلي للعمل في جمرك (طريف) سيوجد لكم متاعب أنتم في غِنى عنها، وهاأنذا قد فعلت. ولعلَّ في مجيئك من جدة على هذه الصورة المُستعجلة، وكذا مجيء الأخ علي زارع، وقيامكما بما قمتما به وما تحملتماه من مشاق ومصاعب، أصدقُ برهان على صحة ما ذكرت.

تلطف واعتذار:

كان الأخ مدني لطيفاً ودوداً، وكأنه أحسَّ بخطئه في حقي وهو العالم بمرضي، عندما كلَّفني بصورة مفاجئة بالشخوص إلى (طريف).

أخذ يتلطَّف معي ويعتذر مني، محاولاً المبالغة في تقديره وإعجابه بما فعلت، ظناً منه أنَّ مثل هذا الإطراء سيُدخل الغرور على نفسي، وبالتالي أنقادُ لتوجيهاته، بَيْدَ أنني أجبته بشيء من الحزم، حزم قد لا يخلو من الخشونة، جابهته بقولي: إنك غير جادٍّ فيما يتعلق بالتفتيش على جمرك (حفر الباطن)، ولو كان الأمر كذلك لطلبتَ مني التوجُه فوراً إلى تلك الإدارة، ومباشرة عملية التفتيش على معاملاتها دون حاجة إلى انتظارك، فقد يطول أياماً؛ لأنَّ مجرد وصولي جمرك (الحفر) مغلول اليد، دون أن أقوم بأيِّ إجراء، لا معنى له. وإنما أُصارحك بأني لن أتوجَّه إلى تلك الإدارة، وسأكون بانتظارك في مدينة الكويت إذا شئت أن تحضُر، مع أنني واثق بأنك لن تَحضر، وسأقضي إجازة عيد الأضحى في الكويت، ثم أتجه إلى جدة رأساً.

ولعلَّه أيقنَ بأنه لا جدوى من إقناعي بتنفيذ فكرته، ولذلك ختمَ حديثه

معي قائلاً: سأحاول ما استطعت لأُنهي مهمتي في لبنان، ثم أحضر إليك في الكويت خلال مدةٍ لن تكون طويلة، وهنا ابتسمتُ في وجهه قائلاً: سيتمُّ لقاؤنا بمشيئة الله في جدة لا في الكويت.

اتجه هو بعد هذا الحديث إلى مقرِّه في دار ضيافة إمارة طريف، انتظاراً لتأمين سيارة أجرة لتنقله إلى لبنان.

سفري إلى رأس تنورة:

بقيتُ بعده في المكتب وجمعتُ أوراقي الخاصة من الأدراج، مُصطحباً معي بعض الوثائق التي اعتقدتُ أنني ربما احتاج إلى الرجوع إليها مُستقبلاً.

خلال ذلك كانت طائرة التابلاين القادمة من لبنان في طريقها إلى عرعر، فرفحا، فالقيصومة، فرأس تنورة، كانت تلك الطائرة تهبط على مَدرج المطار، وهنا اتصلتُ بمندوب الشركة، وأَفهمتُه رغبتي بالسفر عليها إلى رأس تنورة، ورحَّب بذلك واستمهلتهُ ربع ساعة ريثما أُحضرُ شنطة ملابسي من غرفتي.

توديعي بوابل من الحجارة:

أحضرتُ الشنطة، وكان جمهور الموظفين والحراس والمخلِّصين متواجدين على مَقربة من موقع الطائرة التي لا يفصلها عن مبنى الجمرك إلا أمتار معدودة.

اتجهتُ إلى الطائرة، وكانت على استعداد للإقلاع، وإذا بي أحسُّ بسيلٍ من الأحجار الصغيرة تنهالُ على ظهري من الخلف، وكأنني إحدى جمرات مِنى الثلاث، وبطبيعة الحال فقد كنت مُدركاً لبواعث هذا التصرُّف، من هؤلاء الذين قاموا بهذا العمل سواءً من قِبل موظفي الجمرك، وعلى رأسهم الأخ علي لافي ومعاونه حسن صابر، وزميلي المفتش عبدالرحيم كابلي، ومن المخلِّص الجمركي محمد المديفر وزملائه أو غيرهم.

لماذا وافقتُ على مغادرة جمرك طريف؟

وقد يتساءل القارىء عن سبب موافقتي على السفر، ومُغادرتي إدارة الجمرك في هذا الظرف بالذات، على أساس أنَّ ذلك يُوحي بفكرة انتصار إدارة الجمرك ومَن يقف بجوارها من المؤيِّدين، مما يجعل في وِسعهم لِمَن لا يدرك بَواطن الأمور أن يدَّعوا أني قد طردتُ من الجمرك طرداً من قِبل رئيس إدارة التفتيش الذي قَدِمَ من جدة ـ مدني بن حمد ـ وهو على هذا الأساس يُعتبر انتصاراً لإدارة الجمرك، إذ أنه كان وِفقاً لمنطق الأحداث أن أظلَّ باقياً في الجمرك لمدة لا تقل عن شهر حتى لا أمكِّنهم من أن يزعموا مثل هذا الزعم.

بَيْدَ أنَّ جوابي على هذا التساؤل يرتكز على نقطتين:

أولاهما: أن مجيئي لإدارة جمرك (طريف) لم يكن برغبةٍ مني، وإنما كان على الكره مني، وفعلته متعمِّداً رغم ما به من ضرر على صحتي لكي أحقق للأخ مدني بن حمد ورئيسه أنني أعني ما أقول بعبارتي تلك التي وجَّهتها إليهما ساعة الوداع بجدة.

أمّا الأخرى: فإنّ الجو في إدارة جمرك طريف بعد هذه الحادثة بالنسبة لي كان مشحوناً بالعداء والكراهية والبغض من قِبل إدارة الجمرك وممن لهم علاقة بالموضوع، مما يجعل من المُحتمل جداً، فيما لو بقيتُ، أن يدبِّروا لي مكيدة ينفِّسون فيها عن حقدهم عليَّ نتيجةً لِما فعلت، وهو احتمال منطقي ومعقول، واحتمالات الكيد وأنواعه كثيرة، ومتعددة لا تخفى على فِطنة القارىء.

نزول الطائرة في القَيصومة:

أقلعتْ بي الطائرة، كان يرافقني فيها بعض موظفي شركة التابلاين، وعلى رأسهم الأخ محمد عبدالرحمن، وهو فلسطيني، علمتُ منه أنه يعمل مديراً للعلاقات في مركز الشركة بمدينة (عرعر)، التي نزل فيها عندما هبطت الطائرة فيها، ثم واصَلَت الطائرة رحلتها مارّةً بمطار رفحا،

فالقيصومة، التي نزلتُ فيها، واستأجرتُ إحدى سيارات الأجرة، التي نقلتني إلى الكويت.

القيصومة:

والقيصومة هذه تقع في الشمال الشرقي من مدينة حفر الباطن بمسافة سبعة عشر كيلومتراً وفيها مطار الشركة، وفيها خزانات البترول الضخمة، وفيها مركز للشركة، فيه منشآت الضخ، ومستوصف صغير ودار للضيافة.

منافذ المملكة إلى الكويت:

والمسافة بين القيصومة ومركز الرقعي، وهو ثاني منافذ المملكة إلى الكويت، هي تسعون كيلومتراً تقريباً، فمركز الرقعي يقع شمال القيصومة مائلاً قليلاً إلى الغرب، أما المسافة من مركز الرقعي إلى قلب مدينة الكويت فهي حوالي ١٥٠ كيلومتراً تقريباً، أما المنفذ الثاني للمملكة إلى الكويت فيقع شرق مركز الرقعي، تفصلهُ مسافة قدرها مائتي كيلومتر، ويُسمَّى مركز الخفجي.





في الكويت العامرة

دار ابن العم إبراهيم العبدالعزيز الحسون بالكويت:

مكثتُ في الكويت في دار ابن العم المرحوم إبراهيم العبدالعزيز الحسون حتى نهاية شهر ذي الحجة عام ١٣٧٨هـ. قضيتُ فيها أياماً ممتعة في كنف ابن العم هذا محاطاً بالرعاية والتكريم، ولا غرابة في ذلك فهو ابن عمّي الشقيق، ولا حرج في أن أذكر نبذةً عن وجود ابن العم هذا في مدينة الكويت، وكيف أنه يحمل جنسيةً كويتيةً أصيلةً ذات الدرجة الأولى.

والد أخي إبراهيم هذا هو المرحوم عمّي عبدالعزيز الحسون، وهو واحد من أشقاء ثلاثة، أخوالهم الخنانا بعنيزة، وهم من أبناء جدي المرحوم حسون المحمد البالغ عددهم ستة، أسماؤهم كالآتي: محمد، وعبدالعزيز، وحمد، وهؤلاء أشقاء، وعلي وصالح وعبدالله من أمهات متفرّقات.

هجرة عمي عبدالعزيز الحسون إلى الكويت:

نزح عمّي عبدالعزيز إلى الكويت حوالي عام ١٣٢٠هـ حسب ما فهمتُ من أحاديث والدي المرحوم محمد، نزحَ في وقتٍ كانت نجد تعاني كثيراً من قسوة الحياة، وشظف العيش، مما جعل كثيراً من أبنائها يفرُّون منها إلى البلاد المتفرقة: كالكويت، والهند، والبحرين، والبصرة، والزبير، ودمشق، وحتى القاهرة.

حارس في دار المندوبية البريطانية:

اشتغلَ المرحوم عمِّي عبدالعزيز حارساً في دار المندوبية البريطانية، وتقديراً لِما عُرِف عنه من الاستقامة ودماثة الخُلق، والالتزام بعمله، فإنه ما لبث أن أصبح أشبه بمندوب، يتولَّى مُراسلة تلك المندوبية بالأجهزة المختلفة في مدينة الكويت، مما يسَّر له أن يتحصَّل على راتب محترم، مكَّنه أن يساعد أخويه محمد وحَمَد سنوياً، بمساعدات نقدية وعينية، حتى إنه رحمة الله عليه كان يبالغ من تحسُّس رغباتهم، فيرسل لكلٍّ منهما في كل عام ضمن ما يرسل تنكة مليئة بالدخان ـ أي: التبغ ـ حيث أنَّ كِلا الأخوين حمد ومحمد يتعاطيان التدخين، ويُعرف هذا النوع من التبغ بـ (الزباني).

في السوق الكبير:

خلال فترة وجودي في الكويت كنتُ أتجوَّل يومياً في أسواقها ومتاجرها. كان فيها شارع يُعرف باسم السوق الكبير، وهو على مَقربة من مكان المدرسة المباركية، وكانت أول مدرسة أُنشئت في الكويت.

كان هذا السوق يحتضن مجموعة من التجار يزاولون التجارة بالجملة، خاصةً في الأطعمة والأقمشة وما إليها، وغالبيتهم من أهل نجد: كالشايع والحميضي والعصيمي والمطوّع والقضَّاع والغانم، وغيرهم كثيرون.

حضوري جلسات برلمان الكويت:

خلال فترة وجودي في الكويت هذه، التي امتدت ما يُقارب الشهر، اغتنمتُ كما هي عادتي، في الحرص على تقصِّي الأوضاع من الناحية الاجتماعية، ومن ناحية الوضع الاقتصادي ومن حيث المستوى الفكري والثقافي، الذي يتمتَّع به أهل ذلك البلد.

الحركة الثقافية في الكويت:

كانت الحركة الثقافية قد خَطَت خطوات سريعة في الكويت رغم أنها حديثة الولادة، لأنها انبثقت مع فجر تدفُّق البترول. ولمّا كانت الثروة قد

طغتْ بسرعة مفاجئة، وبمنطق غير اعتيادي، نتيجةً لضخامة تلك الثروة من جهة، ولمحدودية سكان الكويت من جهة أخرى، فقد كانت الرغبة شديدة للتوسُّع نحو التوسُّع في توفير مناهل الثقافة: كالمكتبات والمتاحف والمدارس على مختلف مستوياتها، فخطت الكويت في سنوات قد لا تزيد على العشر خطوات واسعة في مختلف الميادين ما بين ١٣٦٨هـ و ١٣٧٨هـ؛ أقبلَ الشباب على القراءة والاطِّلاع بشكل بارز وملحوظ، وتعدَّدت الصحف اليومية الجادة والنشرات الدورية والمجلات الأسبوعية.

الناحية الاقتصادية في الكويت:

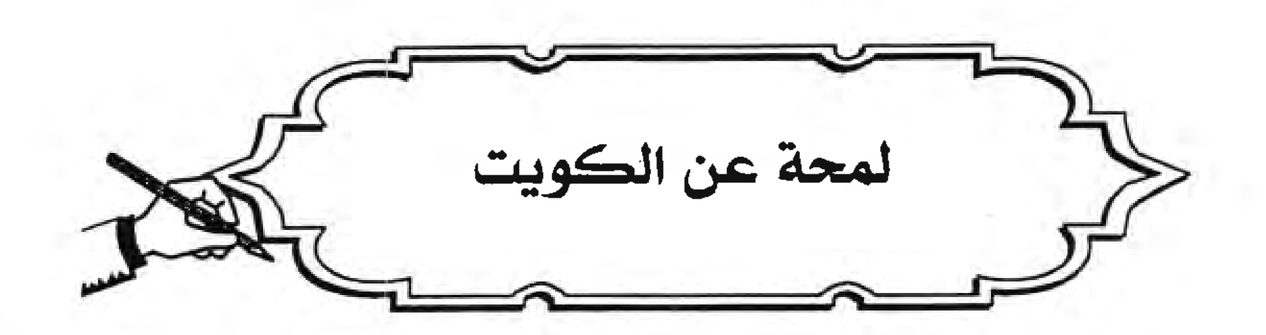
أمّا من الناحية الاقتصادية فقد كانت الحركة في الكويت نشيطة بشكل مُلفت للنظر، ومرجع ذلك إلى كثرة الوافدين إلى الكويت من جهة، وكثرة صادرات الكويت إلى المملكة التي تلتهم أسواقها ما يقارب ٧٠٪ من تجارة الكويت، وكانت المملكة آنذاك لازالت أسواقها التجارية تحبو في ميدان التجارة، لأنَّ الثروة البترولية فيها لم تكنْ قد أخذت بعد دورها في السِّعة والانتشار.

تجاهل الزميل مدني بن حمد وعده بالحضور إلى حفر الباطن:

ما توقعت... لم يحضر المدير الزميل مدني بن حمد إلى (الحفر) كما وعد، وإنما عاد إلى جدة رأساً من لبنان متجاهلاً وعده. مكثتُ في الكويت طيلة شهر ذي الحجة من عام ١٣٧٨هـ.

كانت ترافقني زوجتي التي استقدمتُها من الحفر ـ فكانت تقيم في دار أبيها وقتذاك ـ بعد وصولي الكويت، وكان استقدامي لها عندما استبانَ لي أنَّ الزميل مدني بن حمد قد أخلف وعده بعدم حضوره حفر الباطن كما وعد.

كان لا بُدَّ لي من أن أعود إلى جدة رأساً من الكويت فالرياض فجدة ـ وهنا لا بدَّ لي من لمحة سريعة خاطفة أصفُ بها الكويت آنذاك بصفة إجمالية.



كانت مدينة الكويت آنذاك هي المدينة القديمة محتفظةً بطابعها المعماري القديم، من حيث طراز، بيوتها المبنية من الطين واللبن وشوارعها وأزقتها ومَحالها التجارية، وإن كانت توجد فيها منشآتٍ ومبانٍ عصريةٍ شُيِّدت بالأسمنت المُسلَّح متناثرة هنا وهناك، ومنها بعض الدوائر الحكومية، ولكن الطابع الغالب على المدينة هو طابعها القديم، تحكمه جميع المظاهر القديمة.

ساحة الصفاة:

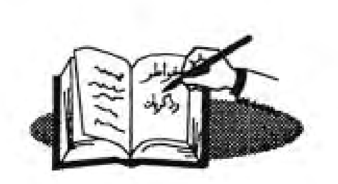
ولعلَّ من أبرز هذه المظاهر أنَّ هناك ساحة تُسمَّىٰ (الصفاة) كان يجلس على جانب منها كل صباح أحد حكَّام الكويت النافذين، وهو عبدالله المبارك الصباح. كان يجلس في هذا المكان صباح مساء للنظر في شؤون المواطنين، وحلِّ مشاكلهم وشكاواهم على الطراز القديم. وهذا الشخص في الواقع هو الحاكم الفعلي لمدينة الكويت لأنه يلي الحاكم في المرتبة. على أنه قد ابتدأت تبرز خارج الكويت ضواحي وأحياء متناثرة هنا وهناك، وعلى أبعاد متفاوتة عُمِّرت حديثاً، كما يبدو، بطريقة بدائية غير منتظمة من حيث تخطيط الشوارع، وتنظيم البناء، وما إلى ذلك. يسكن هذه القرى والضواحي مجموعات من المواطنين الكويتيين، ومثلهم أو أكثر منهم من الوافدين على أرض الكويت من مختلف البلاد العربية، وبالدرجة الأولى من مواطني المملكة العربية السعودية.

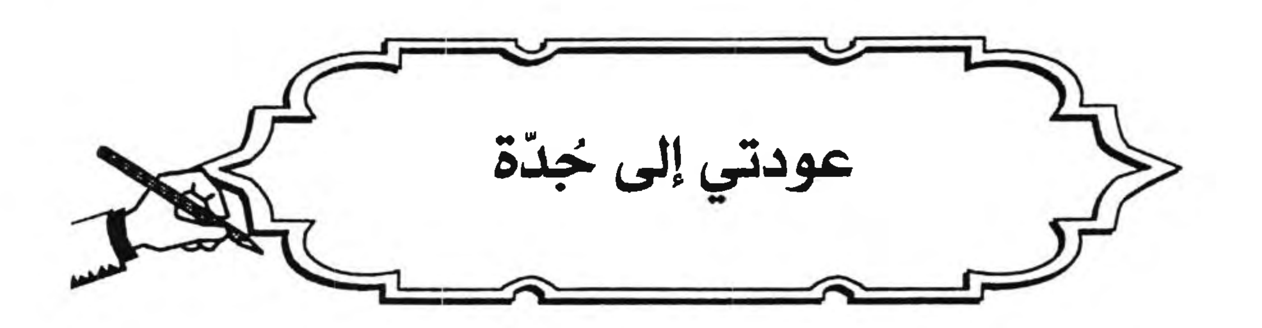
نشاط الحركة التجارية في الكويت:

كانت الحركة التجارية آنذاك نشطة بشكل واضح، ولا غرابة في ذلك فإنَّ الكويت آنذاك كانت مستودعاً تجارياً يزوِّد المملكة، وكثيراً من البلاد العربية بمختلف أصناف البضائع، نظراً لانخفاض أقيام هذه البضائع عن مثيلاتها في البلاد العربية كالسعودية والأردن والعراق، لانخفاض نسبة الرسوم الجمركية التي تستوفيها حكومة الكويت على هذه البضائع، فهي لا تتجاوز ٤٪ (أربعة في المائة) بينما تكون الرسوم على هذه السلعة في الدول المجاورة للكويت، ومنها الدول العربية التي ذكرت قد لا تقلّ عن ٣٠٪ (ثلاثين في المائة)، أو أقل من ذلك أو أكثر، مما جعل حركة الاستيراد من الكويت إلى الدول العربية حركة نشطة متميزة، استفاد منها الكويتيون آنذاك أيما استفادة.

شعب الكويت:

وشعب الكويت بمجموعه شعب طيِّب، محتفظ بقِيمه وأخلاقه وعاداته العربية، بشكل يجعل الزائر له لا يحسُّ بأيِّ فارق بين هذا الشعب وبين إخوانه شعب الجزيرة العربية.





عودتي إلى جُدّة

وصلتُ جدة في اليوم الثاني ـ على ما أعتقد ـ من شهر محرم ١٣٧٩هـ، وفي اليوم التالي باشرتُ عملي في مكتب التفتيش في مبنى المديرية العامة للجمارك في الميناء الجديد، وهو العمل الذي كنتُ أزاوله قبل تكليفي بالسفر إلى طريف، كما شرحت.

لقائي بالأخ مدني بن حمد:

التقيتُ بالأخ مدني في اليوم الثاني لمباشرة عملي، في مكتبه الذي يقع في الطابق الثاني مسلِّماً عليه، ومهنئاً له بسلامة وصوله، ومُشعراً إياه بأني قد باشرتُ عملي منذ يوم أمس في مكتب التفتيش ضمن زملائي المفتشين الآخرين، الذين ينتشرون في مستودعات الجمرك للعمل مع الموظفين المختصِّين بإجراءات ترسيم البضائع.

قضية السجاد:

تبادلنا عبارت المجاملة المعتادة، دون أن يسأل أيٌ منا الآخر عما تمَّ في موضوع (الحفر)، أو عن عدم حضور الزميل مدني إلى (الحفر). وكانت قضية الزل العائدة للتاجر الهديَّان في الرياض، وسبق أن شرحت موضوعها مفصَّلاً فيما سبق من هذا الحديث، قد انتهت مرحلتها الأولى في جمرك (طريف)، بأن وُضعت المعاملة بأكملها بالتأمين، وبعثت كامل أوراق المعاملة إلى المديرية العامة للجمارك، لِتبتَّ في موضوعها بواسطة اللجنة

الجمركية لديها، مضافاً إلى اللجنة الخبيرَيْن الجُمركيَين: حلمي حبنينة وإبراهيم دسوقي، وهما مصريا الجنسية، كانا يعملان بالجمارك في مصر قبل إحالتهما على التقاعد، الذي أعقبه حضورهما إلى جدة، مستقدمين من قِبل مصلحة الجمارك للعمل لديها.

مصير المعاملة:

كان في تقديري أنَّ هذه المعاملة قد دُرست ونُوقِشت، وبُتَّ في موضوعها؛ لأنه قد مضىٰ على وصولها من (طريف) إلى المديرية أكثر من شهرين. وحينما استفسرتُ من أحد مسؤولي اللجنة المركزية عن مصير هذه المعاملة وما تمَّ بشأنها، علمتُ أنها أُرسلت إلى الرياض برفقة الخبير الجمركي حلمي حبنينة، للتحقيق مع التاجر (الهديَّان) ومناقشته عن تقديمه للفواتير المزوَّرة كمستندات صحيحة للبضاعة.

وهنا لا بدَّ من إيضاح نقطة مهمة، تتعلَّق بسَير هذه القضية وملابساتها، ذلك أنَّ المدير العام للجمارك الشيخ محمد نور رحيمي كان آنذاك يعمل في وزارة المالية في الرياض، وكيلاً للوزارة، التي كان يرأسُها معالي الشيخ عبدالله بن عدوان رحمة الله عليه، وكان آنذاك وزير المالية والاقتصاد الوطني. وكان الشيخ محمد نور بعيداً عن مركز عمله في جدة، وكان مساعداه الصديقين عثمان ناظر وطه ظليمي، يتوليان أعمال الجمارك في جدة نيابةً عنه.

إرسال المعاملة إلى الرياض:

دُهِشتُ عندما علمتُ من أحد أعضاء اللجنة الجمركية أنَّ المعاملة برمَّتها أُرسلت إلى الرياض برفقة الخبير الجمركي حلمي حبنينة بزعم أن يحقق مع التاجر في الرياض.

استيضاح وزارة المالية من مدير عام الجمارك عن مضمون برقيتي:

ودُهشتُ أكثر فأكثر عندما اطَّلعتُ، من قسم التحرير في المديرية العامة للجمارك، عن المخابرة التي دارتْ بين المدير العام للجمارك وبين

وزارة المالية والاقتصاد الوطني في الرياض، فقد اتضحَ أنَّ وزارة المالية، بناءً على الصورة المُعطاة لها من برقيتي التي وجهتُها للمدير العام للجمارك، حينما كنتُ في (طريف) عن موضوع قضية الزل، وضَمَّنتُها تشكيل هيئة يشترك فيها مندوب عن وزارة المالية للشخوص في الحال إلى جمرك (طريف) للتحقيق في القضية، حينما تلقَّت صورة برقيتي تلك الموجَّهة لمدير عام الجمارك أبرقت لمدير عام الجمارك تستوضح عن مضمون تلك البرقية. وهذه البرقية كانت مُجملة لم تحتوِ أيَّ إيضاح على تفصيلات القضية، وإنما ركَّزت على أنَّ هناك تلاعباً في حقوق الخزينة وقع في إدارة جمرك (طريف) ويستلزم الأمر سرعة التحقيق فيه.

جواب مدير عام الجمارك على طلب وزارة المالية:

دُهشت أكثر فأكثر حينما اطَّلعتُ على جواب مدير عام الجمارك على طلب وزارة المالية، لقد ذُكر في هذا الجواب أنَّ جوهر القضية هو أنَّ هناك محاولة إخراج بضائع من إدارة الجمرك دون أن تستوفى عليها الرسوم المُستحقة، وأنَّ مدير الجمارك (وهذا هو الأخطر في الموضوع) هو الذي اكتشفَ هذه المحاولة، وأوقفها قبل خروجها من إدارة الجمرك.

تلبيس وغش ومغالطة:

وهذا الجواب فيه تلبيس وغِش، وقلب للحقائق، لا أعرف كيف جَرؤ مُحرِّر ذلك الجواب على ارتكابه في معاملة رسمية، ذات وضع حاد، فهذا يعني بكل بساطة أنَّ المفتش الجمركي إبراهيم الحسون لا علاقة له بالموضوع، وأنَّ برقيته كانت مُجرد تهويش وإثارة.

لقد امتعضتُ كثيراً، وأسفتُ أكثر حينما تكشَّفت لي هذه الحقيقة، وتيقنتُ أنَّ هناك محاولة مكشوفة، الغرض منها قلب الحقيقة رأساً على عَقِب، ومُغالطة في الواقع هي أشبه بالسذاجة الصبيانية.

مذكرة رسمية إلى مدير عام الجمارك:

كان الإجراء الذي اتخذته، بعد أن اكتشفتُ هذه المغالطة المكشوفة،

أن تجاهلت موضوعها كُلياً، وكأنني لم أعلم، ولم اطَّلع على ما تَمَّ في القضية، فبعد وصولها للجنة الجمركية في جدة مرسلةً من جمرك (طريف) وهذا تمَّ قبل مغادرتي لجمرك (طريف)، كان الإجراء أن وَجَّهتُ مذكرةً رسميةً باسم مدير عام الجمارك أطلبُ فيها الإفادة عمَّا تمَّ في شأن هذه القضية، وعمَّا إذا كانت دُرست من قِبل اللجنة الجمركية، وأصدر عليها القرار اللازم، كما هو المُتبَع في مثيلاتها في هذه القضايا.

مضت مدة لا تقلُّ عن أسبوعين دون أن أتلقى أية إجابة على مذكرتي، وهنا أردفتها بمذكرة أخرى تعقيباً على مذكرتي السابقة، مُلحَّاً على ضرورة إجابتي على استفساري عن القضيَّة؛ لأنني طرف رئيس فيها، من حقي أن أعلم ما تمَّ بشأنها.

الذهاب لوزارة المالية:

خلال هذه الفترة التي وجَّهتُ فيها مذكراتي تلك، فُوجئتُ برسولٍ يدعوني إلى وزارة المالية، في مقرِّها الكائن في مباني شركة (كوفنكو)، على طريق المطار القديم في جدة. لم أكن أعلم أي سبب لطلب حضوري للوزارة، ولذلك فقد آثرتُ أن يكون ذهابي إليها في صباح اليوم التالي.

استقبال وترحيب:

بوصولي لمكتب الوزارة في صباح اليوم التالي وجدتُ الصديق الشيخ محمد نور رحيمي، مدير عام الجمارك المُنتدب وكيلاً عاماً لوزارة المالية والاقتصاد الوطني، يستقبلني في مكتب الوزير، بوصفه وكيلاً للوزارة، رحَّب بي الرجل أكرم ترحيب، وأجلسني على كرسي مُلاصق لكرسيه. كان المكتب غاصَّاً بمستشاري الوزارة ورؤساء أقسامها، وكثير من عِلية القوم في جدة.

ترشيحي لمنصب رئيس مال وأمين جمارك الحدود في (قرية):

انصرف إليَّ بكليته يجاذبني أطراف الحديث، مُعرضاً عن جميع المراجعين والواقفين، ثم همس في أذني قائلاً: أمرني معالي الوزير بأن

أُبلغكَ عن ترشيحه لك لمنصب رئيس مال وأمين جمارك الحدود في (قرية)، وأن آخذ منك الموافقة على ذلك. فطلبتُ منه أن يكتب لي ذلك على ورقة صغيرة ويوقِّعها، لكي أطمئن إلى جديّة الموضوع، ففعل ذلك على ورقة صغيرة، وقدَّمها إليَّ، فوضعتها في جيبي.

اعتذاري عن قبول هذا المنصب:

نهضتُ واقفاً قائلاً له على مَسمع من الجميع: إني أشكر معالي الوزير على ثقته الكريمة، وأشكرك أيضاً على تلطُّفك معي، بَيْدَ أني أُعلمك من الآن أني غير مستعد لقبول هذا المَنْصِب بالذات، وغداً سأقدِّم لسعادتك مذكرة رسمية توضح أسباب هذا الرفض ومبرِّراته، ثم صافحته مغادراً المكان دون أن أترك له فرصة للمناقشة والحوار.

وهنا أُحبُّ أن أوضح أنّ المَنْصِب الذي عرضه عليَّ هو رئيس مال وأمين جمارك الحدود في (قرية)، كنت أشغله سابقاً مساعداً للشيخ يوسف خلاوي، وذلك حتى نهاية عام ١٣٦٩هـ، فقد مكثتُ في تلك المنطقة قرابة أربعة عشر عاماً، وما كدت أصدِّق أنني تخلَّصت منه. ورغم محاولة الوزارة معي في مُستهل عام السبعين هجري أن أعود إليها مرةً أخرى، ولكني رفضتُ مفضِّلاً أن أعمل بجمرك جدة براتب أقل من راتبي في مالية (قرية) بما لا يقل عن مائتي ريال.

غادرتُ مكتب الوزارة ومعي ورقة الترشيح الصغيرة تحمل توقيع الشيخ محمد نور باعتباره وكيل الوزارة.

لقاءات في أبحر مع وزير المالية الشيخ ابن عدوان:

كان سكني في جدة يقع خارج باب مكة على بعد أمتار محدودة من الخط العام المُتَّجه إلى مكة. وكان من عادة المرحوم معالي الشيخ عبدالله بن عدوان وزير المالية والاقتصاد الوطني آنذاك، وكان سكنه في جدة في ڤيلا مجاورة لقصر خزام في الجنوب الشرقي من جدة، كان من عادته أن يخرج بمفرده مع سائقه الخاص في مساء كل يوم، وعند مروره على مَقربة من

موضع سكني، كان السائق يتوقَّف ويضرب مُنبِّه السيارة بصوتٍ عالٍ متقطِّع. وعندما أسمعه أسرعُ إليه حيث وقفتْ سيارته، فأركبُ خلفه، ثم تُواصِل السيارة سَيرها إلى منطقة أبحر شمال جدة، حيث نفترش سجادة على الأرض على مقرُبة من ساحل البحر الصافي، نتجاذب أطراف الحديث حتى تَحين صلاة المغرب، حيث يؤمُّنا معاليه (أنا والسائق) لصلاة المَغرب، ثم نكرُّ راجعين إلى جدة، فأغادر السيارة إلى منزلي حينما نُحاذيه، بينما يواصلُ سيره إلى موضع سكنه.

علاقتي بمعالي وزير المالية والاقتصاد الوطني:

ولعلَّ قارىء هذه السطور يتساءل باستغراب ما علاقة إبراهيم محمد الحسون الموظف العادي بمعالي وزير الدولة للشؤون المالية والاقتصاد الوطني، طالما أنه لم تكن هناك صلة قُربىٰ تجمع بين الاثنين أو صلة مادية كتجارة أو نحوها، علماً بأنَّ إبراهيم الحسون هذا هو أبعدُ ما يكون عن الثراء، وعلماً بأنَّ معالي الوزير عبدالله بن عدوان هو من أنظف رجال الدولة السعودية يداً وضميراً وقلباً.

أول لقاء تمَّ بيني وبين الشيخ عبدالله بن عدوان:

وجواباً لتساؤل هذا القارىء أُجيب: بأن صِلتي بمعالي الوزير عبدالله بن عدوان - ترجع إلى عام ١٣٦٠هـ، عندما كنت آنذاك مديراً لجمرك أم (رضمة) على الحدود الشمالية السعودية. وقد سبق لي أن شرحتُ ذلك في ما سبق من هذه الخواطر.

عالم المجد والشهرة:

هذه الفترة كانت لبنة الأساس الأولى في معرفتي وصداقتي لهذا الرجل الذي كانت الرسائل بيني وبينه تكاد تكون متواصلة كل شهر تقريباً، كنت أتتبَّع أخبار خطواته إلى عالم المجد والشهرة رغم أنه رجل حَيِي متواضع، أكرهُ ما يكره الظهور والبهرجة، ولكنه يحمل إلى جانب ذلك نفساً طموحةً تتطلَّع إلى معالي الأمور.

ومن الواضح أنَّ هذه الثقة المتميِّزة التي كان يحظىٰ بها عند جلالة الملك عبدالعزيز، قد سهَّلت له الصعود بخطوات سريعة إلى المناصب العُليا في دنيا المسؤولية. تمثَّلت في تعيينه رئيساً لديوان المراقبة العامة في الرياض، ثم اختياره رئيساً أو مُشرفاً لكثير من المنشآت الأهلية أو اللجان أو الهيئات الحكومية، ثم استمرَّ نجمه في الصعود، إلى أن تولَّى منصب وزير الدولة للشؤون المالية والاقتصاد الوطني.

عفة ونزاهة وورع وتقوى:

ولعلَّ اختياره بعد اعتزاله مَنصِب وزير المالية والاقتصاد الوطني، من قِبَل جلالة الملك فيصل رحمه الله، ومن إخوانه أعضاء الأسرة المالكة، ومن ورثة جلالة الملك سعود طيَّب الله ثراه، ليتولَّىٰ حصر تَركة الملك سعود وتوزيعها على ورثته، دون المئات من المشايخ والفقهاء وأعضاء الأسرة المالكة: دليلٌ ساطع على قيمة هذا الرجل، وعلى ما تحلّىٰ به من عفة ونزاهة وورع وتقوىٰ، تغمَّده الله برحمته وأسكنه فسيح جناته.

مع ابن عدوان على ساحل البحر:

أعود إلى موضوعي مع الشيخ عبدالله بن عدوان، ففي اليوم الذي تمَّ فيه لقائي مع الشيخ محمد نور الرحيمي وكيل الوزارة آنذاك، وما جرىٰ بيني وبينه من حوار في مساء ذلك اليوم نفسه، مرَّ الشيخ عبدالله بن عدوان عصر ذلك اليوم كعادته وضغط سائقه على مُنبه السيارة، لتُطلق الصوت المعتاد الذي كنت أبادر بالنزول من بيتي حالما أسمعه مُتجهاً إلى سيارته.

كان كالعادة ليس في السيارة غيره ـ باستثناء السائق ـ وكالمعتاد ابتعدنا عن جدة إلى الشمال بنحو ٢٠ كيلومتراً تقريباً، فوصلنا المكان الذي نرتاده يومياً على ساحل البحر، وأدّينا صلاة المَغرب كالمعتاد، ثم عُدنا راجعين إلى جدة.

الوظيفة التي رشَّحني لها معالي الوزير ابن عدوان:

خلال الطريق سألني رحمة الله عليه قائلاً: هل حضرت إلى الوزارة

اليوم؟ وهل قابلت فيها الشيخ محمد نور وكيل الوزارة؟ قلت: نعم. عقَّب قائلاً: هل أعطيتهُ الموافقة على الوظيفة التي رشَّحنَاك لها؟ قلت له: لا. أجاب: ولِمَ الرفض؟ قلت: رفضتُ مَنْصِباً سبق أن رفضته بعد أن شغلته قرابة أربعة عشر عاماً. قال: أيُّ مَنصِب؟ قلت: إنه عُرِضَ عليَّ مَنصِب رئيس مال وأمين جمارك الحدود بقرية. وهنا اندهش وقال: رئيس مال وأمين جمارك الحدود بقرية؟! قال: هذا غير صحيح؛ لأنَّ المَنْصِب الذي طلبتُ منه أن يُبلغكَ إيّاه ويأخذ موافقتك عليه هو مَنصب رئيس مال وأمين جمارك الحدود الشماليةِ بعرعر، وقد يكون الشيخ محمد نور قد التبس عليه الأمر. وهنا ودون أن أُجيبه أبرزتُ له الورقة الصغيرة التي كانت في جيبي وتحته توقيع الشيخ محمد نور، قرأها مُبتسماً، ثم أعادها إليَّ دون أن يعلِّق بكلمة.

تناول طعام العشاء في دار ابن عدوان:

عند وصولنا إلى حيث كنتُ أنزل إلى مَسكني يومياً، طلب مني البقاء معه موضِّحاً لي أن نتناول العَشاء معاً في داره هذه الليلة.

لم يكن ثمة مانع، لذا واصلنا السير، وفي حديقة ڤيلته الواسعة تناولنا طعام العَشاء، نتحدث بشتئ المواضيع من أدبية وتاريخية وشؤون عامة. ثم أعقبَ ذلك أن طلب أوراقاً رسمية من مكتبه في الڤيلا، فقدَّمها إليَّ طالباً مني أن أكتب ما يُمليه عليَّ، وكان نص ما أَملاه عليَّ هو كالآتي:

خطاب إلى وكيل وزارة المالية والاقتصاد الوطني:

إلى سعادة وكيل وزارة المالية والاقتصاد الوطني الشيخ محمد نور رحيمي، بعد التحية: أوضِّح لسعادتكم بأنه بناءً على مُقابلتي مساء هذا اليوم لمعالي وزير الدولة للشؤون المالية والاقتصاد الوطني، فقد وافقتُ على المنصب الذي عَرَضه عليَّ وهو (منصب رئيس مال وأمين جمارك الحدود الشمالية بعرعر) لذلك أرجو اتخاذ ما يلزم من إجراء لتسهيل سفري لمباشرة عملي في منصبي الجديد... والله يحفظكم.

هذا نصُّ ما أَملاه معاليهِ عليَّ.

دهشته عن موضوع برقيتي من جمرك (طريف):

بعد إملائه عليَّ نص الخطاب الذي ذكرته آنفاً، وجهتُ إليه سؤالاً بقولي: لماذا لم تُرسل وزارة المالية مندوباً عنها ليشترك مع اللجنة الجمركية التي طلبتُ تشكيلها وإرسالها فوراً إلى جمرك (طريف) حسب برقيتي التي وجَّهتها من جمرك (طريف) باسم مدير عام الجمارك وصورة منها لمقام الوزارة؟

دُهِشَ لهذا السؤال، وتساءل: أيّ برقية تعني؟ وهنا أوضحتُ له مُفصلاً شرح قضية الزل التي كنتُ حجزتها في جمرك (طريف) في منتصف شهر ذي القعدة من العام الماضي ١٣٧٨هـ، والعائد للتاجر الهديَّان في الرياض. وقد فهمتُ منه أنَّ صورة هذه البرقية لم تُعرض عليه ولم يعلم عنها إطلاقاً، وتعجَّب من ذلك، مُظهراً التبرُّم من هذا الإجراء من مسؤولي الوزارة، وبأنه لن يغفر للمسؤولين هذه الغلطة.

بَيْد أني أحببتُ أن أُلطِّف الموضوع قائلاً: يبدو أنَّ وكيل الوزارة قد رأى الاكتفاء بالمندوبَين اللذين كلَّفَتْهما مصلحة الجمارك، وهما مفتش عام الجمارك الأخ مدني بن حمد، ورئيس مال وأمين جمارك الحدود الشمالية آنذاك الزميل علي زارع، وأنَّ وكيل الوزارة قد رأىٰ أن لا يشغَل معاليكم في موضع يتعلَّق بالجمارك. ولم يعقِّب معاليه بكلمة على ما شرحت.

تقديم المذكرة لوكيل الوزارة:

في صبيحة اليوم التالي ذهبتُ إلى مقر الوزارة في جدة مقدِّماً نصَّ المذكرة، التي أملاها عليَّ معاليه، لِسعادة وكيل الوزارة الشيخ محمد نور رحيمي (مدير عام الجمارك) وكان قد حضر لتوِّه إلى مكتبه، وأعلمته بأنني مُغادر غداً بمشيئة الله بطريق الجو إلى (عرعر)، وعلى الوزارة أن تبلغ رئيس مال وأمين جمارك الحدود الشمالية الأخ علي زارع بالأمر، وتكليفه بإجراءات الدور والتسليم.





إبراهيم الحسون رئيس مال وأمين جمارك الحدود الشمالية

وصولي إلى (عرعر):

وصلتُ عرعر ظهر يوم ١٦ محرم ١٣٧٩هـ بطريق الجو، ونزلتُ ضيفاً على صديقي وزميلي الشيخ علي زارع رئيس مال وأمين جمارك الحدود الشمالية.

مع الصديق علي زارع:

ومعلومٌ أنَّ الشيخ علي زارع ـ رحمة الله عليه ـ كان زميلاً لي في التفتيش الجمركي في جدة، كُنَّا نعمل معاً في إدارة التفتيش قبل أن يُنقل إلى عرعر في أواخر عام ١٣٧٦هـ لمَنْصِب رئيس مال وأمين جمارك الحدود الشمالية.

رحَّب بي رحمه الله أيَّما ترحيب، وبالغ في الحفاوة بي وإكرامي تمشيّاً مع خُلقِهِ الرَّضي، وتواضعه الجمّ، وكرمه المعروف. وقد فهمتُ منه أنه قد تلقىٰ لتوِّه برقيةً من مقام وزارة المالية تنبؤه بسفري جواً إلى (عرعر)، وبالمهمة التي كُلِّفت بها.

كان وصولي (عرعر) حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر، وكانت الطائرة التي تؤمِّن رحلات عرعر ـ جدة من نوع (داكوتا)، كانت تُقلع من جدة

حوالي الساعة السابعة صباحاً، ثم تمرُّ بمطار المدينة، فمطار الوجه، فمطار تبوك، فمطار الجوف، وأخيراً مطار (عرعر).

السلام على الأمير عبدالله بن عبدالعزيز بن مساعد:

كان أول عمل قمتُ به بعد الاستراحة، وبعد أداء صلاة العصر، أن ذهبتُ برفقة مُضيفي الشيخ علي زارع إلى مقر إمارة الحدود الشمالية للسلام على صاحب السُموّ الأمير عبدالله بن عبدالعزيز بن مساعد للتعرُّف إليه وإشعاره عن مهمتي، التي قدمتُ من أجلها.

أول لقاء بيني وبين أمير (عرعر):

كان هذا أول لقاءٍ يتمُّ بيني وبين سموِّه، فلم يسبق لي أن وصلتُ (عرعر)، غير أنه يعلم بدون شك عن طريق أمير طريف آنذاك المرحوم نجر بن صقر عن قضية الزل بجمرك طريف وملابساتها وكامل تفاصيلها.

رحَّب بي سموُّه ترحيباً حاراً، ودعاني والزميل علي زارع لتناول طعام العَشاء تلك الليلة على مائدة سمُّوه، مُبدياً لي بأنني سأجد من سموُّه كل عون ومساعدة في مهمتي الجديدة، مُثنياً في الوقت نفسه على الزميل علي زارع، وعلى ما يتحلَّى به من حُسن إدارة، وحكمة تصرُّف، وإخلاص في العمل.

رؤساء الدوائر الرئيسيين في (عرعر):

وعن رؤساء الدوائر آنذاك في عرعر الرئيسيين بالنسبة للإمارة، فقد كان سموُّ الأمير عبدالله هو قمة الهرم فيها، يليه الصديق حمود الشبيب نائباً لِسموِّه في حالة غيابه، ثم المرحوم حمدي أمان، وهو أحد أبناء مدينة غزة، وكان يَشْغَلُ رئاسة ديوان الإمارة، والمرحوم محمد بن إبراهيم بن الصغير سكرتيراً لسموّ الأمير.

أما بالنسبة لبلدية (عرعر) فقد كان يرأسها آنذاك المرحوم فهد العبدالرحمن الشامخ، أحد مواطني مدينة عنيزة، يساعده أحمد عبدالرحيم

المهندس الوحيد في البلدية، وهو من أبناء فلسطين.

أمّا الشرطة فكان يرأسها المرحوم رشيد الصالح، أما إدارة الجوازات فيرأسها المرحوم بكر مِذْهِر، وهو من مواليد مكة المنحدرين من أصل هندي، أما المحكمة فكان يرأسها الشيخ الوقور عبدالرحمن الخيال، أما إدارة التعليم فكان يرأسها المرحوم أبو بكر، الذي لا أذكر بقية أسمه الآن وهو أحد أبناء فلسطين الثوّار الذين لجؤوا إلى المملكة بعد نكبة فلسطين.

مدينة (عرعر):

كانت مدينة (عرعر) حين وصولي إليها تتكون من شارع رئيس، يمتدُّ من الشرق إلى الغرب تتفرَّع منه وتتقاطع معه عدة شوارع ـ كان تخطيط المدينة جميلاً مُنسَّقاً أُنشِيء علىٰ أحدث طِراز، فكان شارعها الرئيس أربعين متراً تقريباً، بينما شوارعها الفرعية ما بين ثلاثين إلى عشرين متراً عرضاً، كان تخطيطها على هيئة مربعات، فلا يوجد أي نتوء أو بروز في أي شارع من هذه الشوارع جميعها، كانت بيوتها من الطين واللبن، ذات طابق واحد، إذا استثنينا قصر الإمارة، وحيّ العمال، ودار الحكومة، ومساكن كبار الموظفين، والشرطة، والمالية، فهذه بُنيت بالأسمنت المُسلَّح، وتمَّ بناؤها بواسطة شركة التابلاين، كما بنيت إدارة البلدية التي كانت حديثة العهد أيضاً بالأسمنت المسلَّح.

سكان مدينة (عرعر):

كان سكان المدينة في تقديري لا يزيد عددهم عن خمس عشر ألف نسمة تقريباً، وسكانها خليطٌ من مختلف المدن داخل المملكة، ومن سكان المنطقة الأصليين، وأعني بهم الرولة والحوازم.

حركة التجارة:

كانت حركة التجارة فيها نشطة متميِّزة، لأنَّ المدينة تقع على مَقْرُبة من الحدود العراقية، وعلى الخط العام الذي يتَّجه إلى الأردن، وَمَردُّ نمو

الحركة التجارية كما أشرتُ يعود إلى أنَّ البضائع في متاجر هذه المدينة، وخاصةً الأجهزة الكهربائية كالغسالات والثلاجات والراديوات وغيرها من أدوات الكهرباء، تقلُّ أثمانها عن مثيلاتها في الأردن، أو في العراق، لأنَّ حرية الاستيراد والتصدير في المملكة مُباحة، وكذا فئات الرسوم مُخفضة عكس ما هو واقع في الدول المجاورة.

كانت المتاجر والدكاكين تنتشر على جانبي الشارع العام، وفي بعض الشوارع الفرعية الأخرىٰ، وكانت المعروضات، تتألف في الغالب، من الأجهزة الكهربائية والمواد الغذائية، وأنواع البضائع التي تختصُّ بالبادية أكثر من غيرهم.

الإخوة العراقيون في مدينة (عرعر):

كانت هناك نسبة من هذه الدكاكين لا تقل عن ٢٥٪، يملكها مواطنون عراقيون، يزاولون فيها حركتي البيع والشراء كإخوانهم السعوديين سواءً بسواء، دونما فارق أو تمييز، وكانت موجودات متاجرهم مما يستوردونه من داخل المملكة، وبعض منها ـ وهو الأكثر والأهم ـ ما يجلبون من موطنهم العراق، ويتمثَّل بالدرجة الأولى في المواد الغذائية: كالتمور والطحين والشعير وما إلى ذلك.

ولعلَّ من المفيد أن نوضح أسباب تواجد هذه الفئة من إخواننا العراقيين في مدينة عرعر، واندماجهم مع سكانها وكأنهم مواطنون سعوديون يتمتَّعون بكامل الحرية في الانتقال إلى عواصم المدن في المملكة: كالدمام والرياض والخبر وجدة ومكة للتسوُّق والإتجار دون أن يصادفوا أيَّ عائق.

هذا الوضع المتميِّز لهؤلاء المواطنين العراقيين في هذه المدينة، هو ثمرة كريمة لمكرمة جلالة الملك عبدالعزيز طيَّب الله ثراه، فقد سبق لجلالته أن أصدرَ أمره الكريم في حوالي العام ١٣٦٦هـ بأن يُمنح العراقيون الذين على أرض المملكة، ويتَّجرون مع باديتها، الحرية التامة في الإقامة في أيِّ مكان يختارونه مع إعفائهم من أيِّ ضرائب أو إجراءات، ودون أن يطالبوا

بتقديم وثائق كالجوازات مثلاً تُثبتُ هوياتهم. وهؤلاء العراقيون في عام ١٣٦٦هـ كانوا يقيمون في منطقة لينة والدوير، ينصبون خياماً لتجارتهم من المواد الغذائية التي كانوا يجلبونها من العراق ويصرّفونها على أفراد البادية السعودية، مما يوفِّر على هذه البادية مشقة السفر إلى العراق من جهة، ويوفِّر لهم انخفاض سعر تلك المواد من جهة أخرىٰ.

نشأة الحدود الشمالية:

كان ذلك قبل أن يتمَّ مَدُّ خط التابلاين الذي بُدىء في مدِّه آنذاك، واستمرَّ حتى مستهلِّ عام ١٣٦٩هـ، حيث وصل إلى ميناء الزهراني في بيروت، مروراً بالأردن وسوريا ولبنان، وابتدأ يضخُّ البترول إلى البواخر. وخلال هذه الفترة نشأت الحدود الشمالية، وبُدِأ بإنشاء المدن على هذا الخط، كمدينة رفحاء والعويقيلة وعرعر وطريف، ثم انتقل هؤلاء العراقيون من أماكنهم في البَر إلى المدن التي أنشئت على الخط، وفي مقدمتها رفحاء وعرعر وطريف.

البدء بإنشاء مدينة (عرعر):

علماً بأنَّ مدينة (عرعر) قد بُدِىء في إنشائها عام ١٣٦٩هـ، وكان الفريق سليمان الجارد ـ أمدَّ الله في حياته ـ فيها مع الجنود الذين كانوا سابقاً قد بُعثوا لإرسالهم إلى فلسطين. كان سليمان الجارد هذا هو الذي خطط المدينة، أي مَنح الأراضي لِمَن أراد أن يتملَّك.

وضع مخطط المدينة:

أما وَضع مخطط المدينة، وهو من أحدث مخططات المدن العصرية، فكانت قد تولته شركة التابلاين ـ كان سليمان الجارد هذا يمنح أي مواطن يتقدَّم بطلب أراض أي مساحة يطلبها، ويُمنح ورقة صغيرة إثباتاً لهذا التملُّك، حتى إننا نجد بعضهم قد تملَّك مربعاً كاملاً، مثل المرحوم عبدالعزيز البعيجاني، وغيره.

أمير عرعر محمد بن أحمد السديري (محافظ الخط):

كان أمير عرعر آنذاك يُعرف باسم مُحافظ الخط، وهو المرحوم الأمير: محمد بن أحمد السديري، وكان يقيم هو ومَن برفقته من الخويا، والموظفين على مقربة من مدينة (عرعر) الحالية في خيام - حتى تمَّ بناء المساكن لهم.

مراكز شركة التابلاين:

كانت شركة التابلاين، وهي على ما يبدو وثيقة الصلة بشركة أرامكو الأم، تُعرف آنذاك باسم (كاسوك)، كانت هذه الشركة قد أنشأت لها مراكز على هذا الخط، يحتوي كل مركز على مجموعة من الصهاريج الضخمة لتخزين البترول، وعلى مجموعة من المكائن لدفع البترول عبر الأنبوب، كانت تبدأ من النعيرية في الشرق، فالقيصومة، فشعبة نصاب، فرفحاء، فالعويقيلة، فعرعر، فحزم الجلاميد، فطريف، ثم يمتدُّ الخط داخل الحدود الأردنية.

المركز الرئيس (الكامب):

كانت هذه المراكز تختلف بالأهمية، وكان أهمها مركز عرعر، وهو المركز الرئيسي، ويُعرف (بالكامب)، وهو عبارة عن مدينة مصغَّرة، داخلها موظفو الشركة من مهندسين وفنيين وعمال وأطباء، أُمِّنت لهم مساكن داخل هذا الكامب وَفقاً لدرجات عملهم.

كما يشتمل هذا الكامب على مستشفى كامل التجهيز بأحدث الوسائل، يتولَّى العمل فيه مجموعة من الأطباء لا يقل عددهم عن عشرة، مع الممرضين والممرضات، يقوم هذا المستشفى بمعالجة مواطني مدينة عرعر، بالإضافة إلى موظفي الشركة؛ كما كان يستقبل المرضىٰ من المواطنين، ويقوم بإجراء العمليات على مختلف أنواعها، ويحتوي على أَسِرَّة لجميع المرضىٰ، الذين تسلتزم أوضاعهم الصحيَّة البقاء تحت العلاج والمراقبة ريثما يتمُّ شفاؤهم، سواء منهم من أُجريت له عملية جراحية أو اقتضىٰ الفحص البقاء في المستشفىٰ تحت المراقبة.

كانت تُصرَف لهم الإعاشة والمعالجة مجاناً، وفي المستشفى جهاز للتمريض رجالاً ونساءً، كما كانت الأدوية تُصرف للمواطنين السعوديين الذين يفدون على المستشفى يومياً، بنسبة قد تصل إلى خمسين مريضاً، تُصرف لهم هذه الأدوية مجاناً. ومن الواضح أن نفقات هذا المستشفىٰ وتكاليفه تقتطعها شركة التابلاين من حِصة الحكومة السعودية التي تخصُّها من إيراد الخط، أنبوب الضخ، وكان يبلغ إنتاجه، حسب ما فهمت من المختصِّين في الشركة، ما لا يقلُّ عن سبعمائة وخمسين ألف برميل يومياً، ثم ضخها في السفن الراسية في ميناء الزهراني في لبنان.

الجهاز العامل في المركز الرئيس:

كان الجهاز العامل في هذا (الكامب) عند استلامي العمل مجموعة من الأمريكان، قد لا يقلُّ عددهم عن عشرة، أذكرُ منهم الرئيس مستر مارش، ومستر سماحة، وهو المسؤول عن العلاقات ما بين الشركة والدوائر الرسمية في (عرعر)، ومنهم مستر جاك وايت، وهذا بالإضافة إلى كونه مهندساً وإدارياً، كان معنياً أشدَّ العناية بمعرفة وتَتبُع الآثار التاريخية القديمة ـ كانت لي معه قصة أرىٰ أن أمانة التاريخ تفرضُ عليَّ أن أسجِّلها ضمن هذه الخواطر. . . وهي مُلخصة في الآتي:

قصتي مع الأمريكي المُهتم بالآثار:

يروي التاريخ أنَّ شمال الجزيرة بدأ بمنطقة دومة الجندل (الجوف) من الجنوب مروراً بالمناطق الشاسعة التي تنتظم هذه المناطق، ما بين عرعر، وحزم الجلاميد، وطريف، وقريات الملح، باتجاه العراق شمالاً، والبلقاء (الأردن) وفلسطين وسورياً غرباً. يروي التاريخ أنَّ هذه المنطقة الشاسعة كانت مسرحاً لحضارات متعاقبة، بالغة القِدم في أغوار التاريخ: كالكلدانيين والآشوريين والثموديين، وغيرهم من الأمم والحضارات التي سادتْ في هذه المناطق قروناً من الزمن، ثم بادت مفسحةً المجال لنشوء حضارات جديدة، حدَّثنا القرآن الكريم عن كثير من قصصها مع أنبيائها.

الحضارة الثمودية:

كان من ضمن تلك الحضارات الحضارة الثمودية التي عاصرها نبيُّ الله صالح عليه الصلاة والسلام، وكانت تمتدُّ من تيماء والحجر باتجاه الشمال عبر أراضي منطقة (عرعر). وبطبيعة الحال فإنَّ الإيغال في القِدم، وتوالي الدهور، وعوامل الطبيعة لم يترك من تلك الحضارات إلا نتفاً متناثرة هنا وهناك: كالقباب المعلَّقة في أرض العراق ونينوىٰ والموصل بالنسبة للبابليين، وكالبيوت المنحوتة في الصخر في عمق الجبال في مدائن صالح بالحجر، أو كبعض الكتابات المنقوشة على بعض الأحجار باللغة الثمودية، وتنم عن حضارة الثموديين.

كتابات منقوشة:

وكانت المنطقة التي تبعد عن مدينة عرعر باتجاه الشمال الشرقي بنحو تسعين كيلومتر تقريباً فيها بعض الكتابات المنقوشة على حجر الصوان، ويبلغ بعضها أربعة أسطر، توجد قِطَع منها متناثرة هنا وهناك مطمورة ضمن أكوام من الأحجار هي أنقاض مبانٍ قديمة جداً، تدلُّ عليها بعض الأساسات الموجودة الباقية، وقد يبلغ ارتفاع بعضها عن الأرض أكثر من عشرين سنتمتر.

جولاتي مع الأخ عبدالعزيز البعيجاني:

كان من عادتي بعد استقراري في (عرعر) أن أغتنم فرصة عطلة الجمعة من كلِّ أسبوع، فأخرج في الصباح المبكر ومعي المرحوم عبدالعزيز البعيجاني، وهو خبير في معرفة الأراضي، ومُسمَّيات الأودية والهضاب والروابي والقِمم. كنا نخرج كلَّ صباح نتجوَّل في تلك الأماكن من القِفار والسباسب فاحصَين منقِّبين، وخاصةً كلما لاحظنا أكواماً متناثرة تتمثل في مجموعة من الأحجار بعضها فوق بعض.

التنقيب عن مجموعة من أحجار الصوان المنقوشة:

وقد عثرنا خلال ذلك، وخلال أكثر من أربعة أشهر على مجموعة

من أحجار الصوان التي يحمل كل منها كتابة منقوشة على الحجر، باللغة الثمودية، قد يبلغ طول الحجر أكثر من ٦٠سم وعرضه لا يقل عن ٣٠سم، بعضها يحمل سطراً، والآخر يحمل سطرين وأكثر، والسطر الواحد قد يحتوي طولاً على ثلاثين حرفاً، والحروف في الجميع متشابهة، كنا لا نعلم أية لغة هذه المنقوشة على هذه الأحجار، ولا إلى أيِّ حضارة تنتمي.

إهداء الآثار إلى المتحف الوطني بالرياض:

كان مجموع ما استطعنا الحصول عليه نتيجةً للتنقيب هو ثلاثة عشر حجراً أحضرتها جميعاً إلى مكتبي في (عرعر)، وظلَّت باقيةً لديَّ ضمن مكتبتي حتىٰ ارتأيت مؤخراً، في عام ١٤١٦هـ أن أبعثها إلى المتحف الوطني في الرياض، فاتصلتُ بمعالي وزير المعارف الدكتور الرشيد وأبلغته عن موضوعها، وعن رغبتي في إهدائها إلى المتحف الوطني في الرياض، كما أوضحتُ لِمعاليه بأنه يوجد لديَّ بالإضافة لذلك مجموعة من الصحف العربية السعودية لا يقلُّ عمرها عن خمسين عاماً، بل أكثر من ذلك، وأنها فائضة عن حاجة مكتبتي.

وقد وصلني مندوب من معاليه برفقة خطاب شكر، ورغبة من معاليه بأن أُسلِّم الجميع للمندوب الذي أرسَلَه إليَّ خصيصاً في (عرعر)، لينقل الأحجار إلى المتحف الوطني في الرياض، وينقل الصحف إلى المكتبة العامة في (عرعر)، وقد نفَّذ ذلك بموجب دور وتسليم مع المندوب. تحتفظ مكتبتي بسند الاستلام وبكتاب معاليه.

كان من ضمن ما عثرتُ عليه أنا والمرحوم عبدالعزيز البعيجاني في تلك المنطقة، التي أشرت إليها آنفاً، وهي عبارة عن مرتفع من الأرض قد لا يقلُّ ارتفاعه عن المتر عن مستوى السطح، تبلغ مساحة سطحه ما لا يقل عن كم^{2} أو أكثر، تتناثر على سطحه مجموعات من الأحجار هي عبارة عن أنقاض مبانٍ درست، بعض أسسها لازال باقياً بعضها بجوار بعض، مما يدلُّ بدون أيِّ شك أنَّ هذه البقعة كانت عامرةً بالسكن.

حفرتان متجاورتان:

لاحظنا على الطرف الشمالي الغربي من هذا السطح حفرتين متجاورتين، يفصل إحداهما عن الأخرى نحو متر تقريباً، وطول كلٍّ منهما نحو مترين أو أكثر قليلاً، وعرضها نحو متر، هما متجاورتان ـ كما قلت ـ تتَّجهان من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي.

قبران منحوتان:

كنا لاحظنا أنَّ أرض هذا المكان قائمةً صلبةً لا يوجد عليها أيُّ طين أو تراب، بينما هاتين الحفرتين مطمورتين بالأتربة مختلطةً بالكثير من الأحجار، مما حملنا على أن نعود في الأسبوع التالي بعاملين من (عرعر)، ومعهما مجارف (كريكات) وزنابيل لنقل الأتربة، فحفرنا هاتين الحفرتين وأفرغناهما من جميع ما كان فيهما من الأتربة والأحجار، واتَّضحَ لنا بعد ذلك أنهما أقرب ما يكونان إلى قبرين منحوتين نحتاً، لأنَّ الأرض جبلية صلبة، ولأنَّ اتجاههما يشيرُ إلى بيت المقدس، الذي هو بالنسبة للمكان مدار البحث، يقع في الشمال الغربي، أما عمق كل حفرة من هاتين الحفرتين فهو نحو متر وعشرة سم تقريباً، كما أن عرضها نحو متر تقريباً.

لم نجد أي شيء في هاتين الحفرتين يدلُّنا على فك رموز وجودهما في هذا المكان، ولأيِّ غرضٍ حُفرتا، وإن كُنَّا نكاد أن نجزم بأنهما قبران.

أهمية المنطقة الأثرية:

دليل آخر على ما لهذه المنطقة من الأهمية أنه في أواخر صيف ذلك العام نَزَلَت على هذه المنطقة، التي حددت أوصافها سابقاً ـ أمطار غزيرة بشكل غير مألوف، فكان المطر يصبُّ كأفواه القُرب، ولمّا كانت المنطقة مرتفعة نسبياً عن سطح الأرض، كما شرحتُ، اندفع السَّيْل من هذا السطح بقوة على الأرض المنخفضة عنه، فنجم عن اندفاع السيل فجوة في محل انصبابه أزاحت الأتربة والطين في ذلك المكان، فكشفتْ عن مجرىً للماء

مسقوف بأحجار مبنية بمادة لزجة وكأنها أنبوبة، وهي المعروفة بقنوات المياه، هذه القناة انكشف منها نحو خمسة أمتار على وجه الأرض بفعل قوة اندفاع السيل.

كل هذه الدلائل والآثار التي ألمحتُ عنها تنمُّ على أنَّ هذه المنطقة كانت في يوم من الأيام مسرح حضارة وسكن وعمران، وهي على ما أعتقد منطقة بكر جديرة بأن يولَّى التنقيبُ عنها وكشفُ أستار غموضها كلَّ عناية واهتمام من ذوي الأمر والمعنيين بثروات حضارة الجزيرة العربية.

وكما أنني قد عثرتُ على مجموعة من الأحجار، كما ذكرت، فإنَّ كثيراً من مواطني عرعر، ومنهم الأخ عبدالله الغيث، والمرحوم عبدالله السويلم، وكثير غيرهم، لا أذكر أسماءهم، قد عثروا بدورهم على بعضٍ من أمثال هذه الأحجار، وقد وُجِدَ عند بعضهم حجرين أو أكثر، احتفظَ بها لغرابة الكتابة التي عليها دون أن يُدرك أهميتها التاريخية.

المستر جاك وايت:

كان (المستر جاك وايت) هذا (موظف التابلاين الأمريكي) معنياً بتتبُّع الآثار، وقد نمى إلى علمه أنَّ بعض مواطني مدينة (عرعر) لديهم بعض أحجارٍ تحمل أسطراً عليها كتابات ذات أحرف غير معروفة. فأخذ يتصل بهم فرداً فرداً، ويشتري منهم هذه الأحجار، حتى تكوَّن لديه منها مجموعة قد لا تقلّ عن خمسة عشر حجراً. وخلال بحثه هذا عَلِمَ من بعض الإخوان أنَّ لديَّ مجموعة من تلك الأحجار، فاتصل بي صباح ذات يوم تلفونياً على مكتبي قائلاً: أنا في طريقي إليك، وما هي إلا دقائق حتى كان عندي في مكتبي.

تصوير الكتابات الأثرية:

رحَّبتُ به وتبادلنا عبارات المُجاملة المعهودة، ثم أسرع موجِّهاً إليَّ السؤال: علمتُ أنَّ لديك بعض أحجار عليها كتابات قديمة، وأنا من هُواة تتبُّع الآثار فهل ما ذُكِر عن ذلك صحيح؟ قلت: نعم. أردفَ قائلاً: هل

تسمح لي بتصويرها؟ قلت له: أَجل على الرَّحْبِ والسَّعة. وهنا اتفقنا على حضوره إلى مسكني الساعة الخامسة من ذلك اليوم، ومعه آلة التصوير واثنين من العمال، فقاما أمامه وأمامي بغسلها بالماء وتنظيفها من الأتربة، ثم قام بتصويرها مُبدياً شكره وامتنانه، وواعداً بأنه سيسجِّل ما على هذه الأحجار جميعها من كتابات ضمن كتاب يؤلفه بالإنكليزية، يُثبت رسومها فيها، ثم يقوم بترجمتها حَجَراً حَجَراً، واعداً بأنه سيزوِّدني بنسخة من هذا المُؤَلَّف حالما يتمُّ إصداره.

إهداؤه نسخة من كتابه:

وقد وفَّى الرجل بوعده مشكوراً، وأرسل إليَّ نسخةً من ذلك المؤلَّف بعد أربع سنوات، حينما غادر (عرعر) لانتهاء عقده، مُتَّجهاً إلى بلده في تكساس بأمريكا الشمالية، ونسخة هذا المؤلَّف موجودة ضمن مكتبتي في (عرعر)، وله مني الشكر والامتنان على عنايته وعلى وفائه بالوعد.

وقد أثبتَ في مؤلَّفه هذا صوراً للأحجار التي كانت لديه اشتراها من مواطني عرعر، وصوراً للأحجار التي كانت لديَّ وأخذ لها صوراً، أثبتها بنصها مُثبتاً اسمي على صور الأحجار التي كانت لديَّ، وقد اتضحَ من الترجمة التي أجراها بأنها كتابات ثمودية، يرجع تاريخها إلى ما لا يقل عن أربعة آلاف عام، وأنَّ مضمونها لا يخرج عن عبارات متبادلة بين شخصين، عن موعد لقاء، أو عبارات تتضمَّن حكماً وتوجيهات، أو أسماء أشخاص يصفون مشاهد، أو مواضع معيَّنة على الأرض، وعلى العموم فهي لا تعطي فكرة مركَّزة عن موضوع معيَّن، بل هي أشتات ألفاظ وجمل مفهومُ ما تدلُّ عليه محدودٌ جداً.

طبيعة أرض (عرعر):

وقبل أن أُنهي حديثي عن طبوغرافية مدينة (عرعر) حينما وصلتُ إليها في أول مرة مُستهل عام ١٣٧٩هـ، لا بُدَّ لي أن أعطي القارىء لمحةً عن واقع طبيعة أرضها، فهي تقع آنذاك على الطرف الشمالي باتجاه الشمال،

والقِبلة على حافة مجرىٰ سيل وادي عرعر، وتفصل مبانيها عن حافة هذا الوادي مسافة لا تقلُّ عن مائتي متر، تنتهي بسدٍّ ترابي يبلغ ارتفاعه نحو مترين، يحيط بالبلدة من الجنوب، مبتدئاً من الجنوب الغربي باتجاه الشرق، أمّا من الجهة الشمالية، فهي مرتفعات وروابي تتخلَّلها بعض المساحات المحدودة الخالية من تلك الروابي، وعرض البلدة في تلك الأيام لا يزيد ـ فيما أعتقد ـ عن كيلومتر ونصف، أما طولها فقد يتجاوز كيلومترين، والبلدة محصورة في هذه المساحة، ما بين السدِّ الترابي من الجنوب، والتلال والروابي من الشمال، تلك كانت مساحتها في ذلك الوقت.

(عرعر) بين الأمس واليوم:

أما واقعها حين تسجيل هذه الأسطر فهي قد امتدت على مختلف الجهات الأربع بمسافات قد تبلغ خمسة كيلومترات طولاً وعرضاً، وهي في نموٌ مستمر، وقد اختفت منها مباني الطين، وحلَّ مكانها فُلل أنيقة على أحدث طراز مكتظة بالسكان، ويقال: أنهم يبلغون مائتي ألف نسمة، ولستُ متأكداً من صحة هذا الرقم.

سبب تسميتها بمدينة (عرعر):

وبالنسبة لتسميتها بمدينة (عرعر) فهي في الواقع تحمل اسمين لا اسماً واحداً، فهي تارةً تُدعى (عرعر)، وطوراً تسمى (بدنة).

وتوضيح هذا الازدواج أنَّ هناك واديان: أحدهما يُدعى (عرعر)، وهو يتجه من الجنوب الغربي متجهاً إلى الشمال الشرقي، واضعاً مدينة عرعر على يساره، كما يوجد هناك وادٍ آخر يسمىٰ (بدنة) وهو يتجه من الشرق باتجاه الجنوب الغربي، حتى يصل إلى نقطة الالتقاء أمام مدينة (عرعر)، من الجنوب، فيندمج الواديان معاً في مدخل (عرعر) ويكوِّنان مجرىً واحداً يتجه سيله إلى الشرق لكي يصبَّ في (فيضة الأديان)، داخل الحدود العراقية، مروراً بآبار المَعَانية المعروفة على تخوم الحدود السعودية العراقية، وحيث أنَّ مركز الشركة، الذي سبق لنا شرحه في مدينة (عرعر) قد أنشىء

على حافة وادي بدنة، فقد نتج عن ذلك أنَّ الشركة في مخابراتها تذكر كلمة بدنة، وسكان (عرعر) يذكرون اسم مدينتهم (عرعر) ومن هنا نتج هذا الامتزاج.

إجراءات الدور والتسليم مع الصديق علي زارع:

في حديثٍ سابقٍ كنت ذكرتُ وصولي مدينة عرعر قُبيل عصر يوم ١٦ محرم ١٣٧٩هـ، وأنني نزلت ضيفاً على الصديق علي حسين زارع في بيته، وقد تناقشنا معاً في موضوع إجراءات الدور والتسليم بيني وبينه، كما هو مُتَّبع في أمثال هذه الأحوال، واستَبان لنا أنَّ ذلك يحتاج إلى مدة لا تقلّ عن أسبوع على أقل تقدير، يُتاح للموظفين خلاله بأن يقوموا بعمليات الجَرد للصناديق والمستودعات والسِّجلات، وتنظيم المَحاضر المتعلقة بذلك.

عمليات الجرد وتنظيم المحاضر:

ولذا ارتأينا أن أباشر عملي ابتداءً من صباح اليوم الثاني من وصولي، بحيث يكون ذلك اليوم أول مسؤوليتي في العمل، وأن أكلِّف العدد الكافي من الموظفين، سواءً في جهاز الجمارك أو في جهاز المالية بأن يقوموا بعمليات الجَرد وتنظيم المَحاضر، وفعلاً تَمَّ ذلك.

جهاز إدارة رئاسة مال وأمانة جمارك الحدود الشمالية:

كان جهاز إدارة رئاسة مال وأمانة جمارك الحدود الشمالية عبارة عن جزئين منفصلين، لكلٍّ منهما رئيس مباشر وجهاز مستقل، وكلٌّ منهما مستقل عن الآخر في وظيفة عمله ونشاطه ومرجعيته في العمل.

فالقسم المالي ينحصر عمله ونشاطه في الأمور المالية وحدها، ويتلقَّى التعليمات والتوجيهات الخاصة بعمله من مقام وزارة المالية والاقتصاد الوطني.

أما القسم الآخر، وهو محاسبة الجمارك، فله رئيسه ومُوظفوه وتنحصر أعمالهم بأعمال الجمارك وحدها، ويتلقَّون التوجيهات والتعليمات من المصلحة العامة للجمارك في جدة.

جهاز التحرير:

على أنَّ هذين الجهازين يرتبط بهما جهاز مستقل هو جهاز التحرير، ويستقبل المخابرات الواردة، فيوجِّه كلٌّ منها إلى الجهةَ التي يتبعها تحت تأشيرة الرئيس بالإحالة، كما يتلقَّى هذا الجهاز المعاملات المقدَّمة من هذين القسمين، بعد توقيعها بالطبع من قبل رئيس المالية، وبعد أن يحمل كلُّ خطابٍ رقماً متسلسلاً لصادر هذا القسم، مقروناً بالحرف المميز لهذا القسم (وهو «م» بالنسبة لصادر قسم المالية، وحرف «ج» بالنسبة لصادر قسم الجمارك)، ثم يقوم رئيس التحرير بوضع الرقم العام لصادر الأمانة، مقروناً برقم التسلسل الخاص للقسم المُعيّن: فيوجِّه ما هو للوزارة للوزارة، ويوجِّه ما هو لمصلحة الجمارك لمصلحة الجمارك.

دورة تدريبية للموظفين في قواعد الإملاء وأسلوب الكتابة:

كان عدد موظفي القسم المالي لا يقلُّ عن عشرة موظفين، بينما يقارب عدد القسم الجمركي خمسة عشر موظفاً تقريباً، وقسم التحرير بما فيه كتاب الصادر والوارد وكتاب الآلة، ستة موظفين.

في اليوم الأول من استلامي العمل دُهشت لما عُرض عليَّ من مسوَّدات المعاملات التي نظِّمت من قبل الجهازين آنفي الذكر، ذلك أنَّ مستوى الخط والإملاء من الرداءة والأخطاء بما لا يُحتملَ. مما كان يضطرني إلى استدعاء الموظف الذي نظَّم المسودة لمناقشته عن أخطائه، ثَمَّ قيامي بإملائي عليه النص الواجب أن تكون عليه تلك المسوَّدة، وقد كانت أبرز الأخطاء تتمثل بالدرجة الأولى في كتابة الهمزة، أو كتابة الألف اللينة المقصورة، وبما أنَّ مثل هذا الجهد يستهلك مني وقتاً ليس باليسير، إذا علمنا أنَّ ما يصدر يومياً من مذكَّرات أو برقيات قد يتجاوز الأربعين مذكرة أو برقية. لذا فقد رأيت من الأصوب أن أقوم بتنظيم بيان خاص بكتابة الهمزة، حينما تكون في أول الكلمة، أو في وسطها، أو في آخرها: متىٰ تُكتب على واو، أو على الألف، أو على السطر، أو على النبِرة، وكيف أنَّ ذلك يتوقَّف على حركة الهمزة نفسها، وحركة ما قبلها. كما وضعت بياناً

مماثلاً للألف اللينة في الاسم أو الفعل الثلاثي، ومتىٰ تُكتب ألفاً، ومتىٰ تُكتب ياءً، سواء في الفعل كعصىٰ وسعىٰ ونما وسما، أو في الاسم كهدىٰ وجحا ونهىٰ. ثم أمرتُ بطبع هذين البيانين على عدة نُسخ، مُعطياً لكلِّ واحدٍ من الموظفين، في كِلا الجهازين، نسخةً من هذين البيانين يضعها خلف الزجاجة التي تعلو مكتبه بحيث يسترشد بها ينوي يرغب تحرير أي رسالة. مضافاً إلى ذلك أنني كنت في الأسابيع الأولى من مباشرتي العمل أطلب منهم التجمُّع في مكتبي كلَّ يوم لنصف ساعة، ثم أشرع في مناقشتهم في أسلوب الكتابة، وفي قواعد الإملاء، وفي محاولة التجديد والابتكار في تحرير الرسائل مما نتج عنه أن اختفت الأخطاء والأغلاط، وأصبح كلُّ موظف يُحسن التحرير بعبارات جميلة مُبتكرة، تتماشىٰ مع أحدث أساليب الكتابة المعاصرة.

الإدارات الجمركية التابعة لأمانة جمارك الحدود الشمالية:

وما دمت بصدد إيضاح جهاز رئاسة مال وأمانة جمارك الحدود الشمالية، فإنَّ من المفيد، أن أذكر بصورة مُختصرة الإدارات الجمركية المرتبطة بهذه الأمانة والتابعة لها:

إدارة جمرك (عرعر):

فأُولى تلك الإدارات هي إدارة جمرك عرعر، الذي يقع مكانه في الطرف الغربي لمدينة عرعر عند مدخلها. كان يرأسه الصديق (محمد عبدالله الرجراجي) الذي سُهِيَ عليَّ ذكره حينما ذكرتُ رؤساء الدوائر في مدينة عرعر فيما سبق أن شرحت.

الزميل محمد عبدالله الرجراجي:

والزميل محمد الرجراجي هذا شاب في منتصف العقد الرابع من عمره - على ما أظن - مَغربي الأصل، ينحدر من أسرة بارزة في التاريخ المَغربي، أنجبت علماء ومفكرين تُعرف بعائلة الرجراجي. وهو على جانب متميِّز من

الخُلق والسماحة وحكمة التصرف، قدِم إلى هذه البلاد منذ أكثر من عشرين عاماً، كان والده الشيخ الوقور عبدالله الرجراجي يتنقَّل باستمرار ما بين بلده في المغرب الأقصىٰ، وبين دمشق في سوريا، والمدينة المنوَّرة، ويوجد فيهما له أملاك عقارية، مما يدلُّ على أنه كان ذا يَسَارٍ وثروةٍ، زارنا في (عرعر) أكثر من مرة، وهو شيخ وقور في مطلع العقد الثامن من عمره كما أظن، تتجلَّى على ملامحه سِمات التقوىٰ والورع والرزانة.

كان موظفو جمرك (عرعر)؛ بما فيهم العمال والحراس، حوالي اثني عشر شخصاً.

إدارة جمرك العويقيلة:

أمّا الإدارة الثانية فكانت جمرك العويقيلة، الذي يبعد عن عرعر باتجاه الشرق على الخط العام المتجه إلى رفحاء بمائة وثلاثين (كم). وهذا الجمرك هو عبارة عن إدارة مصغَّرة لا يزيد عدد موظفيها عن ثلاثة موظفين، يُضاف إليهم ستة حمَّالين. كان يرأسه آنذاك سكيت المحمد الذي نقل بُعيد وصولي بنحو شهر مُنتبداً لجمرك الرياض، وحلَّ مكانه يوسف بن إبراهيم الرشودي، وهو نجل إبراهيم الرشودي أحد أعيان مدينة بريدة في القصيم.

إدارة جمرك رفحاء:

أمّا الإدارة الثالثة فكانت إدارة جمرك رفحاء، وهي تقع أيضاً على الخط العام المُتَّجه إلى الشرق، وتبعدُ عن العويقيلة بنحو مائة وستين كم، كانت هذه الإدارة مماثلة من حيث عدد الموظفين والحُمَّال والحراس لإدارة جمرك عرعر. كان يرأسها آنذاك الصديق يوسف كركدان، وهو من مواليد مدينة الوجه وينحدر من أصلٍ تركي.

إدارة جمرك الجوف:

أمّا الإدارة الرابعة فهي إدارة جمرك الجوف في سكاكا، وتقع مدينة سكاكا على بُعد مائة وستة وخمسين (كم) عن مدينة (عرعر)، باتجاه

الجنوب الغربي. وموظفو هذه الإدارة يقومون بعمل مزدوج، فقسمٌ من موظفيها يقوم بأعمال مالية، كما يقوم القسم الآخر بأعمال جمركية. وهي من هذه الناحية مشابهة تقريباً لتشكيل الأمانة في عرعر، إذ تتلقّىٰ من وزارة المالية رأساً ما يتعلق بعملها المالي، كما تتلقّىٰ من الأمانة في عرعر ما يتصل بالعمل الجمركي، ولذا كان موظفوها أكثر عدداً من تلك الإدارات التي ذكرت. كان يرأسها الشيخ الوقور عبدالله عبدالعزيز السابق، وهو من كِرام القوم، ومن أسرة بارزة في مجتمع مدينة بريدة.

إدارة جمرك طريف:

أمّا الإدارة الخامسة، وهي الرئيسة والأهم من كل تلك الإدارات، فهي إدارة جمرك طريف التي تقع على بُعد مائتين وخمسين (كم) عن مدينة (عرعر) على الخط العام باتجاه الشمال الغربي.

هذه الإدارة - إدارة جمرك طريف - تأتي في الدرجة الثانية مباشرةً من حيث ضخامة الإيراد بعد جمرك جدة، ذلك أنها تستقبل يومياً عشرات الشاحنات المحمَّلة بمختلف البضائع، سواء كانت مُستورَدة إلى المملكة عن طريق ميناء بيروت، أو كانت من إنتاج سوري أو أردني، أو من إنتاج تركي عبر سوريا. وهذه البضائع بعضها يتَّجه إلى المدن الرئيسة داخل المملكة، وبعضها (ترانزيت) باسم الكويت أو البحرين أو قَطر أو الإمارات عبر الأراضي السعودية، لذلك كان جهاز موظفي هذه الإدارة يتجاوز عدده الثلاثين موظفاً، مُضافاً إليهم عدد مُماثل تقريباً من الحُمَّال والحراس.

كان يرأس هذه الإدارة آنذاك الصديق علي لافي - شفاه الله وأمدَّ في عمره - وهو من مواليد الوجْه - إن لم تخنّي الذاكرة - ويعاونه الأخ حسن صابر وهو من مواليد الوجه أيضاً، وكان على رأس العمل وقت أن عملتُ في جمرك طريف في آخر العام الماضي، كما سبق أن شرحت.

إدارة جمرك القريات:

أمّا الإدارة السادسة فهي إدارة جمرك القريات، وهي من حيث التشكيل الإداري، وطبيعة العمل فيها، مشابهة لجمرك سكاكا، من حيث ازدواج عملها بين الجمركي والمالي، وهي مُشابهة لها أيضاً من حيث عدد جهاز الموظفين فيها. كان يرأسها آنذاك محمد سالم أبو شتيوي، وهو أيضاً من مواليد مدينة الوجه. وتقع القريات بالنسبة لمدينة طريف على بُعد نحو مائة وأربعين (كم) باتجاه الجنوب الغربي، على يسار الخط العام المُتَّجه إلى الأردن.

دعوة كريمة من الصديق فهد الشامخ:

دُعيتُ في الليلة الثانية لوصولي لتناول طعام العَشاء على مائدة صديقي ومواطني العنيزي فهد عبدالرحمن الشامخ رئيس بلدية (عرعر)، ومعي رؤساء الدوائر الذين سبق أن ذكرت أسماءهم، ثم توالت الولائم ليلياً لدىٰ كل واحد منهم. ويبدو أنَّ هذه العادة الجميلة مُتعارَفٌ عليها فيما بينهم، فما يكاد يَفِد إلى عرعر قادمٌ للعمل في مركز ذي شأن إلاّ أكرموه، وللتاريخ فإني مَدينٌ لهم بكل مشاعر التقدير والاحترام، لِما أحاطوني به من بالغ الرعاية وكرم الضيافة.

دعوة من موظفي جمارك (طريف):

في اليوم الثالث لوصولي قدَّم لي رئيس التحرير حسين العادي كتاباً من عموم موظفي جمرك طريف يطلبون مني الموافقة على الحضور إلى الحفلة التي سيقيمونها احتفاءً بقدومي في مكان يُعرف (بشعيب أحامر).

شعيب أحامر:

وهو مجرىٰ سيل يمتد من الجنوب إلى الشمال، يقع على بُعد عشرين (كم) عن خزم الجلاميد، على يمين الخط العام المُتَّجه إلى طريف، وهذا الوادي، أو الشعيب على الأصح، هو أرض خصبة توجد على متنه غدران ضخمة من المطر، وتعلو أرضه أعشاب كثيفة فيها الكثير

من الشجيرات المُنعشة، ذات الروائح الفوّاحة الجميلة. موضّحين في كتابهم هذا أنهم لا يقبلون مني أيَّ اعتذار، لأنهم قد سبق أن وجهوا الدعوة لجميع زملائهم في المراكز الجمركية التي مرَّ ذكرها آنفاً. والحضور صباح الجمعة الموافق ١٣٧٩/١/٢٧هـ، كما أنهم قد دعوا أيضاً كافة رؤساء الدوائر في عرعر وموظفيهم، وقد علمتُ أنهم جهَّزوا ذاك المكان بعدة بيوت من الشَعر والخيام، مزوَّدة بالفُرش الكاملة، وبطبيعة الحال فإنَّ الدعوة ليست قاصرة عليَّ، وإنما معي موظفو المالية والجمارك، أي موظفو الأمانة جميعاً معي.

ما لقيتُه من موظفي جمرك (طريف):

فكرتُ طويلاً بالموضوع، إذ إنني لم أنسَ بعد أنني منذ أقل من شهرين فقط قد غادرتُ جمرك (طريف) تنهال على ظهري الحجارة كالمطر، وأنا متَّجه إلى ركوب الطائرة مُغادراً مدينة طريف، وكأني أحد جمرات مِنىٰ، أو قبر (أبي رغال).

كانت الأحجار تنهال على ظهري وهي وإن كانت صغيرة الحجم غير مؤثرة، فإنها تمثل في مغزاها مقدار الحنق والسخط اللذين كنت أحظىٰ بهما من هؤلاء الموظفين، ولا أعلم إذا كان رئيسهم ومعاونه من ضمنهم، لإنني لم ألتفت إطلاقاً، وإنما واصلت السَّير باتجاه الطائرة، ثم ولَجت داخلها.

وإذا كان هذان الزميلان لم يشتركا مع موظفيهما في رجمي وقتذاك، فإنهما على الأقل ينطقان بلسان أبي سفيان حين قال: (لم آمر بها ولم تسؤني)، مشيراً بذلك إلى المثلة التي أقدمت عليها قريش في بَقْر بطون شهداء معركة أُحد وقطع آذانهم.

بين الأمس واليوم:

كنتُ أستعرضُ في ذهني تلك اللحظات التي مرَّت عليَّ ولازالت مرارتها تحتلُّ مساحة بارزة من فكري، إلا أنني من الناحية الأخرىٰ قد

وجدتُ أنَّ هناك فارقاً ضخماً بينِ الحالتين: حالة خروجي من طريف، وحالة وضعي الآن. فكنت في الأولى موظفاً معتاداً لا أتميَّز عنهم بشيء، وقد رأوا مني عملاً اعتقدوه قسوةً مني، ورغبةً في تشويه سمعتهم، وإلحاق الأذى بهم، بَيْدَ أني في الواقع لم يصدر مني أيُّ شيءٍ من ذلك جميعه، وكلُّ ما قمتُ به آنذاك هو إجراء اقتضته الأمانة في العمل وفي أداء الواجب الوظيفي على نحو لا يهدف إلا للمصلحة العامة فقط، وما تُمليه عليَّ مسؤوليتي في نطاق عملي.

أما في حالتي الثانية فقد أصبحتُ بحكم الارتباط مسؤولاً مسؤوليةً مباشرةً عن كل فرد من هؤلاء الموظفين، عليَّ أن أعتني بشأنه، وأن أُقَوِّم اعوجاجه، وأن أدفع عنه الضَّرر ما استطعت، وأنْ أُكافئه عندما يُحسن، ولا أعفيه من المؤاخذة والعِقاب عندما يخطىء.

في الخوافي قوةٌ للمقادم:

بالإضافة إلى ذلك فإن نجاحي في عملي الجديد متوقِّف على كسب ودِّ هؤلاء الموظفين، وإخلاصهم في العمل والإنتاج؛ لأنهم بالنسبة لي يمثِّلون خوافي أجنحة الطير، التي هي قوة للمقَادم.

حفل رائع وجوٌ جميل ونسيم لطيف:

كان الحفل رائعاً، وكان الجمهور الذي حضر لا يقلّ عن مائة شخص تقريباً. كان عدد الخِراف التي ذُبحت، كما قيل لي، أكثر من عشرين خروفاً. كانت صناديق التفاح والبرتقال قد استُقدمت من لبنان، وصناديقها مُوزَّعة هنا وهناك. وأُلقِيَت عبارات المجاملة والتهنئة بيني وبين هؤلاء الموظفين، وكان الجو جميلاً مُمطراً برذاذ خفيف يتخلّله نسيم بارد لطيف، يحمل أريج الأعشاب وشذى الشُّجيرات، التي تغطِّي مساحة الأرض بكثافة، وكأنَّ السماء أرادت المشاركة في هذا الاحتفال.

بسمات مشرقة:

تأثرتُ كثيراً، وأنا أنظر إلى هذا السخاء الحاتمي، الذي ضمته هذه الحفلة من قِبل القائمين عليها، وكنتُ أتأثر أكثر فأكثر من هذه البَسمات المُشرقة، ومن هذه العبارات الرقيقة التي أسمعها من الجميع بدون استثناء.

تمَّت الحفلة بنجاح باهر للقائمين على تنظيمها، والإشراف عليها، ومعلومٌ أنَّ تمويلها كله وجميع الجهود التي بُذلت في تنظيمها مصدرها موظفو جمرك (طريف) وحده، أما بقية موظفي الإدارات الجمركية، ورؤساء الدوائر، وأنا منهم، فكُنَّا جميعاً ضيوفاً على موظفي جمرك (طريف).

اعتذاري عن قبول دعوات مديري الجمارك:

حاول مدير جمرك عرعر الأخ محمد الرجراجي، كما حاول زميلاه عبدالله السابق مدير جمرك الجوف، ويوسف كركدان مدير جمرك رفحاء، حاولوا جميعاً أن يأخذوا مني موافقة على أن يقيم كلٌّ منهم خلال الأسابيع القادمة حفلاً مماثلاً لهذا الحفل، بَيْد أني رفضت بكلِّ الإصرار والشدة على قبول مثل ذلك تجنُباً لتكليفهم ما لا يَحْسُن بي أن أكلِّفهم به.

اجتماعي بموظفي جمرك (طريف):

ابتدأ المدعوون بعد انتهاء الحفل بالانصراف إلى حيث أتوا، وبقيتُ أنا ومعي موظفو الأمانة بقسميها، وكنتُ أوعزتُ خلال الحفل لمدير جمرك طريف بأن يُوعز بطريقة سِرية لموظفيه بالبقاء بعد انتهاء الحفل، حتى يتمَّ انصراف جميع المدعوين. وبعد أن تمَّ ذلك اجتمعنا معاً، موظفو جمرك طريف وموظفو الأمانة على هيئة حلقة مستديرة، وهنا أخذت أُبدي شكري وتقديري وامتناني لهذا الصنيع منهم، وأنني لم أكن أرغب أن يكلِّفوا أنفسهم هذه الخسائر، مع الجهد والمشقة في التحضير والإعداد ـ طبعاً كانت أجوبتهم تدور بما معناه أنَّ ما فعلوه هو واجب عليهم بالنسبة لرئيس يرتبطون به، ويتولَّىٰ أمورهم، ويستقبلونه لأول مرة، وهذا أقلُّ ما يجب عليهم فعله بالنسبة له.

إسدال الستار عن الماضي:

شكرتهم كثيراً ثمَّ وجَّهت إليهم ـ وكانوا جميعاً مُصغين لِما أقول ـ كلمات محدَّدة ترسمُ لهم طريقة تعاملي معهم، والنهج الذي سأسير عليه مستقبلاً، بالنسبة لعلاقتي بكلِّ فرد منهم، موضِّحاً لهم أنني بدءاً من هذا المكان، وفي هذه الليلة، قد أسدلتُ الستار على الماضي، راجياً منهم أن يعتبروا أني لم أصل قبلاً إلى إدارتهم أو أتعرَّف عليهم.

طريقتي في التعامل معهم:

أنني من هذا المُنطلق أُحب أن يفهم الجميع بأنني سأكون الأخ الرفيق المُخلص لكلِّ فرد منهم ما وَسعني الجهد، وأن أسعى لمساعدته، وتحقيق طموحه ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، ومُشيراً أنَّ عواطف الحب والكُره لن يكون لها أي وزن أو تأثير في تعاملي معهم، وإنما المعيار الوحيد هو مدىٰ إخلاص كل موظف واجتهاده ونصحه في عمله ـ سوف أبذل جهدي في مساعدته للمرتبة التي يصبو إليها متى ما استحقها. وفي الوقت نفسه موضِّحاً لهم أنني لن أتغاضىٰ أو أغتفر عن أيِّ قصورٍ أو تهاونٍ في العمل، بل سأكافىء المُحسن، وأقف معه بكل جهدي على أساس إخلاصه واجتهاده. ولا أُعفي أو أتغاضىٰ عن المقصِّر أو المتهاون بعمله عن محاسبته على أخطائه، وتقويم اعوجاجه، بالحُسنىٰ إذا أمكن، أو بالإبعاد إذا لم يَفُد الإصلاح، وأردفتُ قائلاً: إنني إذ أشرح لكم طريقتي معكم مستقبلاً، ليكون كلٌّ منكم على بيِّنةٍ من أمره، أوضِّح لكم بأنني، وبكل صراحة، محتاج لكم أشدَّ الحاجة، وأنني أعلم أنَّ نجاحي في عملي يتوقَّف بعد توفيق الله على تعاونكم معي، ونُصحكم لي، وشدِّ أزري؛ لأنني بدون ذلك كله لن أستطيع أن أحقق أيَّ نجاح لأنكم لي بمثابة القوائم التي ارتكز إليها، والأجنحة التي أحلِّق بها.

دعوتهم للمصارحة والجرأة في النقد:

بعد ذلك رجوتهم بأن يكونوا صريحين معي جريئين في إشعاري إلى ما قد يظهر لهم من أمور تستلزم الإصلاح، وقد أكون لا أعلم بها، وأنني

أتقبَّل منهم، من كل فرد من المدير حتى الحارس، أيَّ نقدٍ مهما كان قاسياً وصريحاً، وأنَّ في وسع أيّ منهم أن يقابلني به مواجهةً إذ أَحب، أو عن طريق الكتابة إليَّ إذا رأىٰ ذلك، وأنه لن يكون لهذا الانتقاد أيُ تأثير على نظرتي إلى كل فرد، بل سيكون مَبعث سرور لي وتقدير مني؛ لأنَّ هذا يبعث الشجاعة والجُرأة في قول الحق، وهذه ناحية أقدسها كلَّ التقديس.

طال سَمرنا تلك الليلة إلى الهزيع الأخير من الليل، تحت نور الأتاريك ثم توزعنا إلى شلل نلعب لعبة البلوت المعروفة.

في صباح اليوم الثاني تناولنا طعام الفطور في المكان نفسه، ثم تعانقنا جميعاً فرداً فرداً مودِّعين بعضنا بعضاً، ثم انصرف كلٌّ منا إلى جهته.

إرسال أسرتي إلى القاهرة:

كنت أَبقيتُ في جدة عند مغادرتي لها إلى (عرعر) أسرتي المكوَّنة من أم البنين، ومن ابني يوسف وكان يبلغ من العمر آنذاك ثمان سنوات تقريباً، وشقيقته هدىٰ التي تصغره بأربع سنوات. تركتهم في جدة ريثما يتمّ إخلاء البيت المُخصص لسكني في (عرعر)، من شاغله الصديق الزميل علي حسين زارع الذي سيغادر عرعر بأسرته حالما تتمُّ إجراءات الدور والتسليم بيني وبينه، وهي الإجراءات التي تمَّت خلال أسبوع، على ما أذكر ـ ثم ارتحل الصديق علي زارع، بأسرته إلى جدة.

ونظراً لأنَّ أخي وشقيقي المرحوم عبدالله المحمد الحسُّون كان آنذاك مقيماً في القاهرة مع أسرته، فقد رأيت من الأفضل أن أرسل أسرتي إليه لتبقىٰ هناك ريثما أستقرّ في (عرعر)، وأرتِّب أموري فيها، وأوفِّر لهم ما قد تدعو الحاجة إلى توفيره؛ لأنَّ وجودي منفرداً يمكِّنني من الترتيب والتنظيم، ومن التجوُّل على المراكز والاطلاع على سَيْر العمل في كلٍّ منها، والتأكد من تطبيق الجميع فيها للنهج والتعليمات التي كنت قد صغتُها في مذكرة تفصيلية مُركزة، عَمَّمْتُها على جميع تلك المراكز، في الأسبوع الأول من استلامي العمل، مُعطياً منها صوراً لمصلحة الجمارك ولمقام وزارة المالية.

منحي إجازة أسبوعية لاستقدام العائلة من مصر:

بعد أربعة شهور على استلامي العمل استأذنتُ من وزارة المالية بَمْنحي إجازة أسبوع، لجلب عائلتي من مصر، وفعلاً تمَّت الموافقة، فسافرت على طائرة التابلاين إلى بيروت، ومن بيروت إلى القاهرة على الخطوط اللبنانية (الشرق الأوسط)، ثم عدتُ بأسرتي إلى (عرعر) على الطريق نفسه.

مسؤوليتي المباشرة عن عمل الموظفين:

كنتُ أحسُ أثناء عملي أنني شخصياً مسؤول مسؤوليةً مباشرةً عن عمل أيِّ موظف في الجهاز الذي يعمل معي في الأمانة، سواء كان في قسم المالية، أو قسم الجمارك، أو قسم التحرير.

كنت عندما أقرأ البريد الوارد أو البرقيات الواردة أتولَّى بنفسي إحالتها إلى الجهة التي تتَّصل بها، ولا أكتفي بمجرد الإحالة والتوقيع على الشرح بالنسبة للمعاملة التي تسلتزم إجابات ذات مسؤولية، وذات وزن في مصير المعاملة، أي أنني لا أسمح لنفسي بأن أُحيل المعاملة للموظف المُختصّ تحت عبارة (لإجراء اللازم)، كما هو مُتَداول لدىٰ كثير من الدوائر والرؤساء، لأنَّ ذلك يعني التنصُّل من المسؤولية، وتحميلها الموظف البسيط، كنتُ أُضمِّن الشرح ما يجب اتخاذُه على هذه المعاملة ضمن فقرات الحروف الأبجدية، كأن يُفعل كذا، ويُفعل كذا، ويُفعل كذا، الأمر الذي يُعفي الموظف من أيِّ مساءلة على الإجراء الذي يتَّخذه في هذه المعاملة، بل عليَّ أنا المسؤولية لأنني وحدي الذي عيَّنتُ وحدَّدتُ ما يجب، مما أشاع في نفوس الموظفين قاطبةً روحاً من الهدوء والانشراح والرضا، لأن كلَّ ما على هذا الموظف أن يعمله هو ما تضمَّنته فقرات الإحالة.

تمرين الموظفين على تحمل المسؤولية:

كان ذلك في الشهور الأولى من عملي، ثم أخذت أمرِّنهم على تولّي ما يجب فعله على ما يحال إليهم من معاملات، بعد الرجوع إليَّ فيما قد يشكل عليهم.

راحة الضمير وهدوء النفس في أداء الواجب:

سارت حياتي، خلال هذه الفترة، سَيْراً هادئاً مطمئناً، أحسُّ فيه براحة الضمير واللذة في أداء الواجب ـ أصِلُ إلى مكتبي صباح كلِّ يوم قبل بدء دوام الموظفين بما لا يقلّ عن ربع ساعة تقريباً، واضعاً دفتر تسجيل الدوام على مكتبي مما يحتِّم على كل موظف عند حضوره أن يوقِّع على الدفتر أمامي، وقبل نهاية الدوام بنصف ساعة تقريباً حيث تكون المعاملات جميعها قد تمَّ طبعها وتوقيعها، وأخذت طريقها إلى البريد عن طريق هيئة التحرير.

الاجتماع بالموظفين ومناقشتهم:

كنتُ أسمح للموظفين بأن يحضروا جميعاً في مكتبي بعد أن أتأكّد من كلِّ منهم، بأنه لم يبق لديه أيّ معاملة، كنت أناقشهم خلال هذا الاجتماع عن كثير من الموضوعات، سواءً ما كان يتعلق منها بالعمل ومسؤولياته واختصاصاته، أو ما يجب أن يكون عليه الموظف الحكومي من استقامة في السلوك، ولياقة في المَظهر، ولباقة في الحديث في أيِّ مكان وُجد لأنه يحمل سِمة الموظف الرسمي، ومعنىٰ ذلك أنه يمثِّل الحكومة، لذا فإنَّ عليه أن يحرص أشدَّ الحرص على استجلاب مودة الناس واحترامهم له.

دروس في السيرة النبوية:

أحياناً أخرىٰ كنتُ أناقشهم في معلومات عامة، وبالأخص ما يتعلَّق بالتاريخ وأحداث الإسلام والمسلمين، وقد لمستُ لسوء الحظ أنَّ هناك جهلاً فاضحاً فيما يتعلَّق بالتاريخ، وبالأخص، والأهم ما يتعلق بحياة الرسول ﷺ، لذا فقد كنت أتوخىٰ استعدادهم للاستماع عند اجتماعهم كلَّ يوم، فأحكي لهم عن سيرته ﷺ: مولده ونشأته وشبابه ونبوّته وجهاده وسِيرة حياته الشريفة التي أمضاها على وجه هذه الأرض، حتىٰ انتقل إلى جوار ربِّه بعد أن أقرَّ الله عينه بتحقيق وعده له بالنصر والغلبة، وبعد أن اطمأنَّ إلى أنَّ نور الإسلام قد انتشر فغطّى جزيرة العرب وأخذت أشعة نوره تخترق الآفاق في كلِّ الاتجاهات.

ثم أخذتُ بعد ذلك أروي لهم سراياه وغزواته غزوةً غزوةً، وسَريةً سريةً، كما كنتُ أشرح لهم عمّا لاقاه الرعيل الأول من المسلمين من عَنَت وبلاء وقتل وتشريد من أعداء دينهم.

فصل دراسي يسوده الانسجام والوقار:

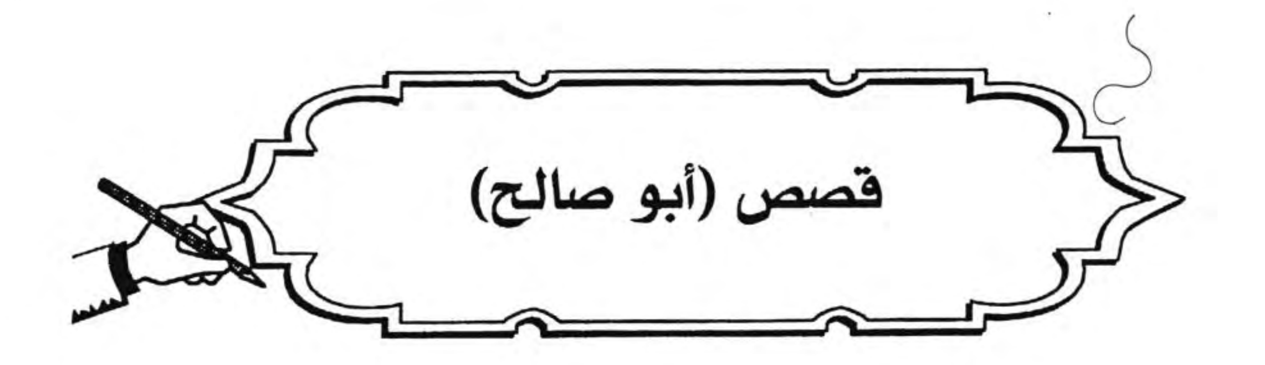
كانوا يصغون إليَّ بإنصاتٍ خاشع، وكنتُ أناقشهم في اليوم الثاني عما شرحته في اليوم السابق، وبالجملة فقد كانت هذه الجلسة التي تمتدُّ قرابة النصف ساعة، وقد يطلبون تمديدها إلى ساعة، قبل أن يوقِّعوا الدفتر للخروج، أشبه بفصل دراسي يسوده الانسجام والوقار.

كنتُ أغادر الإدارة في حوالي الساعة الثانية والربع بعد الظهر، وبعد انصراف الموظفين - إلى منزلي، أتناول الطعام، ثم أمكثُ في الحديقة، أقرأ في أيِّ كتاب أكون قد اقتنيته. كنتُ أجد مقعدي مُهيّأً في الحديقة، وبجواره شيشة الجراك قد هُيِّئت، ومنضدة صغيرة عليها كتاب أو كتابان، أختار منهما ما أرغب قراءته.

في حديقة البلدية:

أفعل ذلك حتى يحين موعد العصر، فأؤدي الفريضة في الجامع الكبير الذي يبعد عن منزلي مائتي متر تقريباً، ومن المسجد أتجه رأساً إلى حديقة البلدية المجاورة للمسجد الجامع، حيث أجد أخي وصديقي فهد عبدالرحمن الشامخ رئيس بلدية (عرعر) في انتظاري. نظلُّ في الحديقة نتجاذب أطراف الحديث وقد ينضم إلينا بعض الإخوان يشاركونا الحديث، مثل المرحوم عبدالعزيز البعيجاني وكان آنذاك يشغل وظيفة عمدة (عرعر)، ومحمد رشيد الدغيثر (أبو صالح) رحمه الله تعالى.





كان الأخ البعيجاني من مواليد بلدة القصيعة إحدى قرى مدينة بريدة القصيم، كما كان الأخ أبو صالح الدغيثر من مواليد ومواطني مدينة عنيزة، كنا نطربُ ونسعد أعظم السعادة عندما يحضر أبو صالح محمد رشيد الدغيثر إلينا، فنجد سلوةً ومتعةً في مناقشته عن مسيرته في حياته، كان يتحفنا بقصصٍ منها أشبه ما تكون بالخيال، كلها تثير الضحك والغرابة، لِما تتصف به من عفوية في التفكير، وسطحية في تعامله مع أحداث الحياة، وقد يكون من الطريف أن أذكر حادثتين منهما فقط؛ لكي أُشرك قارىء هذه الأسطر بضحكاتنا التي كُنَّا نُطلِقُها عندما يروي لنا تلك القصص.

قصة (القمرا على طاية الطريبيش):

سُئل مرة ـ كما يقول ـ وقد جاوز الأربعين من عمره، وهو عندما كان يحكي لنا ذلك قد شارف التسعين من العمر، سُئل ـ كما يقول ـ عن سِني عمره؟ كم بلغ عمره من السنين؟ أجاب السائل بقوله: أنه لا يذكر تاريخاً محدَّداً لمولده؛ وإنما يذكر أن والدته قد أخبرته أنه وُلد في تلك الليلة (التي كانت فيها القمرا على طاية الطريبيش)، ولكي نحلَّ رموز هذا الطلسم للقارىء لكي يستبين معنىٰ هذه الجُمل نوضح لهم أنَّ كلمة (القمرا): معناها امتداد ضوء القمر عند استدارته في منتصف الشهر، ومعنى كلمة (طاية): سطح البيت، ومعنىٰ كلمة (الطريبيش): هو اسم أسرة تحمل هذا الاسم وتسكن هذا البيت، ومحصِّلة هذه العبارة جميعها: أنه وُلد في يوم انتشر فيه

ضوء القمر على سطح بيت عائلة الطريبيش!! وأتحدَّىٰ القارىء أن يحدِّد هذا التاريخ!!

قصة زواجه الأضحوكة من خوي الإمير:

أما الثانية، وهي أكثر طرافة، وأعمق دلالة على العفوية المُفرطة التي كان ولا يزال يتحلَّى بها أبو صالح، كان ولازال يحمل من طيبة القلب وسطحية التفكير ما يقربُ إلى حد البَلَه، كان ولايزال حاد الطبع عصبي المِزاج.

روىٰ لنا أنه كان مقيماً في بيت أحد الأمراء وهو معروف بالشدَّة والصرامة، لا يصبر على ابتعاد أبي صالح هذا عنه، فكان دائماً يحرص على أن يكون موجوداً على مقربة منه، كان يجد في الحديث إليه، وفي طرائف نكته متعةً تتيحُ له الانبساط والبهجة، كان أبو صالح هذا مِزْواجاً أو زير نساء كما يقولون.

شاب وسيم الطلعة:

كان من ضمن (أخويا الأمير)، والخوي هو الموظف المُرافق، وعادةً يوجد مع كلِّ أمير عدد من هؤلاء الخويا يكثر عددهم، أو يقلّ تِبعاً لِمَنصب الأمير وأهميته، كان من ضمنهم شاب وسيم الطلعة، لم يلتحِ بعد، تتهدَّل على كتفيه جدائل ضخمة من الشعر الأسود المُرسل تكاد تصلَ إلى عجزه.

كان من عادة الأمير أن يقضي ليلة الجمعة في مكان يبعد عن مكان إقامته بمسافةٍ لا تقلّ عن عشرين (كم) تقريباً، ويصطحب معه أخوياه، الذين لا يقلُّ عددهم عن ثلاثين شخصاً، ومجموعة من موظفي ديوان الإمارة تنصبُ لهم الخِيام مُسبقاً في ذلك المكان، ويُهيّأ لهم طعام العَشاء لتلك الليلة.

رغبة أبي صالح في الزواج:

كان الأمير يصطحبُ أبا صالح معه في سيارته، وفي أحد الأيام سأله الأمير: عمَّا إذا كان يرغب في الزواج؟ فأجاب بلهفة: نعم، ولكن أنا فقير

كما تعلم، ولا أملك المَهر، أجابه الأمير بأنَّ هناك فتاة جميلة يتيمة الأبوين، وهي في سنِّ الزواج، وأنه يرغب أن يزوِّجه بها، ويكون دفع مهرها من قِبل الأمير، فرحَّب أبو صالح كلَّ الترحيب، واغتبط أيّما اغتباط. ثم أوضح له الأمير أنه سيكلِّف المسؤولين بأن يتمُّوا الإجراءات السريعة بهذا الزواج بحيث تكون ليلة الجمعة القادمة، وأنه لمّا كانت الأسرة التي تقيم عندها هذه الفتاة غير بعيدة عن المكان الذي يخرجون إليه في كلِّ جمعة، فإنَّ الأمير يرىٰ من الأفضل أن تُخَصَّص خيمة مستقلة تبعد عن خيام الأمير بنحو نصف كيلومتر تقريباً، وأنَّ على الأسرة التي تحتضن تلك الفتاة أن تأتي بها إلى هذه الخيمة، وما على محمد رشيد الدغيثر (أبي صالح) إلا أن يتَّجه بعد تناول العشاء مع الخويا إلى تلك الخيمة، ليجد هناك الزوجة الموعودة في انتظاره، كان سرور أبي صالح في ذلك المساء وغبطته لا يحدُّهما وصف كما يقول.

سرور وغبطة أبي صالح:

كان يتلهَّف على سرعة انقضاء الساعات، ليصل إلى تلك الخيمة؛ من الجهة الأخرى كان الأمير قد اتفق مع ذلك الشاب الخوي على أن يسبق أبا صالح إلى الخيمة، وأن ينتظره هناك.

عروس في الخيمة:

وبطبيعة الحال فإن الخيمة مُغلقة لا يوجد داخلها نور، وأوصىٰ الأمير هذا الشاب أن يجلس على فراش أُعدَّ داخل الخيمة مرتدياً عباءة نسائية انتظاراً لدخول أبي صالح عليه، وأنَّ عليه عند دخول أبي صالح الخيمة أن يحاول مغازلته، وأن يحرص على أن لا يمكِّنه من لمس جدائله، وعندما يشتدّ الشَّبق بأبي صالح يفهم بأنه لن يمكِّنه من نفسه إلا بعد أن يخلع ملابسه.

وبالفعل تمَّ ذلك تحت وطأة الشهوة واستعار الغريزة، بادر أبو صالح بخلع ملابسه بحيث أصبح عارياً (ربّي كما خلقتني) وواضح من المشهد أنَّ أعصاب أبي صالح كانت متوتِّرة...

سقوط الخيمة:

وفي تلك اللحظة وبإيعاز من الأمير كان أحد الخويّا قد سحب حبال الخيمة الخارجية، فسقطت الخيمة على الجميع وأسرع الشاب هارباً، وخرج أبو صالح من الخيمة عارياً يركض بحركة جنونية خلف الصَّيد الذي فرَّ من القفص، كانت الأتاريك تُضيءُ المكان وكانت صورة المشهد واضحةً أمام أنظار الأمير وجميع مُرافقيه، وأتركُ للقارىء التعليق على المشهد بما يراه.

روابي عرعر:

كانت جلستنا في حديقة البلدية تلي صلاة العصر مباشرةً من كلِّ يوم، تمتدُّ لِما لا يقل عن ساعة ونصف تقريباً، ثم نتَّجه إلى بعض الروابي المحيطة بعرعر على بُعد ٥كم أو نحوها، سواءً على طريق طريف أو على طريق سكاكا، وهناك على جانبيَ الطريق تلال أو روابي مرتفعة من الرمل الأحمر النظيف الذي تسفوه الرياح، وتنقله ما بين مكان وآخر، وَفقاً لشدة الرياح واتجاهاتها. كُنَّا نخرج في بعض الأوقات في سيارة أحدنا، وبعض الأوقات يخرج كلٌّ منا بسيارته، ما عدا أبي صالح محمد رشيد الدغيثر إذ لا سيارة لديه.

الشلة الرباعية:

كانت الشِّلة رباعية في أغلب الأوقات: عبدالعزيز البعيجاني، فهد الشامخ، إبراهيم الحسُّون، محمد الدغيثر، وكان يلحق بنا ما بين وقت وآخر الصديق المرحوم عبدالله المحمد السويلم.

نظلُّ على قمة هذه الروابي نتجاذب أطراف الحديث ونتبادل النُّكت والطرائف وذكريات الحياة لكلٍّ منا، وما تخللها من مُبهجات ومُنغِّصات. وكان نجم الشِّلة هو أبو صالح، وكُنَّا نداعبه، ونتحرَّش به، كلَّما خلت جعبتنا من الحديث، أو رغبنا زيادة في المتعة والضحك. نعود أدراجنا إلى منازلنا بعد تأدية فريضة المَغرب في موضعنا.

تناول طعام العشاء:

خلال الفترة ما بين صلاة المَغرب وصلاة العِشاء، كنتُ أقضيها مع العائلة لتناول العَشاء، ثم إلى الحديقة، وتكون شيشة الجراك مُهيَّأة.

شلة البلوت:

بعد تأدِّية صلاة العِشاء أذهبُ إلى حيث تجتمع شلة البلوت، يومياً بعد صلاة العِشاء حتى العاشرة ليلاً تقريباً، تنتقل بالترتيب في بيت واحد منها. كانت الشِّلة تنتظم نائب سموِّ الأمير: حمود الشبيب، سكرتير الأمير: محمد بن الصغيِّر، رئيس ديوان الإمارة: حمدي أمان، أحد موظفي ديوان الإمارة: محمد النجيدي، إبراهيم الحسُّون، ومدير الشرطة: رشيد الصالح، مدير الجوازات: بكر مدهر، كُنَّا نجتمع ليلياً نقضي تلك الفترات في لعبة البلوت ضمن مجموعتين.

العودة إلى البيت:

بعودتي إلى البيت حوالي الساعة العاشرة أجد الشيشة مُهيَّأة في الحديقة، وعلى مقرُبة منها منضدة عليها كتابان أو أكثر، وعليها مجموعة من الصحف اليومية، سواء كانت سعودية أو لبنانية أو مصرية - أظلُّ في موضعي هذا حتى قرابة الواحدة بعد منتصف الليل، ثم آوي إلى فراشي.

فترة الصباح:

أما فترة الصباح فتبدأ بصلاة الفجر مباشرةً حتى طلوع الشمس، فموعد ذهابي إلى العمل، كنت أقضي هذه الفترة في القراءة مُبتدئاً بقراءة بعض آياتٍ من الذِّكر الحكيم. وبعد الإشراق مباشرةً أتناول طعام الإفطار، ثم أذهب إلى مكتبي في الإدارة للعمل.

قيام شركة التابلاين بتأمين سكن مريح:

كان من ضمن المميزات التي اشترطها معالي المرحوم وزير المالية

السابق عبدالله السليمان الحمدان عندما وقَّع الاتفاقية بين الحكومة السعودية وشركة التابلاين قبل إنشاء الخط: أن تلتزم شركة التابلاين بتأمين سكن مريح لرؤساء الدوائر، تقوم بتأثيثه وتأمين جميع مسلتزماته وتفقده بالإصلاح ما بين آنٍ وآخر، ومؤمّنةً له جهاز التليفون وتيار الكهرباء، وبالإضافة إلى ذلك كله تأمين سيارة جديدة صغيرة كل عامين، مع تأمين محروقاتها اليومية دون تحديد لكمية هذه المحروقات، مع صيانة هذه السيارات وتأمين ما تحتاجه من الأدوات.

كان الهدف فيما أعتقد من اشتراط هذه المميزات هو إغراء الموظفين آنذاك للمجيء إلى هذه المنطقة والسكن فيها، إذ إنها كانت، قبل إنشاء الخط والشروع في تخطيط المدينة، أرضاً موحشةً، ومسرحاً للذئاب والوحوش.

البيت الذي سكنته في (عرعر):

كان البيت الذي سكنته يقع بالطرف الجنوبي من لاينٍ ممتدٍ من الجنوب إلى الشمال حيث يقع الخط العام الذي يخترق البلد من الغرب إلى الشرق، ينتظم هذا اللاين سكن رئيس المالية وأمين الجمارك من الجنوب، ثم يليه باتجاه الشمال مُلاصقاً له بيت مدير البلدية، فبيت رئيس المحكمة، فبيت رئيس ديوان الإمارة، فسكرتير الأمير، فنائب الأمير، كانت البيوت متصلة بعضها ببعض على هيئة مربع مستطيل، مساحة كل بيت ثمانية عشر في اثني عشر متراً مربعاً.

❁ ❁ ❁

إرسال ابني يوسف إلى لبنان للدراسة:

بعد شهر من عودتي من مصر بعائلتي قررتُ أن أبعث بابني الوحيد يوسف لمدارس «المقاصد الخيرية الإسلامية» في لبنان، ليتلقَّىٰ دراسته الابتدائية هناك، وقد رأىٰ مدير البنك الأهلي المرحوم حسن قنزل أن يُرسل

هو أيضاً ابنه عبدالله، وكان لازال في سن الطفولة في سنٍّ متساوٍ مع يوسف، وقد أرسلناهما معاً في سيارتي مع السائق فايز سمعان إلى أخي وصديقي حمد الناصر الهطلاني الذي كان آنذاك مقيماً في بيروت، وطلبنا منه تسجيلهما ضمن طلبة القسم الداخلي في مدارس الجمعية الخيرية (في الحرْش)، وقد استمرا في دراستهما في تلك المدارس حتى أكملا المرحلة الابتدائية فيها.

تفاقُم مشكلة التهريب:

خلال عام ١٣٧٩هـ تفاقمت قضية التهريب إلى المملكة، وعلى الأخص من الكويت، وأخذ تجار متخصِّصون يزاولون عملية تهريب الأدخنة على مختلف أنواعها إلى المملكة، تحت وطأة الإغراءات الضخمة، التي تنتج عن هذه العمليات، فهي تدرُّ مبالغ طائلة على هؤلاء المهرِّبين؛ لأنَّ الرسوم الجمركية، التي تستوفيها الدولة السعودية على هذه الأدخنة كانت باهظة جداً، فهي تستوفي على الكيلو الواحد مبلغ خمسة وعشرين ريالاً، بينما ينخفض هذا الرسم إلى ٤٪ من قيمة الأدخنة لدىٰ حكومة الكويت، أي أنَّ رسوم الكيلو الواحد قد لا تزيد عن أربعة ريالات تقريباً، فنشطت حركة التهريب من الكويت إلى المملكة نشاطاً ملحوظاً، مُلفتاً للنظر، نجمَ عنه أن تضاءلت إيراداتُ الرسوم في الجمارك السعودية بما لا يقلّ عن الربع تقريباً لرسوم الأدخنة.

موارد الحكومة من الإدارات الجمركية:

ومن الواضح أنَّ موارد الحكومة السعودية في تلك الأيام من الإدارات الجمركية هي الدعائم التي يرتكز عليها اقتصادها، فلم تكن ثروة البترول آنذاك تبلغ حداً يجعل هذه الإيرادات تأتي بالدرجة الثانية، بالنسبة لدعم موارد الخزينة التي تعتمد عليها الدولة؛ لذا فقد اهتمَّت الدولة بهذاالموضوع اهتماماً ظاهراً، موليةً له أشدَّ العناية والحرص.

عقد وزارة المالية مؤتمر في جدة:

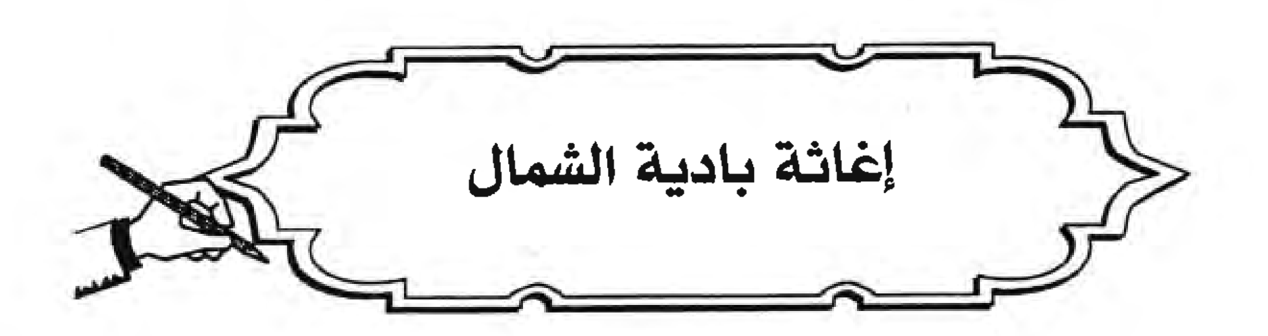
تمثَّل ذلك في قيام وزارة المالية والاقتصاد الوطني بعقد مؤتمر في جدة دَعَتْ إليه أمراء المناطق في كلِّ مقاطعات المملكة: كمنطقة جيزان، ومنطقة عسير، ومنطقة نجران، ومنطقة تبوك، ومنطقة القصيم، ومنطقة الحدود الشمالية، ومنطقة حفر الباطن، والمنطقة الشرقية، مُضافاً إليهم رؤساء الأمانات الجمركية في كلٍّ من المنطقة الشرقية، ومنطقة الحدود الشمالية، ومنطقة جيزان، والمدير العام لمصلحة الجمارك، ومدير الأمن العام، ومدير الجوازات العامة، على أن يكون هذا الاجتماع تحت رئاسة معالي وزير المالية والاقتصاد الوطني المرحوم الشيخ عبدالله بن عدوان. تمَّ عقد هذا الاجتماع الذي تخلَّف عنه بعض أمراء المناطق، كمنطقة الحدود الشمالية والمنطقة الشرقية، باعثين مَن يمثلهم في هذا الاجتماع. وكان ممثل أمير منطقة الحدود الشمالية الأخ حمود بن عبدالرحمن الشبيب نائباً عن سموِّ أمير المنطقة.

عُقد المؤتمر في مقرِّ فرع وزارة المالية في جدة في شركة (كوفنكو) الواقعة على خط طريق المطار القديم في جدة. عُقدت عدة اجتماعات كان الموضوع المطروح هو قضية التهريب، والبحث في الوسائل المؤدِّية إلى مكافحتها ومنعها.

تخفيض الرسوم الجمركية على الأدخنة:

كانت المناقشة تتَّسم بالحرية الكاملة لا ميزة لشخصٍ على آخر بين المجتمعين، على إبداء الرأي بكلِّ صراحة ووضوح. وكانتَ الآراء جميعها تكاد تُجمع على أنَّ الطريقة المُثلىٰ لعلاج هذا الموضوع هي في تخفيض الرسوم الجمركية على الأدخنة بجميع أنواعها بحيث ينتفي وازع الإغراء على التهريب.

كانت الآراء مُجمعة على أنه من الصعوبة بمكان مكافحة ظاهرة التهريب طالما بقيت الرسوم الجمركية على وضعها الراهن، فمسافة الحدود



إغاثة بادية الشمال

في حوالي منتصف العام ١٣٨٠هـ اتخذتْ الحكومة السعودية قراراً يقضي بالمبادرة إلى إغاثة بادية المناطق الشمالية بمساعدات غذائية، وألبسة مخيطة، لِما لَحِقَ بهذه البادية من أضرار ومصاعب، باحتباس المطر عن مناطقها عدة سنوات متوالية، فنتج عن ذلك أن نَفَقَ ما لدى هذه البوادي من مواشٍ وأغنامٍ، وعليها بعد الله الاعتماد في تأمين معيشتها.

اتُخِذَت تدابير سريعة لتأمين هذه الأغذية والكساوي لتأمينها سريعاً والشروع في إرسالها إلى (عرعر).

خطة الإغاثة:

كانت الخطة تقضي بأن تُطبع بواسطة وزارة المالية بطاقات للصرف، ذات أرومة وأصل تشتمل على: اسم الشخص، وعدد أفراد أسرته، واسم القبيلة التي ينتمي إليها، واسم شيخ القبيلة، ومقادير الكميات المصروفة له، ثم تواقيع الهيئة المُشرفة على الصَّرف والمؤلفة من مندوب الإمارة، ومندوب المالية، فمندوب المحكمة، فمندوب البلدية.

عملية الإحصاء:

كانت الخطة التي وُضعت لهذه العملية تقضي أن تُبعث البطاقات لأمراء المناطق، ليقوم مندوب الإمارة مع أعضاء الهيئة بعملية الإحصاء وملء هذه البطاقات، ليبدأ الصَّرف بعد إتمام عملية الإحصاء.

وواضحٌ من هذا الترتيب أنَّ مهمة المالية تنحصر فقط باستلام هذه الأرزاق والكساوي، وتخزينها في مستودعات تحت إشرافها، ويقوم مندوب المالية بتزويد لجنة الصَّرف بما تحتاجه يومياً من الأطعمة والكساوي.

الإعاشة المقرر صرفها:

كانت الإعاشة التي قُرِّرت تتألف من: طحين، سمن صناعي، أرُز، تمر، أكسية مخيطة.

طريقة صرف الإعاشة:

كان الترتيب أن يتمَّ صرف هذه الإعاشة على ثلاث فترات، تفصل بين كل فترة وأخرى مدة شهرين. وكانت مالية (عرعر) مسؤولة عن استلام الإعاشة لأفراد البادية الممتدة على حدود (رفحاء) من الشرق إلى (طريف) من الغرب، أما منطقة (القريات) وما يجاورها، ومنطقة (سكاكا) وما يجاورها فقد أُسْنِدَ استلامها إلى كلٍّ من مالية المنطقتين القريات وسكاكا، وليس لمالية (عرعر) علاقة بهما.

أُرسلت البطاقات رأساً إلى أمراء المناطق، ولذلك فإن مالية (عرعر) لا تعلم عن مقدار كميات البطاقات التي أُرسلت إلى إمارة المنطقة؛ لأن مسؤوليتها ـ كما قلت ـ تنحصر في اشتراك مندوبها في الإحصاء، وفي عمليات الصَّرف وتزويدها بالأطعمة والكساوي خلال الصرف يومياً.

منذ وصول تلك الإعاشة إلى مناطق (عرعر) و(طريف) و(رفحاء) كنت أتولَّى بنفسي سجلاتها فيما يتعلَّق بالكميات الواردة والكميات المنصرفة.

نجاح عملية الصرف:

كنتُ أتابع يومياً ما تصرفه الهيئة في كلٍّ من عرعر أو طريف أو رفحاء، وتمَّت عملية الصَّرف بكل نجاح ودِقة؛ لأنني كما قلت: أتابعها يومياً.

بعد أن وصلتني مَحاضر الوفورات في مستودعات رفحاء وطريف استوضحتُ من مقام وزارة المالية عمّا يجب فعله نحوها، فتلقيتُ الأمر بأن تُعرض وتُباع في المزاد العلني بمُوجب مَحاضر رسمية. وفعلاً تمَّ ذلك وقد بلغت قيمة المتوفِّر في مستودعات (رفحاء) نحو سبعين ألف ريال، كما بلغت مثيلتها في مستودعات (طريف) نحو خمسة وخمسين ألف ريال.

عندما أُلقِيَ على عاتقي مسؤولية صرف إعاشة البادية:

كانت نهاية الفترة الثالثة من صرف إعاشة البادية من الأطعمة والكساوي قد تمَّت في أواخر عام ١٣٨٠هـ.

توافد أفراد البادية إلى (عرعر):

في أوائل ربيع الأول من عام ١٣٨١هـ، لاحظت أنَّ هناك أفراداً من البادية من مختلف المناطق، يتوافدون حول مدينة (عرعر)، وتزداد كثافتهم يوماً بعد آخر، كانت ظاهرةً مُلفتةً للنظر، ففي خلال أسابيع قليلة تضاعفت بيوت الشَعر، مساكن البادية، وأحاطتْ بمدينة (عرعر) من كل الجهات إحاطة السوار بالمعصم.

كنت أُلاحظ ذلك حين تجوُّلي مساء كل يوم ومعي المرحوم عبدالعزيز البعيجاني خلال تجوالنا في السيارة كل مساء، وكُنَّا نجهل السبب في ذلك، علماً بأنه لم تمضِ عدة أسابيع ـ كما قلت ـ حتى أصبحت بيوت الشَعر أكثر من عشرين ضِعفاً عما كانت عليه في مُستهل شهر ربيع الأول عام ١٣٨١هـ، ثم أصبحنا نسمع همساً يدور هنا وهناك بين المواطنين في (عرعر)، نقلاً عن أفراد البادية، فحواه أنَّ الحكومة السعودية سوف تُكرر صرف إعاشة أخرى للبادية، كما فَعَلَت في العام السابق، وفيما يتعلَّق بهذا الموضوع لم تكن لديَّ أي معلومات عن ذلك رغم مسؤوليتي.

سرُّ هذا التواجد المفاجىء:

وهذا يُظهر أنَّ أفراد البادية يمتازون بحسٍّ مُرهف في تسريب الأخبار، أو قل هم كعالم الذر، ما تكاد تسقط على الأرض (نقطة سمن)، حتى تجد

مئات الألوف في التوّ واللحظة من الذر على هذه النقطة.

ومتىٰ علمنا أنَّ أفراد البادية السعودية، المنتشرة على امتداد الحدود الشمالية المُتاخمة للعراق والأردن، على علاقة متصلة ومستمرة بين قبائل البادية الأخرىٰ المتواجدة داخل العراق، أو داخل الأردن أو داخل سوريا، فهؤلاء القبائل جميعاً تجمعهم، في الغالب، وشيجة القربى، وصِلة النسب كشمَّر والرُّولة وعنزة والحوازم والشرارات والحويطات وغيرها من القبائل - متىٰ علمنا ذلك أدركنا سرَّ هذا التجمُّع المفاجىء لهؤلاء البوادي، الذين أحاطوا بعرعر، وقد يبلغ عدد أفرادها القادمين من الخارج ما لا يقلُّ عن ضِعفي البادية السعودية في هذا المكان.

برقية مستعجلة من وزير المالية الأمير طلال بن عبدالعزيز:

في نهاية ربيع الأول من عام ١٣٨١هـ، فُوجئتُ بموزِّع البريد يطرقُ عليَّ الباب في حوالي الساعة الثامنة ليلاً بالتوقيت الغربي، يُسلِّمني برقيةً مغلَّفةً تحمل سمة (هام جداً ومستعجل)، كانت البرقية تحمل توقيع سموِّ الأمير طلال بن عبدالعزيز، وكان وقتذاك لم يكمِل الشهر منذ تولِّيه لوزارة المالية والاقتصاد الوطني، كان نصُّ البرقية على ما أذكر كالتالي:

إبراهيم الحسُّون - عرعر: يصِلُكم عن طريق البريد خطاب مستعجل، حالما يصلكم نفِّذوا مضمونه، وأشعرونا.

بطبيعة الحال حتى هذه اللحظة لم أعلم شيئاً عمّا عسىٰ أن يكون عليه مضمون هذا الكتاب، والمُلفت للنظر في هذه البرقية أنها مُعنوَنة باسمي الشخصي، وليس باسم رئيس مال وأمين جمارك الحدود الشمالية، مما يُعطي انطباعاً بأنَّ هناك علاقة خاصة أو تواصلاً بيني وبين سموِّ الأمير طلال، لأني حتى وصول تلك البرقية لم يسبق لي أن قابلته، أو اتَّصلتُ به، مما ينفي أن يكون فحوى هذا الكتاب هو شأنٌ خاص لا علاقة له بالعمل الرسمي.

وصول البريد المسجَّل:

انتظرتُ على أَحر من الجمر حتى تلقَّيت عن طريق البريد المسجَّل، بعد مُضيِّ ثلاثة أيام من وصول تلك البرقية، الخطاب الذي أُشير إليه فيها.

شيك مرفق مع الخطاب:

كان برفق الخطاب شيك باسم إبراهيم الحسُّون بمبلغ ثلاثة ملايين وتسعمائة ألف ريال، محوَّلاً على مؤسسة عبدالعزيز الراشد الحميد وإخوانه المصرفية، وكانت تزاول آنذاك عمل الصرافة في (عرعر).

مضمون الكتاب:

أما الخطاب فكان ملخِّصاً للمهمة التي من أجلها بُعث الشيك، ومرفق بالخطاب تعليمات محدَّدة، تزيد فقراتها عن عشرين فقرة، وهي توضِّح الطريقة التي يجب العمل بموجبها، أما مضمون الكتاب فكانت خلاصته:

أ - إنَّ الحكومة أيَّدها الله قد قررت أن تكرِّر مرةً أخرى إعاشة البادية السعودية الموجودة في المنطقة الشمالية.

ب - أن تكون هذه الإعاشة نقدية بدلاً عن الأطعمة والكساوي.

ج - أن يكون مقدار ما خُصِّص للفرد الواحد ٢٠ ريالاً سعودياً.

د - أن تكون هذه الإعاشة موحَّدة في إدارة واحدة، بمعنى أن تكون بادية القريات وبادية السكاكا وبادية طريف وبادية عرعر وبادية رفحاء كلها تُناط بجهة واحدة، تتولَّى الإحصاء والصرف التوزيع.

هـ - أن تُسند هذه المهمة بشخص إبراهيم الحسُّون وحده بحيث لا يكون لأمراء المناطق أو غيرهم أي علاقة بشأن هذه الإعاشة.

و - أن يقوم إبراهيم الحسُّون هذا بتولِّي المهمة وتنفيذها وَفقاً للتعليمات المحدَّدة التي أُرسلت له رفق الخطاب.

ز - إنَّ وزارة الماليَّة قد عَمَّدت مطبعة الحكومة بأن تُرسل كميات ضخمة من البطاقات التي ستعبَّأ عند عملية الإحصاء، ومن ثَمَّ يتمُّ الصرف بمُوجبها.

ح - إنَّ تلك البطاقات تتكوَّن من أصل وأرومة تعبَّأ جميعها عند الإحصاء.

أما فحوىٰ التعليمات فكانت كما يلي:

١ - أن يتمَّ الإحصاء بصفة واقعية فعلية، بحيث يتمَّ عدُّ أفراد الأسرة من البادية الموجودة في بيت الشَّعر، بعد الوقوف عليها.

٢ - أن لا يُقبل أيُّ بيان من رؤساء القبائل، أو من أمراء المناطق، أو من غيرهم، يتضمَّن أفراداً يطلب الصرف لهم بزعم أنهم من البادية، بل لا بدَّ من العدِّ الفعلي.

٣ - أن لا يزيد عدد ما يصرف لكلِّ أسرة عن خمسة أشخاص حتىٰ لو كان داخل البيت أكثر من هذا العدد.

٤ - أن تُشكَّل هيئة تتألف من مندوب من الإمارة، ومندوب من البلدية، ومندوب من المحكمة برئاسة مندوب من مالية (عرعر).

٥ - إنه لا بُدَّ من ذكر اسم القبيلة، التي ينتمي إليها الفرد، واسم شيخها، عِلماً بأنَّ البطاقات التي خُططت لهذه العملية، تتضمَّن حقولاً محددة هي: اسم الشخص، عدد أفراد أسرته، اسم القبيلة، اسم شيخ القبيلة، مقدار المبلغ المستحق له، ثم في آخر البطاقة تواقيع الهيئة المُشرفة على الصرف والتي مرَّ ذكر أسمائها.

٦ - التأكيد الشديد، والوعيد المُبالغ فيه، من قِبل وزير المالية سموُّ الأمير طلال، بأنه سيوالي بعث المراقبين والمفتشين، الذين سيكلَّفون بمراقبة أعمال الهيئة، والتفتيش عليها، وأنَّ أيَّ مخالفة أو خروج عن هذه التعليمات سيلقىٰ المتسبِّب فيه أشدَّ العقوبة.

جسامة المهمة وثقلها:

ومتىٰ علِمنا بقوة شخصية الأمير طلال وصرامته في تصرفاته، ومدىٰ جِديته في تحقيق تهديداته: أدركنا جَسامة هذه المهمة وثقلها.

اعتذاري عن تأدية المهمة:

طبعاً حالما قرأتُ الكتاب أبرقتُ لسموّه معتذراً بعدم استطاعتي على تأدية هذه المهمة، موضِّحاً له أنَّ وضعي الصحي لا يُمكِّنني من ذلك، وكنت مصاباً بمرض الصدر أمضيتُ من أجل علاجه مدَّة طويلة في مصح بحنَّس في لبنان، ولازالت آثاره معي لم تنتهِ بعد، وبحوزتي ما يُثبتُ ذلك، وهي تقارير المَصحة المذكورة.

كنت أتصوَّر بأنَّ هذا العذر المنطقي والشرعي والمقبول سيكون شفيعاً لي لدىٰ سموّه بإعفائي، ولكن مضىٰ أكثر من أسبوع دون أن أتلقَّى إجابةً على برقيتي تلك، فشفعتها بأخرى مؤكدةً لمضمون الأولى، ومع ذلك مرَّ أسبوع آخر دون رد.

أبعاد المهمة وحساسيتها وخطورتها:

كنت خلال ذلك في حالةٍ لا أُحسد عليها، ولا أكذب على القارىء إذا ما قلت أنه قد يمرُّ عليَّ اليومان والثلاثة دون أن تذوق عينيَّ طعم النوم - كنت أتصوَّر في خيالي أبعاد المهمة وحساسيتها وخطورتها في الدرجة الأولى، إذ أنَّ مضمونها يستلزم بداهةً أول ما يستلزم الوقوف على كلٍّ بيت من بيوت الشَعر الذي يقطنه ربُّ الأسرة من أفراد البادية، وَعَدُّ الموجودين فيه كما يُعدُّ قطيع الغنم، وهو أمرٌ في حكم المستحيل؛ لأنَّ البدوي عنده من الأنفة والإباء والمبالغة في صيانة العرض ما يجعله يمنع مثل هذ العَد، الذي يجعل من أفراد أسرته قطيعاً من الماعز، يمنع هذا الإجراء حتى لو أدى الأمر إلى استعمال السلاح في وجه مَن يقوم بهذا العمل، وهذه صفة معروفة عن العربي منذ أقدم العصور.

ثم إن المهمة تُغطِّي رقعة تمتدُّ من أقصى وادي السرحان من الغرب إلى شعبة نصاب فالنفود من جهة الجنوب، فمركز عزقا، أي: أنها تشمل منطقة قد تزيد مساحتها عن ألف وخمسمائة كيلومتر مربع.

انتشار خبر الإعاشة النقدية:

مضى أسبوعان دون أن يصلني الرد، وخلال تلك الفترة، انتشر الخبر الذي كان يدور في الهمس سابقاً، وهو أنَّ هناك إعاشة نقدية للبادية، وأنَّ هذه الإعاشة قد وصلت فعلاً إلى (عرعر)، وأنَّ المُكلَّف بها هو إبراهيم الحسُّون، وعلى هذا الأساس أخذ مشايخ القبائل يملؤون بيتي يومياً، وفي مقدمتهم الأسمر بن مشهور، وابن دُغمي، ورؤساء الحوازم، والفهيدات، والشَّرارات، وشمَّر، مما لا تحضرني أسماؤهم.

توافد مشايخ القبائل على بيتي مطالبين بصرف الإعاشة:

كانوا يصابحونني كلَّ يوم، ويلاحقونني أينما كنت، مطالبين بسرعة صرف هذه الإعاشة، مما اضطرني إلى النزوح خلسةً من منزلي صباح كل يوم إلى عملي، ووضع اثنين من الجنود على باب مكتبي، لمنع هؤلاء الدخول إليَّ. كان ذلك يسبب لي إزعاجاً واختناقاً لا يُطاق، لأنني في حَيْرةٍ من أمري، لا أعرف كيف أتصرَّف.

برقية من الأمير طلال بإلزامي بتنفيذ ما كلِّفت به:

وأخيراً، وبعد لأيٍ، وصلتني برقية من سموِّ الأمير طلال وزير المالية مشيرة إلى مضمون برقياتي السابقة له، ومفيدة بأنه لا مجال لقبول اعتذاري، وأنَّه عليَّ أن أنفِّذ ما كُلِّفت به، وإذا كنت مريضاً حقاً فعليَّ أن أتوجَّه إلى المستشفى المركزي بالرياض لفحصي من قِبل مجموعة أطبائه، وتقديم التقرير اللازم عن نتيجة الفحص لوزارة المالية.

وبما أن وضعي الصحي في تلك الأيام وَضع جيد، فقد كان من غير الممكن التوجُّه إلى الرياض، وعلى ذلك فلا مفرَّ ولا محيص، ثم علمتُ

في اليوم الثاني من مدير لاسلكي (عرعر) الصديق المرحوم زكي طه أنه تلقّى أمراً من وزارة المالية عن طريق مرجعه بأن لا يقبل استلام أي برقية تدور حول إعاشة البادية النقدية تحت توقيع إبراهيم الحسُّون، وقد قدَّم لي صورةً من نصِّ تلك البرقيّة.

ضيق وحَيْرة:

ضاقت عليَّ الأرض بما رحُبت، وضاقت عليَّ نفسي، وتمثَّلت صِدق قول الشاعر:

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتىٰ فأولُ ما يجني عليه اجتهادُهُ

بمعنىٰ أنني لو تركتُ الأمور في إعاشة البادية السابقة بِيَد الموظفين ذوي العلاقة، وأبعدتُ نفسي عن تولِّيها والإشراف عليها لما وقعتُ بهذه الكارثة.

إحكم طوق الخناق عليَّ من رؤساء القبائل:

أُوصدت الأبواب في وجهي، وكان أشدَّ ما يضايقني رؤساء القبائل الذين أحكموا عليَّ طوق الخناق، وكاد الغيظ في نفوسهم أن يحملهم على الفتك بي، ولتكن العاقبة ما تكون.

كان الأمر في أحد بنوده صريحاً، فإنَّ لي الصلاحية المُطلقة في اتخاذ الترتيب أو الترتيبات التي أراها محقِّقة لتنفيذ هذه المهمة، ولذلك فقد عزمت أمري وتوكَّلت على الله مُردِّداً مع الشاعر:

إذا لم يكن إلاَّ الأسنة مركباً فما حيلة المضطر إلا ركوبها

الشروع بتنفيذ المهمة:

وعلى ذلك قررتُ أن أعمل، وأن أَشرع بالتنفيذ، ولكن كيف؟ كيف يتم الإحصاء؟ كيف يمكن اختراق المستحيل بِعَدِّ أفراد أسرة البدوي داخل بيت الشَعر؟ كيف يمكن حرمان من هم في بيت الشَعر، الذين يزيدون عن

الخمسة المحدَّدين في التعليمات؟ كيف يمكن حرمانهم دون إخوانهم الآخرين؟ أيُّ منطقٍ وأيُّ عقلٍ يستسيغُ مثل هذا الإجحاف؟! وبعونٍ من الله وتوفيقه وُفِّقت إلى حلٍّ هذه المعضلة.

حل معضلة عد أفراد الأسرة:

بالنسبة لعدد أفراد الأسرة اكتفيتُ بأن أقف والهيئة على بُعد أمتار من بيت الشَعر، وأنظر من بُعد إلى من داخل البيت دون أن أقترب منهم، ثم أخمِّن عدد الموجودين تزيد شخصاً أو شخصين أو تنقص.

حل معضلة تحديد العدد:

أمَّا بالنسبة لتحديد العدد الذي يستحق الصَّرف داخل البيت بخمسة، وحرمان من عداهم، فقد لجأتُ، إذا رأيت أنَّ من داخل البيت أكثر من خمسة، أن أسأل صاحب البيت عمَّا إذا كان له ولد، وفي حالة الإيجاب أُسجِّل صاحب البيت وخمسة ممَّن هم في داخله، وأُسجِّل اسم الابن مستقّلاً ومعه العدد الزائد عن الخمسة داخل البيت.

نيابة مدير جمرك طريف في رئاسة المالية وأمانة الجمارك الشمالية:

بحلِّ هاتين المعضلتين استدعيتُ مدير جمرك طريف الأخ علي لافي ليتولَّى إدارة العمل في رئاسة المالية وأمانة الجمارك الشمالية نيابةً عني، لكي أتفرَّغ لهذه المهمة بعد أن كلَّفت مساعده حسن صابر بأن يتولَّى العمل مكانه في إدارة جمرك طريف.

تشكيل أربع لجان:

وهنا شكَّلتُ أربع لِجان، كلُّ لجنةٍ تتكوَّن من مندوب المالية رئيساً، ومعه مندوب من البلدية، ومندوب من الإمارة، ومندوب من المحكمة، مزوَّدين بدفاتر خاصة، وكنتُ أرأس إحدى تلك اللجان.

عملية الإحصاء:

بعد أن زوَّدتُ هذه اللجان بما يجب عمله بالنسبة لكيفية عدِّ أفراد

السعودية الكويتية تبلغ مائتي (كم) من الخفجي في الشرق إلى الرقعي في الغرب، كلها أرضٌ مستوية السطح، لا عوائق فيها ولا مجال لتحديد طرق معيَّنة خلالها.

كانت الجلسات تُنظَّم في مَحاضر في نهاية كل اجتماع، تُطبع وتوزَّع على الأعضاء في اليوم التالي للاجتماع، موضِّحةً المناقشات التي تمَّت خلال الجلسة، والآراء التي أُبديت من كل عضو.

عقد اجتماع في قصر شبرا بالطائف:

ثم رُؤي بعد عقد عدة جلسات أن يكون عقد الاجتماع في قصر شبرا المعروف بالطائف تحت رئاسة صاحب السموّ الملكي الأمير فهد بن عبدالعزيز، وتكون قاصرةً على أمناء الجمارك، وأمراء المنطقة الشرقية، ومدير عام مصلحة الجمارك، ومدير الأمن العام، ومدير عام خفر السواحل، ومدير عام الجوازات والجنسية.

حضرتُ جلستين من جلسات شبرا ترأَسَّها صاحب السموّ الملكي الأمير فهد بن عبدالعزيز، ثم استلزم الأمر عودتي إلى (عرعر) على أن ينوب عني المرحوم سليمان البطاح مدير مالية الطائف آنذاك.

نتائج المؤتمر:

والذي أعرف عن نتائج هذا المؤتمر أن الاجتماع تبلور عن نقطتين أساسيتين هما: إنشاء جهاز لسلاح الحدود يُدَّعَم بأجهزةٍ كافيةٍ من السيارات والجنود، تُسندُ إليه مهمة القيام بدوريات مستمرة متعاقبة على مدار أربع وعشرين ساعة على الحدود بين الكويت والسعودية.

أمّا النقطة الثانية: فهي النظر في إمكانية تخفيض الرسوم على الأدخنة بنسبة تمنع الإغراء على مزاولة التهريب.



الأسرة، وبالنسبة لما يجب لعدد من في البيت زيادة عن خمسة، بدأنا عملية الإحصاء من مطلع شمس ذلك اليوم. بدأنا منطلقين من آخر بيت شَعر موجود من جهة القبلة عن (عرعر) بادئين على هيئة جناح، تبعد كل هيئة عن الأخرى بثلاثمائة متر تقريباً، كل هيئة تسجِّل بدفترها ما تُحصيه، موضحةً فيه اسم الشخص، واسم قبيلته، واسم رئيس القبيلة، وعدد أفراد أسرته.

استمرينا في العمل حتى صلاة الظهر، وتناولنا الغداء بعد أدائها، ثم عدنا إلى العمل بعد استراحة لم تدم أكثر من ساعة ونصف على أكبر تقدير، واصلنا العمل حتى غروب شمس ذلك اليوم، وكُنَّا قد بلغ منا التعب والإرهاق مَبلغه.

وصول البطاقات:

بُعيد صلاة العِشاء من تلك الليلة، اجتمعت الهيئات الأربع في منزلي، وكانت البطاقات قد وصلت من مقام الوزارة ضمن طرود مخيطة ومختومة بالرصاص، وموضِّحة الأعداد ضمن كل طرد.

تعبئة البطاقات:

فتحنا أحد الطرود وجَردنا محتوياته من البطاقات ووضعنا بها مَحضراً، ثم وزِّعت على كل هيئة كمية من هذه البطاقات، وشَرعتْ تُعبىء هذه البطاقات مفرغةً فيها ما هو مسجَّل في الدفتر لديها - ظَلَلْنا نعمل حتىٰ الهزيع الأخير من الليل، حتى أُكملت تعبئة تلك البطاقات، وجرىٰ توقيعُها من قبل الهيئة التي قامت بالتسجيل، كان عددها فيما أذكر نحو ألفيّ بطاقة، ثم ذهب الجميع لبيوتهم مُنهكين من التعب والسهر، لكي يأخذوا قسطاً من النوم في بيوتهم.

مفاجئة مُذهلة:

في صباح اليوم التالي حضرتْ الهيئات الأربع إلى منزلي، فاصطحبنا البطاقات معنا، وتوجَّهنا إلى حيث انتهينا بالأمس لنوزِّع هذه البطاقات على

أصحابها، ومن ثمَّ نستمر في العمل كعملنا بالأمس. وما كِدنا نصل إلى المكان حتى فُوجئنا بأنَّ المكان الذي أتممنا فيه عملية الإحصاء بالأمس هو أرض فضاء لا يوجد فيها بيتٌ واحد، ومعنى ذلك أنَّ جميع مَن تَمَّ إحصاؤهم بالأمس وتسجيلهم قد نقلوا بيوتهم في ظلام الليل إلى الأماكن التي لم نصلها بعد.

لعبة القط والفار:

والنتيجة المترتِّبة على هذا الإجراء أن يتمَّ إحصاء هؤلاء مرةً أخرى، خاصةً وأنَّ أفراد البادية على العموم تتشابه ملامح وجوههم وسحنهم، وأنهم معروفون ببراعتهم في تغيير أسمائهم عدة مرات فمثلاً: مَن كان اسمه (خنيفس بن جعل) يصبح اليوم (جرَيّ بن كليب) أو (جعل بن خنيفس) وهكذا... مما يجعل معرفة أشخاص مَن تَمَّ إِحصاؤهم بالأمس ضرباً من المستحيل، ويترتَّب على هذا الوضع أن تكون عملية الإحصاء أشبه بلعبة القط والفأر، وأنه سيتكرر التسجيل مرات ومرات، وقفنا طويلاً مشدوهين بما حدث، ومشدوهين أكثر فأكثر من قدرة هؤلاء الأعراب على نقل بيوتهم وأثاثهم التي لا يقلُّ عددها عن ألفي بيت، كما سبق أن أوضحنا، خلال ليلة واحدة!!

التوقف عن مواصلة الإحصاء:

واضح من ذلك أنه لا مجال لمواصلة الإحصاء، نظراً لهذا الوضع الطارىء، ولذلك أمرتُ الهيئات بالتوقُّف عن العمل هذا اليوم ريثما نبحث عن حلٍّ يمكِّننا من الاستمرار في عملية الإحصاء، ويُجنبنا الوقوع بالمأزق الذي وقعنا فيه.

عرض الموضوع على سمو الأمير عبدالله بن مساعد:

أسرعتُ إلى سموِّ الأمير عبدالله بن مساعد في مكتبه، وشرحتُ له صورة الوضع بكامل تفاصيلها، طالباً منه المَشورة والرأي والعون

والمساعدة، تناقشنا طويلاً في الموضوع، واستعرضنا شتىٰ الحلول والإمكانيات، وبعد أكثر من ساعتين عاد النقاش إلى نقطة الصفر، واتضَّح بما لا يقبل الشك استحالة العثور على حل. ذاك أنَّ الحل الوحيد الممكن الذي يضمن ضبط العملية، هو أن يُوضع أمام كلِّ بيت يتمّ تسجيله جندي يقوم أمامه ليمنعه من الانتقال من مكانه، وهذا أمر واضح الاستحالة؛ لأنَّ جنود الأمن الموجودين في (عرعر) ـ فيما لو فُرض جدلاً تنفيذ هذا الإجراء المستحيل ـ لا يساوي خمسة بالمائة بالنسبة لبيوت البادية.

نفق مظلم:

غادرتُ مكتب سموّه مهموماً مغموماً لا أرىٰ في النفق المظلم أمامي أيَّ نور أو بارقة أمل.

توافد زعماء البادية إلى داري:

ما كدتُ أصل إلى داري حتىٰ أخذ زعماء ورؤساء البادية يتوافدون باتجاه داري حينما علموا عن توقُّف عملية الإحصاء ـ اضطررتُ أن أترك باب مجلسي مفتوحاً لهم ليل نهار، وهم يملؤون ساحته مزدحمين، يكاد بعضهم يجلس فوق بعض.

حنق وغيظ:

ولكسب الوقت من جهة، وكسر حِدَّة حنقهم وغيظهم من جهة أخرى، أفهمتهم بأنَّ عملية الإحصاء توقفت؛ لأنَّ هناك مخابرات مستمرة مع الحكومة تستلزم إيضاح بعض الأمور المتعلِّقة بالعملية، وحالما يتمُّ ذلك ستُستأنف عملية الإحصاء بكلِّ سرعة ممكنة، ثم غادرتُ مجلسهم وعيونهم جميعاً تنظر إليَّ شزراً، وتكاد تلتهمني من الغيظ.

دوامة مفرغة:

كنتُ في قرارة نفسي أحسُّ بأني في دوامةٍ مفرَّغة، حيران لا أعرف أين أتَّجه؟ ولا ماذا سأفعل؟ قررت في نفسي أن ألتزم الاعتكاف في بيتي،

موعزاً إلى الموظفين بأن يوهموا هؤلاء المشايخ والرؤساء أنني قد سافرت ليلاً إلى الرياض بطلبٍ من الحكومة، وأني سأعود قريباً.

تأمل وتفكير:

كان الغرض من هذه الحِيلة أن أتيحَ لنفس فسحة من الوقت للتأمُّل والتفكير. قضيتُ ستة أيام، وأنا معتكف داخل منزلي، ويعلم الله أنَّ عينيَّ لم تذق طعم النوم إلا لماماً قد لا تزيد عن الساعة أو الساعتين، في كل ليلة، مهموماً مغموماً، وعَزَفَت نفسي عن تناول الطعام حتى بان ذلك على ملامح وجهي.

ابتكار طريقة فريدة:

في الليلة السادسة من هذا الاعتكاف، وقُبيل الفجر بقليل أخذتني غفوة من النوم لا أعرف مقدارها، وإنما أعرف أنني قمت نشطاً منشرح الصدر وكأنني لا أحمل أيَّ هَمّ، وإذا بي أوفَّق إلى ابتكار طريقة فريدة خلتُها مُخرِجتي من هذا النفق المظلم، وبالتالي ممكِّنة لي بتنفيذ كامل المهمة في راحة ويُسر.

تَمثَّلتْ تلك الفكرة في أن بعثتُ خادمي بعد صلاة الصبح إلى حيث يسكن حارس المالية عبدالعزيز الدغيثر وصالح المعتق، ويطلب منهما الحضور إليَّ في الحال.

شراء علب البويا والفرش:

ما هي إلا لحظات حتى كانا أمامي، وهنا أمرتُهما بأن يذهب كلٌّ منهما إلى الدكاكين الممتدة على جانبي الشارع العام في (عرعر)، وأكثرها دكاكين العراقيين. أمرتهما بأن يذهبا بعد شروق الشمس مباشرةً ويشتريا كل ما في هذه الدكاكين من علب البويا الموجودة، وكذا الفرش يشتريانها باسم المالية، يحصر الواحد منهما مقدار العلب الموجودة في كلِّ دكان مع فرشها، ويتَّفق مع البائع على القيمة، ثم يطلب من البائع المحافظة عليها

ريثما تأتيه سيارة المالية ومعها موظف يدفع له القيمة، ويستلم منه هذه الكميات. ثم بعثتُ اثنين من موظفي المالية، كلٌّ منهما ترافقه إحدىٰ سيارات المالية، وعمَّدت البنك بأن يدفع لكلٍّ واحد من هؤلاء الموظفَين مبلغ ألفي ريال، وعمَّدت هذين الموظفَين بأن يذهب كلٌّ منهما مع حارس يدلّهما على الكمية التي اشتراها وأبقاها في دكاكين أصحابها، ويوضِّح لهما مقدار القيمة التي اتُّفق عليها.

ما كاد ينتصف نهار ذلك اليوم حتىٰ كانت هاتان السيارتان، وهما من نوع الوانيتات الفورد تقفان أمام دائرة المالية محمَّلتان بعلب البويا على مختلف أنواعها، وكميَّات هائلة من الفرش، وأكاد أقول أن جميع ما كان في الدكاكين من هذا النوع قد سُحِب. وهنا أظهرتُ نفسي مُوهماً تلك الجموع من البادية بأنني قد عدتُ ليلاً من الرياض.

ترقيم بيوت الشَّعر:

طلبتُ من أعضاء اللجان الأربع أن يكونوا في صباح اليوم التالي أمام بيوت الشَعر، لمواصلة عملية الإحصاء، وزوَّدت هذه اللجان الأربع التي أرأس واحدةً منها بحارسين يرافقان كلَّ هيئة، أحدهما يحمل علبة بويا، والآخر ممسكاً بالفُرشة ليسجل على طرف البيت بالبويا الرقم الذي يطلب منه رئيس الهيئة وضعه على البيت، فيبدأ الرقم من (١) ثم يستمرُّ متسلسلاً، بينما يقوم الموظف المرافق لكلِّ هيئة بتسجيل اسم الشخص والرقم الذي وُضع على بيت الشَعر. وأنَّ على رئيس الهيئة أن يُفهِم صاحب البيت بأنَّ عليه (أي على صاحب البيت) المحافظة على سلامة هذا الرقم الذي وُضع على بيته، من المحو أو الإزالة، لأنَّ الإعاشة التي ستصرف له يتوقَّف صرفها على وجود هذا الرقم الموجود على بيته.

مواصلة عملية الإحصاء:

سارت عملية الإحصاء من قِبل الهيئات الأربع، وَفقاً لهذه التعليمات على أحسن ما يكون، حتىٰ أكملتُ ذلك اليوم، ثم حضرتُ إلى داري

كالعادة، ووزعت البطاقات عليها، وأخذت كل هيئة تُعبيء البطاقات من دفتر التسجيل الذي معها، واضعةً على كل بطاقة الرقم الموضوع على بيت الشَعر العائد لصاحب البطاقة.

محافظة البدو على أرقام البيوت:

وخلال تلك الليلة هطلت علينا أمطار خفيفة، وقد دبَّ إلينا الخوف من أن تكون تلك الأمطار قد أزالت الأرقام التي على البيوت، ولكن ما حصل كان مدهشاً حقاً، حيث رأينا في صباح اليوم التالي أنَّ أصحاب تلك البيوت، حينما أحسُّوا بِدنو المطر وضعوا على تلك الأرقام ما يَقيها من المطر، كما لاحظنا أن جميع مَن أحصيناهم في الأمس بقي في مكانه، ولم يتزحزح شبراً واحداً.

نجاح العملية:

من ذلك تأكَّدتُ أنَّ العملية نجحت مائة بالمائة ـ استمرينا مدة أسبوع على ما أذكر في عملية الإحصاء، حتى أتممنا عملية الإحصاء لجميع بيوت البادية المحيطة بعرعر.

كُنَّا نحصي في النهار، ونقوم بتعبئة البطاقات في الليل، وفي صباح اليوم التالي نوزِّع هذه البطاقات على مستحقيها وَفْق الأرقام التسلسلية، موضِّحين لهؤلاء البادية بأنَّ عليهم أن يحتفظوا بهذه البطاقات، حتى يسمعوا بأنَّ الهيئة بدأت بالصَّرف، وعندئذٍ يقدِّموا لها هذه البطاقات، ليستلموا ما سُجِّل لهم عليها.

اختصار الهيئات إلى ثلاث:

بعد ذلك اخْتَصَرْتُ الهيئات من أربع إلى ثلاث، وقَسَّمتُ المنطقة المراد القيام بعملية الإحصاء فيها إلى ثلاث مناطق: منطقة تشمل العويقيلة، ورفحاء وما يُجاورها من أماكن تواجد البادية، وقد أَسندتُ رئاسة هذه اللجنة إلى الصديق محمد الرجراجي مدير جمرك عرعر آنذاك.

أما الثانية فتشمل قريات الملح والنَّبك ووادي السِّرحان ومنوة وإثرة ومُنيوة، وكل الأماكن المتَّصلة بهذه المنطقة، والتي عليها أفراد البادية، وأُسندتْ إلى يوسف الكركدان مدير جمرك رفحاء.

أما المنطقة الثالثة: وهي الأكبر والأهم، فتشمل عرعر وحزم الجلاميد وطريف وسكاكا والجوف والنفود وعذفا وصفيًا وأم الضبيان والمعاينة والجديدة، وكل الأماكن التابعة لها التي فيها أفراد البادية، وتوليتُ بنفسي رئاسة هذه اللجنة.

تزويد الهيئات الثلاث بكل المستلزمات:

مكثتْ الهيئات الثلاث ثلاثة أيام في عرعر، استأجرتُ لكلِّ هيئة سيارة صغيرة لتنُّقلات أعضاء الهيئات، وسيارة لوري كبيرة تحمل بيتين من الشَّعر بمستلزماتهما، وثلاث خيام أيضاً مع معدَّات الطبخ، وما يلزم للسفر من أثاث، كما زوَّدت كلَّ هيئة بسيارة وانيت، وبصندوق من الحديد، وبستة جنود مع عريف يستقلون هذا الوانيت لحراسة الصندوق والمحافظة عليه.

استأجرت الصناديق الثلاثة من تجار عرعر، زوَّدت كلَّ هيئة بكميات كافية من علب البويا ومن الفرش، كما خصَّصت مع كل هيئة عاملين يقومان بمرافقة الهيئة: أحدهما لعلب البويا والآخر للترقيم. وبعد أن أمَّنت لهما كل ما تستلزمُهُ عمليتهم من أرزاق وأثاث ومعدات، فعلت ذلك على مسؤوليتي الخاصة، دون أن أراجع وزارة المالية، أو آخذ موافقتها على أيِّ إجراءٍ أتخذه.

بعد ذلك كله، وبعد أن أمَّنتُ لكل هيئة طباخ ومعاونه، وأربعة من العمال، لكي يقوموا بِنَصب الشِّرَع وبيوت الشَعر والخدمات التي تؤمِّن راحة أعضاء الهيئة، بعد ذلك زوَّدتُ كل هيئة بخمسمائة ألف ريال تُحفظ في هذا الصندوق الموجود على الوانيت المرافق لها، الذي يحتفظ رئيس الهيئة بمفتاحه، بينما يقوم الجنود بحراسته، والمحافظة عليه.

بعد أن تمَّ تجهيز ذلك كله ودَّعتُ هاتين الهيئتين، متجهةً كلٌّ منهما إلى منطقتها، بعد أن أوضحتُ لهما الكيفية التي تتم فيها العملية، وهي مماثلة للعملية التي تمَّت بحضورهما في عرعر: يتمُّ الإحصاء أولا، ثم تُعبأ البطاقات ثانياً، ثم توزَّع هذه البطاقات على أصحابها ثالثاً، ثم بعد ذلك يتمّ البدء بعملية الصرف؛ موضِّحاً لكل منهما بأن عليه أن يتصل بي برقياً طالباً المبلغ الذي ينقصه لتكملة الصَّرف لكي أبادر بإرساله إليه.

مباشرة الهيئات الثلاث بعملها:

واضح من ذلك أنَّ الصرف الفعلي للبطاقات لا يتمّ إلا بعد إتمام عملية الإحصاء، كاملةً باشرت الهيئات الثلاث عملها، وكان عملاً شاقاً مرهقاً، خاصةً أنَّ البادية لجأت إلى حِيَل متنوعة: منها أن تضع خشبة أو خشبتين تنصبها على أعمدة من الخشب مدَّعية بأنها فقيرة لا تملك بيوتاً، وأن هذه الخياش هي بيوتها، ويسمُّون هذه الخياش أو قطع البسط أو ما شابهها يسمُّون ذلك (خربوشاً)، وكنا مضطرين أن نضع على هذا الخربوش رقماً، ونسجِّل اسماً لصاحبه، ونصرف له بطاقة.

مصاعب ومتاعب:

ظلَّت عملية الإحصاء قرابة شهرين ونصف تقريباً، وعانيتُ منها أنا بالذات من المصاعب والمتاعب ما لا يُحتمل، لأن مساحة عمل الهيئتين معاً لا يساوي نصف مساحة العملية التي تولَّيتها بنفسي.

كنت عمَّدت الهيئتين بأن لا تبدءا بصرف البطاقات إلا بعد أن يعلماني أولاً عن انتهاء عملية الإحصاء، وعن العدد الإجمالي لمجموع الإحصاء، وأن لا يَبْدءا بالصَّرف إلا بعد أن تَرِدْهُما موافقتي.

برقية مستعجلة:

في اليوم الذي عدتُ إلى منزلي، مُنهياً عملية الإحصاء بعد جهود مُضْنية، بعد غيبة عن أهلي امتدت أكثر من شهرين ونصف قبل أن تقف بي

السيارة أمام منزلي، إذا بموزِّع البريد المرحوم محمد المرسي يسلِّمني برقيةً مستعجلةً، تحمل على الظرف عبارة (عاجل جداً وهام جداً).

كانت البرقية موجهةً إلى إبراهيم الحسُّون، وصوراً منها لكلٍّ من سموِّ أمير منطقة الحدود الشمالية عبدالله بن مساعد، ومعالي أمير منطقة الجوث في سكاكا عبدالرحمن بن أحمد السديري، ومفتش القريات ومُلحقاتها عبدالله بن عبدالعزيز السديري.

إلغاء عملية الإحصاء:

كان فحوى البرقية أنه بناءً على تأخُّر البدء بصرف إعاشة البادية، ونظراً لألوف البرقيات التي رُفعت من أفراد البادية ورؤساء العشائر، ومن أمراء المراكز، فعليكم إلغاء عملية الإحصاء، وبدء الصرف على أساس البطاقات التي تمَّ الإحصاء عليها في العام الماضي والتي تمَّ بموجبها صرف إعاشة البادية من الأطعمة والكساوي.

وقع البرقية على نفسي:

كان وَقْع مضمون هذه البرقية على نفسي أَشْبَه بوقوع الصاعقة، فمعنىٰ ذلك أنهم فرضوا العمل بموجب بطاقات سابقة، وفي هذا إهدارٌ لهذه الجهود الضخمة، والمشاق والمصاعب التي عانيناها، والإجراءات التي أقدمتُ عليها من تلقاء نفسي، وما يترتَّب عليها من نفقات طائلة، لم يكن لديَّ أي تفويض على القيام بها، يُضاف إلى ذلك كله الشماتة والغمز واللمز.

غيظي وانفعالي:

قرأتُ البرقية ويدي ترتعش من الغيظ والانفعال، كانت البرقية موقَّعةً من سموِّ الأمير نواف بن عبدالعزيز الذي كان قد خَلف وقتذاك أخاه طلال على وزارة المالية. أمرت السائق بأن يذهب لعائلته، ويغيِّر ملابسه ويُعبىء السيارة بالبنزين، ويعود إليَّ في مدة لا تزيد عن ساعة.

سفري الاضطراري للرياض:

حضر السائق في الوقت المحدَّد، فودَّعتُ أهلي مُحتفظاً بملابسي التي كنتُ أرتديها خلال المهمة، وواصلت سفري إلى الرياض دون أن يعلم بي أحد، اللَّهم إلاّ موزِّع اللاسلكي وأهلي.

غادرتُ عرعر ظهراً، وقُبيل ظهر اليوم التالي كنت أدلف إلى مبنىٰ وزارة المالية، مواصلاً سيري طيلة الليل، مارّاً برفحاء فشعبة نصاب، فحفر الباطن فالنعيرية، فالدمام، فالظهران، فبقيت دون أن يغمض لي جَفْن أو أستريح لحظة.

مدير إدارة الواردات السيد إبراهيم السقّاف:

كان مدير إدارة الواردات في وزارة المالية آنذاك هو المرحوم إبراهيم السقَّاف أحد أبناء مكة، دخلتُ عليه مكتبه، وكنتُ أعرفه من السابق، تبادلنا الحديث بعبارات المُجاملة بطريقة مُقتضبة، سألته عما إذا كان سموّ الأمير موجوداً في مكتبه؟ استوضح مني: ماذا تريد منه؟ أخبرني حتىٰ أبلِّغه.

دخول مكتب سموِّ الأمير نواف دون استئذان:

أجبته بأني أرغب مواجهته شخصياً. أجابني بأنه مشغول، ثم طلب مني الانتظار في مكتبه.

وهنا تركني وغادر المكتب، ففهمتُ أنه لا يرتاح لاتصالي بسموِّ الأمير، وهنا أسرعتُ خلفه، فإذا بي أراه يَلِجُ مكتب الوزير، وهنا أسرعتُ خلفه، واقتحمتُ عليهما المكتب دونما استئذان، وإذا بي أسمعه يذكر اسمي له، وهنا تقدَّمت إلى الوزير قاطعاً على الأخ إبراهيم السقاف حديثه، موجِّهاً كلامي لسموِّ الوزير، قائلاً له بعد أن صافحته: أنا فلان الفلاني، وصلتُ لتوي مدينة الرياض قاطعاً أكثر من ثلاثين ساعة في السَّير، بهدف مقابلة سموِّكم (علماً بأن هذا أول لقاء لي مع الأمير نواف ـ لم يسبق لي أن رأيته أو اتَّصلت به، أو تعاملت معه).

قدمتُ من أجل هذه البرقية التي تسلَّمتها ظهر أمس فَورَ عودتي لعرعر مُكملاً عملية الإحصاء في كافة المنطقة، مبيِّناً له أنني لا أعارض مضمون البرقية، لأنني ما دمت موظفاً في الخدمة، فأنا جندي أعمل حيث أُؤمر، وأنفِّذ ما يُطلَب مني تنفيذه، بَيْدَ أنَّ هناك أمر هو من الأهمية والخطورة بمكان، وهو أن يكون الموظف أميناً وصادقاً في مسؤوليته فوق كل اعتبار، وهذا الحرص يقتضي أن أوضح الصورة لسموِّكم، لعلمي أنَّ سموَّكم خالي الذهن عن هذه القضية وخلفياتها ومُلابساتها.

شرحي للأمير موضوع الإعاشة وعملية الإحصاء:

ثم شرحتُ له مفصَّلاً قضية إعاشة العام الماضي وما تمَّ فيها ورافقها من تزوير وعبث، ملخِّصاً حديثي في النهاية بأنَّ عملية الإحصاء قد تمَّت الآن نهائياً، وأنَّ البدء بالصرف للبادية سيتمّ فور عودتي إلى (عرعر)، وأنه في حالة الأخذ ببطاقات العام الماضي ستتكلَّف الخزينة مبالغ طائلة، بينما إذا تُركنا نستمر في إنهاء هذه المهمة على الإحصاء الذي أتممناه فعلاً فإنه سيوفِّر للخزينة من المبلغ المرصود ما لا يقلّ عن نصف مليون ريال.

إنصات واهتمام:

كان سموُّ الوزير ينصتُ لحديثي باهتمام ظاهر، وعندما انتهيت، أجابني بقوله: هل تستطيع أن تسجِّل ما ذكرته لي الآن ضمن تقرير رسمي توقِّعه، وتقدِّمه إليَّ متحمِّلاً مسؤوليته؟ أجبته: نعم وعلى الفور؛ وسيكون هذا التقرير بين يَدَي سموِّكم بعد مدة لا تزيد عن نصف ساعة.

هنا غادرتُ مكتبه واتَّجهتُ إلى مكتب مجاور يوجد فيه الصديق محمد الصدِّيقي الموظف على الآلة الكاتبة الموجودة بجوار مكتب الوزير.

كتابة التقرير:

طلبتُ من الأخ محمد هذا أن يُهيىء أوراقاً وكربوناً على الآلة، وابتدأتُ أُملِي عليه التقرير مشافهةً من الذاكرة لأنَّ صورة الموضوع كاملة في

ذهني. وبعد نحو عشر دقائق كان التقرير قد اكتمل، وقَّعته ثم قدَّمته لسموِّ الوزير في مكتبه، وقد بَدَت على سموِّه علامات الدهشة والاستغراب أن أكون أنجزتُ هذا التقرير بهذا التركيز وبهذه السرعة.

إلغاء برقية الأمير الأولى:

هنا طلب الوزير حضور محمد الصدِّيقي، فأملى عليه برقيةً مضمونها إلغاء مضمون برقية سموِّه الأولى، والاستمرار في تنفيذ وإكمال العملية الأخيرة. وهنا طلبتُ من سموِّه أن يكون توجيه البرقية على عرعر باسمي على أساس أني موجود هناك، وأن يُعطىٰ من هذه البرقية صوراً للجهات التي أُعطيت لهم صور من برقية سموِّه السابقة.

وضعتُ المسوَّدة بخط يدي أمام سموِّه، ثم أُمر محمد صدِّيقي بطبعها فوراً، بعد دقائق دخل محمد صدِّيقي بالبرقية فوقَّعها سموُّه أمامي، وأخذتُ صورةً منها، بعد أن تمَّ توقيعها من قِبل الوزير، وبعد أن وُضع عليها رقم الصادر العام.

غادرت مكتب سموِّه بعد أن شكرته على حرصه على المصلحة العامة وعلى استيعابه وتفهُّمه لجوهر المشكلة، وعلى ثقته بصدق ما شرحت لسموِّه.

العودة إلى عرعر:

غادرتُ الرياض بُعيدَ ظهر ذلك اليوم بعد أن ودَّعت سموَّ الوزير، متوجِّهاً إلى عرعر، أحمل صورة البرقية التي وُجِّهت إليّ باعتباري موجوداً في عرعر. قُبيل فجر ذلك اليوم وصلتُ عرعر عن طريق البر بعد أن قطعتُ ما لا يقلُّ عن ٣٠٠٠ كيلومتر على طريق غير معبّد مواصلاً السَير، لم أقف إلاّ للتزوُّد بالبنزين من محطات الطريق.

وما كدتُ أصل إلى منزلي حتى ارتميتُ على فِراشي منهوك القِوى، واهنَ العزيمة، وهذا أمر طبيعيٌ متى عُلِم أنني حينما قدمتُ إلى (عرعر) من

أماكن الإحصاء المتفرّقة في أنحاء (عرعر) على أن آخذ قسطاً من الراحة في منزلي بعد ما نالني من التعب والإرهاق ما نالني، لم أمكث في منزلي أكثر من ساعة من الزمن، ثم واصلتُ سفري إلى الرياض كما سبق وأن شرحت. وفي الرياض لم يكن هناك أيُّ مجال لأن أستريح ولو لِساعة واحدة، فما كدتُ أصل الرياض حتى أتممتُ لقائي بسموِّ الوزير كما سبق شرحه.

مواصلة التحدي:

مكثتُ في منزلي أربعة أيام، حتى استطعت أن أسترد نشاطي وقوتي. كان مضمون البرقية التي وجَّهها سموُّ الأمير الوزير بلسماً شافياً ملأ نفسي بالعزم والقوة، ومواصلة التحدِّي لِمَن ظنُّوا أنهم سيتمكَّنون من إفشال مهمتي، بعد أن قاسيتُ فيها ما قاسيت من المَشاق والمصاعب، وذلك بكثرة إلحاحهم على وزير المالية لكي يصدر برقيته الأولى التي تسلَّمتها فور عودتي لداري في عرعر، التي على إثرها واصلت سيري إلى الرياض.

انتهت عملية الإحصاء كما شرحتُ، وكانت كلها قد سُجِّلت ضمن دفاتر متعدِّدة، ذات رقم متسلسل لكلِّ هيئة من الهيئات الثلاث.

دفتر الإحصاء:

هذا الدفتر سُجِّل فيه اسم المواطن الذي تمَّ إحصاؤه، وعدد أفراد عائلته، وإيضاح جميع المعلومات المتعلِّقة بشأنه، والتي تضمنتها تعليمات الوزارة. وهنا بعثتُ كميات ضخمة من البطاقات إلى رئيس الهيئة في رفحاء: الأخ محمد الرجراجي، كما بعثتُ إلى رئيس الهيئة الثانية في القريات ومُلحقاتها: الأخ يوسف كركدان، ثم اجتمعتُ أنا وأعضاء الهيئة العاملين معي باعتبارنا نمثِّل الهيئة الثالثة، والتي تضم عن الإحصاء ما يكاد يعادل الهيئتين السابقتين.

تعبئة البطاقات:

وهناك شَرعنا نحن والهيئتان آنِفَتا الذِكر، في تفريغ ما هو مسجَّل على الدفاتر، تفريغه على البطاقات التي تخصّ كل مواطن، والتي تسلَّم له بعد تعبئة جميع حقولها، وتوقيعها من قِبل جميع أعضاء الهيئة لتكون هذه البطاقة بمثابة إيصال استلام أو شيك يقدِّمها للهيئة عند بدء الصرف، ومن ثَمَّ يستلم ما هو مستحق له فيها.

كان العمل شاقاً ومُضنياً أخذ من وقتنا أكثر من أسبوعين تقريباً، كان نصيبنا جميعاً نحن أعضاء الهيئة من الراحة خلال الأربع والعشرين ساعة لا يزيد عن خمس أو ست ساعات على الأكثر، وكذا الشأن في عمل الهيئتين الأخريين، وكنتُ باعتباري رئيس الهيئات الثلاث على اتصال يومي بالهيئتين الأُخريين عن طريق اللاسلكي.

بدء الصرف:

وفي مُستهل رمضان عام ١٣٨١هـ كانت الهيئات الثلاثة قد أكملت عملها، من تعبئة البطاقات، ومن ثم ابتدأتُ بتوزيع هذه البطاقات على أربابها، وأعقب ذلك بدء الصرف.

كانت قيمة البطاقة كما حدَّدتها تعليمات سموّ وزير المالية الأمير طلال بن عبدالعزيز لا تزيد عن مائة ريال؛ لأنه لا يمكن أن تحتوي البطاقة على أكثر من خمسة أنفار، باعتبار حصة الفرد (عشرين ريالاً).

أمل كاذب:

كما أسلفت عن اعتكافي بضعة أيام بعد عودتي من الرياض، ولم أبارح منزلي ولم أقابل أحداً، وهذا التصرُّف قد أَوجد إشكالاً وبلبلة لدى بعض أولئك الأمراء، حينما وصلتهم البرقية الثانية لسموّ الوزير التي طلبت مني الاستمرار في إكمال المهمَّة؛ فأُسقط في أيديهم بأنهم فشلوا، ولكن اختفائي تلك الفترة خلقَ في نفوسهم أملاً كاذباً في صحة مضمون تلك

البرقية، إذ أنَّ منطق الأحداث يقضي بأن أكون موجوداً للجميع، مباهياً بانتصاري عليهم لا أن أنكمش وأختفي، مما قد يوحي بأن غنيمتي من سفرتي تلك إلى الرياض هي خُفًّا حنين ليس إلا.

باشرتْ الهيئات الثلاث الصرف في وقت واحد، وكانت كل هيئة، كما ذكرت، تحمل صندوق حديد ضخم، محمولاً على سيارة وانيت، يقوم على حراسته ستة جنود وعريف. كنت أسحب من البنك مبالغ معينة لكل هيئة من هاتين الهيئتين بما يكفي لتأمين عملها لمدة أسبوع، أبعثه على سيارة خاصَّة وضمن حراسة مشدَّدة.

استمرت عمليات الصرف من رمضان ١٣٨١هـ حتى نهاية صَفر ١٣٨٢هـ، حيث أكملتْ الهيئات الثلاث جميع عملياتها.

حصيلة العمل:

وكانت حصيلة العمل أن توفَّر لخزينة الدولة مليون ومائتي ألف ريال، أُعيدت لصندوق الخزينة، مع العلم بأنَّ نسبة الواقع الفعلي لعملية الإحصاء قد لا تزيد عن نصف الإحصاء الذي تَمَّ سابقاً، وتمَّ الصرف عليه.

وقد يتساءل القارئ عن مدى صحة هذا القول؟ ولكنني واثق أنه عندما يقرأ قصة هذه العملية وحديثي عن أسبابها وخلفيَّاتها، يدرك أن ما ذكرته لا مجال فيه للمبالغة.

لم نترك أي إنسان دون أن نُضاعف له الاستحقاق، ومع هذا فإنه لا بد من ذكر بعض الأحداث التي تخلَّلت هذه العملية أوجزها في النقاط التالية:

أولاً: رؤساء الهيئات تَمَّ اختيارهم بمعرفتي الشخصية؛ ليقيني بأنَّ صفة الأمانة والنزاهة والإخلاص للواجب هي أبرز سِمات كل منهم.

ثانياً: أنني قد عقدتُ معهم عدة اجتماعات قبل بدء العملية، موضّحاً

لهم أن اختيارنا لهذه المهمة الصعبة المعقَّدة إنما هو ابتلاء واختبار من الدولة لمعرفة مدى عِفة ضمائرنا.

ثالثاً: خلال عملية الصرف كانت وسيلة بعض الأمراء، وقد فشلوا في مهمتهم الأولى، أن يقطعوا عليَّ الطريق مرةً أخرى، مستغلِّين أفراد البادية ورؤساء العشائر، مُستكتبينهم عشرات البرقيات يرفعونها للدوائر الرسمية العليا، متذرِّعين بأنهم قد تضوَّروا جوعاً، لأنَّ صدقة الدولة لم تصل إليهم بعد، نتيجةً لعبث واستخفاف إبراهيم الحسُّون الذي هو المسؤول عن هذه العملية.

وزير المالية الجديد:

كانت البرقيات يومياً تصل إلى الديوان العالي بالعشرات من رؤساء العشائر ومن أفراد البادية، بتحريض من بعض الجهات التي ذكرت، وصدف أن تَمَّ في خلال هذه الفترة تغيير وزاري في جهاز الدولة نتج عنه أن اختيرَ المرحوم الأمير مساعد بن عبدالرحمن وزيراً للمالية، وهنا سَنحت الفرصة لبعض الكبراء، فاصطحب كل منهما القاضي الموجود في بلده، وأسرعوا جميعاً إلى الطائف، حيث كان يوجد الأمير مساعد آنذاك بحجة التهنئة له بالمنصب، ولكي يشرحوا له شكاوى البادية وتذمُّرها من تأخُّر صرف الصدقة لهم.

وضاعف من ذلك أن وجد الوزير على مكتبه كوماً من البرقيات كلها شكاوى ضدي كما أسلفت. علماً بأنه لم يسبق لي معرفة سموِّ الأمير مساعد.

برقية عاجلة:

كنت أقوم بمهمة الصَّرف في مدينة سكاكا التي هي مقر الأمير عبدالرحمن السديري إذا بي أُفاجأ بموزِّع البريد يُسلِّم إليَّ برقية عاجلة تطلب الجواب في الحال.

كان الوقت آنذاك حوالي الساعة الثالثة أو الرابعة بعد منتصف الليل لأننا كنا نواصل الصرف ليلاً ونهاراً.

نص البرقية:

كان نص البرقية على ما أذكر كالآتي:

رئيس هيئة إعاشة البادية في الشمال ابن حسُّون.

أَوقفوا الصَّرف حالاً، ارفعوا لنا عن مجموع الإحصاء موضِّحين كم المبالغ التي صرفتموها حتى الآن، وكم المبالغ التي لم تُصرف. منتظراً الجواب حالاً. مساعد بن عبدالرحمن وزير المالية.

حيثيات ثلاث:

لم أُفاجأ بوصول مثل هذه البرقية الجافة الحادة لأسبابٍ منها: علمي عن طريق الراديو بتعيين الوزير الجديد، وعلمي من جهةٍ أخرى بهرولة بعض الأشخاص من القريات والجوف مع قضاة الشرع لديهما إلى الطائف لمقابلة الوزير، ولِعلمي أيضاً بعشرات البرقيات التي رُفعت ضدي من أفراد ورؤساء العشائر ومن بعض أمراء المناطق أنفسهم.

وعلى أساس ذلك فالوضع يصبح طبعياً، متى أخذنا بالاعتبار هذه الحيثيات الثلاث، مُضافاً إلى ذلك ما عُرف عن الوزير الجديد منذ أن كان رئيساً لديوان المظالم من شدة وحزم صارم في تصرُّفاته، وبالأخص فيما يتعلَّق بالمال العام.

برقية جوابية:

بكل هدوء حررتُ برقية جوابية بعد أن توقَّفت عن الصرف طبعاً. كانت العناصر الأساسية لتلك البرقية هي إنفاذ الأمر بالتوقُّف عن الصرف، لاستحالة رفع الإجابة المفصَّلة إلا بعد (٢٤) ساعة؛ لأن العمل مقسَّم بين ثلاث هيئات كل منها تبعد عن الأخرى ما لا يقلُّ عن ١٠٠٠ كم، لذا فإن الإجابة المفصلة سترفع لسموِّه خلال هذه المدة.

كتاب إلى رئيسي الهيئتين:

على الفور أشخصت اثنين من المرافقين معي مزودَين بكتاب مضمونه

واحد، يتَّجه أحدهما في الحال إلى رئيس هيئة رفحا الأخ محمد الرجراجي، والآخر إلى رئيس هيئة القريات الأخ يوسف كركدان، والخطاب مضمونه:

١ - إيقاف الصَّرف في الحال.

٢ - إيضاح عدد الإحصاء لديه.

٣ - كم عدد الأشخاص الذين تمَّ الصَّرف لهم.

٤ - كم المبالغ المتبقية لديهم من النقد.

مُتضمّناً أن تُرفع الإجابة فوراً، حال وصول المندوب بدون توقُّف.

رضا النفس وراحة الضمير:

شعرتُ خلال تلك الفترة أنني ابتدأت أتنفس الصعداء، وأحسُّ بشيء من راحة الضمير، مُعطياً للظروف والمُلابسات التي شرحت حقاً من الواقعية والمنطق، واضعاً في حسباني أنني، وإن وُفقت في جولتي الأولىٰ مع هؤلاء الأمراء ومَن معهم من المشايخ وأفراد البادية المتنفذين، وقد شعرت بأن صراعي معهم كناطحِ صخرةً يوماً ليوهنها، ومع ذلك كله فقد كان رضا النفس يملأ صدري، بأنه إذا كان لأولئك قوَّتهم ونفوذهم المادي فإن لي مُعِيناً ومرتكزاً وسَنَداً قوياً لن يخذلني طالما كنتُ أسير في وَضح النهار، وهو الله عز وجلّ.

برقية لسمو الأمير وزير المالية:

قُبيل انتهاء مدة الـ (٢٤) ساعة كان المندوبان قد عادا إليّ بأجوبة رئيسيّ الهيئتين، وفي الحال أبرقتُ بالإجابة لسموِّه ونصها كما أتذكر الآن هو:

١ - مجموع الإحصاء العام لكامل المنطقة (كذا).

٢ - أنَّ مجموع الأفراد الذين تمَّ لهم الصرف ومبلغ ما صُرِف لهم (كذا).

٣ - مجموع مَن لم يتمّ الصَّرف لهم حتى الآن (كذا).

٤ - مجموع المبلغ النقدي الذي لم يتمّ صرفه (كذا).

ثم ختمتُ البرقية بقولي: لقد أوقفتُ العمل حسب أمر سموّكم، راجياً أن تكلِّفوا على الفور مَن يستلم الأعمال مني، مردفاً قولي أنني أعتقد أنه في حالة استمرار العمل على النهج الذي سار فيه حتى الآن سيوفِّر للخزينة ما لا يقلّ عن خمسمائة ألف ريال.

جواب البرقية:

سحبتُ البرقية من لاسلكي مدينة سكاكا في حوالي الساعة الحادية عشر ليلاً بالتوقيت العربي، وبعد ثلاث ساعات فقط تلقيتُ الإجابة برقياً من سموّه ونصها: استمروا في العمل حتى تكملوا المهمة.

إجابة مفاجأة:

كانت الإجابة بهذا الشكل مفاجأةً لي، وكنت أتوقَّع العكس، نظراً للأسباب التي شرحتها آنفاً، خاصةً، كما قلت، أنه لم يسبق لي لقاء أو معرفة بالوزير الجديد.

وقد علمتُ بعد ذلك أنَّ الذي حدث عند تسلُّم الوزير لبرقيتي الجوابية أن كان الأمير عبدالله بن عبدالعزيز بن مساعد أمير المنطقة الشمالية موجوداً عند سموّه، وأنَّ الموضوع بُحِثَ بعد وصول البرقية مني، وتكَهُّني بتوفير المبلغ الذي ذكرت، مما أثار تعجُّب الوزير واستغرابه، الأمر الذي أتاح فرصةً للأمير عبدالله بن مساعد أن يناقش الموضوع معه، وأن يبيِّن له أنَّ ما ذكرته في برقيتي لا يمكن أن يكون من قبيل التكَهُّن الجزافي الذي لا يستند إلى واقع.

برقية لرئيسي الهيئتين:

أبرقتُ لرئيسيّ الهيئتين بمضمون برقية الوزير طالباً منهما الاستمرار في

العمل، ولا تسأل عن الصدى الذي كان حديث المجالس في عموم المنطقة عن هذين الحَدَثَين اللذين كَبَا فيهما (جواد الحسُّون)، ثم نهض منهما بعون من الله وحده موفور القوة والعزم.

إكمال المهمة:

أكملنا المهمة في أواخر صَفر عام ١٣٨٢هـ كما أسلفت، وأَعدنا لخزينة الدولة المبلغ المتوفِّر عن العملية، الذي ظهر أنه أكثر من ضعف التقدير الذي حددته بإجابتي لِسموِّ وزير المالية، فقد بلغ المليون ومائتي ألف ريال.

أغنية «حَسُّونة»:

ومن الطرائف المُضحكة... أنني خلال قيامي بمهمة الإحصاء أولاً ثم الصرف ثانياً، والتي استغرقت جميعها ما يُقارب سبعة شهور، كانت في تلك الأيام تُذاع ما بين فينة وأخرى أغنية مشهورة لمطربة لبنانية تُدعى صباح، كان أحد مقاطع تلك الأغنية ينتهي بكلمة (حسُّونة).

ويبدو أن أحد الظرفاء أو الخبثاء قد أوحى إلى بعض أفراد البادية أنَّ هذه الأغنية قيلت خاصةً بشخصي نتيجةً لمبالغ طائلة دفعتُها من مبالغ الإعاشة لتلك المطربة.

ولمّا كان الفرق بين اسمي وآخر كلمة من تلك المقطوعة هو حرف الهاء فقط، وهذا الفرق لا يُبرىء ساحتي، لذلك فقد كنت أُقابَلُ بصيحات الاستنكار والغضب مردِّدين على سمعي أغنية صباح: حَسُّونة حَسُّونة، ولستُ أعرف كيف انتشرت هذه الإشاعة في البراري بين أفراد البادية كانتشار النار في الهشيم.

ولقد حاول أعضاء الهيئة الذين كانوا يرافقونني نفي هذه التهمة عني في وجوه أولئك الغاضبين، ولكن هَيْهات؟!!

بماذا كوفئنا على إتمام المهمة بنجاح؟

كما أسلفت، أكملت الهيئة بفروعها الثلاث أعمالها. في نهاية صَفر

عام ١٣٨٢هـ. ورفعتُ وثائقها ومُستنداتها إلى وزارة المالية، مرفقاً بها إشعار إيداع المبلغ المتوفِّر بعد نهاية العملية، وأودعته لدى مؤسسة عبدالعزيز الحميد الراشد المصرفية في مدينة (عرعر) آنذاك.

كنت أتوقَّع وزملائي جميعاً أن نجد من المسؤولين ما نستحقه من شكر وتقدير، مُضافاً إليه عون مادي يُكافىء ما قُمنا به من جهود مُضْنية، وما لاقيناه من صِعاب ومشقات ومكائد وتحرُّشات، كادت تصل إلى حد التهديد بالقتل من بعض أفراد البادية. وهم المعروفون بِغلظة الطبع وشراسة الخُلق، كنا ننتظر ذلك واثقين بأننا نستحقه بحقّ وصدق.

رقابة الضمير وعفة اليد:

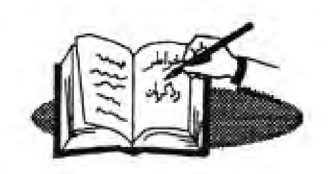
ذلك أنه لولا رقابة ضمائرنا، وعِفة أيدينا، لكان في وِسعنا أن يكون المبلغ الذي أعدناه وفراً للخزينة، قد أودعناه إلى جيوبنا نحن، وكان ذلك ممكناً، وبمنتهى السهولة واليُسر، لأنه كان في وسعنا أن نضع قوائم وهمية بأسماء من أفراد البادية، فنضع مثلاً خنيفس بن جَعَل أو جعل بن خنيفس أو شريدة أو حميّر، أو أي اسم من أسماء البادية ونوقِّع على تلك القوائم بإبهاماتنا، ونصرف لها البطاقات التي تتضمن هذه الأسماء، أي أننا بوسعنا أن ننظم بيانات وهمية كالبيانات الصحيحة، سواء بسواء؛ لأنه حتى لو افترض أن تجري تحقيقات في الموضوع، فلن تُجدي تلك التحقيقات فتيلاً، لأن أفراد البادية منتشرون في صحاري البلاد طولاً وعرضاً، لا يستقرُّون في مكان. كان ذلك في وسعنا وكنا قادرين عليه، ولكننا لم نفعل، كما ذكرت، حتى أننا وُصِمْنا من أصدقائنا ومعارفنا بعد انتهاء العملية بوصمة (هيئات المغفَّلين).

تمخض الجبل فولد فأراً:

ولعل قارىء هذه الأسطر يتساءل عن المكافأة التي نلناها من وزير المالية؟ وجوابي لهذا السائل: أن سموَّ وزير المالية قد رفع لمجلس الوزراء بطلب الموافقة بصرف راتب شهر واحد فقط لكل منا، مكافأة لنا على إخلاصنا وقد كان ذلك.

العودة إلى العمل في الإدارة:

عدتُ إلى عملي في الإدارة في عرعر، وعاد الأخ علي لافي مدير جمرك طريف إلى عمله بعد أن كلَّفته بالقيام بعملي مدة قيامي بالمهمة.





عود على بدء:

في أحاديث سابقة ضمن هذه الخواطر والذكريات، ذكرتُ مفصَّلاً عن قضية السجَّاد الوارد عن طريق جمرك طريف باسم التاجر الهديَّان أحد تجار الرياض، وهو الموضوع الذي كان يُراد به تمرير هذه البضاعة عن طريق جمرك (طريف) دون أن تُدفع عليها الرسوم المستحقة، أي أنه كان يُراد تهريبها. وقد كان آخر حديث لي عن هذه القضية، هو أنني بعد عودتي إلى جدة في مُستهل محرم ١٣٧٩هـ، وعلمي بأن ما اتُخِذَ على هذه القضية من إجراءات جمركية هو أنَّ إدارة الجمارك بجدة قد أبرقت لوزارة المالية والاقتصاد الوطني إجابة على برقية الوزارة التي كانت مبنية أساساً على البرقية التي كنتُ رفعتُها إبّان وجودي في طريف.

قلب الحقائق:

جواب إدارة الجمارك هذا للوزارة كان فحواه أنَّ خلاصة الموضوع هو اعتراف بوقوع حادثة محاولة التهريب فعلاً، ولكن الذي أَتمّ إحباط هذه المعاملة وكَشَفها هو مدير جمرك (طريف) وليس المفتش إبراهيم الحسُّون، أي أن الجواب كان قلباً للواقع بصورة مكشوفة مضحكة. وقلت في آخر حديث لي عن هذا الموضوع: إنني تجاهلت هذا الجواب من إدارة الجمارك، وكأنني لم أعلم به، ووجَّهت مذكرتين رسميتين إلى تلك

الإدارة، أعني إدارة الجمارك استفسرُ منها عمّا تمّ بشأن قضية سجّاد التاجر الهديّان.

مذكرتان رسميتان:

قدَّمتُ الأولى ثم انتظرتُ نحو أسبوع، ولمّا لم ترِدني إجابة بادرتُ بتوجيه مذكرتي الثانية بصورة أشدّ تأكيداً وإلحاحاً، ثم أعقب ذلك أن صدر قرار مجلس الوزراء بتعييني رئيساً لمالية وأمانة جمارك الحدود للمنطقة الشمالية في عرعر، وما تلا ذلك من إجراءات السفر، ثم الوصول إلى (عرعر) واستلام العمل، ثم انشغالي بعد ذلك بترتيب سير العمل على النهج الذي أريده.

برقية للمديرية العامة للجمارك:

بعد استلامي للعمل بمدة شهرين تقريباً أبرقتُ مستعجلاً للمديرية العامة للجمارك، طالباً سرعة الإجابة عمّا اتُخِذَ من إجراءات نحو تلك القضية، لأنها لازالت حتى ذلك الوقت مربوطة بصندوق التأمين بجمرك (طريف) لم يُبتّ بموضوعها، من حيث نقلها من التأمين إلى الترسيم الرسمي، مُعطياً من برقيتي تلك صورةً لمعالي وزير المالية والاقتصاد الوطني.

قرار اللجنة الجمركية:

بعد أسبوع تقريباً من هذه البرقية وصلت إليَّ تلك المعاملة عن طريق البريد، واتضح لي أن اللجنة الجمركية في المديرية العامة للجمارك، والتي يعمل ضمنها كل من الخبيرين المصريين: حلمي حنينية وإبراهيم دسوقي، كان قرار اللجنة الجمركية منافياً على طول الخط تقريباً لمُجريات القضية الأساسية، التي تمّت على هذه القضية إبّان وجودي في جمرك طريف.

نقض قرار اللجنة الجمركية:

أسرعتُ إلى دراسة القضية والحيثيات التي بُني عليها القرار، ثم

أصدرت عليها قراراً ينقضُها من أساسها باعتباري رئيساً للجنة الجمركية الابتدائية التي مقرُّها أمانة الجمارك بعرعر[١].

أصدرت قراراً نَقَضَ قرار لجنة الاستئناف التي أصدرته على القضية، وكان هذا القرار من اللجنة الابتدائية في عرعر قراراً مُركزاً مُستنداً على الوقائع والوثائق، وتضمَّن القرار التأكيد على وجوب تطبيق الفِقرات التي قدمتها للمفتش العام في (طريف) الأخ مدني بن حمد، حينما وصل إليّ قادماً من جدة في أولى مراحل القضية.

قرار لجنة الاستئناف:

بعد أسبوعين تقريباً أُعيدت إليَّ المعاملة مشفوعةً بقرارٍ ثانٍ من لجنة الاستئناف في جدة ناقضاً لقرار اللجنة في (عرعر)، ومُصراً على وجوب التقيد بمضمون القرار الأول الذي اتُخِذ على القضية، والذي قمتُ بإصدار قرارٍ بنقضه كما شرحت.

كان هذا القرار الثاني من اللجنة الاستئنافية في جدة يتَّسم بالحدّة

---

(١) لِعلم القارىء فإن في كلٍّ من أمانات الجمارك في عرعر وفي الدمام وفي جيزان وفي الرياض، في كل من هذه الإدارات إدارة تُسمَّى اللجنة الجمركية، يرأسها أمين الجمارك. ويشترك فيها أعضاء يعيِّنهم المدير العام للجمارك، ومهمة هذه اللجنة في كل أمانة هي أن تقوم بمباشرة قضايا التهريب، سواء منها ما ضُبط داخل الإدارات الجمركية، أو ما ضَبَطَتهُ أجهزة سلاح الحدود من مُهربين ومهرَّبات مع وسائل نقلها، وتسلّيمها إلى هذه الأمانة التي تباشر على الفور باستلام المُهربين والمهرَّبات، ومن ثَمَّ التحقيق مع المُهربين، ثم دراسة أوراق التحقيق والوثائق والمستندات المرفقة، ثم تقوم بإصدار القرار اللازم على هذه القضية سواء كان بالإدانة أو بالتبرئة وترفع كامل أوراق القضية مع القرار المُتخذ عليها إلى اللجنة الجمركية العليا في المديرية العامة للجمارك بعد أن يُعطى لذوي العلاقة من المهرِّبين صورة من القرار ليقدِّموا إذا ما كان لديهم ثمّة اعتراض عليه. وعلى اللجنة الجمركية بالمديرية العامة للجمارك أن تقوم بدراسة القضية والقرار المُتخذ عليها، ثم تُصدر عليها قراراً مستقلاً حسب ما يتَّضح لديها وتراه من وقائع القضية ووثائقها، تُصدر قراراً إما بتأييد قرار اللجنة الجمركية الابتدائية أو بنقضه، ثم تُعاد كامل المعاملة إلى اللجنة الجمركية الابتدائية التي صدر القرار الأول منها.

والغضب، ويوحي بأنه يتوجَّب عليَّ أن أطيع وأنفذ، طالما أنَّ القرار صادر من اللجنة الاستئنافية، وهي أعلى من اللجنة الابتدائية، بل هي مرجعها الرسمي لهذه القرارات.

موقف محرج ومثير:

كان الموقف بالنسبة لي مثيراً ومزعجاً، خاصةً وأنني لازلت قريب عهد باستلامي لعملي الجديد، الذي ترتبط به عدة إدارات جمركية ومالية، أي أنني لازلت بحاجة إلى فسحة من الوقت، لكي أقوم بجولات على هذه المراكز أتفحَّص أعمالها، وأتفقَّد سير العمل فيها، وأُبدي من التوجيهات والتعليمات ما أنا مُعتزم على السير بموجبه.

كان الموقف مُحرجاً ودقيقاً، فإما أن أخضع وأُذعن وأنصاع لقرار باطل، بُنِيَ على غير الحقيقة، وإما أن أقبل التحدي مُصِراً على موقفي، مُستنداً على حقائق ووقائع لا تقبل الزيف والتضليل.

فكرتُ طويلاً في الموضوع أيُّ الطريقين أسلك؟ وكان زملائي أعضاء اللجنة الجمركية في (عرعر)، وهم كل من: محمد الرجراجي مدير جمرك عرعر، ومصطفى حامد رئيس محاسبة الجمارك في عرعر، وعبدالله العلي الزيد، وسكرتير اللجنة عبدالله الحرّا، كانوا جميعاً يلحُّون عليَّ بالمُسالمة، وبأن لا جدوى من الاشتباك مع مَن هم أقوى مني سلطةً ونفوذاً.

بَيْدَ أني بعد تروٍّ وإمعان فكر، رأيت أنَّ من الجُبن أن أتراجع عن موقف سبق أن اتخذته، موقف يسنده الواقع والحق.

تفنيد قرار اللجنة الجمركية:

أنا مطمئن أنني سأنتصر في النهاية إن شاء الله؛ لأنَّ موقفي حقّ، والحقّ كالشمس لا يمكن أن يحجبها الضباب، لذلك فقد عَقدتُ في اللجنة الجمركية اجتماعاً، أمليتُ فيه قراراً ينقضُ قرار اللجنة الجمركية في جدة، آخذاً في اعتباري في هذا القرار أن أتخلى عن أسلوب المُجاملة والأسلوب

الهادىء، وأن أفنّد قرار اللجنة الجمركية هذا كلمة كلمة مبيِّناً ما فيه من الخطأ، ومُجافاة الواقع من قِبل أعضاء تلك اللجنة، خاتماً ذلك القرار بفقرة تقول: إنَّ على اللجنة الجمركية الاستئنافية أن تُذعن وتنصاع للحقيقة، وأنَّ الأمر عندما يتعلَّق بالمصلحة العامة فإنه لا تفاضل هناك بين وزير وبين حارس، فالكلمة في مثل هذه الأشياء تكون لِمَن يكون الحق معه. طالباً في الوقت نفسه أنَّ على تلك اللجنة إذا لم تقتنع بصحة ما ذكرته من وقائع ومُستندات، فإني أطلب أن تُحال القضية بكامل أوراقها إلى المستشارين في مجلس الوزراء ليُبتّ في القضية، ويكون حَكماً بيني وبينها.

برقية من وزارة المالية:

بعد نحو مدة شهرين تقريباً على هذا القرار الأخير وصلتني برقية من وزارة المالية مضمونها أنَّ مصلحة الجمارك في جدة قد عمَّدت كلاً من الخبير الجمركي إبراهيم الدسوقي الذي يعمل ضمن أعضاء اللجنة في جدة، والأخ عبدالله الناصر مدير مالية الدمام، وأنَّ هذين الرجلين سيصلان إليَّ في (عرعر)، بشأن قضية الزل العائد للتاجر الهديّان، وأنهما سيقومان بالتحقيق معي بشأن هذه القضية، ليستوضحا مني كما تقول البرقية عن صحة بعض الوقائع والمستندات التي ضَمَّنتها قراري الأخير على تلك القضية.

وصول الخبيرين الجمركيين:

بعد أسبوع تقريباً من هذا التاريخ فوجئت بالأخ إبراهيم دسوقي وزميله يدخلان عليَّ في مكتبي في الإدارة، رحبّت بهما كما يقتضي الواجب، مُبيّناً لهما أنني على أتمّ الاستعداد لإيضاح ما يرغبان إيضاحه.

كان الخبير إبراهيم الدسوقي يجلس على يمين مكتبي، وإذا به يفاجئني بقوله: إنَّ ما نريد أن نستفسر عنه إنما هي أمور بسيطة محدَّدة، ويمكن إنجازه في خلال ربع ساعة من الوقت، وأرىٰ (والقول لإبراهيم الدسوقي) أن أوجِّه إليك أسئلة تجبني على كل سؤال منها.

كنت أثناء ذلك مُتَّجهاً إليه بكليتي، تاركاً أوراق المعاملة الموجودة

أمامي، وفور نُطقه بهذه الكلمات، أدرتُ له ظهري مُنصرفاً إلى ما أمامي من أوراق أقرؤها دون أن أُجيبه بكلمة واحدة.

ظل مبهوتاً عدة لحظات، وكأنه كان ينتظر مني أن أجيبه إلى ما طلب، بَيْدَ أنه عندما رآني مُنهمكاً بالأوراق التي أمامي دون أن أجيبه بكلمة، أسرع يقول: إنني لازلتُ أنتظر منك موافقتك على اقتراحي.

وهنا التفتُ إليه قائلاً: كنتُ أظن يا أخ إبراهيم أنَّ لديك من بُعد النظر واللياقة ما يمنعك من أن تقدم مثل هذا الاقتراح، لأنك تخاطب رئيس مال وأمين جمارك الحدود الشمالية، وليس مَن تخاطبه بمجرم أو مُهرب، تسلك معه طريقة السؤال والجواب، وعليك أن تُضمِّن جميع ما لديك من استفسارت ضمن مذكرة رسمية توقِّعها وزميلك، ومن ثم تَرِدكما مني الإجابة ضمن مذكرة رسمية مفصَّلة.

توقف الحديث عند هذا الحد وظلّ كل منّا صامتاً لا يكلِّم الآخر، ثم غادرا مكتبي.

مذكرة رسمية من الخبيرين وجوابي عليها:

في اليوم الثاني تلقَّيت مذكرة رسمية بتوقِّيعهما، مُحدداً فيها الاستفسارات التي يرغبان إيضاحها، وفي اليوم نفسه زوَّدتهما بمذكرة رسمية مفصَّلاً لهما جميع ما رغِبا معرفته، ثم غادرا عرعر عائدَين إلى الرياض.

تسوية المعاملة وفق ملاحظاتي:

بعد نحو شهرين من ذلك أُعيدت إليَّ كامل المعاملة عن طريق وزارة المالية والاقتصاد الوطني بتوقيع وكيل الوزارة مرفِقاً بها كتاباً يوضِّح أنَّ تلك المعاملة قد تمَّت تسويتها وَفقاً للملاحظات التي كنتُ طلبتُ تطبيقها على تلك القضية، مرفِقاً بالقضية شيكاً بمبلغ (٢٥) ألف ريال هي ما أستحقه من إكرامية على تلك القضية وَفقاً لنظام الجمارك ولائحته التنفيذية.



سلاح الحدود

في مُستهل عام ١٣٨٤هـ أنشأت الحكومة إدارة خاصة مستقلة باسم سلاح الحدود، وضَعت لها مراكز على نقاط مختلفة على تُخوم الحدود المقابلة للكويت وللعراق وللأردن، زوَّدت هذه المراكز بمجموعات من الضباط والجنود، وأمَّنَتْ لهم العدد الكافي من السيارات ومن وسائل الاتصال. وقد تولَّى رئاسة هذه الأجهزة لأول مرة المرحوم عبدالله الدريبي، ثم خلفه على رئاسة هذا الجهاز المرحوم محمد رشيد الحربي.

القبض على العديد من المهربين:

وإذ بدأ هذا الجهاز يباشر نشاطه في المراقبة وحراسة الحدود، فقد استطاع أن يقبض على العديد من المهرِّبين، مع ما لديهم من مُهَرَّبات، ثم يأتي بهؤلاء المهرِّبين ويُسلِّمهم مع المهرَّبات ووسائل نقلها، يُسلِّم الجميع إلى أمانة الجمارك في (عرعر).

كانت هذه الأمانة وَفْق الأنظمة والتعليمات، ووَفقاً لنظام الجمارك ولائحته التنفيذية، تستقبل هؤلاء المهرِّبين، فتودعهم السجن، كما تودع ما ضُبطَ معهم من أدخنة وسيارات، تودع ذلك كله في مستودعات خاصة استؤجرتْ لهذا الغرض. وخلال ثلاث سنوات تقريباً من بدء العملية كان ما تسلَّمته أجهزة سلاح الحدود لأمانة الجمارك في (عرعر) لا يقلُّ عن (٢٠) نفراً في الأسبوع تقريباً.

إجراءات التحقيق مع المهربين:

كان الإجراء الواجب اتخاذه حيال هؤلاء هو التحقيق معهم فرداً فرداً، تحقيق يتمّ أمام لجنة جمركية كنتُ أرأسُها. كُنّا نقوم بالتحقيق مع هؤلاء كل يوم، بدءاً من بعد صلاة العِشاء، ثم يستمر العمل حتى الساعات الأولى قبل الفجر.

كان التحقيق مُرهقاً ومُتعباً، وكنتُ أحرص أشدّ الحرص على إنجاز التحقيق مع هؤلاء في أسرع وقت ممكن، حتى أتمكّن من إخراجهم من السجن بالكفالة بعد انتهاء التحقيق.

كُنّا نواصل العمل باستمرار، كما تتوالى علينا قضايا التهريب بصورة مُكثّفة، حتى أذكر أنه في بعض الشهور قد بلغ من أُودع السجن رهن التحقيق أكثر من مائة شخص.

كانت البضائع التي ضُبطت مع هؤلاء هي: أدخنة على مختلف أنواعها وساعات تمّ ضبطها على الحدود الكويتية السعودية.

خطورة عملية التهريب:

كانت عملية التهريب في منتهى الخطورة للمهرّب؛ لأنه عندما يشعر بأنّ سيارات الدورية قريبة منه يحاول الفرار بسيارته باتجاه داخل المملكة، في أقصى سرعة ممكنة للسيارة، وهذا يعرّضه لخطر الانقلاب بشكل واضح، كما أنّ من حقّ الدوريات عند عدم إذعانه للوقوف ومحاولة الفرار منها، إطلاق الرصاص عليه حتى ولو قتلته.

الحاجة المادية الملجئة:

هذه الخطورة التي يتعرَّض لها المواطن السعودي ما الذي يدفعه عليها ويُجبره على أن يسلك طريقها، مع علمه الأكيد أنه حينما يفعل ذلك إنما يغامر بحياته؟ من الواضح أنّ الذي يحمله على ذلك هو الحاجة المادية لتأمين لقمة العَيش لأسرته، وهو لم يهرّب شيئاً يُلحِق الضرر بالمواطنين كالخمور والمخدرات أو الأسلحة.

كنت أتولّى توجيه الأسئلة إلى المُتهم خلال التحقيق، وكنتُ ألاحظ أن المهرِّبين كلهم تقريباً أُناس بسطاء عاديين فقراء، دفعتهم الحاجة لتأمين معيشتهم وأُسَرهم لسلوك هذا الطريق، وكنتُ في قرارة نفسي أقدِّر ظروف حياة هؤلاء المواطنين. وكان كثيرون منهم لا يُحسنون الإجابة على الأسئلة، لأنهم أميُّون وأغلبيتهم رجال البادية، ولذا فقد كنتُ أُملي الإجابة نيابةً عنهم، أُملي إجابة المتَّهم على السؤال الذي وجَّهته إليه، حينما أراه لا يُحسن التعبير، كنت أُملي الإجابة نيابةً عنه في مضمون يتلاءم مع روح السؤال، ويُضمِّن في الوقت نفسه مخرجاً لتبرئته من التهمة عند صياغة القرار على القضية. وأذكر أن بعضهم يأخذه النعاس أثناء التحقيق، ونحن أعضاء اللجنة، وأنَّا نوجِّه الأسئلة ونُعطي الأجوبة، ثم في نهاية التحقيق يتولّى السكرتير وضع إصبع المُتهم على الاسطنبة، ومن ثمَّ بصمها أمام جميع الأجوبة.

كانت هذه طريقتي، وكنتُ مُتفاهماً مع الإخوان أعضاء اللجنة، وكلهم مقدِّرون معي على وجوب مساعدة أمثال هؤلاء الضعفاء، الذين أوقعهم سوء حظهم في قبضة الدوريات.

نظام عقوبة المهربين:

كان النظام يقضي بأنه عندما يكتمل التحقيق مع الأفراد الموجودين في عملية التهريب، وفي حالة ثبوت التهريب، يُتَّخذ على القضية قرار تُسْرَد في مُستهله خلاصة التحقيق مع المُتهم، ثم ديباجة مفصَّلة عن ملابسات القضية تُمهد إلى إصدار القرار على القضية، وهو يقضي في حالة إثبات تهمة التهريب بما يلي:

١ - مصادرة الكمية المضبوطة.

٢ - مصادرة وسائل النقل التي كانت تحملها.

٣ - تكليف المهرِّب بدفع رسوم مضاعفة.

٤ - بيع واسطة النقل بالمزاد العلني.

٥ - بيع الأدخنة المضبوطة.

٦ - توزيع ٣٠٪ لصندوق المالية و٢٠٪ لصندوق المكافآت و٣٠٪ يُسلَّم لمديري سلاح الحدود لتوزيعه على أفراد الدورية القابضة.

كانت تلك القضايا ربما لا يقلُّ عن ٧٠٪ يتمّ تهريبها بأن يأتي أحد الأشخاص ذوي الثروة، أو أحد التجار فيشحن إحدى (الوانيتات) بما تستوعب من شُنط الأدخنة، والسيارة الوانيت جديدة بطبيعة الحال، ثم يطلبُ ممن يتوسَّم فيهم الجرأة والمخاطرة بأن يقود هذه السيارة بحمولتها من الكويت، ويحاول المرور بها إلى داخل المملكة، وفي حالة نجاته واختراقه نقاط الدورية يُسلِّم الحمولة إلى أحد التجار أو العملاء الذي يعيّنه له في إحدى المدن داخل المملكة، وفي حالة تسلُّيمه لهذه البضاعة تكون واسطة النقل التي هي الوانيت مُلكاً لهذا الشخص.

رئيس مباحث (عرعر):

وهذا بدون شك طُعم مُغْرٍ لإنسان مفلس ليس بيده شيء. في بدء توارد المهرَّبات إلى الأمانة كان يحضر إلى اجتماع اللجنة أثناء التحقيق رئيس إحدى المباحث في (عرعر)، وكنت لا أرى غضاضة من حضوره، بَيْدَ أني لاحظتُ أن الرجل يحمل بين جنبيه قلباً مجرداً من العاطفة، لاحظتُ أنه يَستاء جداً من الأسئلة التي كنت أوجِّهها إلى المتَّهم.

كان يحاول إثارتي، وحملي على اتخاذ العنف والقسوة مع هذا المتَّهم، بحجة أنه مجرم، وخارج عن القانون، ويتحدَّى أنظمة الدولة، مما اضطرني في النهاية أن أمنع هذا الرجل من حضور جلسات اللجنة.

دراسة ملفات أوراق التحقيق:

كانت التحقيقات كما ذكرت تمتد إلى الساعات الأولى قبل الفجر، وكُنَّا خلال الليلة الواحدة نُتِمُّ التحقيق مع ما بين ثلاثة إلى ستة تقريباً، وبعدها نعود إلى منازلنا بعد أن يكون أخذ منا التعب والإعياء والسهر مأخذه. كنت أصطحب معي أوراق التحقيق كل قضية في ملفها الخاص،

اصطحبها معي إلى البيت بعد انتهاء الجلسة؛ لكي أدرسها وأضع عليها مسودة القرار بعد عودتي من العمل بعد ظهر كل يوم.

❋ ❋ ❋

موقف طريف:

ومن المفارقات التي لن أنساها أنني في إحدى الليالي كنتُ أحمل مجموعة من الإضبارات (الدوسيات) لبعض القضايا، قادماً من مقر اللجنة الجمركية بعد تحقيقات مُضنية، كنت أحسُّ بتعب وإرهاق نتيجةً للسهر أكاد أسقط مُنهكاً.

دخولي إلى بيت القاضي:

كانت ابنتي الوحيدة هدى آنذاك في العام السابع من عمرها، كانت أثيرة على نفسي إلى حد يتجاوز المألوف، وكما قلت أنَّ سكني وسكن القاضي متجاوران، وأنه لا يَفصل بينهما إلاَّ جدار، ونظراً للتعب والإرهاق الذي كنت أعانيه كما شرحت، فقد اقتحمتُ منزل القاضي لأنَّ بابه لم يكن مُغلقاً، ظناً مني أنني في بيتي لأنَّ التصميم كما قلت متشابه.

وفضلاً من الله سبحانه وتعالى ألا أقع في هذه الغلطة، فقبل أن أُواصل سيري إلى غرفة النوم التي تقابل الداخل من الخارج، فقد قلتُ بأعلى صوتي: يا هدى، أملاً في أن تصحو، ولكنني فُوجئت بالقاضي يسرع إليَّ هائجاً كالفيل، وعليه لباس النوم فقط، وهو يكاد يغلي من الغضب، وما كدتُ أسمعُ صوته، وأراه حتى أدركت خطئي، وشرحتُ له الموقف كما يجب، وهنا هدأت ثائرة الرجل، لأنه أيقن من صحة ما قلته له، منحياً باللائمة على أسرته التي لم تغلق الباب الخارجي.





خلال عملي في رئاسة مالية وجمارك الحدود في (عرعر)، حدثت جريمة قتل، كان لها مضاعفات ذات خطورة نظراً لمُلابساتها وما أحدثتهُ من رجَّة عنيفة في البلد، فهي الأولى من نوعها التي تقع في مدينة (عرعر). وتفصيل الحادث أنَّ شركة (التابلاين)، وهي التي قامت بإنشاء خط الأنابيب عبر المملكة العربية السعودية، ابتداءً من رأس تنورة في الشرق، ثم عبر الأردن فسوريا فلبنان، ويصل أنبوب ضخ البترول إلى ميناء الزهراني بلبنان، كانت هذه الشركة عند بدء عملها قد أنشأت محطات ضخ بين مسافات متفاوتة، تقوم بمساعدة الأنبوب على دفع البترول الذي يمرّ عبره، وأنشأت على طول المسافة التي يمرّ بها الخط مراكز هي عبارة عن مدن صغيرة يُطلق عليها معسكر (كمب) ـ كما سبق ذكره ـ بدءاً بكمب النعيرية من جهة الشرق، ثم بكمب القيصومة على مقربة من الحفر، ثم مركز شعبة مصاب، ثم كمب رفحا، ثم مركز العويقيلة، ثم كمب عرعر، ثم مركز حزم الجلاميد، ثم كمب طريف.

المهندس الهولندي القتيل:

كان من ضمن الأجانب العاملين في شركة التابلاين في (عرعر)، داخل هذا الكمب، أحد حاملي الجنسية الهولندية، وكان يعمل مهندساً. في صبيحة أحد الأيام وُجِدَ هذا الشخص مقتولاً على فراشِه غارقاً في بركة من الدماء، كما وُجد أن التليفون الذي كان في مَسكنه قد قُطع.

إجراء أجهزة التحقيق في شرطة (عرعر):

قامت أجهزة التحقيق بشرطة (عرعر) بإجراء التحقيقات، فاستجوبتْ جميع من كان يضمهم ذلك الكمب بدون استثناء، وأَخضَعتهم للتحقيق المكثَّف، إلاَّ أنها لم تستطع الوصول إلى نتيجةٍ تُحدِّد هوية الفاعل، علماً بأن هذا الكمب مُحاط بسور من أسلاك حديدية شائكة، وليس له منفذ سوى باب واحد يتعاقبه حرَّاس على امتداد الأربعة والعشرين ساعة.

أحمد البلوشي:

كان هناك ضمن موظفي الشركة الأجانب شخص يدعى أحمد البلوشي، وهو في الأصل من بلاد عربستان الإيرانية، كانت مهمته تنحصر في إتمام إجراءات جوازات جميع موظفي الشركة مع إدارة الجوازات في (عرعر).

سكن العمال:

كان هذا الشخص، دون سائر موظفي الشركة، يقيم في حيّ سكنيّ في الجانب الجنوبي الغربي من مدينة عرعر، يُدعى سكن العمال، وهو حيٌّ أقامته الشركة لبعض كبار موظفيها السعوديين وغيرهم الذين لا يرغبون السكن داخل الكمب، لأنهم ذوو عوائل.

كان أحمد البلوشي يقيم في سكن مع أسرته ضمن هذا الحيّ. كانت علاقة أحمد هذا مع المهندس الهولندي القتيل علاقة صداقة بحُكم العمل.

كان داخل الكمب من ضمن وسائل الترفيه، التي أمَّنتها الشركة لموظفيها دار سينما تُعرَض فيها كل مساء أفلام عربية متنوعة، تبدأ من الساعة السادسة مساءً حتى التاسعة مساءً كل يوم. وكانت هذه الدار يغشاها الكثيرون من سكان (عرعر)، ممن يحملون رُخصاً من الشركة تسمح لهم بدخول الكمب.

في عشية تلك الليلة شُوهد أحمد البلوشي هذا والقتيل يجلسان على كرسيين متجاورَين أثناء العرض، ثم تناولا طعام العشاء معاً في مطعم الشركة بعد انتهاء العرض. أي أنَّ التحقيق توصلَ إلى أنَّ آخر شخص اتصل به القتيل، قبل عودته إلى مسكنه، هو أحمد البلوشي هذا. لذا فقد كانت القرينة الوحيدة التي تشبَّثَ بها التحقيق هي الفترة التي كان القتيل وأحمد البلوشي هذا يقضيانها في دار العرض، ثم في مطعم الشركة لتناول العَشاء.

إجراءات التحقيق مع المتهم البلوشي:

نتيجةً لذلك شُددت الإجراءات مع هذا المُتهم، واتُخذت معه وسائل قاسية في التحقيق أملاً في حمله على الاعتراف أنه هو القاتل، بَيْد أنه أصرّ على نفي التهمة عن نفسه.

إرسال المتَّهم إلى إدارة الأمن العام في الرياض:

كانت مدينة (عرعر) محدودة السكان آنذاك، وكان حديث الجميع فيها هو عن هذه القضية وتطوراتها. كان أحمد البلوشي هذا أب لثلاثة أطفال أكبرهم في الثامنة من عمره، وعندما عجزت أجهزة التحقيق عن حمله على الاعتراف قررت إرساله إلى إدارة الأمن العام في الرياض لمواصلة التحقيق معه.

كان شعور الجميع في (عرعر)، وفي كمب الشركة بأن أحمد البلوشي هذا بريء من هذه التهمة؛ لأن المعروف عنه أنه إنسان وديع مسالم هادىء الطبع، أبعد ما يكون عن الشَّراسة والعنف.

في اليوم المُحدد لترحيله إلى الرياض جيءَ به من السجن العمومي مُقيد اليدين بالأغلال، يحيط به جنديان وضابط لكي يُرحّل على الطائرة المتَّجهة إلى الرياض.

كان أطفاله حينما كان يسير الجنود به عبر الشارع (وكان بيت

أحمد البلوشي يطلُّ على نفس الشارع)، كان أبناؤه وزوجته يطلُّون من البيت نفسه، وما كادوا يرونه مُقيد اليدين منكَّس الرأس، يحيطُ به الجنود حتى أسرعوا بالصراخ والعويل، الأمر الذي هيَّج العواطف وأثار المشاعر.

اعتراف القاتل:

كان من ضمن الواقفين في الشارع عند مرور أحمد هذا مع الجنود أحد العمال من مُستخدمي الشركة من أبناء الإحساء، كان واقفاً ضمن المتفرّجين، وقد سمع صراخ أطفال الرجل وبكاءهم، وفي هذه اللحظة ثار ضميره، فأسرع إلى الضابط يطلبُ منه أن يتوقَّف عن السَّيْر، وأن يُعيد أحمد البلوشي إلى السجن، وأن يذهب الضابط مع هذا العامل إلى رئيس المحكمة الشرعية المرحوم ابن فريّان.

بُهِتَ الجميع، وحصل صخبٌ، وأخذٌ وردٌ. ذهب هذا العامل مع الضابط إلى المحكمة وأعلن أمام القاضي أنه هو القاتل، وليس أحمد البلوشي، ثم طلب من القاضي تسجيل اعترافه هذا، وانتداب هيئة تذهب معه إلى بيت القتيل لكي يشرح لهم كيفية قيامه بقتله وتفاصيل ذلك، ويدلُّهم على موضع المسدس الذي دفنه بالأرض بعد تنفيذ الجريمة.

سبب القتل:

كانت عناصر الجريمة واضحة ومكتملة، أما سبب القتل، فقد أَوضحَ هذا العامل أنه كان يشتغل تحت إِمرة هذا المهندس، وأن هذا المهندس الهولندي كان يُسمعه إهانات متكررة أثناء العمل، وكان يَزْدري العرب والمسلمين ويقول له: إنَّ العرب، وأنت منهم، لا قيمة لكم، وبقر هولندا أفضل منكم، وأنَّ هذا العامل قد شكىٰ إلى رئيسه الأمريكي أكثر من مرة، ولكن بدون جدوىٰ، فاضطر دفاعاً عن كرامته وكرامة بني وطنه بأن يثأر من هذا الأجنبي المتغطرس بالقتل، وليكن بعد ذلك ما يكون.

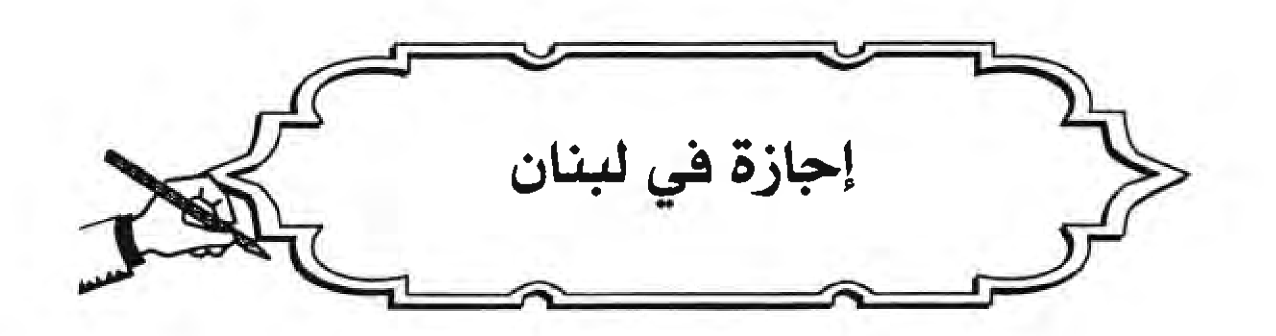
ضمير حي:

سُجِّلت اعترافات العامل هذا بما لا يخرج مضمونه عما ذكرناه. ثم أُودع العامل السجن العام، ورفُعت أوراق القضية إلى جهة الاختصاص، وقد أكبر الجميع هذا الضمير الحيّ من هذا العامل البسيط، الذي كان بوسعه أن يظلَّ في مأمنٍ من عقوبة جريمته لأنه لم تَدُر حوله أي شُبهة.

وقد برّرَ إقدامه على هذه الحركة بعد أن ظلّ شهوراً صامتاً كاتماً للسرّ، وهو يسمع ما يُلاقيه أحمد البلوشي هذا من عذاب وتنكيل، أجاب بقوله: أنه عندما رأى الشخص يحيط به الجنود مُكبل اليدين، منكّس الرأس، وزوجته وأطفاله يصرخون بأعلى صوتهم، قررَ أن يقدِّم نفسه ويعترف ليُنقذ هذا الشخص المظلوم.

وقد كانت نهاية القضية أنَّ الحكومة قد دفعتْ الديّة لذوي القتيل، وأطلقتْ سراح القاتل تقديراً لنُبله وشهامته وحرصه على كرامته وكرامة وطنه الذي كان ذاك الهولندي يهينها.





ثلاثة أشهر في لبنان:

في عام ١٣٨٤هـ استحصلتُ على إجازة إدارية مُدتها ثلاثة أشهر للراحة والاستجمام من الإرهاق الذي كنتُ أعانيه، نتيجةً لقضايا التهريب ومشاكلها.

كُلِّفَ الصديق محمود أمين بديوي أمين جمارك الحدود في قرية بالحضور إلى (عرعر) للعمل نيابةً عني مدة الإجازة.

اصطحبتُ أسرتي المكوَّنة من زوجتي وابنتي هدى، وكانت في حوالي الثامنة من العمر، بعد أن أبقينا مسكننا في (عرعر) على وضعه بجميع ما فيه، ليسكنه الأخ محمود أمين وأسرته.

وقوعي في مصيدة نصَّاب:

نزلتُ في بيروت في فندق يطلُّ على البحر، يديره المدعو توفيق الطبش، وسلَّمنا جوازات السفر لإدارة الفندق.

كان الذي رأيناه يعمل في الفندق مسؤولاً عن حركته، شاب لبناني، أَفهمنا بأنه هو المسؤول عن الفندق حالياً؛ لأنَّ توفيق الطبش، كما أفاد، كان آنذاك مُتغيباً خارج لبنان، عندما سألناه عمّا إذا كان بالفندق صندوق لحفظ أمانات النزلاء؟ أجابنا: نعم، فسلَّمناه ما كان معنا من نقود لإيداعها،

وكان في حدود خمسة آلاف ليرة لبنانية، على ما أذكر. فاستلمَ المبلغ، وعدّه أمامنا، ثم أوضحَ لنا بأنه سيُحضِّر لنا الإيصال عندما يصل توفيق الطبش، وكان ـ كما يقول ـ مُنْتَظَرٌ وصوله مساء ذلك اليوم، لكي يُوقِّع هذا السند، ومن ثمَّ يحضره إلينا.

لم يخامرنا أيُّ شك في صحة ما يقول ذلك الشاب، ولم نلح على سرعة الحصول على إيصال، ثم صعد إلينا في مساء تلك الليلة هذا الشاب، مُفيداً بأنَّ توفيق الطبش قد اتصل به تلفونياً من سوريا، موضِّحاً له أن حضوره إلى بيروت سيكون بعد غد.

مرّت ثلاثة أيام دون أن يحضر توفيق الطبش، كما يقول، وهذا الشاب يصعد إلينا مرات متكررة في اليوم، مستوضِحاً عما إذا كان لدينا طلبات من الفندق، أو خدمات يقضيها لنا. في اليوم الخامس نزلتُ إلى غرفة الاستقبال فلم أجد ذلك الشاب، وإنما وجدتُ في المكتب شخصاً بدين الجسم، ضخم الجثّة، علمتُ منه أنه هو توفيق الطبش، فسألته عن السند، أجاب باستغراب: أيُّ سند تقصد؟ فشرحتُ له الموضوع، وهنا عَلَتْهُ الدهشة والاستغراب، كيف تسلِّم لهذا الشخص نقوداً بهذه البساطة والسهولة؟ فأوضحتُ له بأنه الشخص الذي وجدته يدير عمل الفندق، ويقابل النزلاء، ويلبي طلباتهم.

فأخبرني بأنني أوقعتُ نفسي في مصيدة نصَّاب لا يعرف كيف يستطيع أن يستعيد المبلغ منه، موضِّحاً بأن هذا الشاب قد اختفى منذ يومين من الفندق.

مناقشة طويلة وجدال مع مدير الفندق:

بعد مناقشة طويلة وجِدال لا جدوى من سردِه، بيني وبين الطبش هذا، اتَّضح بأن المثل القائل: (على نفسها جَنَت براقش) ينطبقُ عليَّ تمام الانطباق.

حاولَ أن يُطمئنني أنه سيبذل كل جهد في البحث عن هذا الشاب،

واستحصال المبلغ منه، قال ذلك دون أن يُبدي أي إشارة تشي بأنه سيتحمَّل دفع هذا المبلغ لأنه هو المسؤول، فقد مكّنه من إدارة الفندق ومقابلة النزلاء، فهو المسؤول عن تصرفاته. بَيْدَ أنه حاجّني بقوله: إنني لم أطلبْ منك أن تسلِّم له أو لغيره من مُستخدمي الفندق أيَّ مبلغ حتى تطالبني بأن أكون مسؤولاً عنه.

خلاصة الموضوع أنَّ هذا الطبش قد أخذ يراوغني بالوعود المُطمئنة عن جدّيته في البحث عن ذلك الشاب، وقد انتهت مدة الإجازة دون أيِّ جدوى، مُستعيضاً بالله سبحانه وتعالى عمَّا لحقني من خسارة، نتيجةً لعدم التزامي بالحرص والحذر.

الاستعاضة بالله سبحانه عما فقدته من المال:

استشرتُ بعض أصدقائي في بيروت، ومنهم الصديق عبدالمحسن المنقور المُلحق الثقافي السعودي في لبنان آنذاك، فأوضحَ لي أنه ليس هناك من سبيل إلاَّ تقديم دعوى للأمن العام اللبناني ضد توفيق الطبش هذا، وأنه مع ذلك يترتب عليّ أن أعيّن محامياً يقوم بملاحقة القضية. وبما أنَّ المبلغ محدود نسبياً فقد استخلصت أنني سأنفق على المحامي مبلغاً قد لا يقلُّ عن هذا المبلغ الذي فقدته، فضلاً عمّا قد يكون لهذه الحادثة من أثر لدى بعض الصُحف، فَيُتَّخذ منه مادة للإعلان والتشهير أربأ بسمعتي عنها، ولذلك استخلفتُ الله عوضاً عمّا فقدت، مُتخذاً من هذه الحادثة عِبرة ودرساً في وجوب الحيطة والحذر في التعامل مع الناس، وخاصةً مع أشخاص لم يكن لي سابق معرفة بهم.

اتصلتُ تلفونياً من الفندق بمدير البنك الأهلي في (عرعر) الصديق المرحوم حسن سعيد قنذل، فحوَّل لي على الفور المبلغ الذي طلبته.

كانت الأشهُر الثلاثة التي قضيتها في بيروت، إذا استثنينا هذه الحادثة من أمتع الأيام التي قضيتها في راحة واسترخاء، ومداومة على القراءة، ومُوَاصلة لدُور العِلم والثقافة.

برنامجي اليومي في بيروت:

كان برنامجي اليومي في الصباح بأن تكون صحف ذلك اليوم قد وصلت إليّ، وهي كثيرة إذ كان منها: صحيفة النهار ـ مجلة الصياد، لسعيد فريحة ـ جريدة بيروت، لمُحيي الدين النصولي ـ جريدة بيروت المساء، لعبدالله المشنوق ـ جريدة الجريدة، لنصري معلوف ـ جريدة لسان الحال ـ جريدة العمل لسان حال الكتائب، وغيرها صحفٌ ومجلات غابتْ عني أسماؤها الآن، ولا غرو في ذلك، فقد كان لبنان آنذاك يشهد عصراً زاهياً في عالم الثقافة والفكر.

حضور الندوات العلمية:

كان ذلك يتمّ في الصباح، أما المساء فأقضيه دائماً في دار التربية الوطنية اللبنانية، أو خلية الملك سعود الاجتماعية أو غيرهما من الندوات التي يُعلن عنها في صحف ذلك اليوم بأن محاضرات ستُلقى فيها.

كنتُ أبادر مُبكِّراً إلى مكان الندوة لكي أحجز مكاني في مقدمة الصفوف قريباً من مِنبر الخطابة.

مدرسة المقاصد الخيرية:

كنتُ أخصِّص يوم الجمعة من كل أسبوع لابني الوحيد يوسف الذي كان آنذاك يدرس في مدرسة المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت الواقع مكانها في منطقة الحرش في بيروت، والتي كانت تشرف على إدارتها آنذاك السيدة إحسان محمصاني.

مع ولدي يوسف:

كان ابني يقيم في القسم الداخلي من تلك المدرسة، ومعه زميله عبدالله قنذل ابن صديقي مدير البنك في (عرعر) حسن سعيد قنذل، وكانا آنذاك في المرحلة الابتدائية.

كنتُ أصطحبهما، أي يوسف وشقيقته ووالدتهم وزميله عبدالله قنذل،

كل صباح جمعة، وأحاول أن أعرِّفهم على مدن لبنان ومعالمه الحضارية.

فجمعة أذهب بهم إلى مدينة صور، علماً بأنني قد اصطحبتُ معي من (عرعر) سيارتي الخاصة مع سائقها، وجمعة أخرى إلى النبطية، ثم إلى نبع الصفا، فالباروك، فحمَّانا، وفالوغا، فبعلبك وقلعتها التاريخية، فطرابلس الشام، فزغرتا، فبشرِّي، فجبل الأرز، فالبِقاع، وبالجملة كنتُ أحرص على أن يشاهدوا ويتعرَّفوا على أكبر عدد من مدن لبنان، وقراه ومعالمه الحضارية، بما في ذلك المتحف، والبردوني في زحلة، وغيرها كثير.

التعرُّف على المكتبات ودور النشر:

كان وجودي في لبنان خلال الأشهر الثلاثة قد مكَّنني من التعرُّف على المكتبات ودُور النشر، وارتيادها واقتناء ما يروقُ لي من موجوداتها من الكتب، حتى لا أبالغ إذا قلت أنني قد اشتريتُ من تلك المكتبات ما لا يقلّ عن ألفي مجلد.

شحن الكتب إلى (عرعر):

كنتُ أبادر بشحن ما اقتنيته أولاً بأول إلى (عرعر)، عن طريق طائرة التابلاين، التي تقوم يوم الأربعاء من كل أسبوع من مدينة بيروت فتهبط في مطار طريف، ثم في مطار عرعر، وكنتُ أرسلُ السائق بالكمية إلى مكتب التابلاين في شارع الحمراء، ضمن كراتين كتب عليها اسمي، فيتولَّى قسم الشحن في الشركة لشحن تلك الكراتين ضمن حمولة تلك الطائرة، فَتُحفَظُ تلك الطرود في مطار (عرعر) حتى عودتي من الإجازة.

الشهور الثلاثة:

كانت فرصة ثمينة مكّنتني من البحث، واختيار الكتب التي أعتقد أنها حقلٌ يلتفّ أيكه بثمار العلم والمعرفة. وليعذرني قارىء هذه الأسطر إذا قلت أنني لا أجافي الحقيقة، ولا أُغالي في الواقع، إن قلت أنَّ تلك الشهور الثلاثة كانت من أمتع وألذ الأوقات إلى نفسي.



جولات على الإدارات الجمركية:

كانت ظروف العمل، وخاصةً في الشهور الأولى من استلامي رئاسة مالية وأمانة جمارك الحدود الشمالية، تقتضيني أن أقوم بجولات متكرِّرة على الإدارات الجمركية المرتبطة إدارتها بهذه الأمانة، مما يضطرني إلى أن أفوِّض كلاً من المحاسبَين المالي، وهو الزميل حمَّاد بن سليم، والمحاسب الجمركي وهو أحمد العيسي، أفوِّض كلاً منهما في نطاق عمله ومسؤوليته، وأن يوقِّع نيابةً عني ما يصدر من إدارته، أو يَرِد إليها خلال غيبتي، وكانت بعض هذه الجولات تستغرق مدة أسبوعين أو أكثر، وخاصَّةً بالنسبة لجمرك (طريف)، نظراً لضخامته وكثرة مشاكله.

قطع إحدى الجولات والعودة إلى (عرعر):

ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلاً، فلم تمضِ بضعة أشهر حتى اضطررتُ، في إحدى جولاتي، إلى قطع الجولة والعودة سريعاً إلى (عرعر)، للتنافس والشِّجار الذي وقع بين هذين الموظفين، إذ هما في مبنى واحد، ولكن كلاً منهما يقيم وموظفوه في غُرف مستقلة.

ونتيجةً لذلك، ولظروف طارئة استوجبتْ أن أتوجّه فوراً إلى جمرك (طريف)، فقد رأيت تفادياً لهذا الوضع، وحسماً للشِّجار بينهما أن أُكلف مدير جمرك (عرعر) بالقيام بالعمل نيابةً عني مدة غيابي رئيساً للمالية وأميناً لجمارك الحدود الشمالية، أي أنه مُخوّل بالتوقيع على ما يصدر من هذه

الإدارة من كِلا القسمين، وكذا ما يَرِدُ لهما عن طريق البريد، وفضّ البريد، والاطلاع عليه، ثم توجيه ما يرِدُ إلى كل قسم بما يخصُّه.

كان الوقت ضيقاً بالنسبة لهذه العملية، وكنت تلقيتُ مساء أحد الأيام اتصالاً تلفونياً من مدير جمرك (طريف) الأخ علي لافي، يطلب مني سرعة الحضور.

نيابة الأخ محمد الرجراجي بإدارة الأمانة مدة غيابي:

ولمّا كنتُ قد عدتُ من (طريف) قبل بضعة أيام، دون إكمال مهمتي، فقد وجَّهت مذكرةً للأخ محمد الرجراجي مدير جمرك (عرعر) بتكليفه بإدارة الأمانة مدة غيابي، لأن محمد الرجراجي هذا كان من حيث المرتبة الوظيفية مساوياً لكلٍّ من محاسب المالية ومُحاسب الجمارك، وهو فوق ذلك كان محاسباً للمالية قبل أن يُنقل مديراً لجمرك عرعر، ومعنى ذلك أنه تتوفَّر لديه الخبرة في كِلا المجالين المالية والجمارك، وهذا لا يتوفَّر في أيٍّ واحد من المحاسبَين المذكورَين لأنَّ خبرة كلٍّ منهما تنحصر في محيط عمله.

مذكرة رسمية لمدير جمرك (عرعر):

أحضرتُ كاتب الآلة إلى الإدارة بعد صلاة العشاء في ذلك اليوم، وأمليتُ عليه المذكرة التي وجَّهتها لمدير جمرك (عرعر)، مُعطياً منها صوراً لكل من وزارة المالية، ومصلحة الجمارك، ومُحاسب المالية، ومُحاسب الجمارك في (عرعر)، ودّعت المعاملة في دفتر التوديع، وفي الصباح المبكِّر من اليوم التالي استدعيتُ الحارس، وسلَّمته دفتر التوديع، على أن يُسلِّم الرسائل لأصحابها، ثم غادرتُ (عرعر) قبل شروق الشمس، متوجِّهاً إلى طريف.

غضب وانفعال:

بطبيعة الحال لم يُرضِ هذا التصرُّف الزميلين الكريمين حمَّاد بن سليم، وأحمد العيسىٰ، وتلقيَّاه بغضب وانفعال بدعوى أنني أتيت بشخص آخر من خارج الإدارة ليرأسهما، وهما أحق بالإدارة، لأنَّ كُلاً منهما أكثر

معرفة في مجال عمله كما يتصوَّران.

لم يكن في وِسعهما أن يفعلا أي شيء لأنَّ الإجراءات التي اتُّخذت إجراءات رسمية، فتقبَّلا الأمر على مضض، بَيْد أنهما لم يتركا هذه الحادثة تمرّ، بل فكَّرا في الوسيلة التي تمكِّنهما من الانتقام مني بزعم ردّ الاعتبار لهما كما يزعمان.

مذكرة إلى وزير المالية والاقتصاد:

ولذا فقد نحَّيا خصومتهما جانباً، واتفقا معاً على توجيه مذكرة باسم سموّ وزير المالية والاقتصاد الوطني صاحب السموّ الأمير مساعد بن عبدالرحمن، كانت المذكرة تتألف من خمس صفحات كلها شتيمة وطعن وتجريح وتَشكيك في تصرُّفاتي.

عبارات الطعن والتجريح:

كل ما يعرفانه من عبارات الطعن والتجريح أودعاها في تلك المُذكرة. كانت مآخذهما عليّ من قبيل أنني أهنتهما باختياري شخصاً آخر يرأس العمل نيابةً عني عند غيابي، بينما هما موجودان يديران ويُشرفان على عملهما، ومن أنني متكبِّر ومُتعجرف كما يقولان ـ سامحهما الله ـ وأنني لا أقيم لآرائهما وزناً، مما يُضعف مركزهما أمام الموظفين العاملين تحت إِمرتهما. وكل تلك المطاعن والتجريح تحوم حول هذا الموضوع، شيء واحد لم يجرؤا على ذكره هو عدم الكفاءة العملية، ونظافة اليد بالنسبة لي.

مكثتُ في هذه الجولة مدة شهر لأنَّ الأمر كان يستلزم بقائي، وكانت البرقيات المهمة تصلني صور منها.

سفري إلى الطائف:

بعد إنهاء مهمتي في (طريف) استلزم الحال أن أسافر إلى (الطائف) من (طريف) مباشرةً لمقابلة سموّ وزير المالية لعرض بعض موضوعات استلزمت المصلحة عرضها عليه وأخذ توجيهاته عليها.

مقابلة وزير المالية:

قابلتُ سموّه في منزله بالطائف فور وصولي في تلك الليلة، وناقشتُ مع سموّه ما كنتُ أرغب في مناقشته، ثم طلبتُ من سموّه الإذن بالبقاء لي بالطائف لمدة ثلاثة أيام، فأذِن لي بذلك.

كنتُ مُقيماً في أحد الفنادق بالطائف، وإذا بأحد مراسلي وزارة المالية يحضر عندي في الفندق طالباً مني سرعة الحضور لمبنى الوزارة لمقابلة سموِّ الوزير.

كانت الوزارات آنذاك تستأجر مَقرّات لها بالطائف مدة أيام الصيف من كل عام. كان مَقر وزارة المالية في عمارة على بعد نحو ٣٠٠ متر من مقرّ سموِّ الأمير فيصل بن عبدالعزيز.

لقاء الصديق حسن القرشي سكرتير وزير المالية:

بادرتُ بالذهاب إلى مَقر الوزارة في أول الدوام، فوجدتُ الصديق حسن القرشي، وكان يعمل آنذاك سكرتيراً لوزير المالية، سألته: ما الخبر؟ فأجاب بأنه لا يدري وإنما تلقَّى تليفوناً من سموِّ الوزير بأن يبعث إليّ ليطلب حضوري لمقابلة سموّه.

لم يمضِ طويل وقت وأنا والأخ حسن قرشي في مكتب الوزير، حتى دخل علينا سموُّه؛ جلس على مكتبه، وهنا أشار إليّ بالجلوس بجانب مكتبه، ثم أخرج من دُرج المكتب ظرفاً مفتوحاً مُعنوناً باسم سموّه.

وصول كتاب الطاعنين:

دفعه إليّ قائلاً: اقرأ هذا الكتاب، في هذه الأثناء دخل المكتب مدير عام مصلحة الجمارك الأخ محمد نور رحيمي وهو لا يعلم أنني موجود بالطائف، وكان يظنني موجوداً في (طريف).

إحالة الكتاب إليِّ رسمياً:

أخذتُ الكتاب وما كدتُ أطَّلع على السطور الأولى منه حتى فهمت

الموضوع بكامله. وهنا رجوتُ من سموّه أنه نظراً لخطورة ما ذُكر فيه ومُوجَّهاً إليّ، فإنني أرجو أن يُحال من سموّه إليّ رسمياً، حتى أستطيع إجابة سموّه على مضمونه إجابةً مفصَّلةً. وأعطى الكتاب للأخ حسن قرشي، وطلب منه أن يحيله إليَّ بطريقة رسمية، وفعلاً تمَّ ذلك.

مبررات اختياري لمدير جمرك (عرعر) للنيابة عني:

كان مدير عام الجمارك مُقيماً في حجرة مجاورة لحجرة الوزير؛ دخلتُ عليه، وأوضحتُ له سبب قدومي إلى الطائف، ثم انتحيتُ جانباً من الغرفة، وسجّلت الإجابة على الكتاب بعبارةٍ موجزة مركَّزة لم تتجاوز الستة أسطر على ما أذكر، ضارباً صفحاً عن جميع ما ذُكر في كتاب الزملاء، مُبيِّناً أن اختياري لمدير جمرك (عرعر) للنيابة عني مدة غيابي إنما كان مُسْتَنِداً على المُبرِّرات الآتية:

أ ـ أن مدير جمرك (عرعر) هذا كان مُحاسباً لمالية (عرعر) قبل تعيينه مديراً لجمرك (عرعر)، ومعنى ذلك أنه ملمّ بأعمال الماليات وأعمال الجمارك.

ب ـ أنه مساوٍ لهما من حيث الرتبة الوظيفية.

ج ـ أنني قد سبق أن أَوكلتُ العمل لهما كل في مجال قسمه، وحدث أن تشاجرا، بل وتضاربا معاً، مما أوجَدَ خَللاً وفوضى في الإدارة، اضطرتني لقطع مهمتي والعودة إلى (عرعر).

د ـ إن الزميلين حماد بن سليم وأحمد العيس لم يُوردا أي كلمة بخطابهما هذا عن عدم نظافة يدي، أو عدم كفاءتي العملية، وهذا ما يهمُّني، أما ما ذكراه خلاف ذلك فليس لديّ عليه أيُّ تعليق.

تحويل مذكرتي إلى مدير عام الجمارك:

وقَّعتُ المذكرة ثم دخلتُ فيها على سموّ الوزير خلال نصف ساعة تقريباً. بعد قراءته لمضمون هذه المذكرة ابتسم ـ رحمة الله عليه ـ وشرح

على المذكرة بخط يده إلى مدير عام الجمارك لإبداء الرأي في مذكرتي، وبخطاب الزميلين.

سلَّمتُ المذكرة لمدير عام مصلحة الجمارك، وفي هذه الأثناء وصل الخبير القانوني بوزارة المالية المدعو بهجت ـ مصري الجنسية ـ، والذي أخذ مقعده بجوار مدير عام مصلحة الجمارك، أما أنا فقد استأذنت من سموّ الوزير بمغادرة الوزارة لإكمال بعض الشؤون الخاصَّة بي.

تأييد صحة إجراءاتي:

دُرس كتاب الأخوين من قِبل مستشار الوزارة القانوني، ومدير عام مصلحة الجمارك، ثم حرَّر عليه مذكرة بتوقيعهما لسموّ الوزير يؤيِّدان فيها صحة إجراءاتي، ويطلبان في الوقت نفسه اتخاذ عمل حاسم ضد الزميلين حماد وأحمد على الألفاظ غير المُهذَّبة، والاتهامات التي لا تستند إلى واقع التي ملآ بها مذكرتهما.

العودة إلى (عرعر):

في اليوم الثالث عدتُ إلى مكتب الوزارة مودِّعاً لسموّ الوزير ومُستأذناً منه بالسفر. عدتُ إلى (عرعر) مباشرةً من (الطائف) لأنَّ مهمتي في (طريف) قد انتهت.

شائعات الزميلين الحاقدين:

وكان الزميلان قد أشاعا بين الموظفين وفي مجالسهما ومع أصدقائهما أنهما قد تمكَّنا من إزاحتي عن العمل، وأنني استدعيتُ إلى (الطائف) وحوكمتُ، ثم أعقب ذلك تنحيتي عن عملي، وأنني سأعود لتسليم العمل لمن اختيرَ بدلاً عني.

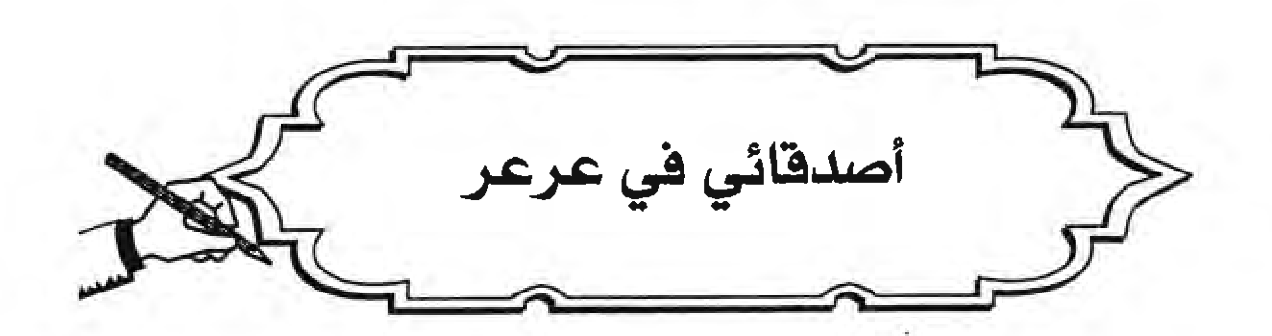
باشرتُ العمل كالمعتاد، وكنتُ أرى على وجوه الموظفين الدهشة والاستغراب، ثم علمتُ بعد ذلك عن هذه الإشاعة التي أطلقها الزميلان.

صدمة عنيفة للزميلين:

بعد أسبوع من وصولي لمدينة (عرعر) وصلِ البريد ومن ضمنه مذكرة بتوقيع وزير المالية بحسم نصف شهر من راتب كلٍّ منهما.

كانت الصدمة لهما عنيفة بدون شك. وكان فيها الجواب المناسب على ما أقدما عليه، ثم بعد أسبوعٍ آخر وردَ الأمر بنقل مُحاسب الجمارك أحمد العيس، وتعيين مصطفى حامد بدلاً عنه.





كانت تتألف تلك الشلّة من رؤساء الدوائر الموجودة في (عرعر)، وهم كالآتي:

نائب سموّ الأمير الأخ حمود بن شبيب، وسكرتير سموّه المرحوم محمد بن إبراهيم بن الصغيّر، ورئيس الشرطة عبدالحميد بخش، ومَن خَلَفه على هذا المنصب، ثم مدير الجوازات آنذاك بكر مدهر، فمدير البنك الأهلي المرحوم حسن سعيد قنذل.

اجتماع ليلي:

كُنَّا نجتمع كل ليلة، وفي الغالب يحضر مجموعة من كبار الموظفين. وكُنَّا نقضي السهرة كل جماعة يزاولون لعبتهم المفضلة، فهؤلاء يلعبون البلوت، وأولئك يلعبون الشطرنج، وآخرون يلعبون الكيرم، وغيرهم يلعبون الدومينو، وهكذا، كانت جلسات مَرِحَة مُحبَّبة للنفس لِما يتخللها من طُرَفٍ ونكات في أسلوب مُهذَّب خالٍ من التزمُّت ومن الرسميات.

كان الجميع ـ رَحِمَ الله مَن توفيّ منهم، وأمدّ من بقي بطول العمر وحُسن العمل ـ يتَّصفون بسِمات جميلة يسودها الوِدّ والتواضع والأُلفة والمحبة.

وكانت في بعض الأحيان تحدث بعض الانفعالات الحادة عندما يهزم فريق خصمه، ولكن سرعان ما تضمحل وتتلاشى ويعود الصفاء إلى طبيعته.

جوٌّ أخوي:

كُنَّا أثناء اجتماعاتنا تلك نسلخ أنفسنا كُلياً عن كل ما يتعلَّق بالعمل وشواغله. وكان هذا الجو الأخويّ يُتيح لنا أن يعدَّ كل واحد منا نفسه في مَنْصِب زميله الآخر، ومعنى ذلك أنَّ في وِسع مدير الجوازات، أو مدير الشرطة مثلاً، أو نائب الأمير، أو رئيس البلدية، أن يطمئن إلى أنَّ أيَّ طلب في أي موضوع سيُجاب من زميله بدون تردُّد، فكان في وِسع أي واحد أن يطلب من مدير الشرطة مثلاً أو من رئيس البلدية أو من مدير البنك مساعدة فلان أو حلّ مشكلته، بشرط أن يكون ذلك في حدود الإمكان. هذا الاجتماع يظلّ مستمراً بدون انقطاع، لأنه بالنسبة لنا جميعاً يُمثل فرصة تتيحُ لكلٍ منّا وقتاً للترويح عن النفس، والاستمتاع باللهو البريء، وتبادُل النكات والطُرف.

في مواسم الشتاء:

أمّا في أيام الجمع حيث لا مجال للعمل الرسمي، فإنَّ لنا ترتيباً آخر، وخاصةً في مواسم الشتاء والخريف، عندما تهطل الأمطار، فتكثرُ الغدران، وتزدهي الأرض بالزهور والأعشاب. فكان ترتيبنا هو أن تكون هذه الجمعة مقرَ اجتماعنا في المكان الفلاني الذي يكون أقصى بعده عن المدينة (٥٠)كم.

هذا المكان يذهب إليه مجموعة من الفَراشين والحُرَّاس في الصباح المُبكر، مصطحبين معهم خيمةً كبيرةً وفرشاً ومعدات الطبخ، وأحد الخِراف مع ما يلزم لذلك. ثم نبدأ نفد إلى ذلك المكان أحدنا تلوَ الآخر حتى يكتمل العدد.

أداء صلاة الجمعة:

وهناك نزاول ألعابنا المُفضلة ريثما يقترب موعد الصلاة، وهنا نتجه جميعنا إلى المدينة لتأدِّية الصلاة ثم نعود.

وخلال ذلك يكون الطبَّاخ، والذين معه قد هيأوا وجبة الغداء، ثم

نعود كما كُنا عليه، أو نتفرّق جماعات جماعات، نُمتّعُ أبصارنا بجمال الطبيعة التي أبدعتها قدرة الله عزَّ وجلّ.

جمال الطبيعة:

نشاهد الفِياض[1] والفيافي التي كَسَتْها الأعشاب بثوب سُندسي جميل رائع تعدَّدت فيه ألوان الزهور المختلفة، ويفوحُ منها أريجها العَطِر، وخاصةً في مواسم الأمطار، وقُبيل الغروب نعود إلى البلد.

تكاليف الوجبة:

ولكن على مَن تقع تكاليف هذه الوجبة؟ العادة المُتبعة أنها تتمّ بطريق التسلسل واحداً تلوَ الآخر، إلاَّ أنه يحدث أحياناً أن يتمرّد أحدنا عن الدفع كمدير البنك الأهلي عندما يرى أن التكاليف قد بلغت رقماً يُفزعه، فيتهرَّب من الدفع؛ إمَّا أن يتأخَّر عن الحضور في ذلك اليوم متعلِّلاً بشتى الأعذار ريثما يكون الدَور قد تجاوزه.

آلية منع التمرد والهروب:

وهنا كان لا بدَّ من اتخاذ آلية لمنع هذا الهروب، وكانت تلك الآلية هي أن نصَّبْنا من ضمن الأعضاء قاضياً اتفقنا على أن يُحاط بحصانة بحيث لا ينقض حكمه، وفي الوقت نفسه عيَّنَّا رجلاً يقوم بمهمة الشرطي الذي ينفِّذ الحكم، أو الجَلاد الذي يمسك بالمجرم إلى حبل المشنقة بحيث لا يفلتُ منه.

عبدالعزيز البعيجاني:

كان القاضي الذي اختيرَ هو عبدالعزيز البعيجاني عمدة حيّ المحمدية في مدينة (عرعر)، كان رجلاً مربوع القامة ظريفاً مرِحاً، لا تفارق النكتة شفتيه ذو فطنة وذكاء، كان محبوباً من الجميع.

---

(١) جمع فيضة، والفيضة هي المنخفض من الأرض الذي تجتمع فيه السيول.

قاسم العضاض (العشماوي):

أمَّا الشرطي الذي اختيرَ لتنفيذ قراراته فهو قاسم العضاض، وهو رجل بقدر ما حباه الله من ضخامة الجسم، وطول القامة ومتانة العضلات بقدر فهو مَرِح محبوب، كيف كانت تتمُّ المُحاكمة وإصدار الأحكام وتنفيذها؟

طريقة المحاكمة وتنفيذ الأحكام:

يأتي مدير الشرطة مثلاً إلى القاضي، فيزعم أنَّ رئيس المالية قد شتمه، وهنا يطلب القاضي إثبات الدعوى بالشهود والبَيِّنة، وما أسرع أن يتتالى الشهود لإثبات القضية على المُتَّهم، وهم جميعاً يعلمون أنها باطلة، وهنا يصدر القاضي الحُكم على المُتَّهم دون أن يقبل منه أي دفاع. ثم يسأل القاضي المُتَّهم: هل قبلتَ بالحُكم أم لا؟ فإذا قال: قبلتُ، طُلِبَ منه أن يحضر كفيلاً.

أما الحُكم فهو أنَّ عليه أن يدفع تكاليف الجمعة القادمة مهما بلغتْ، أما إذا تلكَّأ هذا المُتهم، أو أبدى شيئاً من الامتعاض، فإن وسيلة التنفيذ لهذا الحُكم حاضرة، وهو قاسم العضاض الذي كنّا نطلقُ عليه اسم العشماوي (وهو الاسم الذي يُطلق على الجندي المُختصّ في سجون مصر في تعليق المجرمين في حبل المشنقة).

كان العشماوي هذا بِيد واحدة منه يستطيع أن يرفع هذا المُتَّهم، ويقذف به في ملابسه في غدير الماء، فعندئذٍ يذعن للحكم عندما يرى أنَّ قبضة العشماوي الحديدية قد أمسكتْ بتلابيبه لقذفه في الماء، فيطلبُ من أحد الحاضرين أن يَكفَله، وهنا تُقبل كفالة الكفيل الذي يلتزم بدفع جميع نفقات الجمعة القادمة. وهكذا كانت تتسلسل، كلنا مُتَّهمون، وكلنا مررنا بهذه المحكمة.

المَقْلب الذي تجرَّعه حسن قنذل:

ومن ضمن الطرائف التي أذكرها أنَّ حسن سعيد قنذل مدير البنك

الأهلي في (عرعر)، وهو حضرمي، كان في إحدى المرّات هو المُتَّهم، وعندما أصدر القاضي الحُكم عليه تلكّأ في إعطاء الموافقة، وهنا نزعه قاسم العضّاض كما ينزع الطفل، رافعاً به إلى أعلى لقذفه في الغدير. وكان عمق الماء في هذا الغدير لا يقلّ عن مترين، عند ذلك أدرك حسن قنذل بأنه سيقذف بملابسه في هذا الغدير فاضطر للإذعان، وطلب من الحاضرين أن يكفَله واحد منهم، بَيْد أنهم جميعاً لم يبدوا حماساً لكفالته لمعرفتهم بشحُه وصعوبة استحصال المبلغ منه، وهنا أشار إليّ قائلاً: يَكفَلني رئيس المالية، فلم يكن لي مناص من إجابة طلبه.

تغيب حسن قنذل عن الحضور:

وبالفعل فإنه الجمعة التي تلتْ هذه المُحاكمة، كانت تكاليفها مفروضة عليه لم يخرج معنا كالعادة وتغيَّب عن الحضور كامل اليوم، بحجة أنَّ لديه في بيته طارىء ألزمه البقاء في البيت، وبطبيعة الحال فقد دفعتُ التكاليف، التي بلغت، فيما أذكر، نحو خمسمائة ريال.

محاولة استخلاص المبلغ:

حاولتُ أن أستخلص المبلغ منه، ولكن هيهات... أخذ يراوغني ويُماطلني وأنا أمدُّ له حبال الصبر.

أخيراً أهملتُ مطالبته نهائياً، وتناسيتُ الموضوع، ولم أعد آتي على أيِّ ذكرٍ لها في جميع اجتماعاتنا، ومَجالسنا معه.

مَضَتْ على هذه الحادثة نحو ثلاثة شهور كنت أتحيَّن الفرصة التي أستطيع أن أستحصل المبلغ منه.

محمد بن رشيد المجلاد رئيس قبيلة الدهامشة:

كان هناك المرحوم محمد بن رشيد المجلاد رئيس قبيلة الدهامشة من عَنَزَة، يتقاضى من الدولة راتباً شهرياً، مساعدة قدرها عشرون ألف ريال، تُصرف له في نهاية كلِّ شهر من صندوق مالية (عرعر).

تخويل البنك استلام راتبه:

وبما أنَّ محمد بن رشيد المجلاد هذا يقيم في منطقة (أم الضيان) مع أفراد قبيلته، وكانت (أم الضيان) تبعدُ عن (عرعر) قرابة ٦٠ كيلومتراً من جهة الشمال الشرقي، ولكي يُريح نفسه من الحضور إلى (عرعر) في نهاية كل شهر، اتفق مع مدير البنك حسن قنذل أن يدفع له حسن قنذل راتبه لعام كامل دفعة واحدة، مُقابل أن يحسم منه نسبة معيَّنة، على أن يقابله بوكالة شرعية باسم البنك تخوِّل البنك استلام هذا الراتب الشهري من صندوق المالية في نهاية كل شهر، نيابةً عن محمد رشيد هذا.

سند الصرف:

كان مدير البنك حسن قنذل ـ رحمة الله عليه ـ يُرسل إليّ في نهاية كل شهر أحد موظفيه، ويُدعى حسن زهراني، ومعه الوكالة لاستلام المبلغ الشهري، فأحيلهُ بدوري إلى أمين الصندوق عبدالعزيز الكويليت، فيقوم هذا الأخير بتنظيم سند الصرف الذي يُعرف باسم أمر الإعطاء، يوقِّع هذا الأمر من قِبل أمين الصندوق الذي نظمه، ثم يأتي به إليَّ، فأوقِّعه، وهنا يُعطى أمر الإعطاء لحسن الزهراني هذا ليذهب به إلى رئيسه حسن قنذل، ليوقِّع على الأمر بالاستلام ثم يعود به إلى أمين الصندوق لاستلام المبلغ. كانت هذه هي الطريقة المتَّبعة.

وكنت خلال الأربعة أشهر التي تلتْ الحادثة التي تهرَّبَ فيها من دفع المبلغ إليّ، أسرع في إنهاء إجراءات الصرف، حتى يطمئن أنني لن أخصم أي شيء من هذا المبلغ الذي يستلمه.

وفي أحد الأيام بعد أن أتمَّ أمين الصندوق تنظيم أمر الصَّرف، وإرساله إلى مدير البنك لتوقيعه كالعادة بعد أن وقِّع هذا الأمر من أمين الصندوق ومني، ولم يبقَ عليه إلا توقيع المُستلم، وخلال غيبة حسن الزهراني بالأمر لتوقيعه من مدير البنك، كنتُ أوعزتُ إلى أمين الصندوق

عبدالعزيز الكويليت بأنَّ عليه حالما يعود حسن الزهراني، ويسلِّمه أمر الإعطاء، موقَّعاً عليه من حسن قنذل بالاستلام: عليه أن يسحب منه هذا السَّند، ويودعه الدُرج، ثم يتظاهر بالبدء بِعدّ المبلغ، وهنا سأتصل به تلفونياً، فحالما يرفع السماعة عليه أن يضعها مذعوراً، ويتظاهر بالفزع، ويُرجع النقود إلى الصندوق ويُقفله، ثم يهبُّ لمغادرة الغرفة طالباً من حسن الزهراني أن ينتظر، لأنه سيذهب إلى بيته حيث اتصلتُ به عائلته لأمر مُهم، وأنه سيعود حالاً، وكنتُ أوعزتُ له ألاَّ يعود في ذلك اليوم إلى العمل.

انتظار أمين الصندوق:

حضر في مكتبي حسن الزهراني ينتظر عودة أمين الصندوق، طالتْ المدة ساعة... ساعتين... ثلاث... وكنتُ أُهدىء من رَوعِهِ بأنه سيحضر، وأخيراً انتهى الدوام، فقام غاضباً مُنفعلاً يشتمُ ويلعن، ولكنني هدَّأتُ رَوْعه بأنه لا خطر هناك على المبلغ لأنه موجود في الصندوق، وإذا حصلت لأمين الصندوق ظروف مَنعته من الحضور فغداً صباحاً يستلم المبلغ، ثم اتصلتُ مع حسن قنذل وشرحتُ له الموضوع وهو يسمع. خرج من عندي على أن يعود غداً صباحاً لاستلام المبلغ.

مطبخ أبي موفق:

كان من ضمن حُرَّاس المالية حارس اسمه عبدالعزيز الدغيثر، فطلبتُ منه أن يذهب إلى مطبخ أبي موفق الذي يرأسه آنذاك المرحوم خليل النجيدي، وأن يُبلغه عن لساني، وكان هذا المطعم مطعم ضخم، يقوم بتهيئة الولائم، لأنَّ لديه الاستعداد الكامل، طلبتُ منه أن يقوم بذبح خروفين، وطهيهما لأن لديَّ ضيوفاً قد يبلغون الأربعين، وأنَّ عليه أن يُحضر أيضاً عشر صناديق بيبسي بحيث تكون الوليمة جاهزة في حوالي الساعة الثالثة ليلاً من اليوم نفسه بالتوقيت العربي؛ لأنني حينذاك سأحضر ومعي ضيوف.

وليمة فخمة:

ثم اتصلتُ، وأنا في مكتبي قبل الخروج من الإدارة، بكلٍّ من مديري الدوائر وكِبار الموظفين والعُمد، ومجموعة كبيرة قد يكون عددهم أكثر من أربعين، طلبتُ منهم أن يحضروا لمطعم أبي موفق في الساعة المحدَّدة، وكان من ضمن المدعوين حسن قنذل.

طبعاً حضر الجميع، وأكلوا هنيئاً مريئاً بما فيهم حسن قنذل، الذي كان فَرِحاً مسروراً، واصفاً إيَّاي بأنني برمكي بشيء من الدعابة والمرح.

كانت صواني الأكل أربعة وقد أكل الجميع وبقي ثلاثة أرباع الأكل تقريباً، وكان في خارج المطعم عشرات من سائقي الشاحنات الأجانب من أردنيين وسوريين وغيرهم من الذين قدِموا إلى (عرعر)، يقودون شاحنات مُحمَّلة بالبضائع بطريق الترانزيت عبر المملكة، سواء إلى الكويت أو البحرين أو قطر أو دول الخليج.

دعوة السواقين إلى المائدة:

كان هؤلاء السائقين لا ينقص عددهم عن عدد الذين حضروا الوليمة، فدعوتهم إلى المائدة، وكُنَّا جميعاً لازلنا في الساحة التي وُضِعت فيها طاولة الأكل، فكنتُ أقول لهم بصوتٍ مرتفع بقصد أن يسمع الأخ حسن قنذل: ادعوا لمدير البنك حسن قنذل بطول العمر ومواصلة الكرم.

وقوع حسن قنذل بالفخ:

وهنا التفت إليَّ رحمة الله عليه مذعوراً، كأنَّه لدغته أفعى قائلاً لي: ما علاقتي أنا في الموضوع، يَدْعُونَ لك أنت، لقد آثرتك على نفسي.

وقال لي: شيء غريب متى كنت تقيم الحفلات؟! وكان مديرو الدوائر قريبين، وكُنَّا نضحك، فأحسَّ أنه وقع بالفخ، ولكن كيف لم يدرِ حتى الآن.

مكثنا في ذلك المكان نضحك بملءِ أشداقنا على حسن قنذل، وقد وقع بالفَخ من حيث لا يشعر.

فاتورة المطعم:

كنتُ طلبتُ من الأخ خليل مدير المطعم أن يجهِّز لي تكاليف الحفلة يضعها لي ضمن فاتورة يبيِّن لي مفرداتها، وبالفعل عندما طال السهر وضحكنا جميعاً ما شاء لنا الضحك، بينما توارى عنا الأخ حسن قنذل واختفى، وكأنه أحسَّ مغصاً في بطنه، اصطحبتُ الفاتورة معي وبوصولي البيت اتَّصلتُ تلفونياً بأمين الصندوق، وطلبتُ منه الحضور إليَّ في تلك الساعة المتأخرة من الليل. فحضر إليَّ وسلَّمته الفاتورة وكانت قيمتها على ما أذكر تتجاوز (٦٠٠) ريال.

خصم قيمة الفاتورة:

طلبتُ منه أن يكون حضوره غداً إلى غرفته قبل موعد الدوام بساعة على الأقل، وأنَّ عليه أن يقوم بِعَدّ المبلغ الذي سيُسلِّم لحسن قنذل، ثم يخصم منه قيمة الفاتورة ويضع الفاتورة مع المبلغ المُتبقي، فإذا جاء حسن قنذل أو مندوبه عليه أن يُسلِّمه ذلك، وإذا رفض فليُبقي المبلغ بالصندوق مع الفاتورة ويقوم بتسجِّيل المبلغ في سجلاته مصرفاً رسمياً سُلِّم لمُستحقه بموجب أمر الإعطاء الموجود لديه، وهكذا تمَّ.

لغط وضجيج:

مع بدء الدوام في اليوم التالي أثناء حضوري مُتجِّهاً إلى مكتبي، وكان ممري يجتاز غرفة أمين الصندوق، فما كدتُ أوازي تلك الغرفة حتى سمعتُ لغطاً وضجيجاً وصراخاً من حسن قنذل رحمة الله عليه، فكنتُ أكاد أقع على الأرض من شدة الضحك.

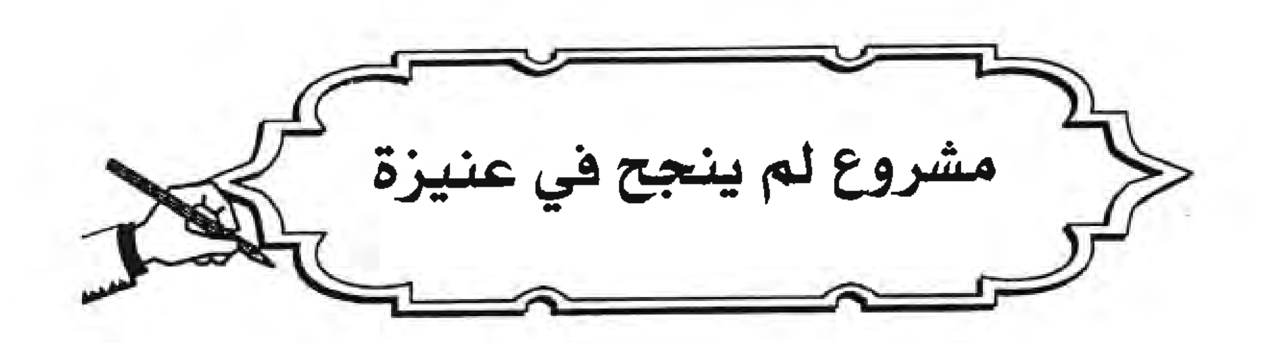
وهنا سألتُ أمين الصندوق، وحسن قنذل يسمع، وهو في حالة من الهيجان والغضب: لماذا تؤخِّر تسليم المبلغ للأخ حسن قنذل؟ أجابني بأنه رفض الاستلام، وهنا سألتُ الأخ حسن: لماذا لم تستلم المبلغ؟ أجاب بأنه أنقصَ منه ٦٠٠ ريال واضعاً مكانها فاتورة، فقلت له بكل هدوء: هذا هو حقٌّ يا حسن، أَلم تأكل أمس وتملأ بطنك (بشيء من التهكُّم والسخرية)؟

وهنا كاد أن يبلغ به الحنق والغيظ ما يُخرجه عن صوابه ليُمسك بتلابيبي، ولكني كنت هادئاً أضحك، وهنا هدأت ثورته نسبياً، وخرج مُسرعاً من غرفة أمين الصندوق يُتمتم بكلمات غاضبة معناها أنه سيشكوني لوزارة المالية.

حديث مجالس أهل عرعر:

وبطبيعة الحال فقد اضطر بعد أسبوع أو أسبوعين لاستلام المبلغ، وكانت هذه الحادثة هي حديث مجالس أهل عرعر في تلك الأيام؛ لأنَّ المرحوم حسن قنذل المشهور بالحذر، وأنه معروف أنه ثعلب أو قُل زئبق لا يمكن مَسْكه، ولكنه وقع في الفَخ.





مشروع لم ينجح في عنيزة

برقية من شقيقي حسون:

في أوائل عام ١٣٨٤هـ تلقيتُ برقيةً من شقيقي حسون محمد الحسون المُقيم في مدينة عنيزة، مَفادُها وصول هيئة من وزارة المعارف تبحث عن أرض مناسبة لا تقلُّ مساحتها عن (٤٠٠٠) متر، لتقيم عليها مدرسة للبنين، وأنها قد رأت في قسم من حائط الشعيبي الذي ورثناه من والدنا رحمة الله عليه الأرضَ التي تنشدها، فهي تطلبُ حضور مَن يستطيع المُفاهمة معها لشرائها منه، وأنَّ القيمة ستكون مُغرية.

ولمَّا كان أخي حسون هذا قد سبق أن باع ما يخصُّه من أرض هذا الحائط إلى أخينا الشقيق المرحوم عبدالله محمد الحسون، وكان مُقيماً آنذاك في مصر، وبأنَّ أرض الحائط أصبحت بذلك بيني وبين أخي عبدالله وأختي المرحومة نورة محمد الحسون، فكان من اللازم أن أتوجَّه إلى عنيزة.

وصولي إلى مدينة عنيزة:

في اليوم الرابع من ورود هذه البرقية وصلتُ إلى مدينة عنيزة بعد أن أَنَبْتُ عني في العمل مساعدي مبارك باخشوين، وبعد أن أبرقتُ لوزارة المالية والمصلحة الجمارك بأنني مضطر إلى الذهاب إلى عنيزة، وقد تستغرق غيبتي أكثر من عشرة أيام، وأنَّ مساعدي باخشوين سيؤمِّن العمل مدة غيابي.

زيارة بعد أربعين عاماً:

وصلتُ عنيزة عن طريق الجو عبر (عرعر) فجدة فعنيزة. كانت عودتي لعنيزة هذه تأتي بعد أربعين عاماً منذ غادرتها يافعاً في شوال ١٣٤٤هـ، اللهمَّ عدا زيارة خاطفة استغرقت يومين فقط عندما انتقل والدي إلى جوار الرفيق الأعلى في منتصف عام ١٣٥٠هـ.

لجنة وزارة المعارف:

وصلتُ عنيزة كما طَلَب أخي حسُّون، فوجدتُ أن هناك لجنة من وزارة المعارف أتتْ إنشاء مدرسة للبنين، وأنَّ اختيارها قد وقع على جزء من حائط الشعيبي الذي نملكه لِتوفُّر الشروط التي أرادتها في ذلك الجزء لوقوعه على الشارع العام، ولأنَّ مساحته تزيد على (٤٠٠٠) متر مربع.

الاتفاق على قيمة الأرض:

بعد مناقشة ومفاوضة معها في تحديد القيمة تمَّ الاتفاق بيننا على أن تكون قيمة هذه الأرض هي (٤٠٠) ألف ريال سعودي، وهو مبلغ مُغرٍ جداً في ذلك الوقت.

اشتراط الهيئة أن تكون الأرض محررة من الصُّبْرة:

لكن اشترطت بأن تكون هذه الأرض محرَّرة من (الصُّبرة): والصُّبرة كما هو مُتعارفَ عليه في أرض نجد ومنها عنيزة، وتُعرف بالحجاز باسم (الحِكْر) هي أن يمنح شخص شخصاً آخر أرضاً فضاءً محدودة المعالم والمساحة لمدة من الزمن تطول أو تَقصُر مقابل أنْ يلتزم هذا المُستفيد من الأرض بأن يدفع لمالكها مبالغَ مُحَدَّدَةً من المال كـ (١٠) ريال أو (٢٠) ريال مثلاً، أو من القمح (٥٠) صاع مثلاً، أو أكثر أو أقل، يدفعها المستفيد للمُصَبِّر، أو لورثته في نهاية كل عام، سواءً استغلّها المستفيد بحرث أو زراعة أو غرس نخيل وأشجار أو ما شابه ذلك من أنواع الاستفادة أو الاستثمار، أو بقيتْ أرضاً فضاء لم تُستثمر بشيء.

هذا هو مفهوم الصُبرة، وهي شائعة ومنتشرة في جميع الأملاك غير المنقولة في عنيزة وغيرها، سواءٌ كانت بالعقارات أي البيوت المبنية وما شابهها، أو كانت بأرض فضاء وهي ما يعبَّر عنها باسم الحائط، وهو يعني البستان.

وأراضي البساتين هذه التي يصبِّرها المالك للمستفيد تكون عادةً لا تقلُّ مساحتها عن (١٠،٠٠٠) متر مربع على الأقل، كما لا بدَّ أن تكون فيها بئر عميقة متَّصلة بالماء، بحيث تُمكِّن المستفيد من زراعة تلك الأرض وغرسها.

أرض الشعيبي وصُبْرتها السنوية:

ولمّا كانت أرض الشعيبي يوجد عليها صبرة سنوية قدرها خمس وخمسون صاعاً من القمح، كان والدنا المرحوم يدفعها كل عام، وكُنَّا نواصل دفعها إلى المصبِّر بعد وفاة والدنا، وهذه الصُبرة مشاعة على كامل أرض الحائط الذي مساحته (٩٠٠٠) متر مربع. فعلى ذلك لكي تتمّ الصفقة مع تلك الهيئة علينا إحضار إقرار من مصبِّري الأرض (إقرار شرعي) أنَّ مساحة الـ (٤٠٠٠) متر هذه، هي أرض حرَّة ليس عليها (صُبرة) ولا (حكر).

البحث عن ذرية مصبِّري الأرض:

ولمّا كان صاحب الأرض الأول الذي صبَّرها على المرحوم الوالد في عام ١٣٢٢هـ، قد انتقل إلى جوار ربِّه، واندرست ذُرِّيَّته أيضاً، بحيث آل استلام هذه الصُبرة إلى عجوز تبلغ التسعين من العمر، ذُكِر لنا بعد بحثٍ واستقصاء، أنها تقيم في مركز (المُويه) وهو مركز يقع على مقربة من الطائف من جهة الشرق، وأنها الوارث الوحيد الذي يستحقُّ كل عام الحصول على تلك الصُبرة.

مكثتُ في عنيزة ثلاثة أيام أو أربعة أبحثُ عن أحد أفراد ذرِّيَّة مالك

الأرض، فلم أعثر على أحد، وإنما ذُكرت لي هذه العجوز، وذُكر لي مكان وجودها.

اتفقتُ مع الهيئة على أن ينظروني (١٥) يوماً، فإن وفِّقت في الحصول على المطلوب فسأعود إليهم فوراً، أما إذا مضتْ هذه المدة ولم أَعُد فإنهم سيكونون في حلٍّ من ارتباطهم معي، وأنّ في وِسعهم أن يبحثوا عن مكان آخر.

التوجُّه إلى مركز المويه للقاء العجوز:

ثم توجَّهتُ بالطائرة إلى الطائف ومنها إلى مركز المويه بإحدى السيارات، وكانت المسافة بين الطائف والمويه تزيد عن (٢٠٠)كم.

بحثتُ عن تلك العجوز، فوجدتها بعد لأيٍ في بيت شَعر، يقع بجوار قصر مركز المويه.

أوضحتُ لها مهمتي، وطلبتُ منها أن أشتري منها صُبِرة الأرض التي هي (٥٥) صاعاً من القمح، أدفع لها مقابلها نقداً الثمن الذي تريد مقابل أن تتنازل لي رسمياً عن تلك الصُبرة مقابل هذا العِوَض.

رفض العجوز عن التنازل عن قيمة الصُّبرة:

كانت تحاورني رغم كِبر سِنها، حيث دفعتُ لها في بداية الأمر (٥٠) ألف ريال، وهو مبلغ ضخم جداً في تلك الأيام. كانت تستزيدني بالقيمة فأزيدها فأوصلتها إلى ثلاثمائة ألف ريال، وعند ذلك رَفَضتْ أن تتنازل عن تلك الصبرة مهما دفعتُ لها، أي أنها لن تتنازل عنها.

ضياع صفقة مربحة:

عدتُ منها فاشلاً أحمل خُفَّي حنين، ثم اتَّجهتُ إلى جدة حيث أبرقتُ إلى الهيئة بأنها في حلّ من الارتباط معي، لأنني لم أُوَفَّق في الحصول على ما يحرِّر تلك الأرض من الصُبرة. وهكذا ضاعتْ علينا صفقة

مُربحة آنذاك، أضاعتها علينا هذه العجوز الحيزبون. ولم أستطع حتى الآن فهم ذلك الإصرار منها، علماً بأنها كما علمت من جيرانها في الموية مبتورة الجذوع، أي مقطوعة لا يوجد لها نسل ولا أقارب، وهي ـ كما قلت ـ في الأصيل الأخير من حياتها.





حائط الشعيبي

عود على بدء:

وبمناسبة الحديث عن حائط الشعيبي هذا، فإنه يحسُن بي أن أعطي لمحةً مختصرةً عن موضوعه، لأنه وعلى أديم أرضه أبصرتُ الحياة، فنشأتُ وترعرعتُ في طفولتي، فوق أديم أرضه وتحت سمائه شأني وشأن بقية إخواني.

هذا الحائط هو عبارة عن أرض فضاء مساحتها ٩٠٠٠ متر مربع. وكان والدي رحمة الله عليه قد تصبَّره من صاحبه ابن طاسان في منتصف العقد الثالث من القرن الرابع عشر ـ كما ذكرت سابقاً ـ بموجب وثيقة خطيَّة موقَّعة من صاحب الأرض، ومن المرحوم والدي، عليها شاهِدان، وعليها تصديق وختم قاضي مدينة عنيزة آنذاك المرحوم صالح العثمان القاضي والوثيقة على ورقة عادية، مؤرَّخة في ٢٣ /ربيع الأول من ذلك العام.

مدة التصبير:

كانت الوثيقة تنصُّ على أن مدّة التصبير خمسمائة عام التزم بها الوالد رحمة الله عليه. وعلى الفور بادر باستغلال الأرض بزرعها بمجموعة من أشجار النخل، وأخذ يزرع أرضها بأنواع من العلف (البرسيم)، ويستغلُّها بزرع القمح والذرة وأنواع الخُضروات الأخرى. وكانت السواني فيها تتمّ بواسطة الدواب، تتولّى نزح الماء من البئر كل يوم لسقي المزروعات.

بيت من الطين:

أقام عليها الوالد رحمة الله عليه بيتاً من الطين من طابق واحد وثلاث غرف، ثم تزوَّج بعد ذلك وقُدِّر له أن يُرزق بأبنائه تحت سقف هذا البيت، وكنتُ واحداً منهم، وقد سبق لي أن أوضحتُ عبر هذه الذكريات وصفَ تلك الغرف واستعمالاتها وسِعتها، وكيف كُنَّا نقضي أوقاتنا فيها.

في عام ١٣٩٥هـ كان حائط الشعيبي هذا قد توقفت السواني فيه، وأخذ ماء زراعته يصل إليه من حائط الزويهرية الذي كان المرحوم أخي قد اشتراها بملكه الخاص، وبالطبع فقد تهدّم بيت الطين هذا الذي وُلدنا فيه.

حديث مع ابني يوسف وابنتي هدى:

وإذ كنت أحدِّث أبنائي يوسف وشقيقته هدى عن حياة طفولتي وعن وصف البيت الذي كنت أسكنُ فيه، فيتأفَّفون من وصف ذلك البيت، واعتبروا أنَّ فيه شيئاً من المبالغة، وأنَّ السَكن في مثل ذلك البيت أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة، فاغتنمتُ الفرصة في ذلك العام، فرصة وجود يوسف أثناء عطلة دراسته، فاصطحبتهم معي بسيارتي مع والدتهم، مُظهراً لهم أنَّ الهدف زيارة أخي حسُّون في عنيزة، والتعرُّف على أسرته، وتعريفهم على عمّهم وأقربائهم، بينما في قرارة نفسي أضمرتُ أن أُريهم على الواقع ذلك البيت الذي كانوا يعتقدون استحالة العيش فيه.

الوقوف على الأطلال:

فورَ وصولي إلى عنيزة اتَّجهت بسيارتي إلى البيت مدار البحث قبل أن أصل لأخي، فإذا هو تهدَّم بفعل الأمطار والقِدم، ولم يبقَ فيه سِوى غرفة واحدة التي كانت مكان نومنا آنذاك. كانت أم العنكبوت قد عشَّشت على المبنى.

وقوف ولدي أمام البيت:

ما كدتُ أقف بالسيارة أمام هذا المنزل، حتى أمسكتُ بيدي يَد كلٍّ

منهما، وسحبتهما إلى فناء ذلك البيت المهدَّم، مشيراً إلى تلك الغرفة التي كانت أم العنكبوت وخفافيش الظلام تملأ سقفها، وهو ـ أي السقف ـ من السَّعف والخشب.

كسر نظرة التعالي والترفُّع:

كان هدفي من ذلك هو أن أكسر في نفسيهما نظرة التعالي والترفُّع التي كنت ألاحظها تبدو على حركاتهما عندما كنت أحدِّثهما عن مستهل حياتي، وكيف قضيتها لتكون في ذلك عِبرةً لهما.





في أواخر شهر ذي القعدة من عام ١٣٨٦هـ اعتزمتُ الحج إلى بيت الله الحرام، وهي حجَّة تطوعية، إذ سبق لي الحج عدة مرات بعد حجة الفريضة. غادرتُ (عرعر) بسيارتي الخاصَّة يرافقني السائق فائز سحمان.

كانت الطرق آنذاك رديئةً جداً، مليئةً بالحُفر والأتربة والمُنعطفات، كانت السيارة ماركة «شفر» جديدة، استلمتها من شركة التابلاين قبل شهرين من مغادرتي (عرعر).

خط السير:

كان خط السير يبدأ من (عرعر) باتجاه الشرق، مروراً بالعويقيلة، فرفحا، فشعبة نصاب، فحفر الباطن، فالنعيرية، فالدمام، ثم يتجه الخط جنوباً ماراً بالظهران ومدينة بقيق، ثم يتجِه غرباً إلى الرياض فالزلفي فعنيزة.

زيارة أخي حسُّون:

رأيت أنَّ من واجبي أن أمرَّ على أخي حسون في مدينة عنيزة لأراه، لأنه مضتْ مدة طويلة دون أن أراه، ولكي أصطحبه معي للحجِّ إذا رَغِب، علماً بأنه قد سبق له أن أدّى الفريضة.

وصلتُ عنيزة، ومكثتُ فيها قرابة أسبوع، أتنقَّل فيها بين المعارف والأصدقاء، وأستعيد مراتع الصِبا والشباب، وأُعيد ذكريات تلك الأماكن التي

كنت ألهو فيها ولِدَاتي من أطفال عنيزة، فقد كان الوقت آنذاك مبكِّراً على وقت الحج.

مراتع الصبا والطفولة:

مكثتُ بعنيزة هذه المدة التي مرَّت وكأنها يوم، وكنتُ أزداد تعلُّقاً بالبقاء فيها، لِما تثيرها في نفسي مرابعُ الصِبا والطفولة من شجون وذكريات.

كنتُ أذهب ماشياً قاطعاً المسافات الكثيرة، لكي أصل إلى موقع أو مكان سبق أن وطأته قدماي عندما كنت طفلاً، وكم تبعث معالم الوطن وتُربته في نفس المُغترب، التي تنقله ظروف الحياة إلى أمكنةٍ بعيدةٍ عن وطنه الأم. كم تثير في نفسه من شجوٍ وشجون؟! تتمثَّل فيها حياة الطفولة البريئة وأيامها المَرِحة، ولذا فقد أجاد أمير الشعراء أحمد شوقي في تصويره لمكانةِ الوطن في قلب أبنائه، عندما خلّد ذلك بقوله:

وطني لو شُغلتُ بالخُلْدِ عنهُ   نازعتني إليه في الخلدِ نفسي

ودَّعتُ أخي وأسرته وأقربائي ورِفاق الصِّبا والطفولة، متجِّهاً إلى مكة المكرمة.

الطريق من عنيزة إلى مكة:

كان الطريق من عنيزة إلى مكة يمرّ بمدينة المذنب، التي تقع جنوب عنيزة على خط مستقيم، وهي قرية صغيرة تتألَّف من قرابة أربعين بيتاً من الطين، إلاَّ أنها مُحاطة بأراضٍ شاسعة، تغطِّيها مجموعات كثيفة من شجر النخيل. كان يقيم بهذه القريَة أحد أصدقائي وهو المرحوم محمد الشامخ، وهو عمّ رئيس بلدية (عرعر) فهد الشامخ.

الصديق محمد الشامخ:

كان هذا الصديق يزاول التجارة ما بين الشام والمملكة ولبنان، وكان يستورد بضائع عبر جمرك (طريف)، ولمّا كان الطريق العام الذي تسلكه

شاحنات البضائع عندما تغادر (طريف) في طريقها إلى المملكة تمرُّ عبر (عرعر) فقد كان هذا الصديق يلتقي بي شهرياً، يقيم عندي في البيت اليوم واليومين عند قدومه من طريف، أو اتجاهه إلى طريف.

كان الرجل جريئاً ذو قلب قُدَّ من الصخر؛ لأنه كان في أغلب الأحيان يلجأ إلى تهريب البضائع؛ كالسَمن والأغنام من المملكة التي يكون خروجها ممنوعاً، يقوم بتهريبها إلى الأردن أو لسوريا أو للعراق، وقد قُبِض عليه أكثر من مرة وأودِعَ السجن، ولكنه لا يمكث في السجن أكثر من شهر، وكان معروفاً عند الملك عبدالعزيز رحمة الله عليه بأنه الزئبق، الذي لا يُمسك. كان هذا الرجل قصير القامة، يتميَّز بطلاوة الحديث وبالنكتة الساخرة التي لا تفارق شفتيه.

إلى قرية المذنَب:

كانت المسافة بين المذنَب وعُنيزة في حدود (٤٠) كم تقريباً، وخلال سيري من عنيزة ـ وقبل وصولي المذنب ـ خطر ببالي أنَّ من الواجب عليَّ أن أزوره في بيته في المذنب، تفادياً لغضبه عليَّ فيما لو عَلِم أنني زرتُ عنيزة ولم أزره في بلده. لذا فقد طلبتُ من السائق أن يُخفِّف من سَير السيارة، حتى إذا ما وصلنا الشارع المتفرِّع من الخط العام، والمُوصِل إلى بلدة المذنب: عدلتُ السَّير إلى قرية المذنب.

كانت البيوت لا تبعد عن الخط العام أكثر من (٥٠٠) متر تقريباً، وكان بيت هذا الصديق محمد الشامخ يقع في مدخل هذه القرية، ومتميزاً عن بيوتها بسِعته ومظهره؛ لأنَّ مالكه على جانب من الثراء بالنسبة لبقية أهل البلدة.

كتلة من الصخر:

كانت السيارة تسير ببطء شديد بعد انحرافها عن الخط العام، كنتُ ممسكاً بيدي كتاب «مرآة الحرمين» أقرأ فيه عندما توقَّفت السيارة على جانب بيت الصديق، محاذية له من الجانب الأيمن من الشارع، وقبل أن يُطفىء

السائق محرّك السيارة إذا بي أشعر فجأةً بأن كتلة هائلة من الصخر قد هوت على كبود السيارة أي مقدمتها محطمة زجاج التابلون، ومُحدثة رجّة عنيفة.

تحطيم زجاج السيارة:

كان من توفيق الله سبحانه وتعالى أن كنت لحظتها شاخصاً ببصري للكتاب أقرأ فيه، مما حمىٰ عينيَّ من فتات زجاج الغمارة الذي تطاير كالرماد، ومن فضل الله وكرمه لم أُصَب لا أنا ولا السائق بسوء.

سبب الحادث:

واتضح أن الحادث نتج أن كان أحد أبناء المذنب، وهو فتى في العشرين من عمره ضخم الجثة، كان لديه موتور (دراجة نارية) وهو لم يُكمل تعلُّم السياقة عليها بعد، فانطلق بها من منعطف يقع فيه بيته يبعد عن مكان وقوف سيارتي نحو عشرين متراً، وإذ به يفقد توازنه وسيطرته على الدراجة فيقفز بها على السيارة بثقله الضخم، ثم يرتمي خلف السيارة هو ودراجته وكأنه فيل أطيحَ به.

تجمهر أهل البلدة:

ما هي إلا لحظات حتى تجمهر أهل البلدة، وكان يخور بصوت كما يخور الثور. طلبتُ سيارة تكسي فلم تسع جسمه فاستبدلتها بسيارة وانيت، وقد تظاهر هو بدوره بأنه قد تكسَّرت عظامه.

جثة ضخمة:

أمرتُ السائق فائز بأن يبقى في سيارته في مكانه، ولا يبتعد عنها شبراً واحداً، ثم نقلتهُ بالتعاون مع بقية الجمهور الذي تكاثف عدده، حملنا جثة هذا الفيل إلى سطح الوانيت، ولأنه لا يوجد مستشفى في هذه القرية فقد اتجهتُ به إلى مدينة عنيزة إلى المستشفى مباشرةً.

مستشفى عنيزة:

لما كنتُ قد تعرَّفتُ على مدير المستشفى خلال الولائم التي كان يحضرها معي مدة وجودي بعنيزة، فقد طلبتُ منه الكشف عليه سريعاً ووضع التقرير اللازم عن إصاباته، ومن ثَمَّ وضعه في المستشفى على حسابي. بعد نحو ساعتين تقريباً أظهرتْ الصورة الشعاعية أنَّ جميع جسمه سليم، ما عدا كسر في الفخذ الأيمن.

إلى مدير المرور في عنيزة:

أخذتُ صورة التقرير والأشعة بعد أن هيئتُ للمصاب غرفة خاصة يُعالج فيها على حسابي، ثم اتَّجهتُ إلى رئيس المرور في مدينة عنيزة وأشعرته بالحادث، وطلبتُ منه العودة معي إلى المذنب ليعاينوا معي مكان الحادث ويتَّخذوا الإجراءات اللازمة لتحديد المسؤولية، حسب ما يتَّضح من معاينة الموقع على الطبيعة.

محضر المرور:

تمَّ ذلك، ونظَّم المرور محضراً بموقع الحادث، مركِّزاً المسؤولية فيه على ذلك الشخص. على إثر ذلك اقتيدَ السائق فايز سحمان وأُودِع السجن مع أنه لا ذنب له، وذلك كنص محضر المرور.

السعي في إخراج السائق من السجن:

كان الموقف مُحرجاً جداً بالنسبة لي، فلم يبقَ على موعد الحج إلا أسبوع فقط، وإيداع السائق في السجن معناه حرماني من الحج هذا العام، ولذا فقد بذلتُ كلَّ ما أملك من جهد في سبيل إخلاء سبيل السائق من السجن، على أن ألتزم بكفالته بدفع كل ما قد يترتَّب عليه من جزاء وغرامات، بالإضافة إلى إعادته للسجن حالما أعود من الحج.

اللجوء إلى أمير البلاد:

لجأتُ إلى أمير البلد ورغم أن طيلة الأيام التي قضيتها في عنيزة كان

يشترك معي في الولائم التي كنت أُدعى إليها، فنتج عن ذلك تعارف وانسجام وشبه صداقة، وكنت ودّعته ساعة خروجي من عنيزة أسوةً بالأصدقاء وبمَن تلطّفوا بتكريمي.

اتجهتُ إليه مُوقِناً بأنه سيحلُّ هذا المَشكل: مشكلةَ سجن السائق، خاصةً وأنَّ تقرير المرور يُثبت أنَّ كامل المسؤولية تقع على المواطن المُصاب مائة في المائة.

موقف محرج:

وكان يُحرجني أكثر فأكثر بالنسبة للسائق، ويُحفزني على إخلاء سبيله من السجن مهما كانت العقبات هو أنَّ لهذا السائق فايز سحمان، مجموعة من الأطفال خلّفهم في (عرعر)، وإنَّ خبر الاصطدام في المذنب سيبلغهم بدون شك، ومن ثَمَّ يصابون بهلع وخوف لأنهم لا يعرفون مصير والدهم.

الاتصال بمدير الشرطة ورئيس المرور:

كنتُ قبل أن أتصل بالأمير اتصلتُ بمدير الشرطة هناك ورئيس المرور، موضِّحاً لهم أني في طريقي إلى الحج، ولم يبقَ على موعده سِوى بضعة أيام، وأنني لذلك أرغبُ إطلاق سراح السائق، مُبدياً استعدادي بتقديم الكفيل، كفيلاً مقيماً في عنيزة، وإذا تعذَّر ذلك فإنني مستعد أن أدفع أي مبلغ من المال كتأمين مُبيِّناً لهم فوق ذلك أنَّ هذا السائق هو موظف حكومي على حساب الدولة، كما أنني موظف أيضاً، وهو ليس عليه أي مؤاخذة أو جُرم. فجابهوني جميعاً بأنَّ سجن هذا السائق أمر حتمي حسب ما لديهم ـ كما يزعمون ـ من أوامر وتعليمات، يظل في السجن إلى أن يتمَّ شفاء المُصاب ويُغادر المستشفى، ومن ثَمَّ تُعرض القضية على المحكمة الشرعيَّة لتقرر الحُكم الذي تراه من مؤاخذة للسائق أو عدمها، أو تحميله شيئاً من المسؤولية، أو تأييد براءته التي سبق أن تضمنَّها محضر المرور.

الاتجاه إلى مقرِّ الإمارة:

غادرتُ إدارة المرور وإدارة الشرطة مهموماً مغموماً حزيناً، ثم اتَّجهتُ إلى مقر الإمارة، وهناك قابلتُ أمير البلد، وشرحتُ له القضية ومُلابساتها، وإنَّ حرصي على إطلاق سراح السائق بالكفالة هو تفادياً لِما يُحدِثُه نبأ سجنه وحادثة الاصطدام في نفوس أطفاله، عندما يبلغهم الخبر في (عرعر)، وإلاَّ فإنَّ في وسعي أن أستأجر سيارة من هنا أُواصل بها طريقي إلى الحج.

فشل المساعي وتلاشي التفاؤل:

كنت في قرارة نفسي متفائلاً باعتباره الحاكم الإداري الذي يُرجَع إليه الأمر في حلِّ المشاكل، بَيْد أنَّ تفاؤلي هذا أصبح سراباً عندما أَفهمني صراحةً، بعد أن شرحتُ له الموضوع بكل مُلابساته وظروفه، أَفهمني أنَّ أوامر وزارة الداخلية التي بُلِّغت للشرطة وللمرور لا تُمَكِّنه من إطلاق السائق. وقد ناقشته بادىء الأمر بأن هناك مثلاً معروفاً، وهو أنَّ لكل حادث حديث، وأنه يرى الحاضر ما لا يرى الغائب، وأنَّ على المسؤول أن يتصرَّف في مضمون الأنظمة والقوانين وَفق ظروفها، وأنَّ هذه القضيَّة بالذات الأمر فيها واضح، وهو براءة السائق، وأنَّ هذه البراءة أُثبتت بمحضر رسمي، نظمتهُ إدارة رسمية هي إدارة المرور، وفوق ذلك أبديتُ له استعدادي لتقديم كل الضمانات المطلوبة، سواءٌ بإيجاد كفيل غارم يتعهَّد بإحضار هذا السجين إلى السجن متى طُلِبَ منه ذلك، أو بدفع أيِّ مبلغ من المال يُطْلَب منه دفعه.

ذهن مغلق:

لم تجدِ كل محاولاتي نفعاً مع هذا الأمير، مما يُوحي أنه مُغلق الذهن مع الأسف، ولذلك غادرته وكُلِّي غيظ وحنق.

نصيحة الأخ علي الصِّريع:

بُعيد خروجي من لقاء الأمير، وكنت في بيت أخي حسُّون أديرُ الفكر فيما يجب أن أفعله، إذا بالصديق المرحوم (علي الصِّرِيعْ) أحد أبناء عنيزة،

وهو موظف حكومي يَشْغَلُ مكتب رئاسة تعليم البنات في عنيزة، سمع مني محاورتي مع الأمير، ونِقاشي مع مدير الشرطة ومدير المرور وإخفاقي في جميع ذلك أجابني بقوله: لا تهتم عندي مفتاح الحل لإطلاق السائق خارجاً عن نفوذ أولئك جميعاً. قلت: كيف؟ قال: تذهب معي الليلة بعد صلاة العِشاء مباشرةً إلى دار فضيلة القاضي الشرعي بعنيزة (ابن عنزان).

إلى فضيلة القاضي الشرعي بعنيزة:

ذهبنا إليه في الموعد المحدَّد ولم يكن لي سابق لقاء أو معرفة مع فضيلته، ويبدو أنَّ الصديق علي الصَّريع على صلة متينة به. رحّب بنا الرجل، ودلفنا إلى القهوة داخل داره، وهي مجلس فسيح جميل البناء نظيف الأثاث، حدّثه الأخ علي عن الموضوع ومُلابساته، موضِّحاً له عن وظيفتي رئيس مالية وأمين جمارك المنطقة الشمالية، وأنَّ السائق موظف رسمي يرافقني في تنقُّلاتي، وأحمل صورةً من تقرير معاينة الحادث الذي نظَّمه المرور فقد طلب مني الاطلاع عليها.

كلمة سديدة:

وهنا تفوّه فضيلته بكلمة لن أنساها، خلقتْ في نفسي البهجة والأمل منذ سمعتها منه إذ قال: وما العمل إذا كان مَن يُسند إليهم أمر حلّ مشاكل الناس يحملون عقولاً مغلقة؟ ثم أمرني بأن أحرّر استدعاء يوضِّح القضية، ويتضمَّن رغبتي في الإفراج عن السائق، يكون هذا الاستدعاء موجَّهاً لفضيلته أقدّمه له صباح غدٍ في مكتبه في المحكمة الشرعية، احتفى بنا الرجل بأكثر ممَّا نستحق، خاصةً وأنه كما ذكرت لم يسبق له الالتقاء بي قبل هذا اليوم.

غادرنا مسكنه، وكأنَّ كابوساً ثقيلاً قد أُزيل عن صدري.

تقديم الاستدعاء إلى القاضي:

حينما قدّمتُ له الاستدعاء كما طَلَبَ في صباح اليوم التالي شرح على هذا الاستدعاء بخط يده إلى مدير الشرطة متضمِّناً تنفيذ الفقرات التالية:

أ - مطالبتي بتقديم كفيل ملتزم مقيم في عنيزة يتعهَّد بإحضار السائق حينما يتمّ شفاء المُصاب، ويغادر المستشفى لكي يحضر إلى المحكمة عندما تُحال إليها القضية. وهذه القضيَّة لا تُحال إلى المحكمة إلاّ بعد شفاء المُصاب ومغادرته المستشفى لمعرفة ما نَتَج عن إصابته.

ب - إطلاق سراح السائق على الفور بعد الحصول من الكفيل على هذا التعهّد.

شكرته كل الشكر من أعماق قلبي على هذا الجميل وهذا الصنع، وعلى هذه المرونة، وعلى هذه المساعدة القيِّمة، التي كنت أَحوجُ ما أكون إليها.

الكفيل محمد الشامخ:

كان الأخ الصديق محمد الشامخ موجوداً معي ساعتئذ عند أخي حسُّون، وقد أبى إلا أن يكون هو الكفيل، فحاولتُ إبعاده ليكون الكفيل أخي حسُّون. ولكنه أصرَّ على رغبته موضِّحاً بأنه هو أعلم من أخي حسون بنفسية أهل بلده أي المذنب، وأنه قد سمع منهم الكثير خلال هذه الفترة التي تَلَتْ الحادث بأنهم جميعاً يوصون أهل المصاب بأن يبالغوا في طلب التعويضات التي سيطلبونها مني، بحجَّة أنني غني لأنني رئيس للمالية، ولستُ أعرف كيف وصل إلى علمهم أنني رئيس للمالية.

إطلاق سراح السائق:

لم أذهب إلى إدارة المرور، فقد كنت لازلت متأثراً بموقفهم السلبي، وإنما تطوَّع الأخ علي الصّريع بإيصال كتاب القاضي إلى رئيس المرور ومعه الصديق محمد الشامخ، الذي قدّم نفسه كفيل إطلاق سراح السائق.

وكانت كما ذكرت مقدمة السيارة، خاصَّةً الزجاج الأمامي قد تحطَّمت فليس هناك سِعة من الوقت يمكن إصلاحها في عنيزة، ولذلك طلبتُ من

قلم المرور إعطائي تصريحاً يوضح مُلابسات الحادث، وأنه سُمِح لي باستعمال السيارة ريثما أوصلها إلى جُدة، لكي يتمّ إصلاحها هناك في ورشة شركة الزاهد، وهي الشركة التي كانت تستورد هذا النوع من السَّيارات آنذاك.

مروري على المستشفى:

مررتُ على المستشفى قبل مغادرتي البلد، ونفحت رئيسة الممرضات فيه، وكذا الممرضات اللاتي كنّ يشرفنَ على المريض المُصاب، نفحتُ كلاً منهنَّ مبلغاً من المال، طالباً منهنَّ العناية به واختيار أفضل الأطعمة التي تقدَّم إليه، رغبةً في سرعة شفائه.

وصولي إلى جدة:

غادرتُ عنيزة ووصلت جدة في اليوم السادس من شهر ذي الحجة، أودعتُ السيارة ورشة الزاهد، ثم واصلتُ السفر إلى مكة المُكرمة، وقد أدَّيت الحج بفضل الله ونعمته، وعدتُ إلى جدة، ومكثتُ فيها نحو أسبوع.

إصلاح السيارة:

كانت السيارة حينذاك قد أُصلحت وعادت جديدةً كما كانت، فعدت بها إلى (عرعر) من الطريق نفسه الذي قدمت منه.

شفاء المصاب:

بعد قرابة ثمانية شهور وصلتني رسالة من الصديق محمد الشامخ، مَفادها أنَّ المصاب قد شُفي وغادر المستشفى وأنَّ القضية ستُنظر في المحكمة بعد أسبوع.

تعويض المصاب:

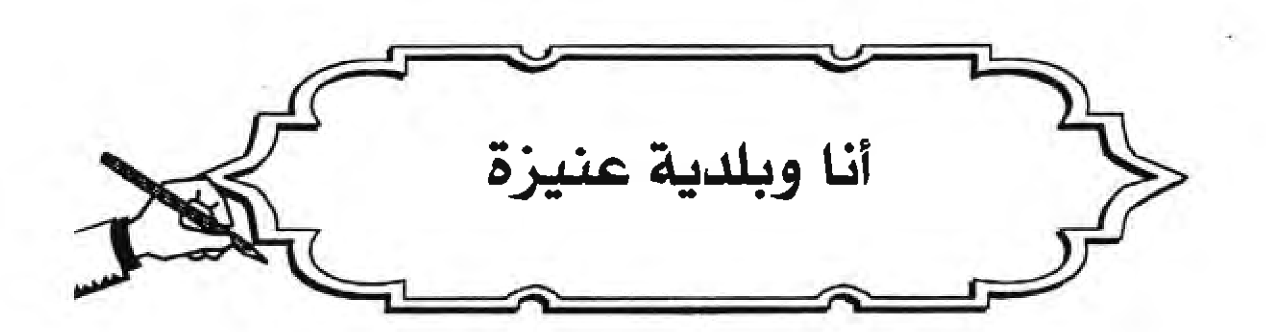
بعد أسبوعين على وصول هذه الرسالة وصلتني رسالة أخرى منه، ومضمونها أنَّ القضية نُظرت في المحكمة، وأنَّ الحكم صدر بتعويض

المُصاب بأربعة آلاف ريال؛ لأنه حينما حضر إلى المحكمة كان منحني الظهر يمشي على ثلاث بدل اثنتين، أي أنَّ بيده عصا غليظة يتوكَّأ عليها، لأن إحدى رجليه لا يمكنه من المشي المستقيم بعد أن جُبر الكسر وضمر العظم، وأنه بعد صدور هذا الحكم بادر الأخ محمد الشامخ بدفع هذا المبلغ في مكتب القاضي، وأنه لاحظ كما لاحظ القاضي أنَّ هذا المصاب الأعرج الذي كان يمشي على ثلاث ما كاد أن يبتعد عن المحكمة بضعة أمتار حتى أسرع يعدو سوياً وكأنه غزال، كان يعدو على قائمتيه وحدهما دون العصا التي كان يتَّكأ عليها، وهكذا نفسيات بعض الناس.

حكمة التصرُّف وتقدير الظروف والملابسات:

ومثل هذه الحادثة تُظْهِر مدى الخطأ الذي يُرتكب عندما يُسندُ تنفيذ الأوامر والتعليمات إلى أُناس تنقصهم المرونة، وحكمة التصرُّف، وبُعد النظر، وتقدير الظروف والمُلابسات، بحيث يستطيعون تنفيذ روح تلك التعليمات دون أن يُلحِقوا الضرر والعنت بالمواطنين، وتصرُّف القاضي هذا هو الدليل القاطع على حكمة التصرف، وعلى تقدير الظروف والمُلابسات وأخذها بعين الاعتبار عند تنفيذ الأوامر والتعليمات.





أنا وبلدية عنيزة

في مُستهل العقد التاسع من القرن الرابع عشر الهجري تقريباً، ابتدأت الدولة في وضع خطط خمسية للنهوض بالبلاد وتطويرها: كان من نتيجة ذلك أن أخذت ترصد مبالغَ ضخمة في ميزانيتها السنوية لمشاريع تتعلَّق بالبُنَى التحتية للبلاد: من تطوير المدن، وفتح الشوارع، وإنشاء الطرق، وإقامة المنشآت العامة.

كانت تحدَّد لكل بلد في مشروع الميزانية عِدَّة مشاريع، تخصَّص لكلِّ مشروع مبلغاً مُعيَّناً يؤمِّن إنفاذ هذا المشروع. كانت بطبيعة الحال مدينة عُنيزة من ضمن المدن الرئيسة التي تظفر بعدَّة مشاريع ضخمة يُخصَّص لها الملايين في كل عام لتنفيذها، وكنت معنياً بما ستناله مدينة عنيزة رغم بُعدي عنها، معنياً بمعرفة المشاريع التنموية التي تَمَّ تنفيذها وَفقاً للمبالغ التي رُصِدَت لها.

الصديق إسماعيل كروغلي:

كان هناك ضمن موظفي قسم الميزانية في وزارة المالية صديق لي يدعى (إسماعيل كروغلي)، وهو تركي الأصل. كان يصاحب صدور الميزانية في مُستهل كل عام بيانات بما خُصِّص لكل بلدة من مشاريع، يُوضح في هذه البيانات اسم المشروع ورقمه، وكامل المبلغ المعتمد له، والمبلغ المعتمد من هذا المبلغ لإنفاقه في ذاك العام.

تزويدي بالبيانات المتعلقة بمشاريع مدينة عنيزة:

كانت هذه البيانات توزَّع على رؤساء البلديات لطرحها في المناقصات ومتابعة تنفيذها. كان هذا الصديق، إسماعيل، يُزوِّدني كلَّ عام بنسخة بالبيان الخاص بمشاريع مدينة عنيزة.

في عام ١٣٨٦هـ، على ما أذكر، كنت في وزارة المالية بمدينة الرياض أحضر الاجتماعات التي كانت تُعقد في مبنى وزارة المالية لمناقشة بعض الأمور المتعلقة بالحدود.

كنت عضواً في تلك اللجنة باعتباري أميناً لجمارك الحدود الشمالية. وكانت تلك اللجنة تضمُّ مندوباً عن وزارة البلديات، ويشترك معنا أمير القريات المرحوم سلطان السديري، كانت تلك اللجنة تنعقد يومياً، وقبل إنهاء الموضوع مدار اجتماعها حدث أن تَغيَّب أحدُ أعضائها وهو أمير القريات سلطان السديري، كان ذلك يوم السبت فوردت إلى اللجنة مذكرة منه بأنه سيتغيَّب حتى السبت القادم، مما اضطر اللجنة أن تتوقف عن عملها فترة غيابه.

زيارة بلدي عنيزة:

وبما أنني سأبقى في الرياض تلك المدة فقد رأيتها فرصةً مناسبةً لأزور بلدي عُنيزة، كان الدافع لي إلى ذلك هو الرغبة في الاطّلاع على ما تمَّ فيها من تطور نتيجةً للمشاريع المتعددة، والمبالغ الضخمة التي رُصِدَت لها خلال خمس سنوات تقريباً. لذلك فقد استأذنت من معالي الوزير الأخ محمد أبا الخيل، فأذِن لي بذلك.

في اليوم التالي كنتُ في مدينة عنيزة، وكنت مصطحباً معي ملفاً يحتوي على المشاريع التي خُصِّصَت لعنيزة، ورُصِدت لها المبالغ الضخمة خلال الخطة الخمسية.

صدمة بالغة وخيبة عنيفة:

كنت أتصوَّر بأن هناك شوارع قد شُقَّت، ومرافق حضارية قد أُقيمت،

وطُرقاً قد عُبِّدَتْ وسُفلتت، وما إلى ذلك مما تضمنته تلك المشاريع، بَيْدَ أنني أصبت بصدمةٍ بالغةٍ، وخيبةٍ عنيفةٍ عندما شاهدت على الطبيعة أنه لم يتحقق من تلك المشاريع إلا ما يساوي نسبة لا تزيد عن ٢٠٪.

إلى مبنى البلدية:

وعلى الفور اتجهتُ إلى مبنى البلدية، وكان يرأسها المرحوم الحميّدي، أخو صالح الحميدي الموظف بإدارة المُلحق الثقافي في بيروت.

كنت بالنسبة لجميع موظفي البلدية أجنبياً، نكرةً؛ لأنه لم يسبق لي أن تعرَّفتُ إليهم سابقاً.

بسؤالي عن المدير قيل لي: إنه لن يحضر اليوم لأنه ذهب إلى مدينة بريدة لمناقشة بعض الأمور الرسمية مع إمارة القصيم في مدينة بريدة، بحكم ارتباط مدينة عنيزة بتلك الإدارة.

في مكتب المشاريع الهندسية:

وهنا اتجهتُ إلى مكتب المشاريع الهندسية في بلدية عنيزة، يقيناً مني بأنه الجهة المختصَّة التي تُحال إليها تلك المشاريع، والتي تنظِّم المخططات لها، وتشرفُ على تنفيذها ومُتابعتها.

كان في هذا المكتب شخصان: أحدهما مصري، والآخر أردني، وكلاهما مهندسان في البلدية.

استفسرتُ من أحدهما الأقرب إليّ عما إذا كان هذا هو القسم المختصّ بمشاريع البلدية، أُجبْتُ بنعم، وعندما تساءلت عما إذا كان بإمكاني الاطِّلاع على مخططات تلك المشاريع، أبدى لي هذا الموظف بما يُوحي بأنه لا مانع لديه. بينما أسرع المهندس الأردني إلى الاعتراض، وأنه لا يمكن ذلك إلا بالحصول على إذن من رئيس البلدية.

في مكتب رئيس البلدية:

ولقناعتي بصوابية اعتراضه فقد غادرت البلدية لأباكرها في صباح اليوم التالي، وكان لحُسن الحظ الرئيس موجوداً في مكتبه، دخلتُ المكتب وسَلَّمْتُ كالعادة، ثم أخذتُ مقعدي على أحد الكراسي قريباً من مكتبه، كان هناك أكثر من موظف يعرضون عليه أوراقاً ضمن ملفات، فانتظرت ريثما يُنهي تلك المعاملات.

انتظار طويل:

انتظرتُ قرابة الساعتين أترقَّب فراغه، وعندما تمَّ ذلك تصوَّرت في نفسي أنه سيسألني عمّا أريد، على أساس أني مكثت كل هذه المدة جالساً أنتظر في إدارة رسمية لا يأتيها إلا مَن يكون له علاقة فيها.

ظلَّ سعادة المدير يُدخن سيجارةً تلو الأخرى موجِّهاً نظره إليّ تارةً، ومُشيحاً عني نَظَرَه تارةً أخرى وكما قلت: إنه لم يعرفني، وأيضاً أنا لم أعرفه إلى هذه اللحظة.

تعريف مدير البلدية بنفسي:

ولما مضتْ مدة لا تقل عن ربع ساعة دون أن يوجّه إليّ أي سؤال اضطررتُ أن أقف ساحباً بيدي كرسي الخيزران الذي كنتُ أقتعده، وواضعاً إيَّاه أمام مكتب المدير مباشرةً، وهنا وجَّهت إليه خطابي قائلاً: أنا فلان الفلاني أحد مواطني هذه البلدة النازحين، وكما لاحظت فإنني هنا لأكثر من ساعتين، وتصوَّرت أنك ستسألني عن سبب مجيئي، ولأنك لم تفعل فقد رأيت أن أعرِّفك بنفسي.

إنني قادم من الرياض لموضوع معيَّن. هذا الموضوع يتضمَّن أسئلة معينة لا يملك الجواب عنها إلا أنت لأنك المسؤول عنها. وأنا أرجو منك أن تساعدني في الإجابة عن أسئلتي وتَمكِّني من الحصول على ما أرغب الاطِّلاع عليه بما في ذلك المشاريع الموجودة لدى القسم الهندسي. علماً

بأنَّ هذه المعلومات التي سأطلب منك الإجابة عليها سأنقلها إلى مسؤول يهمُّك رضاءَه عنك بالدرجة الأولى، وأعني به رئيس الديوان الملكي آنذاك صالح العبّاد (كنت أعلم أن صالح العبّاد هذا هو الذي رشّح هذا المسؤول لمنصبه هذا).

تغيُّر نظرة الرجل:

بعد هذا الحديث المختصر تغيّرت نظرة الرجل إليّ وأولاني انتباهه، ففتحتُ المَلفَّ أمامه وفيه صور المشاريع الموجودة لديه، طالباً منه إعطائي أجوبةً مفصَّلةً على ما تمّ على كلٍّ منها.

نسبة المشاريع المنفَّذة:

كان ما تمَّ من تلك المشاريع كما ذكرت لا تزيد نسبة ما نُفِّذ منه على ٢٠٪، وكانت المبالغ المرصودة لكل مشروع تقضي التعليمات بأن يُعاد لخزينة الدولة في نهاية العام ما هو متبقٍّ منها ولم يُصْرَف.

جدال حاد:

دخلتُ معه في جدالٍ حادٍّ وعنيفٍ: لماذا لم تُنفذ تلك المشاريع؟ وكيف يحرم البلد والمواطنين من المبالغ التي خُصِّصت لها فعلاً بإعادته لصندوق الخزينة، حارماً البلد من إنفاقها على تلك المشاريع؟!!

كانت حجَّته أنه مرتبط ببلدية بريدة وأنَّ تلك البلدية تعاكسه في كل مشروع يقدِّمه، وتخلق له شتى العراقيل حتى لا ينفِّذ تلك المشاريع، وهو عذر واهٍ، وعلى الأصح عذر أقبح من ذنب. خرجت من عنده حانقاً مغضباً أتميّز من الغيظ.

لقائي الأول بأمير عنيزة:

بعد خروجي من مقابلة رئيس بلدية عنيزة أسرعت بالاتصال بأمير البلد، وهو الأخ محمد الخالد السليم، دخلتُ عليه في مكتبه بمقرّ الإمارة غاضباً منفعلاً، بل وحزيناً متألماً، كان هذا أول لقاء يتمّ بيني وبين هذا الرجل، ألقيتُ

عليه التحية، ثم عرَّفته بنفسي، كانت على مكتبه مجموعة من الخرائط يُقلبها، وهنا قلت له: رُبَّ صدفةٍ خيرٌ من ميعاد، إن هذه الخرائط التي أمامك الآن هي بالطبع تمثِّل مشاريع عنيزة، ومن أجلها قَدِمتُ إليك الآن.

صدمتي وخيبة أملي:

شرحتُ له بإسهاب عن صدمتي وخيبة أملي بما رأيته على أرض الواقع في بلدي، وهو أنَّ المشاريع التي نُفِّذت فيها على أرض الواقع لا تساوي ٢٠٪ على الأكثر من قيمة المبالغ التي رُصدت لها في ميزانية الدولة خلال السنوات الماضية، وأوضحتُ له النقاش العنيف الذي دار بيني وبين رئيس البلدية الذي أنا قادم منه الآن لتوي.

هنا أخذ الأمير يحدثني عن تبرُّمه وضِيقه من الرجل، وأنه مستاء مثلي أشدَّ الاستياء من قصوره في عمله، وتفريطه في الأمانة، التي أُنيطتْ في عنقه نحو هذا البلد، وقد حاججتُ الأمير بأنك مشترك معه في هذا القصور، إذ أن البلد بلدك، وهو موظف عادي يمكن استبداله بغيره، وكان في وسعك أن تطلب تبديله من أول الأمر، لا أن تتركه جاثماً على صدر البلد، حارماً لها من مشاريع تنموية كان من شأنها لو نُفِّذت وقد رصدت مبالغها، فعلاً أن تقفز بهذا البلد قفزةً حضارية يكون لها أحسن العواقب وأجملها.

اعتذار الأمير:

اعتذر لي بأنه قد كتب أكثر من مرة، ولكن لم يلقَ إجابة، وبطبيعة الحال لم يسعني إلا أن أقبل منه هذا العذر على مَضَض، وإن كنت أشك في صحة اعتذاره.

الاتصال برئيس الديوان صالح العبَّاد:

عدتُ إلى الرياض فأسرعتُ بالاتصال برئيس الديوان آنذاك المرحوم صالح العبَّاد، وهو الذي يقال أنه أتى برئيس البلدية هذا إلى منصبه، كما سبق وأن شرحت. اتَّصلتُ به وشرحتُ له الموضوع مفصَّلاً، فأبدى امتعاضه

وأسفه، وخاصةً عندما عرضتُ عليه صور بيانات المشاريع التي كنتُ أحملها معي، وتشتمل على جميع المشاريع، التي اعتُمِدَتْ في مدينة عنيزة، ويبلغ مجموع مبالغها ثلاثمائة مليون ريال تقريباً، وعدَني بأنه سيعمل على إزاحته في أسرع وقت ممكن، وقد وفىٰ بوعده بعد ذلك.

الاتصال بوزيري المعارف، والعمل والشؤون الاجتماعية:

غادرتُ مكتبه ثم اتجهتُ إلى معالي وزير المعارف الصديق عبدالعزيز الخويطر في مكتبه، وشرحتُ له واقع مشاريع عنيزة كما شاهدتها على الواقع، كما شرحتُ ذلك أيضاً للأخ عبدالرحمن أبا الخيل وزير العمل والشؤون الاجتماعية، شرحتُ لهما الواقع لأنهما من أبناء عنيزة، وممن يعنيهما أمرها، كما هو الشأن مع صالح العبّاد بدون شك؛ أبديا لي، أيَّ الوزير الخويطر والوزير أبا الخيل شديدَ أسفهما، وأنهما لم يكن لديهما أي فكرة عن هذا الموضوع، بل كان اعتقادهما أنَّ المشاريع التي تُعتمد في مدينة عنيزة في كل عام تنفَّذ أولاً بأول، موضِّحَيْن لي بأنهما لسوء الحظ ـ كما يقولان ـ لم تُتِح لهما ظروف العمل في الوزارتين فرصة زيارة عنيزة منذ أكثر من خمس سنوات.

عودتي لعرعر ووصول برقية من أمير عنيزة:

انتهت مهمتي في وزارة المالية، وعدتُ إلى عملي في (عرعر)، وبعد ثلاثة أشهر من وصولي إلى (عرعر) تلقيتُ برقيةً من أمير عنيزة محمد خالد السليم مَفادها أنه يرجوني إذا كنتُ أستطيع أن أحضر لعنيزة ولو ليوم واحد، لأنَّ لديه موضوعاً مُهماً كما يقول، يرغب بحثه ومناقشته معي. ولم أرَ مُوجباً للاعتذار، ولذلك أسرعتُ بالسفر عن طريق الجو إلى مدينة عنيزة.

العودة مرة أخرى إلى عنيزة:

كان ابنه توفيق ينتظرني في مطار القصيم بسيارته، وكان وصول الطائرة في ذلك اليوم بُعيد صلاة الظهر، فتناولنا طعام الغداء في مزرعته الجميلة الواقعة في الجهة الشمالية من عنيزة.

عريضة من أهالي عنيزة:

كان الموضوع الذي أشار إليه في برقيته هو عريضة قدَّمها إليّ بعد الغداء مباشرةً، من أهالي مدينة عنيزة يطلبون أخذ موافقتي على قبول ترشيحهم لي برئاسة بلدية عنيزة. موضِّحين أنه في حالة موافقتي، سيطلبون من وزير المالية سموُّ الأمير مساعد بن عبدالرحمن إما نقل خدماتي إلى عنيزة، أو إعارتي على الأقل للعمل في بلديتها لمدة لا تقل عن خمس سنوات.

عرض مفاجىء أو محرج:

كان العرض مُفاجئاً لي، ومُحرجاً في الوقت نفسه، لأنَّ هؤلاء الذين وقَّعوا على هذا الطلب قد لا أكون أعرف واحداً منهم. واختيارهم لي (وقد يكون ذلك مَبْنياً على ما انتشر من أحاديث بينهم بما جرى بيني وبين رئيس البلدية وبين أمير البلد كما سبق وأن شرحتْ) هو دَيْنٌ لهم في رقبتي، يتوجَّب عليّ أدبيّاً أن أقابله بالشكر والتقدير، فضلاً عن أن هذه البلد هي بلدي ومسقط رأسي وموضع اعتزازي وفخري، وأنه لها دَيْنٌ في عنقي كما قال الشاعر:

وللأوطانِ في دم كل حُرٍّ   يدٌ سلفت ودَين مستحقُ

أخذ الأخ الصديق محمد الخالد يشرح لي شعوره وشعور المواطنين وأنهم يعتقدون كل الاعتقاد أنني لا أخيّب أملهم.

كان خِتام حديثي معه أن يُمهلني ليوم غد، كي أفكّر في الموضوع جيداً، لأرىٰ ما إذا كانت هناك ثوابت وإمكانيات تُمكِّنني فيما لو قَبِلْتُ تلك الفكرة من أن أحقِّق لنفسي ولمواطني ما نَصْبو إليه جميعاً من مكانة مرموقة لبلدنا.

في مبنى بلدية عنيزة:

في صباح اليوم التالي أسرعتُ إلى مبنى بلدية عنيزة، فلم أجد لسوء الحظ رئيسها الذي خَلَفَ الحميّدي في منصبه، حيث علمتُ من رئيس قسم

شؤون الموظفين الأخ إبراهيم الواصل أنَّ الرئيس لن يحضر ذلك اليوم لأنه في بلدية بريدة يناقش بعض المشاريع هناك.

طلبتُ من الأخ إبراهيم الواصل أن يُطلعني على ما هو موجود في بلدية عنيزة من إمكانيات كالجرافات والحفَّارات والشاحنات، وطلبتُ منه تزويدي ببيان بكل ما هو متواجد فيها، كما طلبتُ منه إعطائي بياناً بأسماء المهندسين العاملين فيها، وكذا الفنيين من مسّاحين وغيرهم، وصورة من الصلاحيات الممنوحة لرئيس البلدية.

جولة في أقسام البلدية:

تلطّف مشكوراً فلبّى الطلب، ثم قمتُ معه بجولة على مختلف أقسام البلدية متعرِّفاً على أسماءِ موظفيها، وكان قد زوَّدني بنسخة من ملاك الموظفين، وقد سهَّل لي الحصول على هذه الخدمة منه علمه بمجيئي الأول وما حدث بيني وبين رئيس البلدية الأسبق آنذاك.

دراسة الموضوع بتأنٍ وإمعان:

غادرتُ البلدية متوجِّهاً إلى الأخ محمد الخالد في مكتبه، كان الوقت آنذاك قُبيل الظهر بنحو ساعة تقريباً، أوضحتُ له أنني قادم إليه من البلدية، وأنني اصطحب معي الآن بعض البيانات المتعلِّقة بها، والتي سأقوم بدراستها، ومن ثم فإنني سأتجه الآن إلى مدينة الرياض لأتصل بوزارة البلديات والشؤون القروية، لأطَّلع على ما يخصّ مدينة عنيزة من مشاريع وإمكانيات من القسم الهندسي الموجود لديها، ثم سأدرس الموضوع بِتأنٍ وإمعانٍ، وسأُبرِق له بما يستقر عليه قراري، موضِّحاً له بأنَّ ذلك القرار مني (أي قرار الموافقة) سيعتمد بالدرجة الأولى، إذا ما كانت الإمكانيات والصلاحيات المُتاحة تمكِّنني من أن أحقق ما أصبو إليه.

اتَّجهتُ فوراً إلى المطار، وكانت هناك طائرة متَّجهة إلى الرياض. كان وصول الطائرة إلى الرياض في الثالثة بعد الظهر، ومعنى ذلك انتهاء الدوام في ذلك اليوم.

في وزارة البلديات والشؤون القروية:

وفي الصباح الباكر اتَّجهتُ إلى وزارة البلديات والشؤون القروية، وكان وكيل الوزارة آنذاك الأخ الصديق عبدالله بن عبدالعزيز السديري، وكان قبل تعيينه في منصبه هذا يَشغل مَنْصِب أمير (القريات)، باسم مفتش الحدود الغربية.

الصديق عبدالله السديري:

كنتُ على صِلة سابقة معه، تعرَّفت عليه مِراراً متعددة، حينما كنت أحضر إلى مدينة (القريات)، متفقِّداً لإدارة الجمرك والمالية فيها، بين وقت وآخر، إذ إنها مرتبطة بالأمانة في (عرعر) كما سبق وأن شرحت.

كان شاباً مُثقفاً تلقّى تعليمه الجامعي خارج المملكة، وعند عودته للقريات أنشأ مكتبة فيها على حسابه الخاص، أقام لها مبنى خاصاً، واستورد لها الكثير من الكتب وجعلها مفتوحة للقراءة من مواطني مدينة القريات.

كنتُ من أجل ذلك أُجِلُّه وأحترمه، الأمر الذي أوجد صداقةً بيننا انتهت برفع الكلفة والمُجاملة، فكُنَّا لمّا نلتقي ونفرغُ من حديث الثقافة والعلم في مكتبته تلك نتبادل الطُرف والنكت والمداعبة دونما حرج.

في مكتب الوزارة:

دخلتُ مكتبه في الوزارة، وكان لفوره قد وصل، ما كاد يلمحني داخلاً حتى هبَّ من مكانه مُسرعاً إليّ، تعانقنا وتبادلنا التحيَّة، ثم رجوتُ منه أن يقفل باب مكتبه بضع دقائق، لأنني بحاجة إلى الحديث معه.

دقّ على جرس مكتبه، فحضر مدير مكتبه على الفور، وطلب منه ألا يدخل عليه أحد.

بادرته بقولي مُداعباً: أنت من بلدة (الغاط) وهي قرية صغيرة بدائية مغمورة، ومع ذلك فقد أصبح منها مدينة عصرية، تنعم بكثير من معالم الحضارة الحديثة، لا لشيء إلاّ لأنك أنت وأعمامك آل السديري تنسبون

إليها. أما أنا فأنتسب إلى الفيحاء، أنتسب إلى باريس نجد، أنتسبُ إلى عنيزة، وأنت تعرف تمام المعرفة ما هي عنيزة، وما هي قيمتها، ولذلك فأنا أرجو منك أن تساعدني في إصدار الأمر على الأقسام المختصَّة في هذه الوزارة بأن يُمكِّنونني من الاطِّلاع على كل ما أرغب الاطِّلاع عليه، ويزوِّدونني بكل ما أحتاج إليه من معلومات.

ضحكنا جميعاً ثم استدعى مدير مكتبه، وطلب منه أن يصطحبني إلى أقسام الوزارة المختلفة، وأن يُطلَب من رؤسائها تلبية ما أطلبه.

اطلاعي على الأقسام المختصة في وزارة البلديات:

شكرته كل الشكر، ثم ودّعته بعد أن تناولنا الشاي.

طفتُ بالأقسام التي أريدها، واطَّلعتُ على ما كنت أرغب الاطِّلاع عليه، ثم اتَّجهتُ إلى المطار رأساً حيث كنتُ قد عمَّدتُ أحد الأصدقاء بأن يحجز لي على أول طائرة متَّجهة إلى جدة. وقد علمتُ بعد مغادرتي وزارة البلديات أنَّ الطائرة سيكون إقلاعها الساعة الواحدة بعد الظهر، فمررتُ بمكتبة جرير، واشتريتُ منها بعض الكتب، ثم اتَّجهتُ إلى المطار، فجدة.

سفري إلى جدة:

كان يقيم في جدة آنذاك مجموعة من الأشخاص الذين أعتزُّ وأفتخرُ بصداقتهم، وهم مثلي ننتمي إلى أمٍّ واحدة هي عنيزة، أولئك الأشخاص هم: الصديق عبدالعزيز الحمد العبدلي رحمة الله عليه، والصديق سليمان الحمد البسَّام رحمة الله عليه، ومعالي الأخ محمد المرشد الزغيبي وزير المواصلات سابقاً أمدَّ الله بعمره.

استشارة أصدقائي العنيزيين:

اجتمعتُ بهم جميعاً، واستشرتهم في الأمر، وعرضتُ عليهم الإيجابيات والسلبيات للموضوع، وعرضتُ عليهم الإمكانات المُتاحة حالياً المتعلِّقة بالعمل، والقُدرات والصلاحيات التي يمكن الحصول عليها.

وخرجنا بنتيجة واحدة مَفادها أنَّ عليَّ في حالة القبول أن أتأكد: هل يمكنني العمل مع الجهاز القائم والإمكانات المتوفِّرة بدون تغيير أو تبديل؟ أم أن في وِسعي أن أبدأ بالبناء من جديد، ومعنى ذلك أن يقتضي التغيير والتبديل والحصول على إمكانات وصلاحيات أوفر، لُيمكن بدء البناء من الأساس. وقد برز من النقاش أنه ليس هناك أمل في الحصول على صلاحيات أكثر مما هو واقع الآن، أو على إمكانات أكثر مما هو متوفِّر الآن، ومعنى ذلك أنني مهما بذلت من جهد فسيكون عملي ضائعاً، وفي الوقت نفسه أُحمَّل سيِّئات قصور من سبقني.

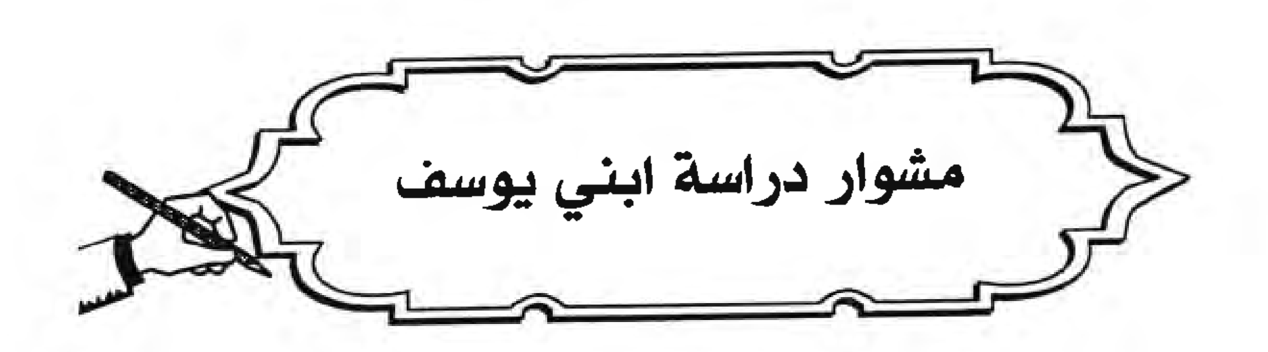
الوقوع بين نارين:

خرجتُ من اجتماعي مع الإخوان بعد أن تركوا لي حرية الاختيار، وقد استغرقَ هذا الموضوع كامل تفكيري؛ لأنني وقعتُ كما يقول المثل بين نارين: هل أغامر فأقبل على أساس ما هو مُتاح في تلك الإدارة في وقتها الحاضر، مُتحمِّلاً كل ما قد يُوجّه إليها من نَقد وقصور وأخطاء؟ أم أحتفظ بسُمعتي بعيداً عن النقد والتجريح الذي تحاشيته طيلة حياتي ولله الحمد؟

الاعتذار عن قبول المنصب:

كانت النتيجة أن أبرقتُ لأمير عنيزة صباح اليوم التالي مُعتذراً عن قبول المَنصِب، وموضِّحاً له بأنَّ هناك خِطاباً مني إليه عن طريق البريد فيه مُبررات هذا الاعتذار، والأُسس التي بَنَيتُ عليها اعتذاري، راجياً منه أن يقرأه على من شرَّفوني بثقتهم، ولعلَّهم يسامحونني إذا فهموا أسباب الاعتذار، ثم عدتُ إلى (عرعر) بطريق الجو.





كان من أفضال ربي عليّ ونِعَمه التي لا أحصيها عدّاً ولا أَفي لها شكراً، أن أكرمني بأربعة بنين بعد أن دخلتُ قفص الزوجية على كبر، إذ تأخر زواجي حتى العام الثالثِ والثلاثين من عمري.

ابني الأول:

كان ابني الأول محمد الذي يحمل اسم والدي قد رُزِقته من أول زِيجة لي، بعد صلاة العِشاء من ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك عام ١٣٦٢هـ، وقت أن كنتُ مديراً لجمرك (أم رضمة) على الحدود الشمالية للمملكة المتاخمة للعراق، بُشِّرتُ به في تلك اللحظة ساعة قدومه إلى الأرض فاغرورقت عيناي بالدمع فرحاً وشُكراً لله على نعمته، وما هي إلا قرابة الساعة حتى فاضت عيناي بالدمع مرةً إخرى، ولكن حزناً وأسىً ولوعةً في هذه المرة إذ أُنبِئتُ من (القابلة) بأنه قد انتقل ووالدته إلى جوار الرفيق الأعلى، ذاك أمر الله جلّ جلاله لا يقابله المؤمن إلا بالرِضا والتسليم.

مرّت عليّ شهور بعد هذه الفجيعة كنتُ خلالها أقرب إلى دنيا الأموات من عالم الأحياء، وإلى عالم المجانين من دنيا العقلاء، ولولا فضل الله ونعمته للحقتُ بهما غير بعيد.

بعد شهور ستة، وبنصحٍ مكثَّف من الأصدقاء والمُحبين تزوَّجت للمرة

الثانية على أمل أن تهدأ النفس وتتلاشى الغُمَّة ولكن هيهات، كان الجُرح عميقاً والصدمة بالغة، وفُجاءة الصدمة أعمق من الجميع. مكثتْ الزوجة الثانية في داري قرابة شهور عِدة، لم أجد أيَّ تغيير في نفسي ومشاعري، ولم ألمس أيَّ أثر لطمأنينةٍ أو لهدوءٍ يلامس نفسي، فكان أن أعدتُ تلك الزوجة إلى دار أهلها موفورة مصونة مكرَّمة لم أدنُ منها أو ألمسها، وكأنها لازالت في دار أهلها لم تفارقها بعد.

ابني الثاني:

بعد عام كامل وكنتُ آنذاك قد انتقلتُ إلى (حفر الباطن) اقترنت بزوجة ثالثة هي والدة يوسف، بعد عام رزقت بابني محمد الثاني وما كاد يبلغ العام من عمره وبدأ يحبو ويملأ البيت بهجةً وسروراً حتى أُصيبَ بحبةٍ سوداء على الجانب الأيمن من إليته لم تمهله أكثر من ثلاثة أيام، واحتسبته عند ربي مرةً أخرى.

ابني الثالث:

انتقلتُ بعد ذلك إلى مدينة (قرية) في عام **١٣٦٧**هـ وهناك رُزقتُ بابني الثالث عبدالله أسعدني وجوده وملأ بيتي وقلبي بهجةً وسروراً، ثم أخذ ينمو كما ينمو البُرعم وأنا أراقبه فخوراً مزهواً. وإذ كنتُ أهيىء نفسي للسفر في الإجازة إلى جدة في مُستهل عام ١٣٧٠هـ، لاحظتُ أن وضعه الصحي غير مُريح، وحيث لا يوجد وسائل للعلاج في (قرية) وأنا في طريق سفري إلى جدة، فلم يكن هناك بدّ من احتمال اعتلال صحته وهو طفيف في بادىء أمره إلى وصولي جدة.

فَور وصولي جدة سألتُ عن المستشفيات وأيّاً منهم أفضل لعلاجه، فعلمتُ أنَّ هناك المستشفى العام وهو حكومي، وأنَّ مستوى فعالياته وتجهيزاته وكفاءة أطبائه لا ترقى إلى درجة المتوسط، وعلمتُ أيضاً أنَّ هناك مستشفى لبنانياً يُديره الدكتور عبدالله سعادة، وموقعه في محلة الرويس شمالي جدة. وإذ كنت أَهُمُّ بنقله إلى ذلك المستشفى إذا بأحد الأشخاص

من أصدقائي ـ لا أذكر اسمه الآن ـ يعلمني بأنه يوجد في جدة آنذاك طبيبة ألمانية ذات كفاءة عالية، ينحصر اختصاصها في أمراض الأطفال. أرسلتُ إليها مَن طَلَب إحضارها على الفور، عاينتْ الطفل وأسمعتنا عباراتٍ مطمئنةً، وأنه سيتمُّ شفاؤه بعون الله خلال مدة لا تزيد عن أسبوع.

هدأتْ مخاوفي ونفسي، وخاصةً ما كنت أسمعه من أفواه الناس من إشادة بكفاءة هذه الطبيبة الألمانية. لذلك أوكلتُ أمره إلى الله ثم إليها، أَخَذَتْ يومياً تُغاديه وتُماسيه عندي في البيت، غير أني كنتُ ألاحظ عليه أنه يضعف ويهزل يوماً بعد يوم، وأنه أخذ يذوب ويتلاشى كما تذوب الشمعة، وهنا أسرعتُ به إلى المستشفى اللبناني حاملاً إياه على ذراعي، وما كدتُ أصل باب المستشفى ووالدته خلفي يملأ قلبها الوَجل والخوف، ما كدتُ أصلُ به إلى غرفة الطبيب حتى لفظَ آخر أنفاسه على ذراعي.

الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروهٍ سواه. عدتُ به إلى الدار أتبادل النشيج والبكاء مع والدته، وهناك وكَّلت الأسرة إجراءات تجهيزه ودفنه، إذ لم أعد أقوى على الوقوف. إن ذلك ابتلاء من ربي بدون شك، وأنا راضٍ وصابر لهذا الابتلاء الذي أرجو أن يكون مُوصِلاً إلى رضائه عليّ.

دارتْ الأيام واندمل الجرح، ومَنَّ عليّ ربي جلّت قدرته بالثبات واحتمال هذه المِحن، وعوّضني بطمأنينة غامرة أحسُّها تملأ نفسي فله الحمد والشكر والرِضا منعماً معطياً وآخذاً.

ابني الرابع: يوسف:

وفي اليوم الواحد والعشرين من شهر شعبان عام ١٣٧١هـ. تلقَّيتُ وأنا أقيم في مصحّ بحنّس في لبنان بعد وصولي إليه بسبعة أيام من المملكة لعلاج مرض السّل الذي أُصِبتُ به وقتذاك، تلقَّيتُ من الصديق المرحوم عبدالله النقيداني خِطاباً يتضمَّن بُشراه لي بأني رُزقتُ مولوداً أسماه أخي الشقيق: عبدالله محمد الحسون، أسماه «يوسف»، إذ تركتُ زوجي في دار أخي حين سفري من جدة، إذ كانت في شهر حملها الأخير، مما لا يسمح بنقلها إلى أسرتها في حفر الباطن.

عناية الله ولطفه:

مكثتُ في لبنان ثلاثة أعوام تحت العلاج، كان ابني وزوجتي في دار أخي عبدالله، وقد علمتُ بأنَّ ابني يوسف بعد ولادته مباشرةً، وخلال الشهور الأولى من عمره قد ألَمّت به أمراض لا يكاد يَسْلَمُ من أحدها ويُشْفى حتى يُصاب بآخر، وعلمتُ أنه مرّت عليه في نوبات مرضه هذا ثلاث مرات كان الموت منه قاب قوسين أو أدنى، ولكن عناية الله سبحانه وتعالى ولُطفه وعظيم فضله عليّ وعليه قد أنقذته من براثن الموت.

فرحي وغبطتي بابني يوسف:

عدتُ إلى جدة في مُستهل عام ١٣٧٤هـ، وكان يمشي وكان عمره قد تجاوز الثلاث سنوات، ولا تسأل عن فَرحي وغِبطتي حينما أراه أمامي أو تحتضنه ذراعاي إلى صدري.

ابنتي هدى:

في نهاية عام ١٣٧٤هـ رُزِقتُ بشقيقة يوسف ابنتي هدى. وكانت الدولة آنذاك قد أَوْجَدت مستشفى خاصاً للولادة يقع على بُعد مائتي متر شرق مقبرة أمّنا حواء في جدة، فأسرعتُ إلى نقل والدة يوسف إلى ذلك المستشفى، وليتني لم أفعل ولكنها إرادة الله.

في مستشفى الولادة:

أسرعتُ إلى نقلها إلى ذلك المستشفى فَور أن علمتُ منها ببوادر إشارات الوضع (الطلق). كان دخولها لذلك المستشفى بُعيد صلاة المغرب مباشرةً؛ استلمتها الممرضة، وكانت مصرية على ما أذكر، طلبتْ مني الانصراف ريثما يأتيني إشعار من المستشفى.

عدتُ إلى البيت وفي الصباح الباكر زُرت المستشفى، فعلمتُ أنني رُزِقت بابنة سمَّيتها بعد ذلك هدى، فطلبتُ أن أرى هذه الابنة ووالدتها.

ما كدتُ أدخل الغرفة حتى أمسكتْ زوجتي بثوبي طالبةً مني إخراجها من المستشفى في الحال، ومن حُسن الحظ أن دخل الحُجرة في تلك اللحظة أحد الأطباء من المستشفى، فسألته رأيه عما إذا كان بالإمكان نقلها إلى البيت، فعلمتُ منه بأن لا مانع من ذلك ولا محظور؛ لأنَّ الولادة من فضل الله تَمَّت بكل يُسر.

سبب مسارعة زوجتي بالخروج من المستشفى:

اصطحبتُ الطفلة والأم إلى الدار، ومن فضل الله وكرمه لم يمسّهم أيَّ سوء، وعندما ناقشتُ زوجتي لماذا لم تبقَ يوم أو يومين على الأصح؟ أجابتني بقولها: أنها كادت تغادر سريرها والدم لايزال ينزفُ منها ولم يجف بعد. وسبب ذلك أنَّ الغرفة التي وُضعت فيها ذات سريرين، أحدهما خُصّص لها، أما الآخر فقد كانت ترقد عليه إحدى النساء التي وضعت مؤخراً. كانت تلك المرأة تصرخ بأعلى صوتها طالبةً إغاثتها بشربة ماء، ولكن هَيْهات ليس هناك مجيب، وكانت زوجتي آنذاك في حالة الوضع ولا تجرؤ على الحراك.

ظلّت تلك المرأة تصرخ ثم تصرخ ولكن لا مجيب، وأخيراً أسلمتْ الروح على فِراشها.

مشهد مُرْعب:

كان هذا المشهد المُرعب المخيف الذي سمعته وشاهدَته زوجتي، خلال وضعها، قد أحدث لها عقدة في الرَحِم لم تلد بعد هدى قَط، رغم أنني عرضتها بعد ذلك على مشاهير أطباء النساء في ألمانيا وفي لندن وفي باريس، وأخيراً في أمريكا، ولكن دون جدوى بحجَّة أنَّ الرَحم قد تقلّص وأصبح غير قابل للإنجاب.

نمو البُرعمين:

نَمَت هدى وشقيقها يوسف، كانا يملآن عليَّ البيت وعلى أمهما بهجةً وهناءً وسروراً.

كانت هدى وكان أخوها يجتازان سِنِيَّ الطفولة ينموان كما تنمو البراعم حاملةً للزهور.

آمالي وطموحاتي:

وكنتُ أضعُ في شخص يوسف بعد الله كل أماني وتطلُّعاتي وطموحاتي في الحياة، فقد وضعتُ في اعتباري أن أضحِّي بكل شيء في سبيل أن أتيح له فرصة الدراسة والعلم على أعلى مستوى.

كنتُ غير مقتنع بالمناهج الدراسية التي تدرَّس للطلاب عندنا في المملكة آنذاك لأسباب يعرفها كل ملمّ بالمناهج والكتب الدارسية؛ لذلك ما كاد يوسف يبلغ السادسة من عمره حتى أسرعتُ به إلى مدرسة «دار المقاصد الخيرية الإسلامية» في لبنان.

إرسال ابني يوسف إلى مدرسة دار المقاصد في لبنان:

كانت مدرسة جادة، قوية المناهج، تُشرف عليها المرحومة إحسان محمصاني، وتشتمل هذه المدرسة على قسم داخلي به الكثير من أبناء المملكة من عِلية القوم، ومن ضمنهم ابن الأمير مساعد بن عبدالرحمن وزير المالية، وابن الصديق المرحوم عبدالعزيز التركي المُلحق الثقافي في لندن، وكثير من أبناء الأسر الموسرة التي تهتم بتعليم أبنائها.

أودَعته المدرسة، وأنا الشحيح الضنين لِفراقه، ولكن حرصي على تعليمه على مستوى يُرضيني كان أقوى من عواطفي ومشاعري، ورغبتي في الاحتفاظ به في جواري.

ألم الغربة:

تحمَّلتُ أَلَم غربته، وكنتُ ويعلمُ الله أنَّ شخصه لم يغبْ عن مخيلتي حتى أثناء زحمة العمل ومشاكله، وحتى عندما كنتُ أقضي الساعات الطوال في جوف الليالي أحقِّق مع هذا أو ذاك من نزلاء السجن من المهرِّبين.

دراسته في الجامعة الأمريكية:

أتمَّ دراسته الابتدائية بتفوُّق ونجاح، ثم نقلتهُ إلى الثانوية العامة في الجامعة الأمريكية في بيروت. كنتُ لا أملك السيطرة على عواطفي عند أي طلب يطلبه مني، فكنت أُلبيه على الفور.

ابتعاث يوسف إلى لندن:

بعد عامين من دخوله الكليّة طلب مني ابتعاثه إلى لندن، فأسرعتُ إلى تلبية طلبه، واصطحبته معي إلى لندن، وكان يقيم الصديق عبدالعزيز التركي، المعتمَد الثقافي السعودي في السفارة بلندن، ووكيل جميع المُبتعثين السعوديين، ولديه خبرة، وتعامُل مع مُعظم الكليات والمدارس البريطانية.

طلبتُ منه أن يختار ليوسف المدرسة التي يختارها لابنه، وكان عبدالعزيز هذا من أعزِّ أصدقائي، فقد وثقتُ به، فأدخله إحدى المدارس الواقعة في أقصى بريطانيا من الجهة الشمالية مما يلي البحر.

ذهبتُ معه إلى المدرسة، وتجوَّلتُ فيها، وأخذتُ المعلومات اللازمة عنها، كان فيها قسم داخلي، أبقيتُ يوسف فيها بعد أن أكّدت على مسؤولها وجوب ملاحظة سيره وسلوكه، واستذكاره لدروسه، ثم عدتُ إلى لندن قائلاً لصديقي عبدالعزيز التركي: إنَّ يوسف هذا هو وحيدي وفلذة كبدي، وإني أضعه أمانة في عنقك، ثم عدتُ إلى عملي في المملكة.

انتقاله إلى مدرسة أخرى:

بعد عام وصلتني رسالة من يوسف يشكو لي عدم ارتياحه في هذه المدرسة، ويطلبُ مني الموافقة على انتقاله إلى مدرسة أخرى حدَّدها بالذات، فأوكلتُ أمرها إلى الأخ عبدالعزيز، ولِعلم عبدالعزيز هذا بعاطفتي نحو يوسف، فقد أجاب طلبه، فنقله إلى تلك المدرسة، ثم بعد عامين أخبرني الأخ عبدالعزيز أن يوسف انتقل إلى مدرسة أخرى بناءً على طلبه.

كان يوسف آنذاك قد بلغ سِنَّ الرُّشد، وكنت أوفّر له المال اللازم عن

طريق البنك بحيث يجد تحت يده دائماً مبالغ أكثر من حاجته، وكان ذلك غلطةً مني بدون شك.

كنتُ أطالبه وألحُّ عليه بتزويدي بشهادات دراسته، فكان يُوافيني ما بين وقت وآخر بنتائج الامتحانات وهي مُرضية، ولكن عدم استقراره في مدرسة معيَّنة أضاع عليه فرصة الحصول على شهادة الدارسة من مدرسة معيَّنة.

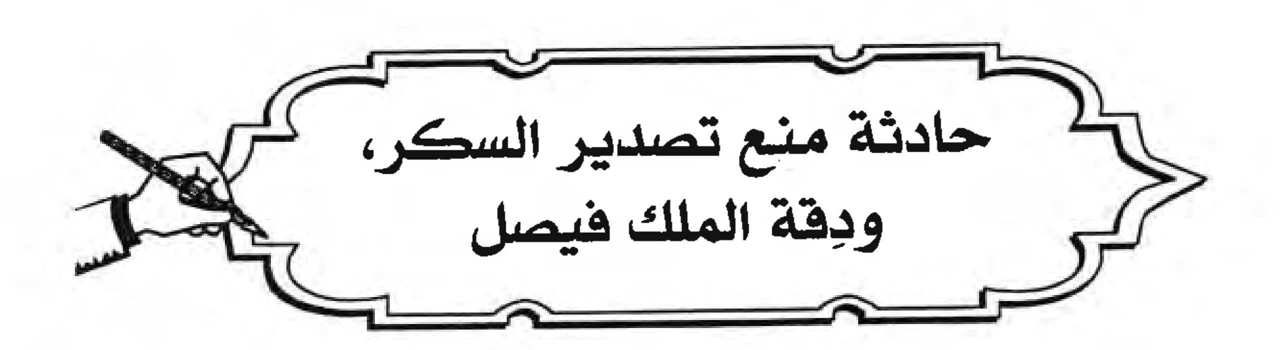
تدني مستوى دراسته:

وعندما شعرت بأنَّ بعض علاماته أخذت تتدنَّى ساورني الشكّ في سلوكه، وخشيتُ أن ينحرف، وهو في سِن المراهقة، والمال متوفر بين يديه ولذا كانت المعادلة أمامي: إما أن أتركه يستمر مع عدم استقراره هذا قد لا يصل إلى النتيجة، وفي الوقت نفسه قد يفقد حصانته، وينجرف في محيط موبوء مُغرٍ كالمجتمع البريطاني، أو أن أسحبه إليَّ، مُضحِّياً بدراسته، لأحافظ على سلوكه وقِيَمه، خاصةً وأنا لستُ بحاجة إلى توظيفه؛ لأنني في يُسر من فضل الله عليّ.

زواج ابني يوسف:

فقررتُ سحبه على الفور إلى (عرعر)، وكنتُ خلال ذلك أبحث، ووالدته، عن الزوجة الصالحة التي نرضاها له، وما كاد يمضي عليه أسبوع بعد وصوله إلى (عرعر) حتى تمَّ عقد قِرانه على أمّ بنيه التي أنجبت له من فضل الله وكرمه خمسة أبناء وابنتين، وهي كريمة المرحوم الصديق محمد بن إبراهيم الصغيّر، السكرتير الخاص لسموِّ أمير منطقة الحدود الشمالية عبدالله بن عبدالعزيز بن مساعد آل جلوي.





خلال عملي رئيساً لمالية الحدود الشمالية وأميناً لجماركها في عرعر، وكان ذلك على ما أذكر في أوائل العقد الأخير من القرن الرابع عشر الهجري، حدثتْ قصة ظريفة أرى من الأمانة للتاريخ أن أذكر تفاصيلها شهادة مني قاطعة، ووثيقة لا تقبل الشك على مدى حرص الملك فيصل رحمة الله عليه، واهتمامه بكل ما يحدث في مملكته الواسعة من دقائق الأمور وكِبارها، أي أنه كان رحمة الله عليه لا يفوته أي أمر مهما صَغُر شأنه من أمور المملكة. أمَّا القصة فتفصيلها كالآتي:

ارتفاع أسعار السكر:

في حدود عام ١٣٩١هـ حدث نقص في مادة السكر في المملكة وارتفعت أسعاره بطريقة فُجائية مُلفتة للنظر، ومُشيرةً إلى أن أسعاره تلك ستتضاعف، وتتضاعف، نظراً لِقِلة الموجود من هذه المادة في أسواق العالم.

منع خروج أي كمية من السكر خارج المملكة:

وكان الإجراء الذي اتخذته المملكة في هذا الموضوع، إجراء يدلُّ على مدى الحرص على توفير احتياجات الشعب من هذه المادة، فقد أصدر الملك فيصل ـ رحمة الله عليه ـ أمراً عاجلاً مشدَّداً لجميع أجهزة الدولة،

وبالأخص على مراكزها الجمركية المُتاخمة لحدود الدول المجاورة، قد أُبلغَ للمراكز الجمركية مستعجلاً، ويقضي بمنع السماح بخروج أي كمية من مادة السكر من المملكة إلى الخارج، مهما قلّت كميتها.

وباعتباري أميناً لجمارك الشمال المرتبطة بي، وهي رفحا والعويقيلة وعرعر وطريف والقريات، فقد تلقيتُ الأمر فَور وصوله، وجرى تعميمه على الفور إلى تلك المراكز.

قدوم شاحنة محملة بالسكر:

بعد مُضي نحو أربعة أشهر تقريباً من الأمر قَدِمَت سيارة من الكويت عن طريق جمرك الخفجي تحمل كمية من السكر مقدارها مائة وخمسون كيساً مرسلةً من أحد تجار الكويت إلى أحد تجار عمَّان العاصمة الأردنية.

كانت هذه الشحنة تحمل صفة الترانزيت، وهو عمل متَّفق عليه بين دول المنطقة. كان طريق هذه الشاحنة لكي تصل إلى عمَّان الطريق العام داخل المملكة، الذي يبدأ من مركز الخفجي، ماراً بحفر الباطن، فشعبة نصاب، فرفحا، فالعويقيلة، فعرعر، فحزم الجلاميد، فجمرك طريف الذي كان آنذاك آخر منفذ سعودي إلى الأردن.

انقلاب الشاحنة:

كان الوقت شتاءً، والأمطار على هذا الطريق متواصلة، وبوصول تلك الشاحنة إلى مركز العويقيلة الذي يبعد مائة وثلاثين كيلومتراً من الشرق عن (عرعر) انقلبت تلك الشاحنة، وهي تسير على طريقٍ كان أحد الأودية يغمره، جارياً فوقه بعنف، ومُحدثاً فيه انشقاقات وانجرافات لم يلحظها السائق، لأن تدفُّق الماء على الطريق حجب الرؤية عن السائق، مما أدَّى إلى انكفاء الشاحنة على أحد جانبيها، ولولا ثقلها بسبب الحمولة لكان الماء قد جرفها. أسرعَ السائق إلى مركز العويقيلة يستنجد بالمسؤولين فيه لمساعدته بإنقاذ شاحنته وحمولتها من محنتها.

نجدة السائق:

أسرعَ المسؤولون مشكورين بنجدته، وتسخير كل إمكانياتهم، وجهودهم المتظافرة، وتمثل جهاز الإمارة، وجهاز الشرطة، وجهاز الجمرك، ولفيف من المواطنين الغيارى. تمكنوا بعد جهدٍ مُضنٍ من سحب الشاحنة إلى حيث المكان الملائم، ومن ثم نقل حمولتها إليها.

كانت الشاحنة قد تضررت بانكسار (الدفرنس) فيها مما جعل مواصلتها للسير مستحيلاً. حضر إليّ في مكتبي في (عرعر) كلٌّ من سائق الشاحنة ومدير الجمرك في العويقيلة يوسف الرشودي.

استئجار شاحنة من (عرعر):

أعلمني السائق بأنه يرغب باستئجار شاحنة من (عرعر)، لكي ينقل إليها حمولة تلك الشاحنة، ويواصل عليها السفر بحمولته، وباطّلاعي على أوراق الشحن الصادر من الكويت بتأشيرات جمرك الخفجي السعودي، اتضَحَ لي أنَّ هذه الحمولة إنما هي ترانزيت إلى عمَّان، وأنه لا محظور على السائق باستئجار شاحنة لذلك الغرض. أذِنتُ له بذلك، وبعد فترة حضر إليّ بإحدى الشاحنات التي استأجرها من (عرعر).

الإشراف على نقل الحمولة وكتابة محضر:

أرسلتُ معه مندوباً من الأمانة، كما عاد معه أيضاً مدير جمرك العويقيلة الذي كان قد حضر معه، وكلفتُ المذكور ـ أي مدير الجمرك ـ ومندوب الأمانة بأن يشرك معه مندوباً من إمارة العويقيلة، ومندوباً من شرطتها، ثم يشرفا جميعاً على نقل كامل الحمولة إلى ظهر السيارة المُستأجرة، ثم يحرّر محضراً يوضِّح الحادث، ويوضِّح مقدار الكمية والجهة المُرسِلة والجهة المرسَل إليها، وحادث انقلاب الشاحنة، وبالجملة يتضمَّن هذا المَحضر كافة التفاصيل المتعلِّقة بهذا الموضوع، بما فيها الوثائق المُرفقة مع الشاحنة الصادرة من جمارك الكويت، والبيان الرسمي الذي نصَّ أنها ترانزيت إلى عمّان، يوقَّع هذا المَحضر من الجميع بما فيهم السائق، ويُحرَّر

منه صور، يحتفظ كلٌّ من الموقِّعين عليه بنسخة منه، بما فيهم مندوب الأمانة، كما يُزوَّد السائق بنسخة منه تُرفق مع الوثائق الرسمية الموجودة لديه لكي يقدِّمها للمسؤولين في جمرك (طريف) لكي يسمحوا له بمواصلة سفره إلى عمَّان.

ظرف مغلق:

مضىٰ على هذا الحادث قرابة الشهرين، وإذا بي أُفاجأ في أحد الأيام بعد صلاة العِشاء بنحو ساعتين بموزِّع إمارة منطقة الحدود الشمالية، يسلِّمني ظرفاً مغلَّفاً سُجِّل على أعلاهُ (عاجل جداً تُرفع الإجابة حالاً).

محضر الشاحنة:

فتحتُ الخطاب فإذا بداخله نسخة من المَحضر الذي اتُخذَ بشأن تلك الشاحنة المنكوبة التي كانت تحمل كمية السكر ترانزيت من الكويت إلى عمَّان عبر البلاد السعودية، ومع هذا المَحضر خِطاب رسمي بتوقيع جلالة الملك فيصل متضمِّناً أسئلة محددة يُطلب الإجابة عليها فوراً، وهي كما يلي:

١ - التأكُّد من مصدر هذه الكمية.

٢ - التأكُّد من صحة الوثائق المُرفقة بها.

٣ - التأكُّد من سِجِّلات جمرك (الخفجي) عما إذا كانت هذه الكمية قد سُجِّلت لديه حين دخولها قادمة من الكويت.

٤ - التأكُّد من سِجِّلات جمرك (طريف) عما إذا كانت هذه الكمية البالغ عددها مائة وخمسون كيس قد مرَّت فعلاً بجمرك (طريف) وغادرته كاملةً إلى الأراضي الأردنية.

ومع أنني عارف بكل تفاصيل هذا الموضوع، كما سبق أن شرحتُ، فلم يكن أمامي إلا أن أقوم بجولة سريعة، اتَّجِهُ فيها أولاً شرقاً إلى جمرك الخفجي، قاطعاً قرابة ألف كيلومتر لكي أقف بنفسي على سجلاَّته، وأنقل

ما سُجِّل عن هذا الموضوع، ثم أعود مرةً أخرى إلى الغرب حيث يوجد جمرك (طريف)، قاطعاً ما يقرُب من ألف وخمسمائة كيلومتر أيضاً، لكي أنقلُ ما أُثبِتَ في سجلاَّته عند وصول هذه الكمية وخروجها.

وما كدت أستلم الكتاب الذي أشرتُ إليه حتى استدعيتُ على الفور سائق سيارتي الخاص (المرحوم فايز سحمان) الذين أمرته على الفور أن يُعبأ خزان السيارة ويعود إليّ في الحال.

تأجيل التحقيق مع أحد المهربين:

حينما تسلَّمتُ الكتاب آنف الذِكر كنت في طريقي إلى الإدارة لأواصل التحقيق مع المهرِّبين، وكانت اللجنة المركزية ساعتئذ تنتظرني لِبدءِ التحقيق، وقد أُحضِرَ إليها أحد المهرِّبين من السجن لِبدءِ التحقيق معه. مررتُ على اللجنة، وطلبتُ منهم إعادة المهرِّب إلى السجن، وأن يتوجَّهوا إلى منازلهم حتى أعود من مُهمة عاجلة.

إلى جمرك الخفجي:

على الفور واصلتُ السفر الذي قطعتُ فيه الليل كله، وبعد شروق الشمس بنحو نصف ساعة كنت في جمرك (الخفجي). أسرعتُ إلى سجلاَّت الجمرك أُفَتِّشُ فيها عما أُثبِتَ عليها عن تلك الكمية، ولم تمرّ أكثر من ساعتين حتى كنت قد تحصَّلتُ من واقع السِّجلات على كل ما أرغب معرفته.

إلى جمرك طريف:

ثم عدتُ مُواصلاً سفري في حوالي الساعة الثالثة بالتوقيت العربي عائداً من حيث أتيت، ومُواصلاً سفري إلى طريف مروراً بعرعر، فوصلتُ طريف في حوالي الساعة الرابعة ليلاً بالتوقيت العربي من ذلك اليوم. طلبتُ من إدارة الجمرك أن يفتحوا لي الإدارة في ذلك الوقت من الليل، وكان على رأس إدارة الجمرك آنذاك الصديق علي لافي ونائبه الصديق حسن صابر.

فُتحت الإدارة وأسرعتُ إلى السجلاَّت أُفتشها بنفسي، وبعد نحو نصف ساعة كنت قد توصَّلت إلى جميع ما كنتُ أرغب الحصول عليه.

العودة إلى عرعر:

عدتُ إلى (عرعر) في الليلة نفسها، وكان الإعياء والتعب والسهر قد أخذ مني مأخذَه، وقبل تباشير الصباح من تلك الليلة كنتُ أطرق باب منزلي في (عرعر) وأنا أَشْبَهُ بالمُخدَّر، أكاد أسقط إعياءً من التعب.

إرسال الإجابة إلى رئيس ديوان الإمارة:

كنتُ قد أعددتُ الإجابة على خِطاب الملك خلال وجودي في السيارة عائداً من طريف إلى (عرعر)، فبادرتُ فور وصولي إلى (عرعر) بإرسال الإجابة مع السائق فايز إلى رئيس ديوان الإمارة آنذاك المرحوم (حمدي أمان) طالباً من السائق أن يطرق عليه بابه، ويُوقظه من نومه ويأخذ توقيعه إلى دفتر التوقيع باستلام الكتاب.

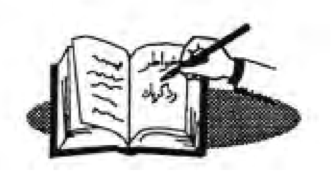
سبب تجشُّم العناء والمشقة:

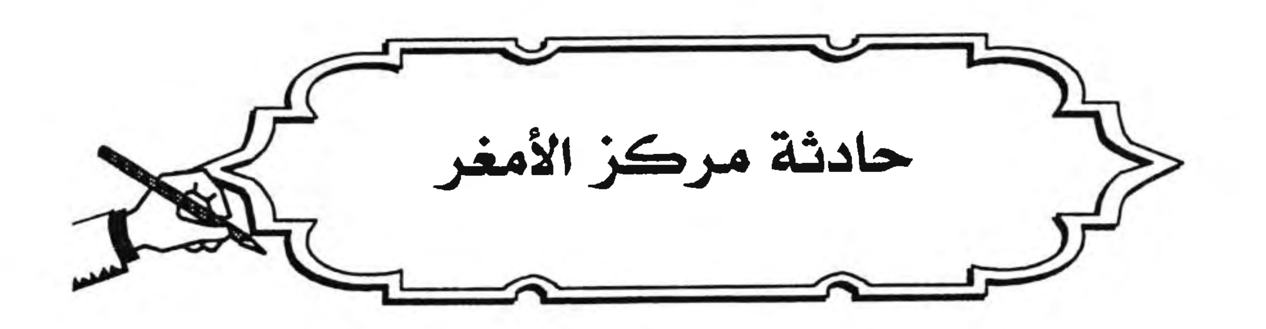
وقد يتساءل القارىء: طالما أنني محيط بكامل تفاصيل قضية هذه الشاحنة، فلماذا لم أرفع لجلالته جواب أسئلته على الفور؟ (لأنَّ تفاصيل القضية كلها حاضرة في ذهني). ولماذا أجشِّم نفسي هذا العناء المُرهق والمَشقة البالغة؟ وجوابي على ذلك: إنني قدَّرت أنَّ جلالة الملك لم يقتنع بصحة ما اشتمل عليه المَحضر الذي نُظم عنها وهو يحمل كامل التفاصيل، ولذلك لا بدَّ من تزويده بوثائق من واقع سجلات الجمارك السعودية في كلٍّ من جمارك (الخفجي) الذي مرّت عن طريقه تلك الكمية قادمة من الكويت، ومن مركز (طريف) الذي أشرف على خروجها من المملكة، إنني لو رفعتُ الإجابة من واقع المَحضر لتضاعفَ شكّ جلالته في الموضوع؛ لأن صورة المَحضر مُرفقة بخِطاب جلالته، ولذا فقد كان قيامي بتلك الجولة السريعة أمراً لا بدَّ منه.

من سجايا الملك فيصل رحمه الله:

هذه الحادثة التي شرحتُ تفاصيلها ومُلابساتها بكلِّ دقة وإيضاح، تُعطي القارىء الكريم فكرةً صادقةً عما كان يتميَّز به جلالة الملك فيصل من إحاطة دقيقة لِسَيْر الأمور في هذه المملكة، وحرص شديد على الاطِّلاع، ومعرفة جميع الشؤون التي تتعلَّق بحياة المواطنين ومعايشهم، وحرصه على توفير كل ما يؤمِّن لهم العيش الهانىء المطمئن، ولا شكَّ أنَّ عملاً كهذا يحتاج إلى دأب مستمر وعناء بالغ، وجُهد مُرهق يكاد يخرج عن الطَّوْق، وهو جهد ينطبق عليه قول الشاعر الفَحل أبي الطيب المتنبي:

وإذا كانت النفوس كِباراً   تعِبت في مُرادها الأجسام





حادثة مركز (الأمغر) عام ١٣٩٢هـ بين المركز السعودي والمركز العراقي:

قبل اغتيال الملك فيصل ـ رحمه الله ـ بثلاثة أعوام على ما أذكر، حدثت على الحدود العراقية السعودية على مركز (الأمغر) هذا حادثة كادت أن تؤدي إلى نشوب الحرب بين الدولتين: الدولة السعودية والدولة العراقية، لولا أن تداركتها عناية الله، ثم حِكمة الملك بأن وُفِّق جلالة الملك فيصل ببُعد نظره إلى إطفاء شرارتها في اللحظة الأخيرة، وإلاَّ لحدثت حرب مُدمرة بين الدولتين لا يعلم عواقبها سِوى الله، وتفصيل ذلك:

إن الدولة العراقية تشترك مع الدولة السعودية في حدود إلى أكثر من تسعمائة كيلومتر، تمتد على هذا الحد من الجانبين العراقي والسعودي مراكز حكومية، كلٌّ منها مقابلٌ للآخر، يفصلُ بينهما الحدّ الذي لا توجد معالم ظاهرة توضِّح معالمه. تفصلُ بين المركزين العراقي والسعودي مسافة لا تزيد عن كيلومترين على أكبر تقدير.

هناك في الجانب العراقي مفرزة من الجنود يتروواح عدد أفرادها ما بين عشرة إلى خمسة عشر نفراً، يقابلها من الجانب السعودي أمير مركز لديه من الحَرس (الخويا) تعداد مُماثل تقريباً للمراكز العراقية. الفارق بينهما أنَّ النقطة العراقية يرأسها جندي برتبة رقيب، أي أنَّ أفرادها عسكريون، أما في

الجانب الآخر السعودي، فالمجموعة الموجودة فيه كلهم مَدنيون، يرأَسَهم شخص مدني يسمَّى بالأمير.

كانت هذه المراكز تتزاور فيما بينها، فالعراقيون يحضرون إلى المركز السعودي، ويقضون مع مَن فيه بعض الوقت، وكذلك يفعل السعوديون مع العراقيين. بين كلٍّ منهم ومدن بلاده التي يستجلب منها حاجاته وتمويناته مسافةٌ قد لا تقلّ عن ثلاثمائة كيلومتر.

أسرةٌ متآلفة:

كان الجميع يرتبطون بودٍّ وصداقة، وكأنهم أسرة واحدة بسبب موقعهم النائي عن المدن والحضارة، والواقع في قلب الصحراء، بحيث يقضون أكثر أوقاتهم في مجالسهم في تلك المراكز.

الحدود السعودية العراقية:

كانت الحدود العراقية السعودية آنذاك لم تُرسَم، ولم تُوضع عليها العلامات المميَّزة بعد. ولعدم وجود جبال أو روابي مرتفعة على امتداد هذا الخط فكان الماشي عليها يحسبها أرضاً واحدةً تخضع لسيادة دولة واحدة.

مراتع البادية:

كانت على امتداد هذا الخط أيضاً أراضٍ شاسعة تبلغ المئات من الكيلومترات من الجانب الجنوبي (السعودية)، ومثلها من الجانب الشمالي (العراقي)، كانت هذه المساحة الهائلة من الصحارى المُنبسطة، دائماً مراتع ومرابع لِتجوال البادية، الذين يقطنون هذه الصحارى من كِلا الجانبين متنقلين ببيوتهم الشَعر، وما يملكونه من قِطعان الإبل والأغنام في هذه المناطق، دونما تفريق أو تمييز، الباديةُ العراقية تتوغَّل في الأراضي السعودية طلباً للرعي والكلأ أينما وُجد، حتى أنها تصل في بعض الأوقات إلى أعماق الدهناء والنفود، كما أنَّ البادية السعودية تنتشر داخل الأراضي العراقية سواءً بسواء، لعدم وجود معالم على هذا الحدّ توضِّح نهاية الأراضي

السعودية من جهة الشمال، كما توضّح الأراضي العراقية من جهة الجنوب، فيَسهل على الماشي فيها أن يدرك موقعه، أهو على الأرض السعودية أم على الأراضي العراقية.

معاناتي من هذا الوضع:

كان هذا الوضع بالنسبة للحدّ قد عانيتُ منه كثيراً من العناء والتعب وقت أن كنتُ رئيساً لمالية وأمانة جمارك الحدود الشمالية في (عرعر)، خاصةً خلال الفترة ما بين ١٣٨٤هـ إلى ١٣٩٥هـ تقريباً، فكانت أجهزة سلاح الحدود السعودية آنذاك قد أُنشِئت في عام ١٣٨٤هـ، تحت إمرة أول رئيس لها المرحوم عبدالله الدريبي، وقد باشرتْ تلك الأجهزة مهمتها فَور تشكيلها، لمكافحة عمليات التهريب، التي كانت تتمّ على الحدود فيما بيننا وبين الكويت، وعلى الحدود فيما بيننا وبين العراق.

كان ما يُهرَّب إلى المملكة من الكويت هو الأدخنة على مختلف أنواعها، كما أنَّ التهريب يتمُّ من المملكة إلى العراق، فتصدر بطريقة غير مشروعة الكثير من السِلع السعودية الممنوع تصديرها.

مشكلة التحقيق مع المهربين:

كانت الدورية عندما تقبض على مهرّبين من المملكة إلى العراق يستلزم عملها أن تعمل مَحضراً في الحال في مكان القبض على المهرّبين، يوضّح فيها ساعة القبض ومكانه على الأرض، وأنواع المضبوطات المهرَّبة وواسطة النقل، وعدد المهرّبين.

كانت تبعث المهرّبين ومَحضر الضبط إلى أمانة الجمرك في (عرعر)، عبر إدارتها الرئيسة في المدينة نفسها، فيتمّ تسلّيم المضبوطات والمُهرّبين ومَحضر الضبط إلى أمانة الجمارك في (عرعر) لتتولّى التحقيق مع المُهرّبين، تمهيداً لاتخاذ الإجراءات النظامية التي يقضي بها نظام الجمارك ولائحته التفسيرية.

عندما أتولَّى التحقيق مع المهرِّبين يَدَّعون بإن إلقاء القبض عليهم من قِبل سلاح الحدود كان خطأ، لأنَّ مكان القبض كان في الأراضي العراقية وليس في السعودية.

وواضح أنه إذا كان القبض تمَّ فعلاً على الأراضي العراقية، فإنه يصبح لا مجال لاتخاذ أي إجراء في هذه القضية، لأنَّ الأنظمة والأوامر السعودية يقتصر مفعولها على ما كان داخل الأراضي السعودية فقط.

تأكدي من مكان القبض على المهربين:

كان هذا الوضع يُرغمني على أن أذهب بنفسي للوقوف على مكان القبض للتأكُّد عما إذا كان قد وقع على أرضٍ سعودية أم العكس، وكنتُ كما ذكرت أجد حرجاً وصعوبةً بالغة في هذا الشأن، حيث لا توجد خرائط أو مخطَّطات تحلُّ المشكلة.

وضع معالم الحدود:

ومن حُسن الحظ أن هيَّأ الله فرصةً كانت من أثمن الفرص بالنسبة للملكة العربية السعودية اغتنَمَتْها بذكاء، واستطاعت الحكومة السعودية أن تقنع العراقيين بأن يتجاوبوا معها في ضرورة وضع معالم الحدود بوضع معالم من البتر الأسمنتية التي ترتفع عن الأرض أكثر من متر، مربعة الشكل تحمل سهماً رُسِمَ عليها من كِلا جانبيها: أحدهما يشير إلى السعودية، والآخر يشير إلى العراق، علماً بأنَّ الحكومة السعودية، مراراً وتكراراً، وبِشتى الوسائل، حرصت على أن يتمَّ هذا التحديد منذ أعوام وأعوام، بَيْدَ أنها لم تُوفق.

ترسيم الحدود:

وبُعيد نشوب الحرب الإيرانية العراقية بسنوات قلائل استجابت حكومة العراق للرغبة السعودية في ترسيم الحدود بطريقة محدَّدة واضحة، فحُفِر خندق على امتداد الحدود من الشرق إلى الغرب، وذلك في أسرع وقتٍ

ممكن، وتمَّت الاتصالات بين الدولتين، وفعلاً حضر وزير الداخلية العراقي، ومعه مجموعة من المسَّاحين والمهندسين إلى الرياض، وكنت آنذاك موجوداً فيها، فشُكِّلت لجنة من المهندسين والمسَّاحين السعوديين، اجتمعتْ عدة اجتماعات كانت نهايتها أن تمَّ تحديد هذه المعالم على هذا الخط وإقامة البتر الأسمنتية على امتداده، فلا يبعدُ أحدها عن الآخر أكثر من عشرة كيلومترات، ثم تمَّ حفر خندق بعمق متر ونصف تقريباً وعرض متر واحد يسيرُ بمحاذاة الخط من نقطة البدء من جهة الشرق على مُقربة من (الرقعي)، ثم يسير باتجاه الغرب إلى أن يصل إلى نقطة الالتقاء بالحدود الأردنية من جهة الغرب، وقد وُضعت بعض المنافذ في هذا الخط التي هي أشبه ببوابات يتمركز أمامها مجموعة من الدوريات.

عود على بدء:

نعود إلى جوهر القضية التي جرَّها إلينا هذا الحديث المطوَّل: كان مركز (الأمغر)، وهو أحد المراكز السعودية الواقعة على الحد العراقي قبل ترسيم الحدود.

و(الأمغر) بئر جاهلية ضاربة في القِدم، عمقها من سطح الأرض إلى قاع البئر، أكثر من سبعين باعاً، تقطنُ عليها مجموعات من أفراد البادية في أيام الصيف، عندما تكون الأراضي المحيطة بها مُخصبة، يقطنون عليها رغم المَشقة التي يعانونها من استخراج الماء منها لرعي مواشيهم، على مقرُبة من هذا البئر بمسافة لا تقلّ عن عشرة كيلومترات تقريباً.

قصر ضخم يرتفع عليه العلم العراقي:

كان يوجد على المركز السعودي الأمير الذي سبق ذكره وخواياه، وفي أحد الأيام لاحظ أفراد هذا المركز أنَّ هناك على بُعد نحو أربعة كيلومترات أو أكثر قصرٌ ضخمٌ مربَّع الشكل ترتفع جدرانه عن الأرض حوالي ثلاثة أمتار وفي أعلاه العَلم العراقي خفَّاقٌ في الفضاء.

كان اكتشاف هذا القصر بالنسبة للأمير مُفاجئاً ومُحرجاً، كيف غَفِل

عن العراقيين في تشييد هذا القصر على مسافة لا تتجاوز بِضع كيلومترات عن المركز السعودي، وهو يعلم تمام العِلم أنَّ الاتفاقيات المعقودة بين بغداد والرياض لا تسمح لأيٍّ من الجانبين أن يقيم أي بناء حتى ولو بطول متر واحد على الحد أو على الأراضي القريبة منه.

برقية الأمير إلى الرياض:

لم يكن في وِسع الأمير وقد صُعِقَ للحادث إلاّ أن أبرق لمرجعه في الرياض، يشرح لهم ما وقع ويطلب منه ـ أي من مَرجَعه ـ التوجيه بما يجب.

جواب سريع:

كان جواب الرياض السريع أن بادرت بإرسال ما لا يقلُّ عن عشرين شاحنة تحمل أطنان الحديد على مختلف مقاساته، ومئات أكياس الأسمنت، على أساس أن تصل هذه كلها إلى مركز (الأمغر) فيقام هناك قصرٌ مشابه للقصر الذي بناه العراقيون، وصلتْ هذه الكميات من الإسمنت والحديد، وبرفقتها مجموعة من العمال وأساتذة البناء للشروع فوراً في إنشاء القصر.

بناء قصر للأمير:

ما كادت الشاحنة تُفرغ حمولتها، ويتطَّلع العراقيون على الغرض من إرسالها، ومن حضور العمال وأساتذة البناء، حتى أسرع أحد أفراد المركز العراقي وكان برتبة رقيب ـ كما ذُكر لي ـ إلى أمير المركز السعودي مستوضحاً منه عن القصد من جلب الحديد والأسمنت والعمال، فقال له بكل بساطة: إن ذلك لبناء قصر داخل حدودنا إسوةً بالقصر الذي أقمتموه، وهنا ذكَّره الضابط العراقي بأننا نمنعكم من القيام بأيِّ حركة في هذا الموضوع، لأنَّ القصر الذي أقمناه (والكلام للضابط العراقي) إنما كان بناؤه داخل أرضنا بدليل أننا أتممنا بناءه فيما لا يقلُّ عن عام وأنتم لم تعترضوا عليه، وهذا يعني إقراراً منكم بأنَّ البناء كان داخل الأرض العراقية وليس على مقرُبة للحد التي لا تسمح به الاتفاقات المعهودة.

توتر الوضع:

اشتدَّ الجَدل بين الرجلين حتى بلغ من العنف أن خرج عن نطاق اللياقة الدبلوماسية، وأصرَّ الأمير بأنه لا بدَّ من البناء، هدَّد الضابط العراقي بأننا سنمنعكم بالقوة، توتَّر الوضع إلى حدٍّ مخيف، وأُرسلتْ من (عرعر) مجموعات من جنود المجاهدين التي كان يرأَسها المدعو ابن مطر، أُرسلت في عشرات الشاحنات إلى مركز (الأمغر).

اتضَّح أنه بعد يومين من هذا الحدث، وبينما كانت المُخابرة مستمرة بين الدولتين، اتضَّح أنَّ العراق خلال هذه الفترة القصيرة قد جلبَ أكثر من عشرة آلاف جندي بكامل أسلحتهم وتجهيزاتهم.

كانت الشرارة تُوشك أن تنطلق، إلا أن الملك فيصل بحكمةٍ منه أصدر أمراً برقيّاً مُستعجلاً لأمير منطقة الحدود الشمالية عبدالله بن مساعد، ولأمير مركز (الأمغر)، بأن يوقفوا حالاً كلَّ حركة، وأن تعود الشاحنات والجنود وعمال البناء إلى المملكة من حيث أتوا، ولازالت أكوام هذا الحديد وأكياس الأسمنت موجودة حتى الآن، أي تاريخ تسجيل هذه الحادثة.

بُعد نظر الملك فيصل:

ومن البداهة بمكان أنَّ هذا التصرُّف من المرحوم جلالة الملك فيصل، إنما يدلُّ على بُعد النظر، وعلى الحِنكة السياسية، وعلى تقدير العواقب. وهي صفة من صفاته الكُثر المتميِّزة، وقد شَهِدَ بها خصومه قبل أنصاره رحمه الله رحمةً واسعةً.





استراحة المحارب

وأخيراً، وبعد لأيٍ وجهدٍ عبر عشرات السنين، آن للمُحارب أن يستريح، آن له أن يُلقي عصاه متفيئاً ظِلَّ الشجرة، تمهيداً لبدء إكمال الشوط الأخير.

تسليمي للعمل:

في منتصف رجب من عام ١٣٩٨هـ، سلَّمتُ عملي إلى الزميل الصديق مصطفى حامد، وقد كان العمل آنذاك قاصراً على العمل المالي فقط، أمّا العمل الجمركي فقد أُلغِيتْ أمانتهُ قبل ذلك بعدَّة شهور، وهنا تحقَّق قول الشاعر بالنسبة لوضعي، إذ يقول:

فألَقَتْ عصاها، واستقرَّ بها النوى كما قرَّ عيناً بالإياب المسافرُ

التحلل من قيود الوظيفة:

عُدْتُ إلى البيت متحلِّلاً من كل قيد أو رباط، ومُلقياً عن كاهلي أيَّ مُساءلةٍ أو التزام، ومن الواضح أنَّ القول بأنَّ المرء حينما يتخلَّى عن العمل لا يحسُّ بفراغ أو اكتئاب نفسي، إنما هو قولٌ مردود يجافيه الواقع، فقد أحسستُ في الأيام الأُول من تركي العمل بسآمة وملل واكتئاب نفسيّ، وشعرت أنَّ الساعاتِ تمرُّ عليَّ طِوالاً، وأنا قعيد المكان، لا أجد ما أشغلُ به وقتي، وقد كنتُ، منذ بضعة أيام أقضي الساعات الثمان، مُكِبّاً على مكتبي حاني الظَّهر.

الخروج من دائرة الملل والسآمة:

شيئاً فشيئاً ابتدأتُ أحسُّ أني قد بدأتُ أخرجُ من دائرة هذا المَلل والسآمة. لأنني عوَّضتُ ذلك الفراغ بأن أبدلتُ ساعات عملي في المكتب بساعات أقضيها بين جنبات مكتبتي الخاصة، مُتنقِّلاً بين أيكها من أيكٍ إلى آخر، ومن كتابٍ إلى سواه، وبكلِّ التأكيد فإن جنبات المكتبة، وما تحويه من مختلف الكتب وصنوف المعرفة، هي أفضل ألف مرَّة من اقتعادي مكتب العمل الرسمي.

في رحاب المكتبة:

ذاك أنَّ رحاب المكتبة هو أشبه بفيضةٍ غَنَّاء تتماوج على أديمها شتَّى الأزاهر، فوَّاحةَ الشذى، مغذِّيةً للعقل، منعشةً للضمير.

لم تمضِ بضعة أيام حتى وجدتُ نفسي أُباكر المكتبة وأُماسيها، لا يفصلني عنها إلاَّ أوقات معيَّنة؛ كأداء فرض، أو تناول طعام، أو استقبال صديق.

ضعف بصري:

ظلَّ هذا الوضع مستمراً عدَّة سنوات، وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الاستغراق في القراءة، والانقطاع إليها أن تكون ضحيَّة ذلك هي نظري، فأخذت أحسُّ بنظري يضعف يوماً بعد يوم، وكان ذلك في حوالي عام ١٤٠٤هـ.

كان عجزي عن مواصلة القراءة معناه أن أظلَّ قعيد البيت أو رهين المَحبسين، كما قال فيلسوفنا أبو العلاء المعرِّي.

خياران محيِّران:

فكَّرت طويلاً في أن أجد وسيلةً تزيح عنِّي هذا الوضع فلم أهتدِ إلى ذلك سبيلاً. جمهور البلد ـ وأعني بها مدينة (عرعر) التي أُقيم فيها ـ هم صنفان: إمَّا موظَّفون؛ رؤساء دوائر، أو من يلتحق بهم، وهؤلاء أوقاتهم

ليست مِلكاً لهم، لأنهم يقضونها في تأدية واجباتهم الرسمية، وليس من المعقول أن أقتحم عليهم أوقات عملهم، وأمَّا الصنف الثاني فهم التجَّار، وهم خليطٌ من مختلف مُدن المملكة، طاب لهم العيش والمقام بعرعر، وسأجد منهم بدون شك كل تَرْحاب وقبول لو زُرتهم، نظراً لعلاقتي الطيِّبة بهم أثناء العمل. إلاَّ أنَّ المُشكل في الموضوع تباين النظرة إلى الحياة فيما بيني وبينهم، واختلاف المستوى الفكري والثقافي، فضلاً عن أنَّ هناك مَثل يقول: «زُرْ غِبًّا تزددْ حُبًّا».

خلاف هذين الخيارين ـ أعني الموظفين ورؤساء الدوائر، أو إخواني وأصدقائي من جمهور البلد ـ لم يكن هناك مَخرج آخر، ففكَّرت كثيراً في الحلِّ: أفي وسعي أن أظلَّ في بيتي بعرعر عاطلاً أتنقل من جنبات البيت من مكانٍ لآخر؟ طبعاً لا. هذا أمرٌ على النفس جدُّ عسير.

أأنتقل إلى مكان آخر قد يوفِّر لي بعض المتعة، ويخفِّف عني بعض الغربة الفكرية؟ ولكن أين هذا المكان؟ وحتى لو وُجد، فكيف أستطيع أن أبتعد عن مكانٍ أمضيتُ فيه الشطر الأكبر من عمري، وبنيتُ أُسسه لِبنةً لبنة بيدي، وعرق جبيني، وقضيتُ الساعات الطِوال مُتنقِّلاً بين أفنانه وأحضان أيكه، أستنشق عبير الأزاهر، وشذى الأقحوان وأعني به المكتبة وما تحويه؛ فكل كتاب حَوته هذه المكتبة قد احتضنتُه ساعات وساعات، ونشأت بيني وبينه ألفةٌ ومَودة.

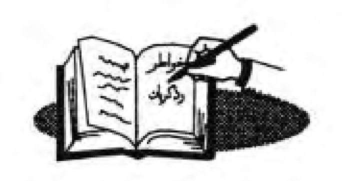
هذا بالنسبة للمكتبة، فكيف الحال بالنسبة للأهل والأسرة؟ كيف الحال وأنا أحسُّ بالسعادة تغمر جوانب نفسي صباح مساء كلَّما أطلَّ عليّ أحد الأبناء أو الأحفاد، ومن الواضح أنَّ آصرة الأبوَّة وما تَحْويه بين أعطافها من وِدّ وعطف وحنان شيء أكبر من أن يُضحَّى به.

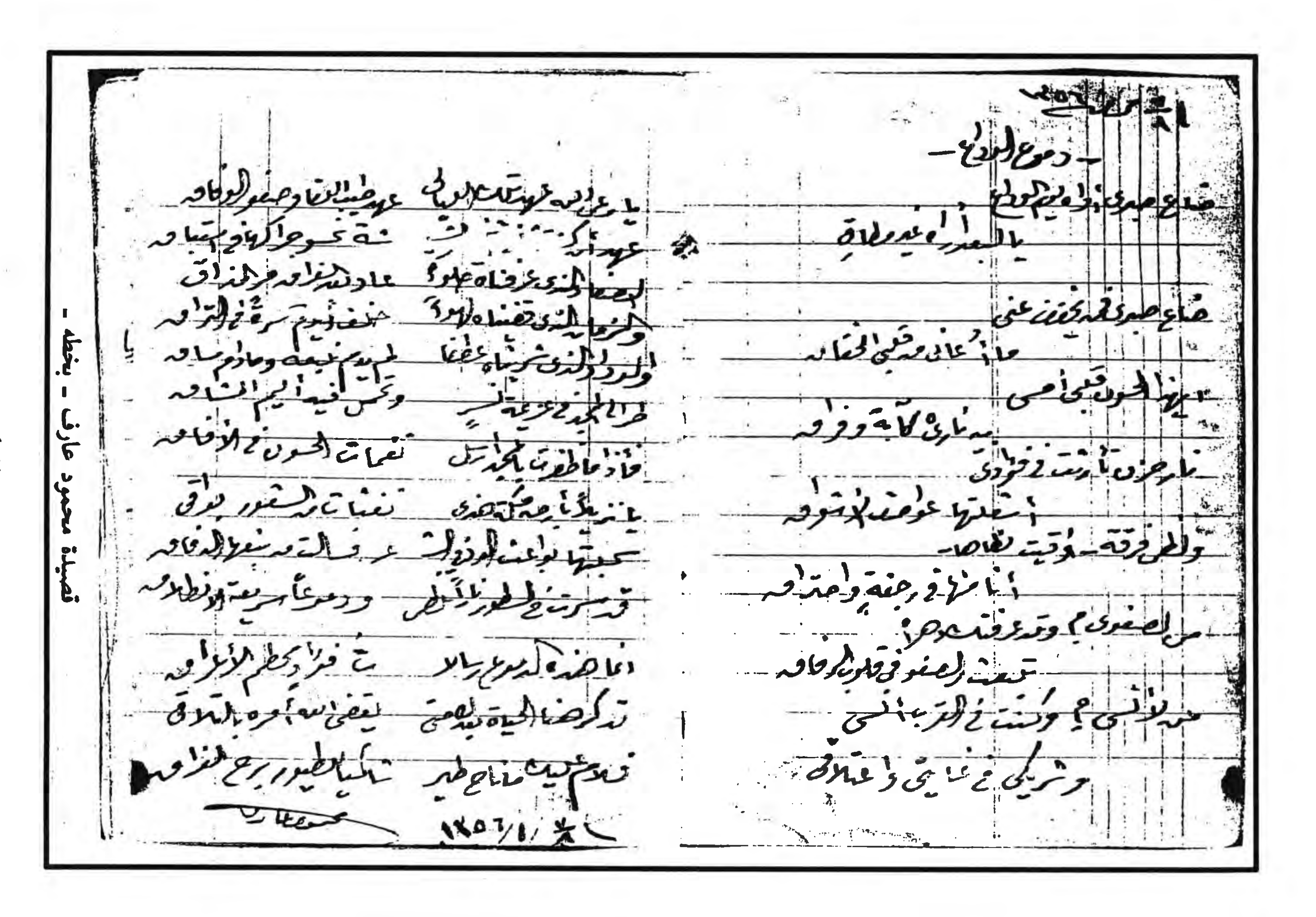
الانتقال إلى جدة:

أخيراً كان (لا بُدَّ مما لا بدَّ منه بدّ)، ذلك أنَّ انتقالي إلى جدة بمفردي حلٌّ مريح يحقِّق الهدف، أعني يُبعد عني جوَّ الرتابة والمَلل، لأنَّ

وجود الأسرة في (عرعر)، ووجودي في (جدة) في آنٍ واحد لا يُعتبر فراقاً بيننا أو ابتعاد لأحدنا عن الآخر؛ لأن وسائل العصر الحديثة، بما في ذلك التليفون والفاكس والتلكس والطيران، تُلغي الحدود والمسافات، ففي وِسعك أن تتَّصل بأسرتك وأنت مقيم في جدة في أيِّ وقتٍ شئتَ، مُضافاً لذلك أنَّ الحياة في جدة، بالنسبة لي خاصَّةً، توفِّر لي إمكانات مُريحة لم تكن مُتاحة في (عرعر).

جدة فيها المنتدى الثقافي، وكثير من المنتديات الأدبية، فضلاً عن وجود الجامعة، ولتوفُّر الكثير من زملاء الدراسة، ومن أصدقاءٍ تجمعني بهم صِلات الوُدّ من سنين وسنين، يُضاف إلى ذلك أيضاً ضِفاف البحر، ساعة الأصيل، عندما تتدافع أمواجه الفضية مسرعةً إلى الشاطىء لتتحطَّم على صخوره، وفوق ذلك كله فهناك مهوى الأفئدة ومهبط الوحي ومشرأبّ الأعناق، بيت الله الحرام، وعلى هذا الأساس، أو هذه المُغريات على الأصَّح، فقد اتخذتُ القرار الأخير وهو الإقامة بجدة، وكان ذلك في عام ١٤٠٧هـ.





ـ دموع الوداع ـ

محمود عارف

١٩٥٦/١/

قصيدة محمود عارف ـ بخطه ـ





جلالة الملك عبد العزيز رحمه الله



إبراهيم المحمد الحسون

الشيخ إبراهيم الحسون وابنه يوسف أمام القصر القديم في قربة



إبراهيم الحسون



يوسف عبد الله الحسون وزميله عبد الله حسن قنزل



إبراهيم الحسون وابنه يوسف



إبراهيم الحسون مع ابنه يوسف وأحفاده
١- محمد يوسف ابراهيم الحسون ٢- وجده ابراهيم الحسون ٣- وابنه يوسف ابراهيم الحسون
٤ -ومضاوي يوسف الحسون ٥ -وهشام يوسف الحسون ٦- ووليد يوسف الحسون،
٧- ومهنّد يوسف الحسون، ٨- وابراهيم يوسف الحسون ٩- وريم يوسف الحسون



نخبة من أعز الأصدقاء على شاطئ البحر للذكرى
١- صالح الزومان ٢- عبد الرحيم عويصة ٣- إبراهيم الحسون ٤ -مطلق بن حريب
٥ -محمد علاقي ٦- عبد العزيز الجميح ٧- محمد المرشد الزغيبي ٨- ابراهيم البسام
٩- عبد الرحمن التركي ١٠- عبد الكريم الزمل



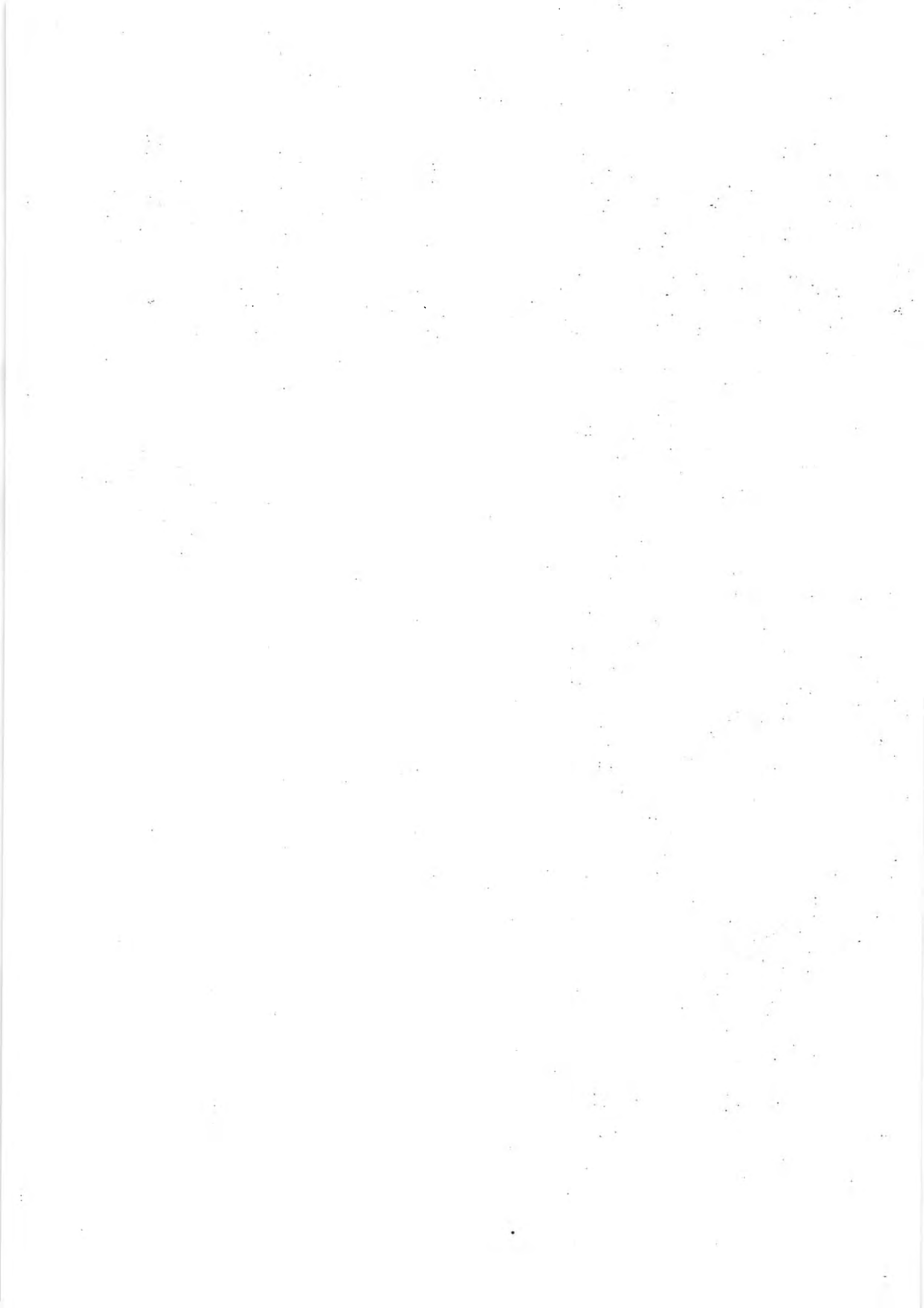
نخبة من الأصدقاء في حفل إفطار عند الأخ يوسف الخريجي على شرف محمد شرارة

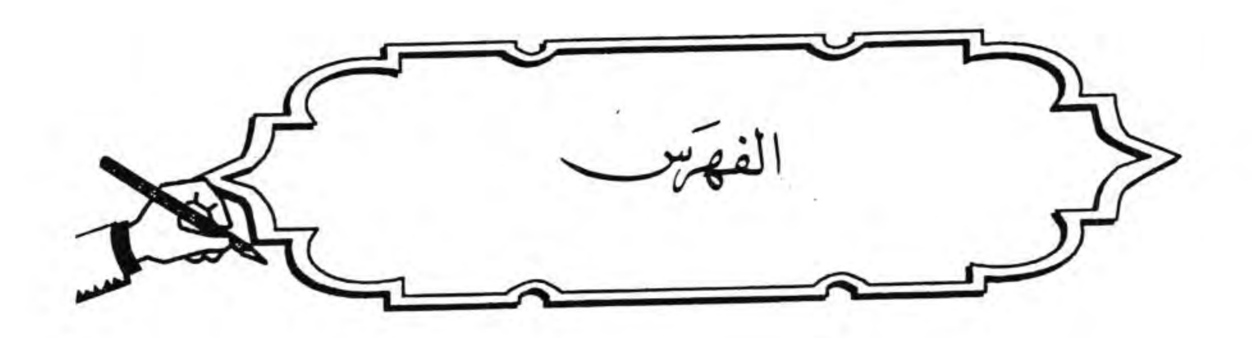


صورة على كورنيش جدة في ١٤١١/١١/٣ مع بعض الأصدقاء
الجلوس من اليمين: ١- عبد الكريم الزامل ٢- ابراهيم الحسون ٣- محمد مرشد الزُغيبي
الوقوف من اليمين: ١ -محمد عبد القادر العلاقي ٢ -عبد العزيز الجميح
٣- عبد الرحمن عبد العزيز الشبيلي ٤- مطلق بن عبد الله الخريب
٥- عبد الرحمن إبراهيم التركي ٦- عبد المحسن محمد ستّان



الشيخ إبراهيم الحسون في وسط الصورة مع أسرته
من اليمين أحفاده ١ -هشام ٢ -وليد ٣- وولده يوسف ويحمل ابنته
٤- حصى ٥- محمد ٦- مهند ٧- ريم ٨- إبراهيم





الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

البطاقة الشخصية

الاسم: إبراهيم محمد الحسون.

محل وتاريخ الميلاد: عنيزة في حدود عام ١٣٣٣هـ.

الحالة الاجتماعية: متزوج، وله من الأبناء يوسف وهدى.

التحصيلِ العلمي:

- درس في مستهل حياته في عدة كتاتيب في عنيزة حتى حفظ جزء عمَّ.
- أمضى في المدرسة الرشدية في جدة سنة ونصف، في أول وثاني ابتدائي.
- انتقل إلى مدرسة الفلاح بجدة في عام ١٣٤٦هـ ليدرس في الفصل الثالث الابتدائي حتى أكمل جميع مراحلها الدراسية، والتي تمثل آنذاك الابتدائية والمتوسطة والثانوية، حيث تخرج في عام ١٣٥٢هـ.
- التحق بمدرسة تحضير البعثات في مستهل عام ١٣٥٦هـ، لمدة عام واحد.
- عمل سكرتيراً خاصاً لقائم مقام جدة لمدة ٦ شهور.
- عمل مأموراً في جمرك الخُبَر لمستوردات شركة أرامكو في شهر شعبان ١٣٥٧هـ، والتي كانت تدعى آنذاك كاسوك، ثم انتقل إلى رأس تنورة، في مستهل عام ١٣٥٨هـ لمدة عام كامل في نفس الوظيفة.
- انتقل مديراً لجمرك أم رضمة على الحدود العراقية السعودية حتى نهاية عام ١٣٦٣هـ.
- عمل مفتشاً لجمارك الحدود، ثم أميناً للجمارك في قرية، ثم مساعداً لمدير مالية وأمين جمارك الحدود. خلال الفترة ما بين ١٣٦٤هـ وحتى عام ١٣٧٠هـ.
- عمل في جمرك جدة (مفتش أول) من عام ١٣٧٠هـ وحتى نهاية ١٣٧٨هـ.
- عمل رئيس مال وأمين جمارك الحدود الشمالية في عرعر خلال الفترة ما بين ١٣٧٩هـ حتى نهاية عام ١٣٩٨هـ، حيث أحيل للتقاعد بعد خدمة متواصلة تربو عن الأربعين عاماً.
- تفرغ بعد ذلك لمكتبته الخاصة التي تحتوي على مختارات من الكتب تربو على ٣ آلاف كتاب، ومن ثم أخذ يدون مذكراته التي بين يدي القارىء.